المعهد الخليفي للأبحاث المغربية
بيت المغرب

أزهار الرياض في أخبار عياض

تأليف

شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني

الجزء الثالث

ضبطه وحققه وعلق عليه

مصطفى السقا
المدرس بجامعة فؤاد الأول

ابراهيم الأبياري
المدرس بالمدارس الأميرية

عبد الحفيظ شلبي
المدرس بالمدارس الأميرية

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٦١ هـ — ١٩٤٢ م

المعهد الخليفي للأبحاث المغربية
بيت المغرب

أزهار الرياض في أخبار عياض

تأليف

شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني

الجزء الثالث

ضبطه وحققه وعلق عليه

مصطفى السقا
المدرس بجامعة فؤاد الأول

ابراهيم الأبياري
المدرس بالمدارس الأميرية

عبد الحفيظ شلبي
المدرس بالمدارس الأميرية

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٦١ هـ — ١٩٤٢ م

الأصول المعتمدة لأزهار الرياض

ذكرنا فى مقدمة الجزء الأول من هذه الطبعة بعض الأصول التى اعتمدنا عليها فى تحقيق الكتاب ، ونذكرها هنا فى مفتتح هذا الجزء تذكيرا للقراء ، وهذه رموزها :

(ط)

للدلالة على النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية (برقم ٢٠١٣ تاريخ) . وقد وصفناها فى مقدمة الجزء الأول من هذه الطبعة .

(ت)

للدلالة على القطعة المطبوعة من هذا الكتاب فى تونس سنة ١٣٢٢ هجرية ، وقد انتهت بانتهاء ترجمة لسان الدين بن الخطيب ، حيث انتهى الجزء الأول من طبعتنا هذه .

(م)

للدلالة على النسخة المخطوطة المحفوظة بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية (برقم ٧٩٤ تاريخ) ، وقد وصفناها فى مقدمة الجزء الأول .

(ص)

للدلالة على نسخة عثرنا عليها بعد الفراغ من طبع الجزء الأول ، وهى بخط مغربى واضح ، فى ٥٩٣ صفحة من القطع الكبير ، وبها عدة سقطات ، ونرجح أنها كتبت قبل سنة ١١٤١ هـ لوجود هذا التاريخ على آخر صفحة منها بخط بعض مالكيها .

تنبيه :

كل ما جاء فى هذا الجزء بين هاتين الحاصرتين [ ] من غير تنبيه عليه ، فهو من زيادات النسخ الأخرى على نسخة (ط) التى هى الأصل المعتمد للطبع .

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الثالث

من كتاب

أزهار الرياض، فى أخبار عياض

روضة الأقحوان

فى ذكر حاله فى المنشأ والعنفوان

كلام لابن عاصم فى أبيه يتمثل به المؤلف فى وصف عياض

أقول، ومِنَ الله أسألُ التأييدَ والعون، والوقايةَ والصَّون:

عقدْنا هذه الترجمة الثانية، لبيان حاله، فى حَلِّه وترحاله.

فاعلم أرشدَنا الله وإيّاك إلى طريق الرِّضوان، وجنَّب جميعَنا مسالكَ الذُّلِّ والهوان، أنَّ حالَ هذا الإمامِ لا تفِي بها عبارتى القاصرة، ولا[1] تُحيط إشارتى بمن عقَد الفضلُ عليه خناصرَه. وما أجدُ لبعض ذلك مِثالا إلّا بعضَ قول الرئيس [القاضى] الكاتب أبى يحيى بنِ عاصم، عند ما عرَّف بأبيه [صاحب التُّحفة]، وقال[2] فيه ما نصه:

مولاى الوالدُ يُكنَى أبا بكر، إنْ بسَطتُ القول، وعدَّدْتُ الطَّول، وأحكمتَ الأوصاف، وتوخَّيت الإنصاف؛ أنفدْتُ الطُّروس، وكنتُ كما

(١) فى م: «وكيف». (٢) فى س: «فقال».

يقول الناس في المثل : « مَنْ مَدَحَ العَروس (١) » . وإن أضربتُ عن ذلك صفحا ، وآثرت غضًّا [من البنوّة] وسفحا (٢) ، فلبئسما صنعتُ ، ولشدّ ما أمسكتُ المعروفَ ومنعتُ ، ولكم من حقوق الأبوّة أضعتُ ، ومن ثدي المقة رضعتُ ، ومن شيطانِ لغمصةِ الحقّ أطعتُ ، ولم أرد إلّا الإصلاحَ ما استطعتُ : وإن [٥٠٠]
توسّطتُ واقتصرتُ ، وأوجزتُ واختصرتُ ، فلا الحقّ نصرتُ ، ولا أفنان البلاغة هصرتُ ، ولا سبيلَ الرُّشد أبصرتُ ، ولا عن هوى الحسدة أقصرتُ .

هذا ؛ ولو أنّي أجهدتُ ألسنة البلاغة فجهدت ، وأيقظتُ عيون الإجادة فسهدتْ ، واستمررتُ مواقف محافظ على ما عهدتُ ، لما قرّرتُ من الفضل إلّا ما به الأعداء قد شهدتْ ، ولا استقصيتُ من المجد إلّا ما أوصتْ به الفئة الشانئة لخلفها الأبتر وعهدتْ ؛ فقد كان رحمه الله علم الكمال ، ورجل الحقيقة ، وقارًا لا يخفّ راسيه ، ولا يعرَى كاسيه ، وسكونا لا يُطرَق جانبُه ، ولا يُرهَب غالبُه ، وحلما لا تزِلّ حصاته ، ولا تُهمَل وصاته ، وانقباضا لا يتعدّى رسمُه ، ولا يتجاوز حكمُه ، ونزاهةً لا ترخص قيمتها ، ولا تلين عزيمتها ؛ وديانةً لا تحسر أذيالها ، ولا يشفّ سربالها ، وإدراكا لا يُفَلّ نصله ، ولا يُدرَك خصله ، وذهنا لا يخبو نورُه ، ولا ينبو مطروره (٣) ، وفهما لا يخفى فلقه ، ولا يُلحَق [طلقه ، وصدقا لا يُخلَف موعدُه ، ولا يأسن موردُه ، وحفظا لا يُسبَر غورُه ، ولا يذبل نورُه ، بل لا يُطرَق] (٤) بحرُه ، ولا يعطّل نحره ،

---

(١) هذا جزء من مثل ، ذكره على سبيل الاكتفاء ، لوضوح معناه وشهرته . وتمامه كما في مجمع الأمثال للميداني : « من يمدح العروس إلا أهلها » . قال : يضرب في اعتقاد الأقارب بعضهم ببعض ، وعجبهم بأنفسهم .

(٢) سفحا : مصدر سفح الماء إذا أراقه . يريد : إهدار البنوة وتناسي واجبها .

(٣) المطرور : المحدد . (٤) الزيادة عن الديباج المذهب لابن فرحون .

وتحصيلا لا يُفلِت قنيصُه ، ولا يسأمُ حريصُه ؛ بل لا يُحَلّ عِقالُه ، ولا يَصْدأ صِقاله ؛ وطلبًا لا تتّحد(١) فنونه ، ولا تتعيّن عيونُه ، بل لا تُحصَر معارفُه ، ولا تُقْصَر مصارفُه .

انتهى المقصود منه ، وبعضَ كلامه أردت لا كلَّه ، إذ هو اللائق بوصف القاضي أبي الفضل عِياض إمام المِلّة .

الملاحي في عياض

قال الملاحِيّ : كان القاضي عِياض — رحمه الله تعالى — بحرَ علم ، وهضْبة دِينٍ وحِلم ، أحكمَ قراءة كتاب الله [تعالى] بالسبْع ، وبلغ من معرفته الطُّول والعَرْض ، وبرّز في علم الحديث ، وحمل راية الرأي ، ورأس [في] الأصول ، وحَفِظ أسماء الرجال ، وتَقَبّ في علم النحو ، وقيّد اللغة ، وأشرف على مذاهب الفقهاء ، وأنحاء العلماء ، وأغراض الأدباء . [٥٠٦]

انتهى كلام الملاحِيّ .

لابنه أبي عبد الله فيه

وقال ابنه القاضي أبو عبد الله بن عياض رحمه الله :

نشأ أبي على عفّة وصيانة ، مَرْضِيَّ الحال ، محمودَ الأقوال والأفعال ، موصوفا بالنُّبل والفهم والحذق ، طالبا للعلم ، حريصا عليه ، مجتهدا فيه ، معظَّما عند الأشياخ من أهل العلم ، كثيرَ المجالسة لهم ، والاختلافِ إليهم ، إلى أن برَع أهلَ زمانه ، وساد جُمْلةَ أقرانِه ؛ فكان من حُفّاظ كتاب الله تعالى ، مع القراءة الحسنة ، والنغْمة العذبة ، والصوت الجَهير ، والحظ الوافر من تفسيره وجميع علومه ؛ وكان من أئمة الحديث في وقته ، أصوليًّا متكلّما ، فقيها ، حافظا للمسائل ، عاقدا للشروط ، بصيرا بالأحكام ، نحويًّا ، ريّانَ من الأدب ، شاعرا مُجيدا ، كاتبا بليغا ، خطيبا ، حافظا للغة والأخبار والتواريخ ، حسَنَ المجالس ،

(١) في الديباج المذهب لابن فرحون : « لا تنحد » .

نَبِيل النادره[١] حُلْو الدُّعابه ، صَبورا حليما ، جميل العِشْره ، جَوادا سَمْحا ، كثيرَ الصدقه ، دءوبا على العمل ، صَلِيبا فى الحق ، وبلغ فى التفنُّن فى العلوم ما هو مشهور ، وفى العالم معلوم .

لابنه وابن خاتمة فى ذكر شيوخه

قال ابنه وابن خاتمة فى مَزِيَّة المَرِيَّة :

وأخذ عن أشياخ بلده سَبْتة ، كالقاضى أبى عبد الله بن عيسى ، والخطيب أبى القاسم ، والفقيه أبى إسحاق بن الفاسى ، وغيرهم . ثم رحل إلى الأندلس ، وكان خروجه من سَبْتة يوم الثلاثاء منتصفَ جُمادَى الأولى سنةَ سبع وخمس مئة ، فوصل إلى قرطبةَ يومَ الثلاثاء مستهلَّ جُمادَى الآخرة بعدها[٢] ، فأخذ بها عن ابن عتّاب ، وابن حَمْدِين ، وابن الحاجّ ، وابن رُشْد ، وأبى الحسين بن سراج ، وأبى الحسن بن مُغِيث ، وأبى القاسم بن النَّحاس ، وأبى بحر الأسدىّ ، [٤٠٠٧]

وأبى القاسم بن بَقِىّ ، وأبى الوليد هشام بن أحمد بن العَوّاد ، وغيرهم من أعلام قرطبة . ثم خرج منها إلى مُرْسِية يومَ الاثنين لخمسٍ بَقِين من المحرم ، سنة ثمان من التاريخ ، فوصل مُرْسِيَةَ يومَ الثلاثاء الثالثَ من صفر بعده .

كذا قال ولدُه ، وهو أعْرَف .

وقال ابن خاتمة فى مَزِيَّة المَرِيَّة : إنه وصل مُرْسِية فى غُرَّة صفر ، فوجد الحافظ أبا علىّ الصَّدَفِىّ مختفيا — قال ابن خاتمة : وكان اختفى قبل ذلك بأيام ، لنَبْذِه خُطَّةَ القضاء من غير أن يُعفَى — ووجد الرَّحّالينَ إليه قد نفِدَت نفقات بعضهم ، ومنهم من ابتدأ كتابا لم يُتِمّه ، فأخذ أكثرُهم فى الرجوع إلى مواطنهم ، وتربّص بعضهم ، فمكث هو بقيّةَ صفرٍ وشهرَ ربيع الأول لا يَقَعُ له على خبر ، سِوَى الظنّ بكونه هنالك ، وقابلَ أثناء ذلك بأصوله ، وكتب منها

(١) فى الأصول : « النادر » .
(٢) فى ط : « بعده » .

ما أمكن ، على يد خاصّةٍ من أهله ؛ ولا يُشَكّ أنّ تصرّفَه فى ذلك لم يكن إلاّ بأمره(١) ، إلى أن وصل كتابُ قاضى الجماعة أبى محمد بن منصور ، بِحَلّ القاضى أبى علىٍّ عن القضاء .

قال ابنه : ووصـل كتابه أيضا إلى أبى مُعْلِما له بذلك ، إذ كان يكرُم عليه ، وعَلِم برحلته إليه ، فخرج أبو علىٍّ من اختفائه ، وجلس للتسميع ، فسمع عليه كثيرا ، ولازمه ، وكان له به اختصاصٌ ، فحصل له سماع(٢) كثير ، فى أمد يسير .

قال ابن خاتمة : سمع عليه الصحيحين ، والمؤتلِف والمختلف ، ومُشْتَبِه النِّسبة لعبد الغنى(٣) ، والشِّهابَ(٤) للقُضاعىّ ، وغيرَ ذلك ؛ وكتب عنهُ فوائدَ كثيرة ، وعارض بأصوله ، وأجاز له [جميع رواياته] .

قال ابنه رحمه الله : حكى أبى أبو الفضل عِياض رحمـه الله أنّ القاضىَ أبا على الصَّدَفِىَّ رحمه الله قال له : لولا أن الله يسَّرَ خروجى بلُطْفه ، لـكنتُ عزَمت(٥) أن أُشعِرَك بموضع يقع عليه الاختيارُ من بلاد الأندلس ، لا يُؤْبَهُ لـكَوْنى فيه ، فتدخُلَ إليه ، وأخرُجَ مختفيا إليه بأصولى ، فتجدَ ما ترغب ، [٥٠٨]

لمـا كان فى نفسى من تعطيل رحلتك ، وإخفاق رغبتك .

والقىَ فى رحلته هذه جماعةً من أعلام الأندلس ، وأجازه أبو علىّ الجَيّانى(٦)

---

(١) يريد : بأمر أبى على الصدفى . (٢) فى م ، س : « مسموع » .

(٣) هو الحافظ عبد الغنى بن سعيد الأزدى القدسى المتوفى سنة ٤٠٩ هـ .

(٤) هو كتاب الشهاب ، فى المواعظ والآداب ، فى علم الحديث . ذكره القلقشندى فى صبح الأعشى ، عند الكلام على أنساب قضاعة ، ونسبه للقضاعى المصرى المتوفى سنة ٤٥٤ هـ . (٥) فى ط : « لزمت » .

(٦) هو الحسين بن محمد بن أحمد الغسانى المعروف بالجيانى توفى سنة ٤٩٨ هـ .

وشُرَيح وابنُ [(١)] شـِبْرين ، وغيرُهم من أعلام غرب الأندلس ؛ وأجازه أيضا أبو جعفر بن بشتغير ، وابن الأدقر ، وأبو زيد بن منتال ، وغيره من أعلام شرق الأندلس .

قال ابن خاتمة :

وفى رحلته هذه دخل المَرِيّة ، وبها لقيه القاضى أبو جعفر بن مَضاء .

قال ابنه : ووصل بلدَه بعد هذه الرحلة ليلة السبت سابعَ جمادى الآخرَة سنة ثمان وخمس مئة ، وأجلسه أهل بلده للمناظرة عليه فى المدوّنة ، وهو ابن اثنين وثلاثين عاما ، و بعـد ذلك بيسير أُجْلِسَ للشُّورَى ، ثم ولِيَ القضاء عام خمسة عشر وخمس مئة ، لثلاثٍ بقِينَ من صَفَر ، فسار فيها أحسن سِيرة ، محمودَ الطريقة ، مشكورَ الحالة ، أقام جميع الحدود على ضروبها ، واختلافِ أنواعها ، وبنى الزيادة الغربيّة فى جامع سَبتة ، التى كمُل بها جمالُه ، وبنى فى جبل المينا الرابطة [(٢)] المشهورة ، إلى غير ذلك من الآثار المحمودة ، والمساعى المرضيّة ، فعظُم جاهُه ، وبَعُد صيتُه .

ثم نُقِل إلى غَرناطة ، ووصل إليه الـكتابُ بذلك فى أول يوم [من] صفر عامَ أحَد وثلاثين وخمسٍ مئة ، فنهض إليها ، وتقلد خُطَّة قضائها ، على المُعْتاد من شيمته السنيّه ، وأخلاقِه المرضيّه ، مشكورا عند جميع الناس ، [(٣)] لـكنّ تاشَفين ضاق به ذَرعُه ، وغَصّ بمراقبته ، وصدّ أصحابه عن الباطل ، وخَدَمَته عن الظلم ، وتشريدهم عن الأعمال ، فسعى فى صرفه عن قضاء غرناطة ، فصُرِف بعد انفصاله عنها زائرا أهله ، وترك ابنَ أخيه الزاهد أبا عبد الله رحمه الله ، على الأحكام

(١) الـكلام من قوله : « شبرين » إلى قوله « الأندلس » : ساقط من نسخة ط .

(٢) يريد بالرابطة : الرباط ، وهو المـكان يرابط فيه المتعبدون .

(٣) الـكلام من قوله : « لـكن » إلى قوله : « الأحكام » : ساقط من نسخة ط .

وذلك فى رمضان المعظم ، عام اثنين وثلاثين وخمس مئة .

ثم وَلِى قضاء سَبتة ثانية ، فى آخر عام تسعة وثلاثين وخمس مئة ، قدّمه إبراهيمُ بن تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين ، فابتهج أهلُ بلده بذلك ، فسار فيهم السيرةَ التى عهدوا منه ، ثم بادر بالمسابقة إلى الدخول فى نظام الموحّدين ، والاعتصام بحبلهم المتين ، فأقرّه أميرُ المؤمنين ، أدام الله أمره ، على ما كان عليه ، وصرَف أمورَ بلده إليه ، وخاطبه بالتنويه ، وحظِى عنده ، وشكَرَ بِدارَه وسَبْقه . ثم رحل إليه ، فاجتمع به بمدينة سَلا ، عند توجهه إلى محاصرة مَرّاكُش ، فأوْسَع له ، وأجزلَ صِلته ، واقىَ منه برًّا تاما ، وإكراما عامّا ، وانصرف على أحسن حال ، إلى أن ثارت الفتنة . [٥٠٩

انتهى كلام ولده ، وسنذكر بقيته فى محلّه، إن شاء الله .

لابن القصير فى دخول عياض غرناطة

وقال الشيخ العلّامة أبو زيد عبد الرحمن الغرناطىّ ، المعروفُ بابن القصير ، رحمه الله : لمّا ورد علينا القاضى عِياض غَرناطة ، خرج الناسُ للقائه ، وبرّزوا تبريزا ما رأيت لأمير مؤمّر مثلَه ، وحَزَرْتُ أعيانَ البلد الذين خرجوا إليه رُكبانا(١) ، نيِّفا على مِئتى راكب ، ومن سَواد العامّة ما لا يُحصَى كثْرَةً ، وخرجتُ مع أبى رحمه الله [تعالى] فى جُمْلة من خرج ، فلَقِينا شخصا بادىَ السّياده ، مُنْبِئا عن اكتساب المعالى والإفاده . قال : وكان ورودُه علينا يوم الخميس لخمس بقين من ربيع الآخِر سنة ثلاثين وخمس مئة . انتهى .

وانظر قوله سنةَ ثلاثين مع ما تقدم لولده ، من أن ولايته قضاء غَرناطةَ سنة إحدى وثلاثين ، فلا أدرى أيُّهما أصوب ، إلا أن يقال إنّ أحدَها تحريفٌ من الناسخ . والله أعلم .

---

(١) كذا فى م ، س . وفى ط : « ركابا » .

ثم إنى رأيت فى الإحاطة ، أنه تولى قضاء غَرناطة عام أحد وثلاثين ، فتبين أن ذلك هو الصواب . ورأيتُ مثله فى غير موضع ، فبان أنه لا تحريفَ فيـه . ويبقى النظرُ فى الآخَر المنقول عن عبد الرحمن بن القصير ، وقد نقـله ابن جابر الوادى آشى عن عبد الرحمن المذكور كما حكيتهُ ، سنة ثلاثين ، فالله أعلم .

ثم قال عبد الرحمن المذكور : ولما استقرّ عنـدنا كان مثلَ التمْرة : كلما لِيكَت زادت حلاوه ، ولفظُه عذب فى كل ما صرّف من الكلام ، للنفس إليه تَتوّق وله طُلاوه ، وكان بَرًّا بلسانه ، جوادا ببنانه ، كثير التخشع فى صَلاته ، [٥١٠] مواصلا لصِلاته ، وقد جَمَعْنا(١) من سِيَره جُملا فى الكتاب الذى جمعنا فيـه مناقب من أدرَكنا ، من أعيان عصرنا ونُبهائه ، وذكرنا له ما يُفاخَر برونقـه وبهائه ؛ وكان مع براعته فى علوم الشريعة خطيبا ، فى تحبيره للخطب وفى لفظه ، ظاهرَ الخشوع عند التلاوة وفى لحظه ، سريع العَبْره ، مُديمـا للتفكّر والعِبره ، كاتبا إذا نَثَر ، ناظِما(٢) إذا شعَر .

انتهى . نقَله ابن جابر وغيرُ واحد كابن رُشَيْد .

وقال فى أوّله مانصه : قال أبو القاسم عبدُ الرحمن بنُ أحمد بن أحمد الأزدى : ولِيَ عندنا ببلادنا غَرناطة ، حرسها الله تعالى ، الفقيهُ الأجلّ ، الحافظُ الأحفل ، القاضى الأكرمُ الأفضل ، الإمامُ الخطيب المِصقع ، الأديب الأبْرَع ، أبوالفضل عياض . انتهى .

ونقلت من خط بعض تلامذة ابن رُشَيد ، وهو الفقيه محمد بن البرذَعِىّ ما نصه :

وعبد الرحمن هذا قد سألت عنه شيخَنا المذكور — يعنى ابنَ رُشيد — فقال

(١) فى م ، س : « بينا » . (٢) فى ط : « ناطقا » .

لى : لم يُعرّف به أحدٌ من أهل الصَّلات . قلت : ولا الملاحيُّ أيضا .

انتهى ببعض اختصار .

إنصاف القاضى عياض

وكان الإمام القاضى أبو الفضل عياض رحمه الله كثيرَ الإنصاف ؛ ومما يدل على إنصافه الحقّ(١) وتواضعه ، ما حكاه عبدُ الرحمن المذكورُ آنفا ، إذ قال : دخلتُ مجلس القاضى أبى الفضل عياض ، رحمه الله تعالى ، إذ كان قاضيا عندنا بغرناطة ، وبه جماعةٌ من الطلبة والأعيان ، يسمعون تأليفه المسمَّى بالشِّفا ؛ فلما وصل القارئ إلى هـذه الكلمات : « ومَنْ قَسَمَ به أقسط » ، قرأه ثُلاثيا ، وكذلك كان فى الأم(٢) التى كان يَقرأ فيها ، فقلت للقاضى ، وَصَلَ الله توفيقه : هذا لا يجوز فى هذا الموضع . فقال : ماتقول ؟ فقلتُ : إنما هو أقسط ،
[٥١١] لأن المراد فى هذا الموضع « عَدَلَ » ؛ فالفعل منه رباعىّ ، كما قال [الله] تعالى : « وَأَقسِطُوا إِنّ اللهَ يُحِبُّ المُقسِطِين » . وأما قَسَط فإنما هو « جارَ » ، كما قال تعالى : « وَأَمَّا القَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا » . فتعجَّبَ ، وقال لمن حَضَر : إن هـذا الـكتابَ قد قرأه علىَّ من العالَم ما لا يُحصَى كثرة ، ولا أقِف على مُنتهى أعدادهم ، وما تنبّه أحدٌ لهذه اللفظة . وفاهَ بلسان الإنصاف ، وشَكرَ بفضله ، وأبلغَ ببراعة علمه فى تحسين المناقب والأوصاف ، وأورثنى ذلك عنده كرامة [كبيرة] ومبرّة ، ولم(٣) تزل مستمرّة ، وصنع من المكارم أجزلَ صنيع وأبرّه ؛ رحمه الله من طَوْد علم ، وهَضْبة فضل وحِلم ، وتغمّده وإيّانا برحمته ، ونفعه كما نفع(٤) فى الدنيا والآخرة بعلمه . انتهى .

---

(١) كذا فى ط ، س ، وفى م : « انصافه بالحق » .

(٢) فى م : « الإمام » .

(٣) فى م : « لم » ، مجردة من واو العطف .

(٤) كذا فى س . وفى ط ، م : « فعل » .

قلت : وقد رأيت نسخةً من الشفا بخط هذا الشيخ عبد الرحمن المذكور ، وحكى هذه المسألةَ فى الطُّرة[١] بخطه ، كما نقلته[٢] حرفا حرفا ، إلا قوله : « المسمَّى بالشفا » فإنه لم يقله . وألفيت فى آخر هذه النسخة بخط الفقيه محمد بن البردعيّ المتقدم الذكر ، تلميذ ابن رُشَيد الفهريّ ، عند ما ذكر هذه الحكاية ، ما نصه :

التعريف بابن النصير

وعبدُ الرحمن هذا هو كاتب هذه النسخة ، وقد عاناها أحسنَ مُعاناة ، إلا الكرّاسةَ الأخيرة ، فإنها ليست بخطه ؛ وقد ذكر هذه الحكايةَ فى بعض طُرَره المتيامرة ، حيث وقعتِ اللفظةُ المذكورة منه ، وأثبتها هنالك بخطه ، كما أثبتَ غيرَها ، مما يدلُّ على علمه وتفننه فى المعارف . وقد سألتُ عنه شيخنا أبا عبد الله المذكور — يعنى ابنَ رُشيد — فقال لى : لم يُعرِّف به أحدٌ من أهل الصِّلات . قلت : ولا الملاحيّ أيضا .

انتهى ما ألفيته بخط ابن البَرْدعيّ ، وقد نقلت بعضه قبل هذا بأسطر ، وأعدتُه هنا لارتباط بعضه ببعض ، والله الموفق .

[٥١٢] قلت : ما ذكره ابنُ رُشيد وتلميذُه ابن البَرْدعيّ ، من أنّ عبدَ الرحمن المذكور لم يُعرِّف به أحدٌ من أهل الصِّلات ، قصورٌ واضح . وكذا قولُ ابن البردعيّ إن الملاحيّ لم يذكره ، فقد ذكره الملاحيُّ وأبو جعفر بن الزُّبير فى صلة الصلة ، وكنّاه أبا جعفر ، لا أبا القاسم ، ولا أبا زيد ، كما كنّاه ابنُ جابر وغيره مما ذكرنا[٣] .

---

(١) الطرة : حاشية الكتاب .

(٢) كذا فى ط ، م . وفى س : « نقلتها » .

(٣) هذه العبارة : « وغيره مما ذكرنا » : زيادة عن س .

ونصُّ ما فى صلة ابن الزُّبير : عبدُ الرحمن بن أحمد بن أحمد بن محمد الأزْدِىّ(١) ، من أهل غَرناطة ، يكنى أبا جعفر ، ويُعرفُ بابن القصير ، من بيت شُورَى وجلالة ؛ رَوَى عن أبيه القاضى أبى الحسن أحمد بن أحمد ، وعن عمّه أبى مروانَ عبد الملك بن أحمد ، وعن أبَوَىِ الحسن بن دُرّى وابن الباذَش ، وأبى الوليد بن رُشْد ، وأبى إسحاق إبراهيم بن رشيق الطُّلَيطلىّ ، نزيلِ وادى آش ، وأبى بكر بن العربىّ ، وأبى الحسن بن موهب ، وأبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية ، وأبى عبد الله بن أبى الخصال ، وأبى الحسن يونس بن مَغيث ، وأبى القاسم بن وَرْد ، وأبى بكر بن مسعود الخُشَنى ، وأبى القاسم بن بقىّ ، وأبى الفضل عياض بن موسى وغيرهم ، وكان فقيها مشاورا ، رفيعَ القدر ، جليلا بارع الأدب ، عارفا بالوثيقة ، نقّادا لها ، صاحبَ رواية ودِراية ، تقلب ببلاد الأندلس ، وأخذ الناس عنه بمُرْسية وغيرِها ، ورحل إلى مدينة فاس ، فأخذ الناسُ عنه [بها] ، ثم رحل إلى إفريقيّة ، وولى قضاء تَقْيُوس ، ببلاد الجَريد ، بمقربة من تَوْزَر ، ثم ركب البحر قاصدا الحج ، فتوُفّى شهيدا فى البحر ، قتلته الروم بمُرْسَى تونس ، مع جماعة من المسلمين ، صُبْحَ يومِ الأحد ، فى العَشْر الوَسَط من شهر ربيع الآخِر ، سنة ست وسبعين وخمس مئة .

[٥١٣] وله تواليفُ وخطب ورسائل ومَقامات ، وجمَعَ مناقب من أدرَكهُ من أهل عصره ، واختصر كتاب الحِيَل لابن خاقان الأصبهانى ، وغير ذلك ، وألّف برنامجا يضم رواياته . ذكره أبو القاسم بن الملجوم فى برنامجه ، وروى عنه ، واستوفى خبره ؛ وذكره الملاحىّ ، وذكره الشيخُ فى الذيل ، فيمن اسمه أحمد ،

(١) فى الديباج لابن فرحون : « عبد الرحمن بن أحمد بن محمد ، ويعرف بابن القصير » .

وغلطه فى ذلك الكُنية ، ثم ذكره فيمن اسمه عبدُ الرحمن ، وظن أنهما رجلان .
انتهى كلام صاحب الصلة .

قلت : ولعلّ الحاملَ لابن رُشيد وتلميذه على هـذا القصور ، اعتمادُهما على الكُنْية ، التى هى أبو زيد وأبو القاسم ، كما سبق ، وقد عرفتَ أنّ صاحبَ الصلة قد كنّاه بأبى جعفر فقط ، فلعلهما لم يقفا على ما ذكرناه من التعريف به أصلا ، أو وَقفا على أوّله ، فحين رأيا صاحبَ الصلة كنّاه بأبى جعفر ، ظنا أنه غيرُه ، ولم يُمْعِنا النظر فى الترجمة إلى آخرها . وإلى الله مَرْجِـع العلم .

ثم إن الغلط فى أمره وقع قبلهما لصاحب الذيل ، كما قاله ابن الأبير . والله سبحانه أعلم بالصواب .

[قلت] : وقد ذكرتُ فى هـذا الموضوع بعضَ فوائد عبـدِ الرحمن المذكور ، المكتوبة بهامش الشـفا ، الذى بخطّه ، فراجعه فى ترجمة [تآليف] عياض ، عند ذكر كتاب الشفا .

لابن بشكوال فى عياض

وقال الفقيه الأجلّ ، الراويةُ العدل ، الزاهد الصالح ، أبو القاسم خَلَف بن عبد الملك بن بَشْـكُوال رحمه الله ، فى ذكر القاضى أبى الفضلِ عياضٍ فى صلته ، ما نصه :

عياضُ بنُ موسى بن عياض اليحصُبِىّ ، من أهل سَبتة ، يُكنى أبا الفضل ، قدِم الأندلسَ طالبا للعلم ، وأخذ بقُرطبة عن القاضى أبى عبد الله محمد بن على بن حَمْدين ، وأبى الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج ، وعن شيخنا أبى محمد بن [٥١٤]
عتّاب ، وغيرهم ، وأجازله أبو على الغسّانى ما رواه ، وأخذ بالمشرق [١] عن القاضى أبى علىّ حسين بن محمد الصَّدَفِىّ كثيرا ، وعن غيره ، وعُنِى بلقاء الشيوخ ، والأخذ

---

(١) يريد بالمشرق هنا : « شرق الأندلس » .

عنهم ، وجمع من الحديث كثيرا ، وله عنايةٌ كبيرة به ، واهتمامٌ بجمعه وتقييده ، وهو من أهل التفنّن فى العلم ، والذكاء واليقظة والفهم ؛ واستُقْضِىَ ببلده مدة طويلة ، فحُمِدت سيرته فيها ، ثم نُقِلَ عنها إلى قضاء غَرناطة ، فلم يطُل أمدُه بها ، وقدِم علينا قرطبةَ فى ربيع الآخِر سنة إحدى وثلاثين وخمس مئة ، وأخذنا عنه بعضَ ما عنده . وسمعته يقول : سمعت القاضى أبا على حسين بن محمد الصَّدَفِىّ يقول : سمعت الإمام أبا محمد التميمىّ ببغداد يقول : ما لكم تأخذون العلم عنّا ، وتستفيدونه منا ، ثم لا تترحّمون علينا ! فرحم الله جميع من أخذنا عنه ، من شيوخنا وغيرهم .

ثم كتب [إلىّ] القاضى أبو الفضل بخطه ، فذكر أنه وُلِد فى منتصف شعبان من سنة [ستٍّ] وسبعين وأربع مئة ؛ وتُوُفّى رحمه الله بمَرّاكُش ، مُغرَّبا عن وطنه ، وَسْط سنة أربع وأربعين وخمس مئة . انتهى كلام ابن بَشْكُوال فى الصّلة ؛ وذكرته كلّه وإن كان بعضُه قد تقدم ما يُغنى عنه ، وبعضه يأتى ، لأنه كلامٌ ارتبط بعضُه ببعض .

للنباهى فى عياض — ورأيت فى كتاب « المَرْقَبة العُليا ، فى الأقضية[1] والفُتْيا » للقاضى الخطيب أبى الحسن علىّ بن عبد الله بن الحسن النّباهىّ الغَرناطىّ ، رحمه الله ، بعد أن ذكر كلامَ صاحبِ الصّلة السابق ، ما نصه :

قلت : وسكن القاضى أبو الفضل هذا بِمالَقة مدة ، وتموّل بها أملاكا ، وأصلُه من مدينة بَسْطة ؛ ذكر ذلك حفيده ، فى الجزء الذى صنّفه فى التعريف [٥١٥ به وبتواليفه ، وبعض أخباره وخطبه ، تغمّده الله وإيانا برحمته ، انتهى .

(١) تقدم اسم هذا الكتاب فى الجزء الثانى (ص ٧ من هذه الطبعة) « المرقبة العليا ، فى مسائل القضاء والفتيا » .

لابن خاقان فى عياض

وقال صاحب المطمح والقلائد فى وصف القاضى عياض ما نصه :

« جاء على قَدَر ، وسَبَق إلى نيل المعالى وابْتَدَر ، فاستيقظ لها والناسُ نِيام ، وورد ماءها وهم حِيام ؛ وجَلّى من المعارف ما أشكل ، وأقدم على ما أحْجَم عنه سواه ونكل ، فتحلّتْ به للعلوم نُحور ، وتجلّت له منها حُور ، « كأنّهُنَّ اليَاقُوتُ وَالمرْجَانُ » ، « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ » قد أَلْحَفَتْه الأَصالةُ رداءها ، وسقَته أنداءها ، وأَلْقَتْ إليه الرياسة مَقاليدَها ، وملّكته طَرِيفَها وتَليدَها ، فبذّ على فَتائه الكُهول ، سُكونا وحِلما ، وسَبقهم معرفة وعلما ، وأَزْرَتْ محاسنه بالبدر اللَّيّاح ، وسَرَت فضائله مَسْرَى الرِّياح ، فتشوّقت لملاه الأقطار ، ووكَفَتْ تحكِي نَداهُ الأَمْطار ؛ وهو على اعتنائه بعلوم الشريعة ، واختصاصه بهذه الرُّتبة الرفيعة ، يُعنَى بإقامة أَوَدِ الأَدَب ، ويَنْسِلُ إليه أربابُه من كل حَدَب » .

تعقيب لابن جابر على كلام ابن خاقان

قال ابن جابر : هكذا وصفه صاحب المطمَح . انتهى .

وهذا يدل على أن [بعض] ألفاظ المطمح [كألفاظ القلائد ، لأن هذا الذى نقله ابن جابر عن المطمح] ، هو بعينه فى قلائد العقيان ، وزاد بعدَ قوله : « من كل حَدَب » ما نصه : [إلى] سكون ووقار كما رَسَا الطَّوْد ، وجمال مجالس كما حَلِيَت الخَوْد ؛ وعَفافٍ وصَوْن ، ما عَلِما فسادا بعد الكَوْن ؛ وبهاء ، لو رأته الشمس ما باهت بأضواء ؛ وخَفَر ، لو كان للصُّبح ما لاح وأسفر . انتهى .

تعقيب المؤلف على المطمح ومؤلفه

وقد رأيت بعضَ أوراق من المطمح ، بخزانة الكتب من الجامع الأعظم بتلمسان ، حرسَها الله ، أعنى الخزانة الوُسْطى ، التى فوق محراب الصَّحْن ، وهى التى يجلس[١] بها الأشراف ، أحفادُ الشيخ الإمام ، عَلَم الأعلام ، [٥١٦]

(١) فى ط ، م : « ينزل » .

سيدى أبى عبد الله الشريف التلمسانىّ ، رحمه الله ، شارح جُمَل الخُونَجِى ، وصاحب التآليف الشهيرة ، المبرّز على علماء المعقول والمنقول ، وعادةُ هؤلاء الأشراف أن يجلسوا بها يوم الجمعة ، بعد الصلاة وقبلها ، فوجدت ألفاظه — أعنى المطمح — كألفاظ القلائد ، من غير فرق ، غيرَ أنّه فى المطمح ذَكَرَ رجالا لم يذكُرهم فى القلائد ، فظهر من مقتضَى ذلك أنّ المطمح إنما زادَ على القلائد فى الرجال ، [وأما] ما اتفقا عليه فلفظهما فيه واحد .

وذكر غير واحد من الأئمة أن المَطْمَح ثلاثُ نسخ : كُبرَى ، ووُسْطَى ، وصُغْرَى . وأصل تسميته : «مطمح الأنفس ، ومَسْرَح التأنُّس ، [1] فى ذكر أعيان الأندلس [1] » .

ولعلنا نذكر فيما يأتى من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ، التعريفَ بصاحب المطمح والقلائد المذكور ، وهو الفتح بن عُبَيد الله ، الكاتب المعروف بابن خاقان ، فى موضع هو أنسب من هذا ، والله سبحانه المستعان ، نسألُه سبحانه أن ييسّر علينا كل مرام ، ويتغمّد بالعفو ما ارتكبنا [2] من إصرار وإجرام [3] ، بجاه أشرف الخلق ، ووسيلتهم إلى الحقّ ، سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم ، عليه من الله أفضلُ صلواته ، وأزكى سلامه ، وعلى جميع إخوانه المرسلين والنبيئين ، وعلى آله ، وأصحابه ، وأشياعه [4] ، وأنصاره ، وأزواجه ، وذريته ، وذوى محبته ، وأهل بيته الطاهرين [5] .

حسن إلقاء عياض وبعض تلامذته

وكان القاضى أبو الفضل عياض — رحمه الله — حسنَ الإلقاء المسائل ،

(١ — ١) فى ابن خلكان والنسخة المطبوعة فى مصر : « فى ملح أهل الأندلس » .
(٢) فى م : « ويتغمدنا بالعفو عما اقترفناه » .
(٣) فى م ، س : « واجترام » .
(٤) كذا فى ط ، س . وفى م : « وأتباعه » .
(٥) فى ط : « الطاهر » .

كثير التحرير للمنقول[1] ، وقد انتفع به من العلماء مَن[2] لا يُحصى ، كأبى زيد عبد الرحمن بن القَصِير ، المتقدم الذكر .

وممن أخذ عنه وروَى عنه القاضى الشهير أبو جعفر ، أحمد بن عبد الرحمن بن مَضاء اللخمىّ رحمه الله ، وقد قدّمنا أنه لقيه بالمريّة . ٥١٧]

وقاره وسمته — وكان القاضى أبو الفضل رحمه الله وقورا ، ذا سَمتٍ حسن ، وهَدْيٍ مُستَحسَن ، وربما تقع منه دُعابة ، كما تصدر من الفضلاء أمثاله .

ومن دعابته ما حكاه ولده ، قال :

قال بعض أصحابنا : صنعت أبياتا تغزلت فيها ، والتفتُّ إلى أبيك رضى الله عنه ، ثم اجتمع بى ، فاستنشدنى إيّاها ، فوجَمْت ، فعزمَ علىّ ، فأنشدته :

أيا مُكثِرًا صدّى ولم آتِ جفوةً ... وما أنا عن فعلِ الجفاء براضى

سأشكو الذى تُوليه من سوء عِشرة ... إلى حَكَم[3] الدنيا وأعدلِ قاضى

ولا حكمٌ بينى وبينكَ أرتضى ... قضاياه فى الدنيا سوى ابنِ عياض

قال : فلما فرغت حسّن وقال : ومتى عرفتنى قوّادا يا فلان ، على طريق المداعبة ، رحمه الله ، ورضى عنه وأرضاه .

عنايته بالتقييد — وكان القاضى أبو الفضل رحمه الله كثيرَ الاعتناء بالتقييد والتحصيل .

قال ابن خاتمة : كان لا يُبلَغ شأوُه ، ولا يُدرَكُ مَداه ، فى العناية بصناعة الحديث ، وتقييد الآثار ، وخدمة العلم ، مع حسن التفنن[4] فيه ، والتصرّفِ الكامل فى فهم معانيه ، إلى اضطلاعه بالآداب ، وتحققِه بالنظم والنثر ، ومهارته فى الفقه ، ومشاركته فى اللغة والعربية .

---

(١) فى س ، م : « للمنقول » . (٢) فى ط ، س : « ما » .
(٣) فى ط ، م : « أحكم » . (٤) كذا فى ط ، س . وفى م : « اليقين » .

وبالجملة فكان جمالَ العصر ، ومَفخرَ الأفق ، ويَنبوعَ المعرفة ، ومَعدِنَ الإفادة ، وإذا عُدَّت رجالاتُ المغرب ، فضلا عن الأندلس ، حُسِب فيهم صدرا . انتهى . وإنما يَعرِفُ الفضلَ لأهل الفضل [ذَوُوه] أهلُ الفضل .

تعظيمه للسنة

وكان رحمه الله مُعظِّما للسُّنَّة ، عالما عاملا ، خاشعا قانتا ، قوالا للحق ، لا يخاف في الله تعالى لومة لائم . وكان رحمه الله معتنيا بضبط الألفاظ النبوية [٥١٨

على اختلاف طرقها ، وكتابه « المشارق » أزكى شاهد على ذلك . ولقد كان بعض من لقيته من علماء عصرنا وعلمائه يقول : لا أحتاج في كتب الحديث إلا المشارق ، فإذا كان عندي ، فلا أبالي بما فقدت منها . أو كلاما هذا معناه . وسنذكر إن شاء الله تعالى بعضَ ما قيل في كتاب المشارق ، في محله من هذا الموضوع .

ذكاؤه ومواهبه

وكان رحمه الله حاضرَ الجواب ، حادَّ الذهن ، متوقِّدَ الذكاء ، جامعا للفنون ، آخذا منها بالحظ الأوفر .

حسن خطه

وكان القاضي أبو الفضل عياض رحمه الله بارعَ الخطِّ المغربيّ ، وقد وقفت على خطه رحمه الله ، فرأيت خطا رائقا ، وكان سريعَ الوضع ؛ ويدلُّ على ذلك كثرةُ أوضاعه ، وكتبَ مع ذلك كتبا كثيرة بيده .

حسن عبارته

وكان رحمه الله حسنَ العبارة ، لطيفَ الإشارة ، وتآليفه شاهدة بذلك ، وله في الفقه المالكيّ اليدُ الطُّولى ، وعليه المعوَّل في حلّ ألفاظ « المدوّنة » ، وضبطِ مشكلاتها ، وتحرير رواياتها ، وتسمية رُواتها . وتحقيقُ ذلك أنه جمعَ بين شرح المعاني وإيضاحها ، وضبط الألفاظ ، وذِكْر من رواها من الحُفّاظ .

[صناعة التأليف بالمغرب]

ولقد وقفتُ في بعض التعاليق لأحد المتأخرين على كلام في صناعة

التآليف ، رأيت أن[١] أجلبه جميعه ، لما فيه من ذكر بلاغة القاضى عياض ، ونصه :

تدريس المدونة اصطلاحان

وقد كان للقدماء ، رضى الله عنهم ، فى تدريس المدوّنة اصطلاحان : اصطلاحٌ عِراقى ، واصطلاح قَرَوِىّ . فأهل العراق جعلوا فى مُصطلحهم مسائلَ المدوّنة كالأساس ، و بنوْا عليها فصول المذهب بالأدلة والقياس ، ولم يعرّجوا على الكتاب بتصحيح الروايات ، ومناقشة الألفاظ ، وَدَأْبهم [١٩ القصدُ إلى إفراد المسائل ، وتحريرِ الدلائل ، على رسْم الجَدَليين ، وأهلِ النظر من الأُصوليين . وأما الاصطلاح القَروى فهو البحث عن ألفاظ الكتاب ، وتحقيق ما احتوت عليه بواطنُ الأبواب ، وتصحيح الرواياتِ ، و بيان وجوه الاحتمالات ، والتنبيه على ما فى الكلام من اضطراب الجواب ، واختلاف المقالات ، مع ما أضاف إلى ذلك من تتبُّع الآثار ، وترتيب أساليب الأخبار ، وضبط الحروف ، على حسب ما وقع فى السماع ، وافقَ ذلك عواملَ الإعراب أو خالفها .

فهذه كانت سيرةَ القوْم رضوانُ الله عليهم ، إلى أن عمّ التكاسلُ ، وصار رَسْمُ العلم كالماحل . وتحقق ما قلناه تصرف التونسىّ[٢] فى تعاليقه اللطيفة المنزَع ، واللخمى[٣] فى تبصرته البارعة الختام والمطلَع ، إلى غير ذلك من تآليف القرويين وتعاليق المحققين ، من شيوخ الإفريقيّين .

فضل عياض فى التأليف

وقد سلك القاضى عياض فى تنبيهاته مسلكا جمع فيه بين الطريقتين

(١) فى م : « وأنا » بدل : « رأيت أن » .
(٢) هو أبو القاسم بن محرز القيروانى ، كان فقيها نظارا وله تعليق على المدونة . توفى فى الخمسين والأربع مئة (انظر مقدمة ابن خلدون فى الكلام على علم الفقه وابن فرحون فى الديباج) .
(٣) هو أبو على الحسن بن محمد اللخمى ، له تعليق كبير على المدونة سماه التبصرة . توفى سنة ثمان وتسعين وأربع مئة (عن الديباج) .

والمذهبين ، وذلك لقوّة عارضته ، نفعه الله بذلك ، وأعاد علينا من بركاته . انتهى .

موازنة بين المشارقة والأندلسيين

وقال في هذا التعليق في موضع آخر ما نصّه :

وأغلبُ تآليف المشارقة الإيجاز ، لتمكن ملكتهم من التصرف ، مثلُ كتاب ابن الحاجب ، في فروعه وفي أصوله ، والخُونَجِيّ في المنطق ، وغيرهما ، وإن كان الغالب على جُلّ أئمة المشارقة الإطناب ، مثل الغزّالىّ والإمام الفخر وغيرهما .

وأما أهلُ الأندلس فالغالب عليهم فَيْهَقَةُ البلاغة ، في حسن رَصْف الكلام وانتقائه ، مثل عبارة القاضي عياض في تآليفه ، التي لا تسمح القرائح بالإتيان بمثلها ، والنّسج على منوالها . [٥٢٠]

وانتهت صناعة التأليف في علماء المغرب ، على صناعة أهل المشرق ، لشيخ شيوخ العلماء في وقته ، ابن البناء الأزدى المرّاكشى[(١)] ، في جميع تصانيفه ، أوجب ذلك براءةُ نسبه من البداوة ، وملكتُه في التصرف ، التي هي نتيجة تحصيله .

التأخرون من علماء المغرب

ولم يظهر من علماء فاس شيء من التآليف المرتجلة ولا الملخصة ، إلا ما كان سبيله النسج بهما على ما هي عليه فقط ، كما[(٢)] في تأليف المدوّنة المنسوبة للشيخ [أبي الحسن[(٣)]] ، وهي التي اعتنى بها طلبته ، وبنَوْها على ما قيّدوا عنه من فوائد المجلس ، وذلك كلُّه في العشرة الرابعة من المئة الثامنة . ثم تلاهم طَلَبة

---

(١) هو أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي ، أبو العباس المراكشي ، المشهور بابن البناء . ولد سنة ٦٥٤ هـ ، وتوفي ببلده سنة ٧٢١ هـ . (عن الديباج لابن فرحون) .

(٢) في الأصول : « لا » ولا يستقيم بها المعنى .

(٣) هو علي بن محمد بن عبد الحق الزرويلي المعروف بالصغير (بصيغة التصغير) . توفي عام ٧١٩ هـ . (عن الديباج) .

الشيخ الجزُولى[١] على الرسالة ، وتعدّدت تلك التقاييد أيضا ، ونُسِبَتْ للشيخ ، وإنما له فيها ما قيّد عنه فى المجلس . واختلف نظر الشيخين بحسب تعدد السّلكات[٢] ، فقيّد كل طالب ما سمع . فلا يقال فى هذه تآليف ، لكونها منسوخة من أماكن مَعْزوّة .

موازنة بين التونسيين والفاسيين

والعلة فى ذلك كونُ صناعة التعليم ، وملكة التلقّى ، لم تبلغ فاسا كما هى بمدينة تونس ، اتصلت إليهم من الإمام المازَرى[٣] ، كما تلقاها عن الشيخ اللخمىّ ، وتلقاها اللخمى عن حُذّاق القَرَويّين ، وانتقلت ملكة هذا التعليم إلى الشيخ ابن عبد السّلام[٤] ، مفتى البلاد الإفريقية وأصقاعها ، المشهود له برُتَب التبريز والإمامة ؛ واستقرت تلك الملكة فى تلميذه ابن عرَفة[٥] رحمه الله ، وفى الشيخ ابن الامام التلمسانى[٦] . ونَجُب من طلبة ابن الإمام تلميذُه الإمام أبو عبد الله الشريف[٧] ، شارح الجُمَل ، وانتهت طريقته لولده أبى يحيى [٥٢١]

(١) هو أبو زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولى صاحب تقاييد الرسالة المشهورة ، الفقيه الحافظ . توفى سنة ٧٤١ هـ (عن الابتهاج لأحمد بابا) .

(٢) يراد بالسلكات عند المغاربة : المرات التى يقرئ فيها الشيخ تلاميذه الكتاب ؛ المرة : سلكة .

(٣) هو محمد بن على بن عمر التميمى المازرى الصقلى . توفى (سنة ٥٣٦) عن ثلاث وثمانين سنة .

(٤) هو محمد بن عبد السلام بن يوسف بن كثير قاضى الجماعة بتونس ؛ له تقاييد ، وشرح مختصر ابن الحاجب شرحا حسنا . ولد سنة ٦٧٦ هـ وتوفى سنة ٧٤٩ هـ . (عن الديباج لابن فرحون) .

(٥) هو محمد بن محمد بن عرفة الورغمى . ولد سنة ٧١٦ . وتوفى سنة ٨٠٣ هـ . وله تقييده الكبير فى مذهب مالك فى نحو عشرة أسفار .

(٦) للامام أبى زيد محمد بن عبد الله التلمسانى ابنان ، هما أبو زيد عبد الرحمن توفى سنة ٧٤٣ ، وأبو موسى عيسى ، توفى سنة ٧٤٩ هـ ، وهو المراد هنا (انظر الحاشية رقم (٢ ص ٢٦) من هذا الجزء .

(٧) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمسانى . ولد سنة ٧١٠ وتوفى سنة ٧٧١ هـ .

المفسّر العالم . واستقرت أيضا طريقة ابن الإمام ، في تلميذه سعيد بن محمد العُقْباني[1] ، وانتهى ذلك إلى ولده شيخنا أبي الفضل قاسم العُقْباني[2] ، رحمهم الله جميعا .

قال ابن خَلْدُون ، ولمن ذكرنا من أهل المئة الثامنة انتهت طريقةُ التعليم ، ومَلَكةُ التلقّي . يعني بذلك الشريف والعُقْباني رحمهما الله ، قال : لكونهما ألّفا التصانيفَ المفيدة ، ورأيا رتبة الاجتهاد من غير منازع .

قلت : وكذلك بلغ رتبةَ التبريز في تحصيل العلم ؛ كلٌّ واحد من ولديهما ، الفقيهُ السّيد أبو القاسم بن سعيد ، والفقيهُ الأوحد السّيد أبو يحيى الشريف[3] ، إذ بلغا درجة الإمامة والفتيا . وأما الإمام ابن عرفة ، فانتفع به جماعة ، فكان أصحابه كأصحاب سُحنون[4] : أئمّةً في كل بلد ، فمنهم أيضا من بلغ درجة التأليف ، ووقع الاتفاق على إمامته ، وتقدّمه وسموّ رتبته ، كشيخنا الإمام الحافظ المحصّل ، أبي القاسم [بن][5] أحمد البُرْزُليّ ، مفتي البلادِ الإفريقيّة ، ومؤلفِ كتاب الأسئلة الحاوي للنوازل والفتاوى . ومنهم شيخُنا الإمامُ الحافظ المجتهد ، صاحب التصانيف المفيدة ، أبو عبد الله محمد بن مرزوق ، له «المنزَع النبيل ، في شرح مختصر خليل» ، و«شرح التهذيب[6]» ، وغير ذلك من المسائل العلمية .

(١) هو سعيد بن محمد بن محمد العقباني التلمساني ، ولد سنة ٧٢٠ وتوفي سنة ٨١١ هـ .
(٢) هو قاسم بن سعيد بن محمد توفي سنة ٨٥٤ هـ . يكنى أبا الفضل وأبا القاسم .
(٣) هو عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني . ولد سنة ٧٥٧ هـ ، وتوفي سنة ٨٢٦ هـ .
(٤) هو عبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون ، الفقيه المالكي المشهور . ولد سنة ١٦٠ وتوفي سنة ٢٤٠ هـ . (٥) التكملة عن البستان وتذييل الديباج .
(٦) كتاب «التهذيب» لأبي سعيد البراذعي ، من علماء القيروان ، لخص فيه مختصر المدونة والمختلطة لابن أبي زيد القيرواني ، واعتمده المشيخة من أهل إفريقية ، وأخذوا به ، وتركوا ما سواه . (عن مقدمة ابن خلدون) .

قلت : إنما اقتصرت على ذكر هذين الشيخين الإمامين ، لما لهما عليّ من المشيخة ، واشهرتهما بالتآليف ، التي تقوم مقامَ الشاهد لما قلته ، حتى تَبعد عن شُبهة التعصب .

[٥٢٢] وأما من نَجُب من تلامذة شيخ شيوخنا ابن عرَفة ، وتمكّن من ملكة التعليم ، فخلق يطول عددهم[1] ، فمنهم من أدركناه ، وأخذنا عنه ، وأجازنا مرْويّاته ؛ و [منهم] من لم ندركْه ، نفع الله بجميعهم ، وأعاد علينا من بركاتهم .

قلت : هنا انتهت ملكة الفقه من علماء القيْروان عن المازَريّ ، إلى من ذكرنا ، ثم إلى من لقينا .

ضعف العلوم النظرية بالمغرب

وأما ملكة العلوم النظرية ، فهي قاصرة على البلاد المشْرِقية ، ولا عنايةَ لحذّاق القَرَويين والإفريقيين إلا بتحقيق الفقه فقط . ولم يزل الحال كذلك إلى أن رحل الفقيه ابن زَيتون[2] إلى المشرق ، فلقي تلاميذ الفخر بن الخطيب ، ولازمهم زمانا ، حتى تمكن من ملكة التعليم ، وقدِم إلى تونس ، فانتفع به أهلها ، وانتهت طريقته النظرية إلى تلميذه ابن عبد السلام المذكور ، واستقل تلميذُه ابن عرَفة بعده بتلك الطريقة ، وكذلك أبو عيسى[3] موسى ابن الإمام التلمْسانيّ المذكور ، ولهذا تجدُ أثر العلوم النظرية بتلمسان .

قال الإمام ابن خلدون وغيره من أئمة التاريخ .

لم نشاهد في المئة الثامنة منْ سلَك طريق النُّظَّار بفاس ، بل [في] جميع هذه الأقطار ، لأجل انقطاع مَلَكة التعليم عنهم ، ولم يكن منهم من له عنايةٌ بالرِّحلة ،

(١) في م : « عزوم » .
(٢) هو أبو القاسم القاسم بن أبي بكر الشهير بابن زيتون ، الفقيه التونسي ولد سنة ٦٦٦ ، وتوفي سنة ٧٣٠ هـ .
(٣) في الأصول هنا وفيما سيأتي : « أبو عمران موسى » ، وهو تحريف (انظر الديباج ، ونيل الابتهاج ، والبستان) .

بل قُصِرت هممهم على طريق تحصيل القرآن ، ودرس « التهذيب » فقط . ثم أخذوا شيئا من مبادئ العربية من أهل الأندلس ، القادمين عليهم من سبتة وغيرها ، باستدعاء ملوك بنى مرين . قال : ولهذا لم يتصدر من الفاسيين من يُقرِئ « الكتاب[1] » كما هو متداول بين أهل الأندلس ، مثل ابن أبى الربيع والشلَوْبين وغيرهما ، لوجود ملكة النحو فى قطر الأندلس ، بسبب رحلة علمائهم إلى تلقيه من أربابه بالمشرق ، كما ارتحل أعلامهم إلى بغداد فى تحصيل الفقه عن الأبهرى[2] ، وكذا يحيى بن يحيى عن مالك ، وغيرُ واحد ؛ وكذلك علوم الحديث وغيره ، كرحلة الإمام الحافظ أبى بكر بن العربى . [٥٢٣]

بين السلطان أبى عنان والشيخ الصرصرى

ولما كمل غرضُ أبى عنانٍ ، كبير ملوك بنى مرين ، من بناء مدرسته المتوكلية بفاس ، وكان بعيد الصِّيت فى علوّ الهمة ، قال انظروا من يُقرئُ بها الفقه ، فوقع الاختيار على الشيخ الصَّرْصَرىّ الحافظ ؛ ولما جلس بها واتسع صيته ، وجّه إليه أبو عنان المذكور من يسأله فى[3] مسائل « التهذيب » ، التى انفرد بإتقانها وحفظها ، وطالبه بتحقيق ذلك وإتقانه ، وحُسْن تلقيه ، ولا أدرى المنتخب له : هل هو أبو عيسى موسى ابن الإمام المذكور آنفا ، أم السيد الشريف أبو عبد الله شارح « الجمل » ، المتقدم الذكر ، أو هما معا ، فطالباه بتحقيق ما أورَدَه من المسائل عن ظهر قلب ، على المشهور من حفظه ، فانقطع انقطاعا فاحشا ؛ ولما أضجره ذلك نزل عن[4] كرسيّه ، وانصرف كئيبا ، فى

(١) يريد كتاب سيبويه فى النحو .

(٢) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن صالح الأبهرى ، صاحب التصانيف فى شرح مذهب مالك والاحتجاج له والرد على من خالفه . سكن بغداد وحدث بها عن جماعة ، وتوفى بها سنة ٣٩٥ هـ .

(٣) كذا فى م ، س . وفى ط : « عن » .

(٤) كذا فى م . وفى ط ، س : « من » .

غاية القبض ، ولما اشتهر ذلك عنه ، وجّه إليه أبو عِنان الملكُ المتقدم الذكر ، فلما مثل بين يديه آنسه وسكّنه ، ثم قال له : أنا أمرت بذلك ، كي تعلم ماعندك من العلم ، وما عند الناس ، وتعلم أن دار المغرب هى كعبة كل قاصد ، فلا يجب أن تتكل على حفظك ، وتقتصر على ما حصل عندك ، ولا يمنعك ما أنت فيه من التصدّى ، عن ملاقاة من يرد من العلماء ، والتنزّل للأخذ عنهم ، ولا يقدح ذلك فى رُتبتك عندنا ، إن شاء الله .

لخصت هذه الحكاية من تاريخ القيسى ، فانظرها .

بين علماء فاس وتونس

قلت : وعكس هذا وقع لفقهاء فاس فى أواسط المئة الثامنة ، لما شرّق السلطان أبو الحسن رحمه الله ، وانتهت به درجة الاستبداد والاستقلال ببلاد إفريقية ، فظهر فقهاء المغرب ممن صحبه ، على فقهاء تونس ، لحفظهم كتاب « التهذيب » عن ظهر قلب ، وزعيم فقهاء المغرب حينئذ الرجل الصالح ، أبو عبد الله السّطّى رحمه الله ، ونفع به ، إلى أن جاءت نوبة الشيخ ابن عبد السلام ، وعقد مجلسه بمحضر السلطان المذكور ، ومن معه من الفقهاء والنحاة والكتّاب والرؤساء ، وتوجهت مطالبة فقهاء المغرب له ، فكان رحمه الله على ما وصفه به من أرّخ الواقع ، كأنه بحر تلاطمت أمواجه ، فكان يقطعهم واحدا بعد آخر(1) ، وتلميذه ابن عرَفة كذلك ، إلى أن قال ولىّ الله المُنْصِف(2) ، أبو عبد الله السّطّى للسلطان : يا علىّ ، كذا يكون التحصيل ، وكذا يُقرأ الفقه ، ولو لم يكن بتونس إلا هذا الإمام لكان بها(3) كلُّ خير ! فلابدّ من ملازمة هذا لهذا المجلس ، حتى ينتفع به أصحابنا ، وننتفع بطريقه . وذلك هو السبب فى التنويه بالشيخ ابن عبد السلام رحمه الله ، على أنه كانت رغبته فيما عند الله إلى أن مات . [٥٢٤]

(١) فى س : « واحدا بعد واحد » .

(٢) كذا فى س ، وفى سائر الأصول : « المصنف » . (٣) فى س : « لهما » .

تنشيط الشيخ تلامذته بالحكايات

قلت : وإنما ذكرت هذه القضايا تَنْشيطا للناظر ، وتحميضا للذاكر ، ولم نزل نسمع من أئمتنا ومَنْ ذَكَرْنا ، فى مجالس دروسهم ، ما يشبه ما ذكرناه من آثار السلف ، لما فى ذلك من تقوية باعث الطالب على كيفية التحصيل والدرك ، والجد فى إدراك أسبابه ، وأخذ العلم من أربابه ، والولوج إليه من بابه .

وكان الإمام المازَرى رحمه الله كثير الحكايات فى المجالس ، ويقول : هى جند من جنود الله ، حتى كان لا يَخْلى(١) مجالسه منها .

* * *

دفع القصور عن بعض علماء المغرب وتلامذتهم

[٥٢٥] تنبيه : إياك أن تظن القصور بمن تصدّى للتقييد على « التهذيب » ، من طلبة الشيخ أبى الحسن ، وكذا من تلاهم من طلبة الشيخ أبى زيد عبد الرحمن الجزُولى ، ويَقرعَ سمعك ما أفتى به الشيوخ ، ومن له فى العلم الرسوخ ، أنّ تقاييد « التهذيب » و « الرسالة » لا يعوّل عليها فى الإقراء ، ولا يُوثَق بشىء منها فى الفتيا ؛ وأنّ من عوّل عليها فى الإقراء يرد المرتب(٢) .

فاعلم شرح الله صدرك ، أن القوم كانوا أهل صلاح وورع ، وجِدّ فى طلب الفقه ، وإفراط حرص ومثابرة على درس « التهذيب » ، وحفظ ما تعلّق به من النصوص فقط ، فبنى كل واحد فى تقييده على ما سمعه من الشيخ ، ما ناسب اجتهاده ونظره ، من تقاييد الفقهاء ، مثل ابن يونس ، واللّخمى ، والتنبيهات ، وابن رُشْد ، واختلف رأيهم فى ذلك ، فمنهم الموجز ، ومنهم المُطْنِب ؛ وباب الفُتيا باب احتياط ، فلابد للمفتى من مباشرة الكتب المَرْويّة(٣) ، والأمهات الأصلية ، ولا يَنبغى له الاقتصار على الواسطة ، إذ لا يؤْمن من خلل أو تصحيف ، أفقد

(١) فى ط ، س : « لا يخلو » .
(٢) كذا فى ط ، س . وفى م : « يرد الرب » ، وفى كلتا الروايتين غموض .
(٣) فى س : « المدونة » .

ملكة التأليف ، وإنما الغالب على طباعهم تغفّل البداوة ، فقدَح (١) ذلك فى صناعة التصنيف ، وكيفية التأليف ، والقوم أهل دين متين كما وصفنا ، فلا يقدح ذلك فى مراتبهم ، ولا يثلم مناصبهم .

ووجه ثانٍ : ذكر أهل الأصول فى باب الاجتهاد [أنّ] مجهول الحال لا تقبل فُتياه كالراوى ، وإن أصاب كلُّ واحد ؛ ولا يخفى عليك وقوعُ مثل هذا لأصحاب تلك التقاييد .

[٥٢٦] **ووجه ثالث** : مَبْنَى ما أفتى به العلماء من عدم التعويل على شىء منها فى الإقراء والفُتيا ، هو والله أعلم ، لما اشتملت عليه من ذكر الشىء وضدّه ، على أسلوب واحد ، وقد وقفت على ذلك فى جُلّ تلك التقاييد ، وهو أن المُقيِّد يجمع للخلاف المذهبيّ ما ليس فيه ، بل هو خارج المذهب ، وقد وقع ذلك فى مواضع غير واحدة من تلك التقاييد ، كما نقل بعضهم الخلاف فى التنفّل فى الصحراء قبل صلاة العيد ، وليس كذلك ، بل الخلاف فيما إذا صُلِّيت فى المسجد ، وأما فى الصحراء فلم يقل به إلا الشافعىّ . ومثل ذلك ما وقفت عليه فى حكم السّواك ، قال المُقيِّد على كلام الشيخ فى باب جُمل من الفرائض : واختُلف فى حكم السّواك على قولين : فقيل إنه واجب ، وقيل سنة ؛ فأنت ترى هذا الخلافَ ، ولم يقل بوجوبه إلا أهل الظاهر ، عملا بصيغة ظاهر الحديث الوارد فى ذلك . وكذلك وقفت على الخلاف فى غُسْل الجمعة ، فقال المقيِّد : اختُلِف فيه : فقيل فَرْض ، وقيل سُنّة . وقد علمت أيضا قول أهل الظاهر بوجوبه ، عملا بظاهر الحديث . وكذا الغُسل : هل هو للجمعة أو لليوم ؟ فقال المقيِّد : اختُلِف فى ذلك على قولين ؛ وقد علمت قول أهل الظاهر ، وأنه لليوم ، حتى لو اغتسل بعد الصلاة لأجزأه .

---

(١) كذا فى س ، م . وفى ط : « ولا يقدح » .

وكذا وقفت على القول ببطلان صلاة من أسقط الخُشوع من صلاته ، على القول بفرضيّته ، ولم يقل بذلك إلا أهلُ التصوّف . وكذا القول بوجوب المَضْمضة والاستنشاق فى الوضوء والغُسل ، وقد علمت نصوص أهل المذهب فى هذه المسائل . ومن هذا فى تلك التقاييد ما لا يُحصى كثرة لمن تأمّلها ؛ وفيما ذكرنا كفاية ، فلعل هذا هو سبب نقد[1] العلماء فى مجموع تلك التقاييد . والله أعلم .

[٥٢٧] تنبيه : احذر أيها الناظر ، شرحَ اللهُ صدرى وصدرك ، أن يقع فى نفسك أنّ عجز هؤلاء السادات عن صناعة التأليف ، والحِذْق فى التصنيف ، وعدم الاقتدار ، على الترجيح والاُختيار ، وعدم القيام بمواد مدارك المحققين والنظّار ، يوجب قَدحا فى مناصبهم ، أو وَهْنا فى مراتبهم ، فتكون ممن أساء الظن بالسلف ، وعرّض نفسه إلى الهُوِىّ فى مهاوى التلَف ، بل أوجب ذلك ما أصّلناه وقدّمناه ، من أنّ القوم كانوا أهلَ عمل ودين متين ، وجرْى على سَنَن السلف الأقدمين الصالحين العاملين ، فشغلهم ما أخذوا فيه من كدّ العمل ، و إثقال التقلُّل والمُجاهدة ، وتحرّى الحلال ، والزّهد والإقلال ، عن تتبّع مواد التحقيق ، إلى فقد الملكة النظرية من هذا القُطر ، وانقراضها منه منذُ زمان إلى عصرنا هذا ؛ وما حكَوْه من عدم الترتيب ، وقلة العزْو الأقوال ، حالُ مَن صرف عنايته لتقييد العلم من حيث هو ، ولم يتكلّف ذِكْر مَشهور ، ولا ما عليه الجُمهور ، أو يكون اعتمد فى تقييد ما قيّد على ما سمع من الشيخ فى السلكات ، فيُعذر على هذا ولا يُفنّد .

والتقييد المَعْزُوّ للشيخ أبى الحسن أقلّ تكلّفا لا محالة ، إلا أنه لا يخفى ما فيه من ضَعْف الاختيار ، عند التحقيق والاُستبصار .

أعاد الله علينا من بركاتهم ، ونفعنا بهم .

(١) كذا فى ط ، س . وفى م : « تقييد » .

العجز عن التأليف لا يقدح فى علم العلماء.

وما ذكرته فى هذا الاستطراد مَسّت الحاجةُ إليه ، كما مَسّت حاجةُ أئمة الحديث ، على جلالتهم ووَرَعهم ، إلى تَبْيين الضعيف والمُجرّح ، وتَدْوين أخبار الضُعفاء ، ومن نُسِب إليهم وَهَم أو تدليس أو وَهَن ، وهذا لَوْلا مَسِيس الحاجة ، لم يَنبغ أن يُلتفت إليه ، والله الموفق بفضله .

ثم قال هذا العالم فى موضع آخر :

ملكة العلم فى أهل تونس

تنبيه : ولا يُعترَض على ما وقع للشيخ ، من الحكاية التى حدثنا بها شيخُنا الإمام البُرْزُلى رحمه الله ، قال : لما قدِم الفقيه القبّاب ، حافظ مدينة فاس ، وزعيم [٥٢٨] فقهائها فى عصره ، يريد أداء فريضة الحجّ ، فاجتاز بحضرة تونس ، فحضر مجالسَ شيخنا ابن عرَفة ، هو ومَن كان معه من الفقهاء ، فاستطرد الشيخ رحمه الله الكلام إلى أن قال : وكثيرا ما نجد فى تقييد الشيخ أبى الحسن : « يؤخذ من هذه المسألة » ؛ فلا أدرى صورة ذلك الأخذ ما هو ؟ هل هو من طريق الاستقراء ، أو الاستنباط ، أو القياس ، أو المَفْهوم ؟ وكلٌ قسم من هذه الأقسام يَفتقر إلى شرط ، ولا شىء من ذلك ؟ فقال القبّاب لأصحابه بعد انصرافهم : علمتم ما تحصّل بأيدينا من الفقه ، وصحّ عندكم أن الملكة التامّة فى التحصيل والتصرُّف ، إنما هى فى قُوَى أهل تونس ومن يَليهم من أهل المشرق ، وأنّ قصارَى ما عندنا وعند مشايخنا إنما هو حِفظ النُّصوص ، وإبقاؤها(١) على ما هى عليه ، وأنّ ملكة القَرَويين انتقلت إلى الإفريقيين .

فهذا الواقع من الشيخ ، ليس هو بالمعارض لما وقع فى جوابه ، من اعتبار المفهوم ، وإنما هو بحث فى شرط المفهوم ، وكيفيّة الاستنباط خاصة ، فاعلم ذلك .

منزلة الشيخ أبى الحسن فى العلم

تنبيه : لا يقع فى ذهنك قصورُ الشيخ فى قوله : « يؤخذ من هذه المسألة » ، وأنه خَفِىَ عليه كيفية الأخذ . فاعلم ، أرشدك الله ، أنّ الشيخ أبا الحسن ، كان إمامَ

(١) كذا فى س . وفى سائر الأصول : « وإلقاؤها » .

وقته فى فقـه المدوّنة ، وهو المستقلّ برياستها بعد شيخه الفقيه راشد ، ما أخذ عنه حتى ظهرت على يديه الكرامات الخارقة ، فى شفاء أصحاب العلل المُزْمِنة وغير ذلك ، ولم يَنْظر فى الفقه حتى أتقن علْمَ الفرائض ، وفنونَ البلاغة ، وتلقّى ذلك من أربابه ، وارتحل ، وانتقل إلى تازا ، فلازم أهلَ اللسان ، وفرْسان المعارف وقتاً طويلا ، ثم اعتكف على قراءة « التهذيب » ، ولازم الفقيهَ راشدا ، [٥٢٩] واقتصر عليه ، وكان الفقيه راشدٌ لا يُنفِذ بمدينة فاسَ حُكْما ، ولا جوابا فى نازلة ، حتى يَحْضُرَه ، ويَعتنىَ به ، فلم تُخْطِ فراسته فيه ؛ وكان لا يَحجُر عليه فى القراءة ، بل يقرأ من « التهذيب » من أى مكان شاء ، وقد صدقت فراسته فيه ، فكان فى ميزان حسناته يوم القيامة .

واستيفاء التعريف بالشيخ ، وذكر محْنته بالقضاء ، وسبب عزله ، وذكرُ وفاته ، يخرجنا عن الاختصار .

انتهى ما مسّت الحاجة إليه من كلام هذا المتأخر ؛ ونقلت أكثرَه بلفظه ، تبرّكا بعبارته ، التى تلوح عليها أمارات الصالحين ، وبالله التوفيق .

كلام فى قيمة التواليف ومزاياها

ولنذكر كلاما من هذا المعنى ، فنقول :

قال الإمام أبو عبد الله الأُبّىّ رحمه الله تعالى فى شرح مُسلم ، عند كلامه على قوله صلى الله عليه وسلم : « أو علْمٍ يُنْتفع به بعدَه » :

كان شيخنا أبو عبد الله ابن عَرَفة يقول : إنما تدخل التواليف فى ذلك إذا اشتملت على فائدة زائدة ، وإلا فذلك تَخْسير للكاغَد . ونعنى بالفائدة الزائدةَ على ما فى الكتب السابقة عليه ، وأما إذا لم يشتمل التأليفُ إلا على نَقْل ما فى الكتب المتقدّمة ، فهو الذى قال فيه : إنه تخسير للكاغَد ، وهكذا كان يقول فى مجالس التّدريس ، وإنه إذا لم يكن فى مجلس التدريس التقاط

زائدة من الشيخ ، فلا فائدة فى حُضور مجلسه ، بل الأَولى لمن حَصَلت له معرفة بالاصطلاح ، والقُدرةُ على فهم ما فى الكتب ، أن ينقطع لنفسه ، ويلازم النظر ؛ انتهى .

ونظم فى ذلك أبياتا ، وهى :

إذا لم يكن فى مَجلس الدَّرس نُكتةٌ ... بتقرير إيضاحٍ لمشكِل صورةِ
وعَزْوٍ غريب النقل أو حَلّ مُقفَل ... أوِ اشكالٍ أبدتْه نتيجةُ فكرة [٥٢٠١
فدع سَعيَه وانظر لنفسك واجتهدْ ... ولا تتركَنْ فالترْكُ أقبحُ خَصلةِ

وكنت قلت فى جواب أبياته هذه :

يمينًا بمن أولاكَ أرفعَ رتبةٍ ... وزان بك الدنيا بأحسن زينةِ
لَمجلسُك الأحظى الكفيلُ بكل ما ... على حُسْن ما عنه المحاسنُ جلّتِ
فأبقاك مَنْ رقّاك للناس رحمةً ... وللدين سيفًا قاطعًا كلّ بدْعةِ

وإنى فى قسمى هذا لبارّ ، فلقد كنت أفيد من زوائد إتقانه ، وفوائد إقرائه ، على الدُّوَل الخمس ، التى كانت تُقرأ بمجلسه ، وهى : التفسير ، والحديث ، والدُّوَل الثلاث التى بالتهذيب ، نحوَ الورَقتين كل يوم ، مما ليس فى كتاب ، فاللهُ المسئول أن يُقدّس رُوحه ، فلقد كان الغاية ، وشاهدُ ذلك ما اشتملت عليه تواليفه من ذلك ، وناهيك بمختصره فى الفقه ، الذى ما وُضع فى الإسلام مثله ، لضبطه فيه المذهب : مسائلَ وأقوالا ، مع الزيادة المكمّلة ، والتنبيه على المواضع المُشكِلة ، وتعريف الحقائق الشرعية . انتهى كلام الأُبّى .

المقصود بالتأليف — ورأيت بخط بعض الأكابر ما نصّه : المقصود بالتأليف سبعة : شىء لم يُسْبَق إليه فيُؤلّف ، أو شىء أُلّفَ ناقصا فيُكمّل ، أو خطأٌ فيُصحّح ، أو

مُشكِلٌ فيُشْرَح ، أو مُطوّل فيُختَصر ، أو مُفْترِق فيُجمَع ، أو مَنثور فيُرتَّب .

وقد نظمها بعضهم فقال :

ألاَ فاعلَمنْ أنّ التآليف سَبْعَةٌ ، لكلّ لبيب فى النّصيحة خالصِ
فشَرْحٌ لإغلاق وتصحيحُ مُخطِىء ، وإبداعُ حَبْرٍ مُقْدِمٍ غير ناكص
وترتيبُ مَنْثورٍ وجَمْعُ مُفرّق ، وتقصير تطويلٍ وتتميمُ ناقص

تعليق الونشريسى على كلام الأبى

وألفيت بخط شيخ شيخنا ، الإمام القاضى سيدى عبد الواحد الونْشَرِيشى ، رحمه الله ، ما نصّه : [١]ألفيت بخط والدى ، رحمه الله ، على طُرّة من هذا المحل ، أعنى كلام الأُبّى السابق ، ما نصّه[١] :

قلت : من هنا يُعلم أن إطلاق اسم المدرّس على المقتصر على نقل تقاييد [٥٣١]
الرسالة والمدوّنة ، من غير فتْش ولا تنْزِيل ، ولا كشف واستظهار بغيرها : مجاز ، لا حقيقة ؛ وهذا الوَصْف كاد أن يَعُمّ أهل الوقت أو عَمّهم ، فنسأل الله العظيم المغفرة من التّطفّل ، وتعاطى ما ليس فى المقدور .

ثناء الأبى على تواليف أستاذه ابن عرفة

وقال أيضا : تأمّل هاهنا الثناء على شيخ الإسلام ، الإمام أبى عبد الله بن عَرفة ، أسكنه الله دار السلام ، وعلى تآليفه ، لا سيما مختصره الفقهى ، الذى أعجز معقولُه ومنقولُه الفحول ، خلافا لبعض القاصرين من طَلَبة فاس ، فإنهم يقولون : ما يقول شيئا ، يُطْفِئون نُور الله ، ويحتَقِرون ما عظّم الله ، ومُسْتَنَدهم فى ذلك — بزعمهم — حكاية تُؤثَر عن الشيخ المحقّق ، أبى العبّاس القبّاب ، لا رأس لها ولا ذَنَب ، وحاشاه من ذلك ، وما أراهم فى هذا إلا كما قال الأوّل :

وكَمْ مِنْ عائبٍ قولاً صحيحا ، وآفته من الفهْمِ السّقيمِ

(١ — ١) هذه العبارة ساقطة من ط .

ولقد حبّس ملوك المغرب ، رضوان الله عليهم ، بخزانتي القرويين والأندلُسيّين ، من هذا الديوان المبارك نسخا عديدة ، ثم لا يُعرّج عليها المطالعة فى هذا الوقت أحدٌ من طَلَبة الحضرة ، شتاء ولا صيفا ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون ، بخلاف ما قُيِّدَ عن الشيخ الجزوليّ ، وأبى الحسن الصُّغَيِّر ، فإنك تجدُهم يزدحمون عليها فى كل زمان ، وخصوصا فصلَ الشتاء ، لا يَلحقُ الآخِرُ منها ورقة واحدة ، مع كثرة عددها بحيث ذُكِر ، بل تجدهم يتنافسون فى اقتنائها ، بالأثمان العظيمة المُجْحِفة ، ومَن مَلَكَ منهم المسبَّع من الجزوليّ ، وتقييد اليَحْمديّ عن أبى الحسن ، أو حصلت له عناية بنقلها ، فهو عالِمُ العالَمِ بأسره ، وحائز مذهب إمام دار الهجرة على التمام ، والقائم بأمره . ولقد كان الحسن المَغيليّ عندهم فى أعلى طبقة من الفقه والتفقه ، لقيامه على مُسبَّع الجزوليّ نقلا ، ولقد شاهدتهم يتساقطون كالفَراش ، على نسخة من الجَزُولىّ بخزانة القرويين ، زعموا أنها بخط أبى على الحسن المذكور ، وهى مشحونة بالتصحيف ، تُعْمِى البَصر والبصائر ، نوّر الله قلوبنا بذكره ، وعمّر ألسنتنا بشكره ، ووفقنا لما فيه رضاه عنّا . [٥٣٢]

انتهى ما أُلْفِى بخط الشيخ(١) سيدى أحمد الونشريشى ، رضى الله عنه .

لبعضهم يمدح مختصر ابن عرفة فى الفقه

أقول : ولقد أحسن بعض الأكابر من طلبة ابن عرفة ، رحمه الله تعالى ، إذ يقول فى مدح مختصره المذكور(١) :

إذا ما شئت أن تُدْعَى إمامًا فخُذْ فى دَرْسِ مختصرِ الإمامِ
تنالُ به السعادةَ والمعالِي وتُضحِى ظاهرا بين الأنامِ

(١) العبارة من قوله : « سيدى أحمد » إلى « المذكور » : ساقطة من ط .

كتابٌ قد حَوَى من كلّ علمٍ ... كبستانٍ سُقِي غيثَ الغمام
فدَعْ عنك السآمةَ وادْرُسَنْهُ ... وعن عينيك دَعْ طيبَ المنام
وحَلِّ بُدُرِه جِيدَ المعالِي ... تفُزْ بالخُلْد فى أعْلى مقام

بين القباب وابن عرفة

وما أشار إليه الشيخ الونشريشىّ من قوله : « ومُستندهم فى ذلك — بزعمهم — حكايةٌ تُؤْثَر عن القبّاب ، لا رأس لها ولا ذَنَب » ، أشار به إلى ما يزعمون عن الشيخ القبّاب ، وقد نقلها شيخنا الإمام سيّدى أحمد بابا ، أبقاه الله فى تكميله لديباج ابن فَرْحون ، ونصُّه :

ويقال إنه لما حج اجتمع فى تُونِس بابن عرفة ، فأوقفه على ما كتب من مختصره الفَرْعىّ ، وقد كان شرع فى تأليفه ، فقال له القبّاب : ما صنعتَ شيئا . فقال له ابن عرفة : ولِمَهْ ؟ قال : لأنه لا يفهمه المبتدى ، ولا يحتاج إليه المنتهى . فتغيَّر وجه ابن عرفة ، ثم ألقى عليه مسائلَ أجابه عنها القبّابُ .

ويقال إنّ كلامه هو الحامل لابن عرفة على أن بَسط العبارة فى أواخر المختصر ، وبيّن الاختصار ، والله أعلم . انتهى كلام شيخنا أبقاه الله .

إيراد للسلطان أبى عنان على بعض الفقهاء

[٥٣٣] قلت : رأيت بخط ابن داود الأندلسىّ ثم التلمْسانىّ ، ما نصّه : وجدت بخط الرّملى (١) ما نصه : حدثنا الشيخ ابن عَرَفة رضى الله تعالى عنه ، عن الشيخ القبّاب الفاسىّ ، عن الآبُلِىّ ، قال : أورد السلطان أبو عِنان على فقهائه الحِلَق ، فى قول عائشة رضى الله عنها ، فى حديث مسلم : « فتُوُفِّى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مما يُقرأ : « خَمسُ رضَعاتٍ يُحَرِّمْن » . انظره فى مسلم . قال : يلزم على هذا الخُلفُ فى خبرها ، رضى الله تعالى عنها ، أو عدم حفظ القرآن ،

(١) كذا فى ط ، س . وفى م : « أبى على » .

وكلاهما مُحال . قال : فسكت الحاضرون بأجمعهم . قال : فقلتُ : القرآن على قسمين مُتحدّى به ، وهو المُعجز ، وغير مُتحدّى به ، والأوّل هو المحفوظ ، بخلاف الثانى ، بدليل هذا الحديث . قال : فقبِله الحاضرون كلُّهم .

ولمُوردٍ هنا تمامَ الحكاية : وهذا يحتاج إلى دليل . وشنّعه الأستاذ أبو سعيد ابن لُبٍّ غاية التشنيع ، وقال : كَوْن القرآن على قسمين : قسْمٍ معجز مُتحدّى به محفوظ ، يصلى به ؛ وقسمٍ بخلاف ذلك ، يحتاج إلى دليل ، ولا يُوجد . انتهى .

ولو قيل : إنه لم يبلغها الشّيخ ، كما أجابوا به فى حديث ابن مسعود ، فى حديث سُورة : « واللّيل إذا يَغْشَى » ، لكان أبْيَن وأحسن . وذكر ابن الخطيب القُسَنْطِينيّ أنها فى أسئلة مجموعة ، منسوبة إلى السلطان أبى عِنان ، رحم الله تعالى الجميع . انتهت الوجادة . ونقلتها بطولها ، لما فيها من الفائدة . والمسألة اعتاد الكلام عليها فى « مُرتقى الوُصول ، إلى بناء الفروع على الأصول » ، للسيد أبى عبد الله الشّريف ، فراجعها منه . انتهى كلام ابن داود رحمه الله .

إمامة الشيخ بن عرفة لا تجحد

قلت : وبالجملة فإمامة الشيخ ابن عَرفة لا تُنكَر ولا تُجحَد ، ومعرفته بالفُنون ، وتبريزه على أهل عصره ، مما يَعْترف به كل مُنصِف لَوْذَعِيّ أوْحد ، ولله دَرُّ صاحب « الشقائق النّعمانية ، فى علماء الدولة العُثمانية » ، حيث صرّح بأن ابنُ عرفة فاق أقرانَه فى فقه المالكيّة بالمغرب ، آخرَ الثامن . ونصّ كلامه ، عند ما ترجم لصاحب القاموس : [٥٣٤]

ترجمة الفيروزابادى ، عن الشقائق النعمانية

التعريف به

هو المولَى الفاضل ، مَجْدُ الدين أبو الطّاهر ، محمد بن يعقوب بن محمد الشّيرازيّ الفَيْروزاباديّ .

نسبه

كان رحمه الله تعالى ينتسب إلى الشيخ أبى إسحاقَ الشّيرازيّ ، صاحب

التَّنبيه ، وربما يَرْفَعُ نسبَه إلى أبى بكر الصِّدِّيق ، رضى الله عنه ، وكان يكتب بخطه : « الصِّدِّيقىّ » .

رحلاته وبعض تواليفه وصفاته

دخل بلادَ الروم ، واتصل بخدمة السلطان بايزيد بن السلطان مراد ، ونال عنده رُتبة وجاها ، وأعطاه السلطان مالا جزيلا ، وأعطاه الأمير تَيمور خمسة آلاف دينار ، ثم جال البلادَ شرقا وغربا ، وأخذ عن علمائها ، حتى برَع فى العلوم كلها ، [لا] سيَّما الحديثُ والتفسير والفقه . وله تصانيف كثيرة ، تُنَيِّف على أربعين مُصنَّفا ، وأجلّ مُصنَّفاته « اللامع المُعْلَم العُجاب ، الجامع بين المُحْكَم والعُباب » ، وكان تمامه فى ستين مجلدة ، ثم لخصها فى مجلدتين ، وسمّى ذلك الملخَّص بـ« القاموس المحيط » ، وله تفسير القرآن العظيم ، وشرح البخارى والمشارق ، وكان لا يَدخل بلدة إلا وأكرمه واليها ، وكان سريع الحفظ ، وكان يقول : لا أنام حتى أحفظ مِئتَى سطر ، وكان كثير العلم والاطلاع على المعارف العجيبة ؛ وبالجملة كان آية فى الحفظ والاطلاع والتصنيف .

ميلاده ووفاته

وُلد رحمه الله تعالى سنة تسع وعشرين وسبع مئة بكارزين ، من أعمال شيراز ، وتُوُفِّى قاضيا بزَبيد ، فى بلاد اليمن ، ليلة العشرين من شوّال ، سنة ستّ أو سبعَ عَشْرةَ وثمان مئة ، ودُفن بتُربة الشيخ إسماعيل الجَبَرْتىّ .

هو آخر من مات من الرؤساء

وهو آخر من مات من الرؤساء ، الذين انفرد كلٌّ منهم بفنٍّ فاق فيه أقرانَه ، [٥٢٥]
على رأس القَرن الثامن ، وهم الشيخ سِراج الدين البُلْقِينى ، فى الفقه على مَذهب الشافعى ؛ والشيخ زَين الدين العِراقىّ فى الحديث ؛ والشيخ سراج الدين ابن الملقّن ، فى كثرة التصانيف وفن الفقه والحديث ؛ والشيخ شمس الدين الفَنارىّ ، فى الاطلاع على كلّ العلوم العقلية والنقلية والعربيّة ؛ والشيخ أبو عبد الله بن

عَرَفة ، فى فقه المالكية بالمغرب ، والشيخ مجد الدين الشيرازىّ ، فى اللغة . رحمهم الله تعالى أجمعين رحمة واسعة .

انتهى ما قصدته من كلام صاحب « الشّقائق النُّعمانية ، فى عُلَماء الدّولة العثمانية » .

استدراك بابن خلدون

قيل : ولو زاد ولىّ الدين بنَ خَلْدونَ فى التاريخ وطبائع العالَم ، لَحُسن ، والله تعالى أعلم .

قلت : وإذ جرى ذِكْر صاحب القاموس ، فلا بأس أن نُورِد ترجمته ، على أتمّ ممّا ذكره صاحب « الشقائق النُّعمانية » ، وربما وقع التخالف ، فنقول :

ترجمة ثانية للفيروزابادى ، عن الضوء اللامع للسخاوى

قال بعض حُفّاظ المشارقة ، وهو الإمام السّخاوىّ فى كتابه « الضوء اللامع (١) » :

هو محمد بن يعقوب ، بن (٢) إبراهيم ، بن عمر ، بن أبى بكر ، بن أحمد ، ابن محمود ، بن إدريس ، بن فَضْل الله ، بن الشيخ أبى إسحاق إبراهيم الكازرِنى (٣) ، المشهور بمولانا الشيخ مَجْد الدين ، الفيروزابادىّ ، اللغوىّ الشافعىّ . ولد فى ربيع [الآخر] (٤) سنة وعشرين وسبع مئة بكازِرين ، فنشأ بها ، وحَفِظ القرآن وهو ابن سبع ، وانتقل إلى شِيراز وهو ابن ثمان ، فأخذ الأدبَ واللغة عن والده ، ثم عن القَوّام عبد الله بن محمود [بن النّجم] (٤) ،

(١) نقل المؤلف ترجمة صاحب القاموس عن الضوء اللامع باختصار فى بعض العبارات .

(٢) فى الضوء اللامع : « ... يعقوب بن محمد بن إبراهيم » . وفى مقدمة تاج العروس : « ... يعقوب بن محمد بن يعقوب بن إبراهيم » .

(٣) كذا فى شرح القاموس مادة : « كرز » . وفى الأصول : « الكازرونى » . وفى القاموس وشرحه : « وكازرين ، بكسر الراء كما هو المشهور ، ومثله ضبطه الصاغانى ، وضبطه السمعانى بفتحها : بلد بفارس ... وبه ولدت ... وأن من قال كازرين أو كازرون فقد أخطأ » .

(٤) ما بين الحاصرتين : عن الضوء اللامع .

وغيرهما من علماء شيراز ، وانتقل إلى العراق ، فدخل واسطَ وبَغداد ، وأخذ عن
الشَّرف عبد الله بن بَكتاش[(١)] ، وهو قاضي بغداد ، ومدرِّس النظامية بها ، [٥٣٦]
ووَلِيَ[(٢)] به تداريس وتصادير ، وظهرت فضائله ، وكثُر الأخذ عنه ، فكان ممن
أخذ عنه الصَّفَدِيّ . [ثم دخل القاهرة][(٣)] و[لقى بها][(٤)] البهاءَ بنَ عَقيل ،
والجَمال الأسْنوى ، وابن هشام . وأخذ عن علمائها ، وجال في البلاد المشرقية
والشماليـة[(٥)] ، ودخل الروم والهند ، ولَقِيَ جمًّا من الفضلاء ، وحَمَل عنهم شيئًا
كثيرا ، تجمعهم مشيختُه ، تخريجُ الجَمال بن موسى المراكُشِيّ ، وفيه أنّ [من][(٦)]
مرويّاتِه الـكُتبَ الستة ، وسُنَن البَيْهقي ، ومُسْنَدَ أحمد ، وصحيحَ ابن حِبّان ،
ومصنَّفَ ابن أبي شَيْبة ، وغيرَ ذلك ، غيرَ[(٧)] مشايخ عديدة ، وجم غفير .

(١) ورد هذا الاسم مضطربا في الأصول . وقد صوبناه عن مقدمة تاج العروس .

(٢) في العبارة اضطراب بسبب سقطة قبل قوله « وولى » . ولعلها من قلم الناسخ . ونحن نثبت هنا العبارة الساقطة كما وردت في الضوء اللامع ، ليتصل بعض الكلام ببعض : « وعمل عنده معيدها سنين ، ثم ارتحل إلى دمشق ، فدخلها سنة خمس وخمسين ، فسمع بها من التقى السبكى ، وأكثر من مئة شيخ ، منهم ابن الخباز ، وابن القيم ، ومحمد بن إسماعيل بن الحموى ، وأحمد بن عبد الرحمن المرداوى ، وأحمد بن مظفر النابلسى ، ويحيى بن على بن مجلى بن الحداد الحنفى ، وغيرهم ، ببعلبك ، وحماة ، وحلب . وبالقدس من العلائى ، والبيانى ، والتقى القلقشندى ، والشمس السعودى ، وطائفة . وقطن به نحو عشر سنين » .

(٣) جاء قوله : « ثم دخل القاهرة » بعد كلمة « ابن هشام » الواردة بعد . وقد أثبتناها في هذا الموضع عن الضوء اللامع ، ليستقيم الكلام .

(٤) زيادة عن الضوء اللامع يستقيم بها الكلام .

(٥) في الأصول : « والشامية » . والتصويب عن الضوء اللامع .

(٦) زيادة عن الضوء اللامع .

(٧) قول المؤلف : « غير مشايخ عديدة ، وجم غفير » : غير متصل بما قبله . وظاهر أنه تتمة لكلام له عن مشايخ المترجم به ، سقط من الناسخ . ويوضح هذا ماورد في ذلك في الضوء اللامع ، نقلا عن الجمال المراكشى : « إن من مشايخه من أصحاب الفخر بن البخارى ، والنجيب الحرانى ، وابن عبد الدائم ، والشرف الدمياطى ، الجم الغفير ، والجمع الكثير ، من مشايخ العراق والشام ومصر وغيرها » .

ثم دخل زَبيدَ فى رمضان سنة ستٍّ وتسعين ، بعد وفاة قاضى الأقضية باليمن كلّه ، الجمال الرَّيْمِى[١] ، شارح « التّنبيه » ، فتلقّاه الأشرفُ إسماعيل [بالقَبول][٢] ، وبالغ فى إكرامه ، وصرف له ألف دينار ، سوى ألفٍ أخرى أمر ناظرَ[٣] عَدَن أن يُجَهِّزه بها ، واستمر مقيما فى كَنَفه على نشر العلم ، وكَثُر الانتفاعُ به ، وأُضيف إليه قضاء اليَمن كلّه فى ذى الحجة سنة سبع وتسعين ، بعد ابن عُجَيْل ، فارتفق بالمُقام فى تهامة ، وقصدَهُ الطلبة ، وقرأ السلطانُ فمَنْ دونَه عليه ، فاستمرّ بزَبيدَ مدة عشرين سنة ، وهى بقية أيام الأشرف ، ثم ولَدِه الناصر [أحمد][٢] . وكان الأشرفُ قد تزوج ابنته لمزيد جمالها ، ونال منه بِرًّا ورفعة ، بحيث إنه صنَّف كتابا وأهداه له على أطباق ، فملأها له دراهم ؛ وفى أثناء هذه المدة قدم مكة مرارا ، وجاور بالمدينة والطائف ، وعمل بها مآثِرَ حَسَنة ، وكان يُحِبّ الانتسابَ إلى مكة ، ويكتب بخطه : « الملتجىء إلى حرم الله تعالى » ، ولم يدخل بلدا إلا وأكرمَه متولّيها ، وبالغ فى تعظيمه ، مثل شاه منصور بن شجاع ، صاحب تبريز ، والأشرف صاحب مصر ، [والسلطان بايزيد خان بن عثمان ، متولى الروم ، وابن أُويس صاحب بغداد] ، وتَمُرْلَنْك ، وغيرهم .

كتبه ومؤلفاته [٥٣٧] واقتنى كتبا كثيرة ، حتى نُقِل عنه أنه قال : اشتريت بخمسين ألف مثقال [ذهبا][٢] كتبا . وكان لا يسافر إلا وفى صحبته منها أحمال ، ويخرجها فى كل منزل وينظر فيها . وصَنَّف كتبا كثيرة ، منها : « بصائر ذوى التمييز ، فى لطائف الكتاب العزيز » ، مجلدان ، و « تنوير المقباس ، فى تفسير ابن عبّاس »

---

(١) كذا ذكره فى شرح القاموس مادة « ريم » وفى الضوء اللامع . وورد هذا الاسم فى الأصول محرفا .

(٢) زيادة عن الضوء اللامع .

(٣) فى الأصول : « صاحب » . وما أثبتناه عن الضوء اللامع ، والبدر الطالع .

أربع مجلدات ، و « تيسير فاتحة الإهاب ، فى تفسير فاتحة الكتاب » ، مجلد كبير ، و « الدر النظيم ، المرشد إلى مقاصد القرآن العظيم » ، و « حاصل كورة الخلاص ، فى فضائل سورة الإخلاص » ، و « شرح خطبة الكشّاف » ، و « شوارق الأسرار العلية ، فى شرح مشارق الأنوار النبوية » أربع مجلدات ، و « منح البارى ، بالسيل الفسيح الجارى ، فى شرح صحيح البخارى » كمَلَ رُبع العبادات منه فى عشرين مجلدا ، و « الإسعاد ، بالإصعاد إلى درجة الاجتهاد » ، ثلاث مجلدات ، و « النفحة العنبرية ، فى مولد خير البرية » ، و « الصِّلاتُ والبُشَر فى الصّلاة على خير البَشَر » ، و « الوَصْل والمُنَى ، فى فضل مِنَى » ، و « المغانم المطابةْ ، فى مَعالم طابةْ » ، و « مُهَيّج الغرام ، إلى البلد الحرام » ، و « إثارة الحَجُون لزيارة الحَجُون » ، مجلد فى ليلة ، و « أحاسن اللطائف ، فى محاسن الطائف » ، و « فصْل الدُّرة من الخرَزَهْ ، فى فضْل السّلامة على الخِبَرَهْ » ، قريتان بالطائف ، و « روضة الناظر ، فى ترجمة الشيخ عبد القادر » ، و « المِرقاة الوفيّة ، فى طبقات الحنفية » ، و « البُلغة ، فى تراجم أئمة النحو واللغة » ، و « الفضل الوفىّ ، فى العدل الأشرفى » ، و « نزهة الأذهان ، فى تاريخ أصبهان » ، و « تعيين الغُرفات ، المعين على عَيْن عرَفات » ، و « مُنْية السُّول ، فى دعوات الرسول » ، و « التّجاريح فى فوائد متعلقة بأحاديث المصابيح » ، و « تسهيل طريق الوصول ، إلى الأحاديث الزائدة على جامع الأصول » ، و « الأحاديث الضعيفة » ، و « الدر الغالى ، فى [٥٣٨]
الأحاديث العوالى » ، و « سِفْر السعادة » ، و « المتفق وضعا ، المختلف صنعا » ، و « اللامع المُعْلَمِ العُجاب ، الجامع بين المحكَم والعُباب ، وزيادات امتلأ بها

(١) السلامة : قرية من قرى الطائف ، بها مسجد للنبي صلى الله عليه وسلم ، وفى جانبه قبة فيها قبر ابن عباس وجماعة من أولاده ، ومشهد للصحابة ، رضى الله عنهم . والخِبَرَة (كعنبة) : قرية بالطائف أيضا .

الوطاب » ، قُدِّر تمامه فى مئة مجلد ، يقرب كل مجلد منه من صحاح الجوهرى [١] ، أكمل منه خمس مجلّدات ، و « القاموس المحيط ، والقابوس الوسيط » ، و « مقصود ذوى الألباب ، فى علم الأعراب » ، مجلد ، و « تحبير المُوَشّين ، فيما يُقال بالسّين والشّين » ، تتبّع فيه أوهام المُجمَل لابن فارس ، فى ألف موضع ، و « المثلث الكبير » فى خمس مجلّدات ، و « الروض المسلوف ، فيما له اسمان إلى الألوف » ، و « تُحفة القماعيل ، فيمن يُسمّى من الملائكة والناس إسماعيل » ، و « أسماء السّراح ، فى أسماء النّكاح » ، و « الجليس الأنيس ، فى أسماء الخندريس » مجلد ، و « أنواء الغَيث ، فى أسماء اللّيث » ، و « ترقيق الأسَل ، فى تصفيق العسل » فى كُرّاسين ، و « زاد المعاد ، فى وزن بانت سُعاد » ، وشَرحه فى مجلد ، و « التحف الظّرائف ، فى النُّكت الشرائف » ، وغيرُ ذلك من مختصر ومطوّل .

ثناء الكرمانى عليه

وقال التقىّ الكرمانىّ : كان عديم النظير فى زمانه نظما ونثرا ، بالفارسىّ والعربىّ ، جال البلاد ، واجتمع بمشايخ كثيرة ، وأقام بدهلك [٢] مدة عظَمة سلطانها ، وجاور بمكة عشر سنين ، وصنّف بها القاموس ، فى مجلدات ، فأمره والدى باختصاره ، فاختصره فى مجلد ضخم ، وفيه فوائد عظيمة ، واعتراضات على الجوهرىّ ؛ وسافر إلى الهند والروم ، وعظّمه سلاطينها ، واجتمع بتمرلنك ، فعظمه ، وأنعم عليه بمئة ألف درهم .

ثناء الخزرجى عليه

وقال الخزرجى فى تاريخ اليمن : إنه لم يزل فى ازدياد من علوّ الجاه والمكانة ، ونفوذ الشفاعات والأوامر على القضاة فى الأمصار .

---

(١) فى م والبدر الطالع : « كل مجلد منه يقرب من صحاح الجوهرى » .
(٢) كذا فى الضوء اللامع ، وهى جزيرة فى بحر اليمن ، مرسى بين بلاد اليمن والحبشة . وفى الأصول : « دهكلى » . ولعله تحريف .

رغبته فى سكنى الحجاز

ورام فى عام تسعة وتسعين الوصول إلى مكة ، شرّفها الله ، فكتب إلى السلطان ما مثاله :

كتابه إلى الأشرف إسماعيل

[٥٣٩] « ومما تُنهيه إلى العلوم الشريفة ، ضعف العبد ، ورقّة جسمه ، ودِقّة بنيته ، وعلوّ سنّه ، وقد آل أمره إلى أن صار كالمسافر الذى تحزّم وانتعل ، إذ وَهَنَ العظم والرأس اشتعل ، وتضعضع السّنّ ، وتقعقع الشّنّ ، فما هو إلا عِظام فى جِراب ، وبُنيان [قد] أشرف على الخراب ، وقد ناهز العشر التى تسمّيها العرب دَقّاقة الرّقاب ؛ وقد مرّ على المسامع الشريفة غيرَ مرّة فى صحيح البخارىّ ، قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا بلغ المرء[1] ستين سنة فقد أعذر الله إليه ، فكيف مَنْ يُنَيّف على السبعين ، وأشرف على الثمانين ؟ ولا يجمل بالمؤمن أن يمضى عليه أربع سنين ، ولا يتجدّد له شوق [وعزم][2] إلى بيت رب العالمين ، وزيارة سيد المرسلين . وقد ثبَت فى الحديث النبوىّ ذلك ؛ والعبد له ستُّ سنين[3] عن تلك المسالك ، وقد غلب عليه الشوق ، حتى جلّ عَمْرُه عن الطّوق ، ومِنْ أقصَى أُمنيته ، أن يجدّد العهد بتلك المعاهد ، ويفوز مرة أخرى بتلك المشاهد ، وسؤاله من المراحم العلية[4] الصدقةُ عليه بتجهيزه فى هذا العام ، قبل اشتداد الحرّ وغَلَبة الأوام ، فإنّ الفصْل أطيب ، والريح أزْيب ؛ وأيضا كان من عادة الخلفاء ، سلفا وخلفا ، أنهم كانوا يُبْردون البريد لتبليغ سلامهم لحضرة[5] سيد المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه ، فاجعلنى ،

---

(١) كذا فى أكثر الأصول والضوء اللامع . وفى ط : « العبد » .

(٢) هذه الكلمة من الضوء اللامع .

(٣) فى العبارة نقص ، ولعل تمامها : « بعيدا عن » بزيادة « بعيدا » أو كلمة بمعناها .

(٤) فى الضوء اللامع : « الحسنية » .

(٥) فى الضوء اللامع : « إلى حضرة » .

جعلنى الله فداك ، ذاك البريد ، فلا أعنى شيئا سواه ولا أريد .

شوقى إلى الكعبة الغراء قد زادا فاستحمل القُلُص الوخادة الزادا
واستأذن الملك المنعام زيد علاً واستودع الله أصحابا وأولادا

فلما وصل كتابه إلى السلطان ، كتب على طرّته ما مثاله :

« إن هذا الشىء ما ينطق به لسانى ، ولا يجرى به قلمى ، فقد كانت اليمن [٥٤٠ا]
عمياء فاستنارت ، فكيف يمكن أن نتقدم وأنت تعلم أن الله قد أحيا بك
ما كان ميتا من العلم ؟ فبالله عليك إلا ما وهبت لنا بقية هذا العمر . والله
يا مجدَ الدين ، يمينا بارّة ، إنى أرى فراق الدنيا ونعيمها ، ولا فراقك أنت
اليمنَ وأهله .

ثناء الفاسى عليه

قال الفاسىّ : له شعر كثير ، ونثره أعلى ، وكان كثير الاستحضار
لمستحسنات الشعر والحكايات ، وله خطّ جيد مع السرعة ، وكان كثير الحفظ ،
حتى يقال إنه قال : ما كنت أنام حتى أحفظ مئتى سطر ؛ وكانت له دار بمكة
على الصَّفا ، عملها مدرسة للأشرف صاحب اليمن ، وقرَّر بها مُدرِّسين وطلبة ،
وفعل بالمدينة كذلك ، وله بمنى دور ، وبالطائف بُستان ، وقد سارت الركبان
بتصانيفه ، لا سيما القاموس ، فإنه أُعطِيَ قبولا كثيرا .

لنور الدين على يمدح كتابه القاموس

قال الأديب المفلق نور الدين على بن محمد العفيف[1] المكىّ الشافعى لما
قرأ عليه القاموس :

مُذ مَدّ مجدُ الدين فى أيامه[2] من فيض[3] أبحر علمه القاموسا
ذهبت[4] صحاح الجوهرى كأنها سحر المدائن حين أُلقِى موسى

(١) كذا فى الأصول وتاج العروس . وفى الضوء اللامع : « بن العليف » .
(٢) فى بعض النسخ : « واحد عصره » . وفى بعضها : « فى أرجائنا » .
(٣) كذا فى م . وفى سائر الأصول والضوء اللامع وتاج العروس : « بعض » .
(٤) فى بعض النسخ : « أضحت » .

من شعر المترجم

ومن شعره مما كتبه عنه الصَّلاح الصَّفَدِيُّ ، رحمهما الله :

أحبتنا الأماجــدَ إن رَحَلتم ... ولم تَرعَوْا لنــا عَهدًا[1] وإلّا
نودِّعْكم ونودعْكم قــلوبا ... لعلّ الله يجمعنــــا وإلّا

تاريخ وفاته

وكان يرجو وفاته بمكّة [المشرفة] ، فما قدَّر [الله] له ذلك ، بل تُوُفّى بزَبيد ، وقد ناهز التسعين ، وهو مُمتّع بحواسه ، وذلك ليلة العشرين من شوّال ، سنة سبعة عشر وثمان مئة ، تغمده الله تعالى برحمته ، وأسكنه فسيح جنته .
انتهى ملخصا من الضوء اللامع للسَّخاوى ، رحمه الله .

للفيومى يمدح القاموس

ولأبى عبد الله الفَيّومى يمدح القاموس المذكور :

لله قامــوسٌ يَطيبُ ورودُه ... أغنى الورَى عن كل مَعْنًى أزهرِ
لَفَظَ الصِّحاح بلفظه والبحرُ من ... عاداته يُلقى صِحاح الجوهرى

وللواسطى فى رموز القاموس

وقال عبد الرحمن[2] بن مَعمر [الواسطى] فى رموزه : [٥٤١]

وما فيه من رَمْزٍ بحرف فخمسة[3] ... فميم لمعروف ، وعين لموضــعِ
وجيم لجمــع ، ثم هاء لقرية ... وللبـلد الدال التى أهملت فَعِ

وله يمدح القاموس

وأنشدنا فيه لغيره ، سيدُنا ومولانا شيخ الشيوخ ، وخاتمة أهل التثبّت والرسوخ ، مُلحِق الأحفاد بالأجداد ، المبرِّز على النظراء والأنداد ، مفتى تِلمسان وأصقاعها ، ومعتَمَد أهل أقطارها وبقاعها ، عمُّنا سيدى سعيدُ بن أحمد المَقرِىّ ، صبّ الله عليه شآبيب رضوانه ، آمين :

---

(١) كذا فى الضوء اللامع وإنباء الغمر وفيما سيأتى فى جميع الأصول . وفى الأصول هنا : « ودا » .
(٢) فى م : « عبد الله » وهو تحريف . وقد نسب هذان البيتان أيضا إلى مؤلف القاموس (انظر تاج العروس فى المقدمة) .
(٣) رواية هذا الشطر فى تاج العروس : « وما فيه من رمز فخمسة أحرف » .

ألا ما لهذا فى اللغات مُشابِهٌ   فما هو إلا كاسمه زاخرٌ بحرُ
أحاط بما يحوِى سواه وفاقه   بمبدَع لفظ مع لغات بها كُثْرُ
جزى الله خيرا مَن تصدَّى لجمعه   وآتاه فضلا زاد ما اتّصل الدهرُ

قلت : هذه الأبيات لتقىّ الدين الواسطى ، نظمها تُجاه الكعبة المشرفة .
وأنشدنى أيضا ، رحمه الله ، وكتبهما بخطّه :

وما جاء فى القاموس رَمزًا فستة :   لموضعهمْ عينٌ ، ومعروفٍ الميمُ
وجَمٌّ لجمع الجمع ، دال لبلدة   وقريتهمْ هاء ، وجمع له الجيم

انتهى .

شعر للمترجم وقد قرأ صحيح مسلم

قلت : ومن أغرب ما منح الله تعالى المجد مؤلِّفَ القاموس المذكور ، أنه قرأ بدمشق بين بابى النصر والفَرَج ، تُجاه نَعْل النبى صلى الله عليه وسلم ، على ناصر الدين أبى عبد الله محمد بن جَهْبَل ، صحيح مسلم فى ثلاثة أيام ، وتبجَّح فقال :

قرأتُ بحمد اللهِ جامعَ مُسْلِمٍ   بجوف دمشق الشام جوفا لإسلام
على ناصر الدين الإمام بن جَهْبَل   بحضرة حُفاظٍ مشاهيرَ أعلام
وتمّ بتوفيق الإله بفضله   قراءةَ ضبط فى ثلاثة أيام

فسُبحان المانح الذى يؤتى فضلَه من يشاء .

ترجمة ثالثة للفيروزابادى ، عن انباء الغمر لابن حجر

وبعد أن كتبت هذه الترجمة ، وقفت على كلام تلميذه الإمام ابن حَجَر فى « إنباء الغُمْر ، بأنباء العُمْر » ، فأوردته هنا ، وإن كان مخالفا فى بعض المواقع [٥٤٢] لما قدمته ، إذ لا يخلو من فائدة ، ونصّه :

محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عُمر الشِّيرازى ، الشيخُ العلاّمة ،

مجدُ الدين أبو الطاهر الفَيروزابادى ، كان يَرفَع نَسَبه إلى الشيخ أبى إسحاق الشيرازىّ صاحب «التنبيه» ، ويذكر أن بعد «عمر» أبا بكر بن أحمد [بن أحمد] بن فضل الله بن الشيخ أبى إسحاق . ولم أزل أسمع [مشاهير] مشايخنا يطعُنون فى ذلك ، مُستندين إلى أن [الشيخ] أبا إسحاق لم يُعقِب .

ثم ارتقى الشيخُ مجد الدين درجة ، فادّعى بعدَ أن وَلِىَ قضاء اليمن بمدة طويلة ، أنه من ذُرِّية أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه . وزاد إلى أن رأيت بخطه لبعض نُوّابه فى بعض كتبه : « محمد الصِّدِّيقى » ؛ ولم يكن مدفوعا عن معرفة ، إلا أنّ النفس تأبى قبولَ ذلك .

مولده ورحلاته

وُلِد الشيخ مجد الدين سنة تسع وعشرين وسبع مئة بكارزين ، وتفقّه ببلاده ، وسمع بهـا من محمد بن يوسف الزَّرَنْدىّ المدنىّ صحيحَ البخارىّ ، وعلى بعض أصحاب الرَّشيد بن أبى القاسم ، ونظر فى اللغة ، فكانت جُلّ قصده فى التحصيل ، فمهر فيها ، إلى أن تميّز وفاق أقرانه ، ودخل الديار الشاميّة بعد الخمسين ، فسمع بها ، وظهرت فضائلُه ، وكثُر الآخذون عنه ، ثم دخل القاهرة ، ثم جال فى البلاد الشمالية والمشرقية ، ودخل الهند ، وعاد منها على طريق اليَمَن ، قاصدا مكّة [المشرَّفة] ، ودخل زَبيد ، فتلقاه الملك الأشرفُ إسماعيل بالقَبول ؛ وكان ذلك بعد وفاة جمال الدين الرَّيْمِىّ[1] ، قاضى الأقضية باليمن كلّه ، فقرّره الأشرفُ مكانه ، وبالغ فى إكرامه ، فاستقرت قدمه بزَبيد ، واستمرّ فى ذلك إلى أن مات . وقدم هذه المدة مكّة [مِرارا] ، وأقام بها وبالطائف ، ثم رجع وصنّف القاموس المحيط فى اللغة ، لا مَزيد عليه فى حُسْن الاختصار ، وميّز فيه

(١) فى الأصول هنا : «الذهبى» ، وهو تحريف . انظر الحاشية (رقم ١ ص ٤٢) من هذا الجزء .

زياداته على الصِّحاح ، بحيث لو أُفردت لكانت قدرَ الصحاح وأكثر ، فى عدد
الكلمات ، وقُرِئ عليه . وكان أولاً ابتدأ بكتاب كبير فى اللغة ، سمّاه : « اللامعَ [٥٤٣]
المعلَّمَ العُجاب ، الجامعَ بين المُحكَم والعُباب » ، وكان يقول : لو كَمَل لكان
مِئة مجلد . وذكر عنه الشيخ بُرهان الدين الحلبى ، أنه تتبّع أوهام المجمل لابن
فارسٍ فى ألف موضع ، وكان مع ذلك يعظّمُ ابن فارس ، ويُثنِى عليه .

كتبه وإسرافه
وقد أكثر المجاورة بالحرمين [الشريفين] ، وحصّل دنيا طائلة ، وكتبا
نفيسة ، لكنه كان كثير التبذير ، وكان لا يسافر إلا وصُحبته عِدّة أحمال من
الكتب ، ويُخرِج أكثرها فى كل منزل ، ينظر فيها ، ويعيدها إذا رحَل ،
وكان إذا أملق باعها . وكان الأشرفُ كثيرَ الإكرام له ، حتى إنه صنّف له
كتابا ، وأهداه له على أطباق ، فملأها له دراهم ، وصنّف للناصر كتابا سمّاه : « تسهيلَ
الوُصول ، إلى الأحاديث الزائدة على جامع الأصول » ، و « الإصعاد ، إلى
رتبة الاجتهاد[1] » فى أربعة أسفار ، وشرع فى شرحٍ مُطوّل على البخارى ،
[ملأه] بغرائب المنقولات ، وذكر لى أنه بلغ عشرين سِفرا . إلا أنه لما
اشتهرت باليمن مقالة ابن عَرَبىّ ، ودعا إليها الشيخُ إسماعيلُ الجبرتىّ[2] ، وغلب
على علماء تلك البلاد ، صار الشيخ مَجْدُ الدين يُدْخِل فى شرح البخارىّ من كلام
ابن عربىّ فى الفتوحات ، ما كان سببا لشَيْن[3] الكتاب [المذكور] .

ولم أكن أتهم الشيخ بالمقالة المذكورة ، إلا أنه كان يحب المداراة . وكان
الناشرىّ فاضلُ الفقهاء بزَبيد ، يبالغ فى الإنكار على إسماعيل ؛ وشرح ذلك يطول .
ولما اجتمعْتُ بالشيخ مجد الدين ، أظهر لى إنكار مقالة ابن عربىّ ، وغضّ

---

(١) تقدم اسم هذا الكتاب كاملا ، وهو : « الإسعاد بالإصعاد ، إلى درجة الاجتهاد »
ثلاث مجلدات . (٢) اقرأ ترجمته فى البدر الطالع للشوكانى (ج ١ ص ١٣٩) .
(٣) فى م : « لنبذ » .

منها ، ورأيته يصدّق بوجود رَتَن[1] الهندىّ ، وينكر على الذهبىّ قوله فى الميزان إنه لا وجود له . قال الشيخ مجدُ الدين : إنه دخل قريَتَه ، ورأى ذُرّيته ، وهم مُطْبِقون على تصديقه ؛ وقد أوضحت ذلك فى ترجمة « رَتَن » من كتاب الإصابة. [٥٤٤]

بعض مؤلفاته

ومن تصانيفه : «شوارق الأسرار ، فى شرح مشارق الأنوار[2] » ، و« الروض المَأْلُوف ، فيما له أسمان إلى الألوف » ، و« تحبير المُوَشّين ، فيما يقال بالسّين والشّين » . وكان يقول : ما كنت أنام حتى أحفظ مِئَتَىْ سطر ، ولم يُقدَّرْ له قَطُّ أنه دخل بلدة إلا وأكرمه متولّيها ، وبالغ فى إكرامه ، مثل شاه شُجاع ، صاحبِ تبريز ، والأشرفِ صاحب مصر ، والأشرف صاحب اليمن ، وابن عُثمان صاحب التركية ، وأحمد بن أُوَيس صاحب بغداد ، وغيرهم ، ومتّعه الله بسَمْعِه وبصره إلى أن مات .

شيوخه

سمع الشيخ مجدُ الدين من ابن الخبّاز ، وابن القيّم ، وابن الحموىّ ، وأحمدَ ابن عبد الرحمن المِرْداوىّ ، وأحمد بن مطر النابُلسى ، والشيخ تقى الدين السبكى ، ويحيى بن علىّ بن مُجَلّى بن الحداد ، وغيرهم ، بدمشق فى سنة نيف وخمسين ؛ وبالقُدس من العلائىّ ، والبيانىّ[3] ؛ وبمصر من القلانسىّ ، ومظفر الدين ،

(١) هو رتن بن عبد الله أو ابن كربال البترندى الهندى ، ويقال فيـه رطن (بالطاء بدل التاء) : شيخ معمر ، خفى خبره دهرا طويلا ، إلى أن ظهر على رأس القرن السادس ، فادعى صحبة النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه روى عنه أحاديث . وهو شيخ دجال بلا ريب ، قيل إنه توفى سنة اثنتين وثلاثين وست مئة (عن الإصابة لابن حجر) .

(٢) فى كشف الظنون : « شوارق الأسرار العلية ، فى شرح مشارق الأنوار النبوية » . وكتاب المشارق هذا الذى شرحه الفيروزابادى : للإمام رضى الدين الصنعانى المتوفى سنة ٦٥٠ هـ . ويسمى « مشارق الأنوار النبوية ، من صحاح الأخبار المصطفوية » . وللقاضى عياض كتاب يسمى مشارق الأنوار أيضا فى غريب الحديث ، وسيأتى ذكره بعد فى كلام المقرى على تواليفه .

(٣) فى س : « من العلامة البيانى » .

وناصر الدين التونسى ، وابن نُباتة ، [والفارقىّ ، والعَرَضىّ ، والعز بن جماعة ، وبمكة من خليل المالكىّ ، والتقىّ الحرازىّ] ؛ ولقى بغيرها من البلاد جمعا جمًّا من الفضلاء وحمل عنهم شيئا كثيرا ، وخرّج له الجمال المراكشىّ مَشيخة ، واعتنى بالحديث .

اجتمعتُ به بزَبيد ، وفى وادى الخصيب ، وناولنى جُلّ القاموس ، وأذِن لى مع المناولة أن أرويَه عنه ، وقرأت عليه من حديثه عِدّة أجزاء ، وسمعت منه المُسَلْسَل بالأولية لسماعه من السُّبْكىّ ، وكتب لى تقريظا على بعض تخريجاتى ، أبلَغ فيه ، وأنشدنى لنفسه فى سنة ثمان مئة بيتين ، كتبهما عنه الصلاح الصَّفَدىّ ، فى سنة سبع وخمسين بدِمشْق ، وبين كتابتهما عنه ووفاته ستون سنة ، رحمه الله :

أخلانا الأماجدَ إن رحلتم ولم ترْعَوا لنا عَهْدا وإلاّ
نودّعكم ونُودعكم قلوبا لعلّ اللهَ يجمعُنا وإلاّ

وفاته — مات [رحمه الله تعالى] فى ليلة العشرين من شوال وهو ممتّع بحواسّه ، [٥٤٥] وقد ناهز التسعين .

انتهى كلام ابن حَجَر فى ترجمته سنة سبع عشرة وثمان مئة ، من « إنباء الغُمْر ، بأنباء العُمر » .

* * *

مدح الفيروزابادى لابن عربى — ووجدت فى بعض المقيّدات بخط بعض الفضلاء ، ممن يُوثَق بدينه وعلمه من أهل عصرنا ، ما نصه :

سُئل شيخ الإسلام الشيخ مجدُ الدين الفَيروزاباديّ ، رضى الله عنه ، صاحب كتاب القاموس فى اللغة ، بما نصُّه :

ما يقول[١] سيدنا ومولانا شيخ الإسلام فى الكتب المنسوبة إلى الشيخ محيي الدين بن عربىّ ، كالفتوحات والفصوص ، هل تحِلّ قراءتها وإقراؤها ومطالعتها ؟ وهل هى [من][٢] الكتب المسموعة المقروءة أم لا ؟

فقال رضى الله عنه : الذى أقول وأتحقّقه ، وأَدِين الله تعالى به : أن الشيخ محييَ الدين ، كان شيخ الطريقة : حالا وعِلما ، وإمام التحقيق : حقيقة ورسما ، [ومحييَ رسوم العارفين فعلا واسما] :

إذا تغلغلَ فِكْرُ المرء فى طَرَفٍ مِن بحره غرِقت فيه خواطرهُ

فهو بحرٌ لا تُكَدِّرُه الدِّلاء ، وسَحاب لا تتقاصر عنه الأنواء ، كانت دَعَواته تخترق السَّبْع الطِّباق ، وتفترق بركاتُه فتملأ الآفاق ، وإنى أصفه ، وهو يقينا فوق ما وصفته ؛ وناطق بما كتبتُه ، وغالب ظنى أنى ما أنصفتُه :

وما علَىَّ إذا ما قلت مُعْتقَدى[٣] دع الجهول يَعُدُّ[٤] العَدْل عُدْوَانا
والله والله والله العظيم ومَن أقامه حُجَّـــةً للدين برهانا
إنَّ الذى قلت بعضٌ من مناقبه ما زدت إلا لعَلِّى زدت نقصانا

وأما كتبه ومصنفاته فهى البحار الزواخر، ما وضع الواضعون مثلها . انتهى .
وباقى الجواب سقط[٥] ، سهّل الله كماله .

---

(١) أورد المؤلف هذا الكلام فى ترجمة محيي الدين بن عربى ، من كتابه نفح الطيب ، مع بعض اختلاف ، نقلا عن كتاب : (الاغتباط ، بمعالجة ابن الخياط) للفيروزابادىّ .
(٢) « من » ساقطة من عبارة نفح الطيب .
(٣) كذا فى ط ، م ونفح الطيب . وفى س : « مقتديا » .
(٤) فى م ، س : « يظن » .
(٥) عثر المؤلف على بقية الجواب ، وذكره فى ترجمة ابن عربى ، بالجزء الأول من كتاب نفح الطيب .

التعريف بمحي الدين بن عربي

قلت : ولما جرى ذكر الشيخ بن عربيّ الحاتِمِيّ ، فلا بأس(١) من أن نُلِمّ ببعض حاله ، فنقول :

[٥٤٦] قال ابن خاتمة :

محمد بن على بن محمد الطائى بن عربيّ الصوفيّ ، من أهل إشبيليّة ، وأصله من سَبْتة ، يُكْنَى أبا بكر ، ويعرف بابن عربيّ ، وبالحاتميّ أيضا .

أخذ عن مشيخة بلده ، ومال إلى الأدب ، وكتب لبعض الوُلاة بالأندلس ، ثم رحل إلى المشرق حاجا ، فأدّى الفريضة ، ولم يَعُد بعدها إلى الأندلس ، وسمع الحديث من أبى القاسم الخَرَسْتانى وغيره ، وسمع صحيح مسلم من الشيخ أبى الحسن ابن أبى نصر ، فى شوال سنة ستّ وست مئة ، وكان يحدّث بالإجازة العامة عن أبى طاهر السِّلَفِيّ ، ويقول بها ، وبَرَع فى علم التصوف ، وله فى ذلك تواليف كثيرة ، منها : « مِلاك التأويل ، فى حقائق التنزيل » ، و « الجُذوة المقتبسة ، والحُظوة المختلسة » ، و « كتاب المعارف الإلٰهية » ، و « كتاب الإسرا ، إلى المقام الأسْرى » ، و « كتاب مواقع النجوم ، ومطالع أهلّة أسرار العلوم » ، و « كتاب عَنقاء مُغْرِب ، فى صفة ختم الأولياء وشمس المغرب » ، وكتاب فى فضائل شيخه عبد العزيز [بن] أبى بكر القرشى المَهْدَوِيّ ، والرسالة الملقّبة « بمشاهد الأسرار القدسية ، ومطالع الأنوار الإلٰهية » ، [فى] كتب أُخَر عديدة .

وقدم على المَرِيَّة من مُرْسِيَة مُسْتَهَلّ شهر رمضان سنة خمس وتسعين وخمس مئة ، وبها ألّف كتابه الموسوم ، بمواقع النجوم .

رأى ابن خاتمة فى ابن عربي

قال الأستاذ أبو جعفر : ولا نُسلّم له جميع مَقالاته وموضوعاته ، وإن كان لعلوه فى الإعراب ، قد تكلم من وراء حجاب ، وتحصّن من الرَّمْز ، بسند

(١) فى ط : « فلا بد » .

مَنيع الحِرْز ، ففى الإشارة الراجحة الدليل ، ما يقوم مقام العبارة الواضحة السبيل .

وقد حكى لى بعض ثقات أصحابنا ، عمن لقى من كبار شيوخ أهل العلم ، أنه كان يطعُنُ عليه ، ويرميه بوَهْنٍ فى دينه ، وينسُبه إليه ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، [٥٤٧]
إذ كل كلام يغلب[1] المجازُ والاستعارة عليه من غير قرينة ، فهو متشعّب المسالك .

وعلى الجملة ، فهو الذى جرّأ على نفسه ، لمآخذ المظلمة المدارك ، المشوّشة على السالك .

قال ابن الأبّار : وقد لَقِيه جماعة من العلماء والمتعبدين ، وأخذوا عنه ، وتُوُفّىَ بعد الأربعين وست مئة .

ذكره ابن الأبار ، وقال : أفادنى بعضُ أصحابنا أنه أجاز إجازة عامة لمن أحب الرواية عنه . انتهى كلام ابن خاتمة .

التسليم للمتصوفة خير من الطعن عليهم

والذى عند كثير من الأخيار من أهل هذه الطريقة ، التسليم لهم ، ففيه السلامة ، وهو أحوط من إرسال العِنان ، وقول يعود على صاحبه بالملامة .

[وما وقع لأبى حَيّانَ وابن حَجَرٍ فى تفسيره ، من إطلاق اللسان فى هذا الصّدّيق وأنظاره ، فذلك من فَلَس[2] الشيطان . والذى أعتقده ولا يصح غيره ، أن الإمام ابن عربىّ ، ولىّ صالح ، وعالم ناصح ، وإنما فَوّقَ إليه سِهام الملامَة ، من لم يفهم كلامَهُ .

على أنه دُسّت فى كتبه مقالات يجل قدره عنها ، وقد تعرّض من المتأخرين ولىُّ الله الربّانىّ ، سيدى عبد الوهاب الشّعرانى[3] ، نفعنا الله تعالى ببركته ،

(١) كذا فى س . وفى ط ، م : « يقبل » .
(٢) الفلس والإفلاس : أن تطلب الشىء فتخطىء موضعه .
(٣) هو الشيخ الصالح عبد الوهاب بن أحمد بن على الشعراوى ، نسبة إلى ساقية أبى شعرة ، قرية من ضواحى مصر ، توفى سنة ٩٧٣ هـ . (عن تاج العروس) .
وفى الأصول : « الشعرانى » وهى نسبته المشهورة على ألسنة العامة . اقرأ له فى الدفاع عن ابن عربى كتاب : « الكبريت الأحمر ، فى بيان علوم الشيخ الأكبر » وانظر ما نقله المؤلف من كلامه فى نفح الطيب ، فى ترجمة ابن عربى .

لتفسير كلام الشيخ على وجه يليق ، وذكر من البراهين على ولايته ما شرح صدور أهل التحقيق ، فليطالع ذلك من أراده ، والله ولى التوفيق] .

[التجديد والمجددون]

نظم السيوطى فى المجددين

قلت : وإذ قد تقدم أمر التجديد أواخر القرن الثامن ، فيما جلبناه فى التعريف المنقول آنفا(١) ، ناسب أن نذكر نظم [إمام] الدنيا جلال الدين السيوطى ، المسمّى « بتحفة المهتدين(٢) ، بأسماء المجدّدين » ، ونصّه :

الحمد لله العظيم المِنّهْ ... المانح الفضل لأهل السُّنّهْ
ثم الصلاةَ والسلامَ نلتمسْ ... على نبيٍّ دينُه لا يندَرِسْ
لقد أتى فى خبرٍ مُشْتَهِرِ ... رواه كل حافظ معتبَرِ
بأنه فى رأس كل مئةِ ... يَبْعَثُ ربنا لهذى الأمّةِ
مِنّا عليها عالمًا يُجَدِّدُ ... دينَ الهُدى لأنه مُجتهِدُ

آراء فى المراد بالمجدد

قلت : اختلف الناس فى المراد بالمجدِّد ، فقيل مِنَ العلماء ، وقيل من الأولياء ، وقيل من الملوك ، ولكلٍّ حجة مذكورة فى محلها . وسمعت شيخنا الإمام بقيةَ الناس ، سيدى أحمد بابا السودانى التُّنْبُكْتِيّ ، أبقى الله جلاله ، وأدام عزته ، وحفظ خِلاله ، يقول إن ذلك يكون فى كل قطر بحسبه ، وليس من شرطه أن يعمّ الدنيا أو غالبها ، والله أعلم . [٥٤٨]

ولأجل ذلك قال أبقاه الله فى رَجَزه فى هذا المعنى ، حيث ذكر المجدِّدين .

قال فى العاشر ما نصه :

(١) يشير المؤلف إلى ما نقله من التعريف بصاحب القاموس ، عن كتاب « الشقائق النعمانية ، فى علماء الدولة العثمانية » .

(٢) كذا ورد اسم هذا الكتاب ضمن مجموعة خطية (محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٣٦٠ مجاميع) . وفى الأصول : « بتحفة المجتهدين ... الخ » .

وعاشرُ القرون فيه قد أتَى محمدٌ إمامُنا وهو الفتى

يعنى به الشيخَ العلّامة سيدى محمدًا بَغْيُعَ(١)، رحمه الله . ولا خفاء أن هذا منه أبقاه الله بناء على اعتبار كل قطر على حِدَة ، إذ هذا الشيخ الذى جزم بتجديده ، إنما هو فى صُقْع تُنْبُكْت(٢) وجاغو . وأما فى بلاد المغرب وغيرها فلا ؛ وهو مخالف لما عند السُّيوطى فى هذا النظم ، كما تراه قريبا . والله تعالى أعلم بالصواب .

عود إلى نظم السيوطى فى المجددين

ولنرجعْ إلى كلام الإمام الجلال السُّيوطىّ ، رحمه الله تعالى ؛ قال :

فكان عند المئة الأولى عُمَرْ خليفةُ العدْل بإجماع وَقَرْ

والشافعىُّ كان عند الثانيهْ لما له من العلوم الساريهْ

وابنُ شُرَيح ثالث الأئمهْ والأشعرىُّ عدَّه مَن أمَّهْ

والباقِلانى رابعٌ أو سَهْلٌ أوْ الاسْفَرايِنى خلافا [قد] حَكَوْا

والخامس الحَبْرُ هو الغزَّالى وعَدُّه ما فيه من جِدالِ

والسادس الفخرُ الإمامُ الرازى والرافعىُّ مثلَه يُوازى

والسابع الراقِى إلى المراقى ابنُ دقيق العيد باتّفاقِ

والثامنُ الحَبْرُ هو البُلْقِينِى(٣) أو حافظ الأنام زَيْنُ الدِّينِ(٤)

(١) كذا ضبطه الشيخ أحمد بابا فى : « الابتهاج ، بتذييل الديباج » .

(٢) تنبكت (بضم ، فسكون ، ثم موحدة مضمومة ، وكاف ساكنة) : مدينة فى أقصى المغرب . (انظر تاج العروس) .

(٣) البلقينى : نسبة إلى بلقينة (بضم الباء وكسر القاف أو فتحها) بلدة بمصر بالغربية .

(٤) هو الحافظ الكبير عبد الرحيم بن الحسين الزين العراقى ، الكردى الأصل ، شيخ المحدثين فى المئة الثامنة . ولد بمصر سنة ٧٢٥ ، وتخرج به كثير من أعلام المحدثين بمصر والشرق ، كالإمام بن حجر العسقلانى ، وابن حجر الهيثمى . وقد جمع أطراف الثقافة العربية والإسلامية ، وصار أوحد وقته فى علوم الحديث ؛ وله فيها الألفية التى ذاعت شهرتها ، وتخريج أحاديث الاحياء ، وغير ذلك كثير . توفى سنة ٨٠٦ هـ كما فى البدر الطالع للشوكانى ، أو سنة ٨١٩ كما فى حاشية طبقات الحنفية لمحمد عبد الحى اللكنوى الهندى .

وعَدَّ سبْطَ المَلِقِ الصُّوفِيَّه ... لو وُجِدَتْ مِثْقه وَفِيَّهْ
والشرط فى ذلك أن تمضى المئه ... وهو على حياته بين الفِئَهْ
يُشارُ بالعلم إلى مَقامِه ... وينصرُ السنة فى كلامِهِ
وأن يكون جامعا لكل فَنّْ ... وأن يَعُمّ علمُهُ أهلَ الزّمنْ
وأن يكونَ فى حديث قد رُوِى ... من أهل بيت المصطفى وهو قَوِى
وكونه فردا هو المشهورُ ... قد نَطَق الحديثُ والجُمْهورُ
وهذه تاسعةُ المئينَ قد ... أتتْ ولا يُخْلَفُ ما الهادِى وَعَدْ
وقد رجوتُ أنّىَ المُجَدِّدُ ... فيها ففضلُ الله ليس يجْحَدُ [٥٤٩]
وآخرُ المئينَ فيها يأتى ... عيسَى نبىُّ اللهِ ذو الآياتِ
يُجددُ الدين لهذى الأمّهْ ... وفى الصّلاة بعضُنا قد أمّهْ
مُقرِّرا لشرعنا ويحكُمُ ... بحكمنا إذ فى السماء يَعْلَمَ
وبعده لم يبق من مُجَدِّدِ ... ويُرْفَعَ القرآن مثلَ ما بُدِى
وتَكْثُرُ الأشرارُ والإضاعهْ ... من رَفْعِه إلى قيام الساعهْ
وأحمدُ الله على ما علّما ... وما جلا من الخفاء والعمَى
مُصَلِّيًا على نبىّ الرحمهْ ... والآلِ مَعَ أصحابه المُكَرّمهْ

* * *

انتهى .

وليكن هذا آخرَ هذه الترجمة . والله ولىُّ التوفيق ، لا رب غيره ، ولا معبود سواه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

٣
روضـــة البهار
فى ذكر جملة من شيوخه الذين فضلهم أظهر من شمس النهار

أقولُ معتمدًا على ذى الطَّوْل ، الذى بيده القوة والحَوْل : مقدمة

أردنا أن نذكر فى هذه الترجمة مشاهيرَ شيوخ القاضى [الإمام] أبى الفضل عياض ، رحمهُ الله ؛ وقد قدّمنا فى الترجمة قبلَ هـذه أسماء بعضهم على سبيل الإجمال ، حيث جرّ الكلام إليها ، وهذا هو محلُّها ، وقد تكفّل رحمه الله بذكرهم ، فى كتابه الذى سمّاه بالغُنْية ، وقد ذكر فيها نحو المئة .

وقال ابنه رحمه الله : انتهى عددُ أشياخه الذين ذكرهم فى فهْرَسَتِه ، ممن سمعه أو أجازه ، واليســيرُ منهم لقيَه وجالسَه ، ولم يسمعْ منه ، إلى مئة شيخ . انتهى .

وقد ذكرَ كثيرا من أحوالهم فى « الغُنْية » ، ولم تحضُرْنى نسخةٌ منهـا الآنَ بفاس ، لأنى تركت التى عنـدى بتِلمْسان ، ولم أجدْ منها بفاس نسخة ؛ وكلُّ ما أذكره هنا من التعريف ببعض أشياخه ، فهو منقول من غيرها ، وقد يتّفق لفظه مع ما فيها .

[شيوخ عياض]

فمن جملة أشياخه رحمه الله تعالى :

[٥٥٠] القاضى أبو الوليـد محمّدُ بنُ أحمدَ بنِ أحمدَ بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن رُشْد الفقيه . ذكره ابن بَشْكُوال ، فقال : قاضى الجماعةِ بقُرطبة ، أبو الوليد بن رشد (الجد)

وصاحب الصَّلاة بالمسجد الجامع بها ، يُكْنَى أبا الوليد .

شيوخه وعلمه

رَوَى عن أبى جعفر بن رَزْق الفقيه ، وتفقَّه معه ، وعن أبى مَرْوَانَ بن سِراج ، وأبى عبد الله محمد بن خِيَرة ، وأبى عبد الله محمد بن فَرَج ، وأبى عَلِيّ الغَسَّانى ، وأجاز له أبو العباس العُذْرِىّ ما رواه ؛ وكان فقيهًا عالمًا ، حافظًا للفقه ، مقدَّمًا فيه على جميع أهل عصره ، عارفًا بالفَتْوَى على مذهب مالك وأصحابه ، بصيرًا بأقوالهم ، واتفاقهم واختلافهم ، نافذًا فى علم الفرائض والأصول ، من أهل الرياسة فى العلم ، والبراعة والفَهْم ، مع الدِّين والفضل ، والوقار والحِلْم ، والسَّمْت الحسن ، والهَدْىِ الصالح .

ورعه ومؤلفاته ومولده ووفاته

سَمعت الفقيه أبا مروانَ عبدَ الملك بن مَسَرَّة يقول : شاهدت شيخنا القاضى أبا الوليد يصوم يوم الجمعة دائمًا ، فى الحضَر والسفَر . ومن تواليفه كتابُ « المقدِّمات لأوائل كُتُب المدوَّنة » ، و « كتابُ البيان والتحصيل ، لما فى المُسْتخرَجة من التوجيه والتعليل » ، و « اختصار المبسوطة » ، و « اختصار مُشْكل الآثار » للطحاوىّ ، إلى غير ذلك من تواليفه . سمعنا عليه بعضها ، وأجاز لنا سائرَها ، وتقلد القضاء بقرطبة ، وسار فيه بأحسن سِيرة ، وأقوم طريقة ، ثم استعفَى عنه فأُعْفِى ، ونشر كُتُبه وتواليفه ، ومسائله وتصانيفه ، وكان الناس يَلجئون إليه ، ويُعوِّلون فى مُهِمَّاتهم عليه ؛ وكان حسن الخُلُق ، سَهْل اللقاء ، كثير النَّفع لخاصَّته وأصحابه ، جميلَ العِشرة لهم ، حافظا لعهودهم[1] ، كثير البِرّ بهم ، وتُوُفِّىَ عفا اللهُ عنه ليلة الأحد ، ودُفِنَ عَشِىَّ يوم الأحد ، الحادىَ عشرَ من ذى القَعْدة ، سنة عشرين وخمس مئة ، ودُفن بمَقْبَرة العباس ، وصلَّى عليه ابنُهُ أبو القاسم ، وشهِدَه جمعٌ عظيم من الناس ، وكان الثناء عليه حسنًا جميلا . [٥٥١]

(١) فى الصلة لابن بشكوال : « لعهدهم » .

ومَوْلده فى شوّال سنة خمسين وأربع مئة .

توجهه إلى المغرب وعودته

وقد كان أيامَ حياته توجه إلى المغرب ، إثْر الكائنة التى كانت بين المسلمين والنصارى ، بالموضع المعروف بالربنيول(١) ، وذلك فى منتصف شهر صفر عام عشرين وخمس مئة ، فاستخار القاضى أبو الوليد فى النهوض إلى المغرب ، مُبيِّنًا لأمير المسلمين علىّ بن يوسف بن تاشَفينَ ، ما الجزيرةُ عليه ، فوصل إليه ، فلقيه أكرم لقاء ، وبقى عنده أبرّ بقاء ، حتى استوْعب فى مجالس عديدة ، إيراد ما أزعجه إليه ، وتبيَّنَ ما أوفده عليه ، فاعتقد ما قرّره لديْه ؛ وانفصل عنه ، وعاد إلى قرطبة ، فوصلها آخر جُمادَى الأولَى من السنة المذكورة ، وعلى أثَر ذلك أصابته العلة التى أنجمته ، إلى أن أفضت به إلى قضاء نَحْبه ، ولقاء المرتقَب من محتوم لقاء ربِّه ، وتبارَى الأدباء والشعراء فى تأبينه ؛ وحُقّ لهم ذلك ، رضى الله عنه وأرضاه .

ومن أشياخ القاضى أبى الفضل عِياض :

أبو عبد الله التجيبي القرطبي

الشيخ أبو عبد الله محمدُ بن أحمدَ بن خَلَفِ بن إبراهيم التُّجيبيّ القرطبيّ ، الشهير بابن الحاجّ ، قاضى الجماعة بقرطبة . رَوَى عن أبى جعفرٍ أحمدَ بن رَزْق الفقيه ، وتفقّه عنده ، وقيَّد الغريب واللغة والأدب عن أبى مَرْوان عبد الملك ابن سراج ، وسمع عن أبى عبد الله محمد بن فَرَجٍ الفقيه ، وعن أبى علىّ الغسّانىّ وغيرهم . وكان مِن جِلّة الفقهاء ، وكبار العلماء ، معدودًا فى المحدِّثين والأُدَباء ، بصيرًا بالفُتْيا ، رَأْسا فى الشُّورَى ، وكانت الفُتْيا فى وقته تدور عليه ، لمعرفته وثقته وديانته ، وكان مُعْتنيا بالحديث والآثار ، جامعًا لها ، مقيِّدًا لما أشكل من معانيها ، ضابطا لأسماء رجالها ورُواتها ، ذاكرًا للغريب والأنساب ، واللغة

(١) كذا فى الأصول ، ونظنه محرفا ، ولم نجد ما يصوبه .

والإعراب ، وعالما بمعانى الأشعار ، والسِّيَر والأخبار . قال ابن بَشْكُوال : قيد
العلم عُمْرَه كلَّه ، وعُنِى به عناية كاملة ، ما أعلم أحدًا فى وقته عُنِى كعنايته ، قرأت [٥٠٢]
عليه وسمعت ، وأجازنى بخطه ؛ وكان له مجلس بالجامع بقرطبة ، يُسْمِعُ الناسَ
فيه ، وتقلّد القضاء بقرطبة مرتين ، وكان فى ذاته ليِّنًا صابرًا ، طاهرًا حليما
متواضعا ، لم يُحْفَظ له جَوْر فى قضيّة ، ولا ميل بهوى ، ولا إصغاء إلى عناية[1] ،
وكان كثير الخضوع والذكر لله تعالى ، ولم يزل آخرَ عمره يتولّى القضاء بقرطبة ،
إلى أن قُتِل ظالما بالمسجد الجامع بقرطبة ، يومَ الجمعة وهو ساجد ، لأربع بَقِين
من صفر ، من سنة تسع وعشرين وخمس مئة ، ومولدُه فى صفر سنة
ثمان وخمسين وأربع مئة . وكتابه فى نوازل الأحكام ، المتداولُ لهذا العهد بأيدى
الناس : من الدلائل على تقدمه فى المعارف وبراعته . تغمدنا الله وإياه برحمته

ومن أشياخ القاضى أبى الفضل عياض رحمه الله :

أبو بكر بن العربى المعافرى

القاضى الشهير الحافظ الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله
ابن أحمد بن العَرَبىّ المَعافرىّ الإشبيلىّ ، رحل إلى المشرق مع أبيه يوم الأحد ،
مستهلَّ شهر ربيع الأوّل ، سنة خمس وثمانين وأربع مئة ، فدخل الشام ، ولَقِيَ بها
أبا بكر محمدَ بنَ الوليد الطُّرْطُوشِىّ ، وتفقه عنده ، ورحل إلى الحجاز فى موسم
سنةِ تسع وثمانين ، ودخل بغدادَ مرّتين ، وصحب أبا بكر الشاشىّ ، وأبا حامدٍ
الطوسىّ الغزّالىّ ، وغيرَهما من العلماء والأدباء ، فأخذ عنهم ، ثم صدر عن بغداد ،
ولقى بمصر والإسكندرية جماعة ، ثم عاد إلى الأندلس سنة ثلاث وتسعين ، وقدم
إلى إشبيلية بعلم كثير ، لم يَدْخُل به أحد قبله[2] ، ممّنْ كان له رحلة إلى المشرق ،

(١) فى ط : « غاية » . (٢) كذا فى ابن خلكان نقلا عن الصلة لابن بشكوال .
والذى فى الأصول « لم يدخله أحد قبله » .

ولذا نُقِل عنه أنه قال : كُلُّ من رحل لم يأت بمثل ما أتيتُ به أنا والقاضى أبو الوليد الباجِىّ ، أو كلاما هذا معناه . أو قال : لم يرحَلْ غيرى وغير الباجى ، وأما غيرنا فقد تعب ، أو نحو هذا ، مما لم تحضرنى عبارته الآن .

[٥٥٣] وكان من أهل التفنّن فى العلوم ، متقدما فى المعارف كلّها ، متكلما فى أنواعها ، حريصا على نَشْرِها . واسْتُقْضِىَ بمدينة إشبيليّة ، فقام بما قُلِّدَ أحمدَ قيام ، وكان من أهل الصرامة فى الحق ، والشدة والقوة على الظالمين ، والرِّفق بالمساكين ، ثم صُرِف عن القضاء ، وأقبل على نشر العلم وبثّه .

قال المحدِّث أبو القاسم خَلَف بن عبد الملك بن بَشْكُوال : قرأت عليه بإشبيليّة ، وسألته عن مولده ، فقال لى : وُلِدْتُ ليلة الخميس لثمان بَقِين من شعبان سنة ثمان وستين وأربع مئة ؛ وتُوُفِّىَ رحمه الله بالعُدوة ، ودفن بمدينة فاس فى ربيع الآخِر ، سنة ثلاث وأربعين وخمس مئة . انتهى .

من كلام ابن بشكوال عنه

وقال ابن بَشْكُوال أيضا فى حقه :

هو الحافظ المستبحر ، خِتام علماء الأندلس ، وآخر أئمتها وحُفّاظها . انتهى .

ومن تكملة المحدِّث أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن الأبّار ، عن أبى عبد الله بن مجاهد الإشبيلىّ الزاهد العابد : أنه لازم القاضىَ أبا بكر بن العربىّ نحوا من ثلاثة أشهر ، ثم تخلف عنه ، فقيل له فى ذلك ، فقال كان يُدرّس وبغلتُه عند الباب ، ينتظر الركوب إلى السُّلْطان . انتهى .

شىء عنه من صلة ابن الزبير

وذكره الأستاذ أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزُّبير فى صلته ، وقال فيه :

رحل مع أبيه أبى محمد عند انقراض الدولة العَبّادية إلى الحج ، سنة خمس وثمانين وأربع مئة ، وسِنُّه إذ ذاك نحو سبْعَةَ عشَرَ عاما ، فلقِىَ شيوخ مِصْر ؛ وعدّدَ أناسا ، ثم قال : وقيّد الحديث ، وضبط ما رَوَى ، واتسع فى الرواية

وأتقن مسائل الخلاف والأصول والكلام ، على أئمة هذا الشأن ، وعاد إلى بغداد بعد دخولها ، وانصرف إلى الأندلس ، فأقام بالإسكندرية ، فمات أبوه بها أول سنة ثلاث وتسعين . ثم انصرف إلى الأندلس ، فسكن بلده إشبيلية ، وشُووِرَ [٥٥٤] فيه ، وسمع ودرّس الفقه والأصول ، وجلس للوعظ والتفسير ، وصنف فى غير فنّ تصانيف مليحة ، حسنة مفيدة ، وولى القضاء مدة ، أولها فى رجب من سنة ثمان وعشرين ، فنفع الله به ، لصرامته ونفوذ أحكامه ، والتزم الأمرَ بالمعروف ، والنهىَ عن المنكر ، حتى أوذِى فى ذلك ، بذهاب كتبه وماله ، فأحسن الصبرَ على ذلك كله ، ثم صُرِف عن القضاء ، وأقبلَ على نشر العلم وبثه ، وكان فصيحا حافظا ، أديبا شاعرا ، كثير المُلَح ، مليح المجلس .

ثم قال : قال القاضى أبو الفضل عياض بن موسى — وقد وصفه بما ذكرتُه — ثم قال : ولكثرة حديثه وأخباره ، وغريب حكاياته وروايته ، أكثر الناس فيه الكلام ، وطعنوا فى حديثه ، وتُوُفِّى مُنْصَرَفَه من مَرَّاكُش ، من الوجهة التى توجه فيها مع أهل بلده إلى الحضرة ، بعد دخول مدينة إشبيلية ، فحُبِسوا بمراكُش نحو عام ، ثم سُرِّحوا ، فأدركته منيته بطريقه ، على مَقْرَبة من فاسَ بمرحلة ، وحُمل مَيّتا إلى مدينة فاس ، فدُفن بها ، بباب الجيسة .

قال : ورَوَى عنه الجمُّ الغفير . فمن جُملة من رَوَى عنه من علماء المئة الخامسة ، القاضى أبو الفضل عياض بن موسى ، وأبو جعفر بن الباذِش ، وطائفة . انتهى .

وفاته وقبره

قال القاضى أبو الحسن بن الحسن النُّباهى فى كتاب «المرقبة العُليا ، فى القضاء[1] والفُتْيا» بعد أن ذكر ما قدّمناه ، ما نصه : والصحيح فى القاضى أبى بكر

---

(١) تقدم فى بعض مواضع من هذا الكتاب مكان كلمة : «القضا» ، «مسائل القضاء» ، «الأقضية» .

أنه إنما دُفن فى خارج باب المحروق من فاس ، وما وقع من دَفْنه بباب الجيسة ، وَهْمٌ مِنِ ابن الزُّبير وغَلَط ، وقد زُرناه وشاهدنا قبره بحيث ذكرناه .

أرضاه الله ، وغفر لنا وله . انتهى .

قلت : وقد سبَق ابنَ الزُّبير إلى ذلك القاضى أبو الفضل عياضٌ فى الغُنية ،

[٥٥٥] فإنه قال : دُفن خارج باب الجيسة . واعتذر عنه بعضُ الأكابر ، (١) بأن باب المحروق لم يكن إذ ذاك فُتح (١) ، لأنه من بناء أمير المؤمنين الناصر بن أمير المؤمنين يعقوب المنصور بن أمير المؤمنين يوسف بن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على ، ولا شك أن ذلك متأخر عن زمان عياض قطعا ؛ ويبقى الإشكال فى كلام ابن الزُّبَيْر ، لتأخر زمانه عن ذلك .

[استطراد وتحقيق]

[بين الشيخين : ابن غازى والونشريشى]

رسالة الإشارات الحسان لابن غازى

وبعد ما كتبت هذا هنا ، وقفتُ على تأليف لطيف ، صغير الجِرْم ، كثير العلم ، للشيخ الإمام [العالم] أبى عبد الله محمد بن غازى رحمه الله [تعالى] ، ألمّ فى آخره بالمسألة المذكورة ، فرأيت أن أُورِدَه بطوله ، لما اشتمل عليه من الفوائد ، وإن كانت أجنبيّةً عما نحن فيه ، ولكن لا يخلو من فوائد جمة ؛ وختمته بهذا الغرض الذى ذكرناه ، وخاطب به الشيخَ الحافظ الإمام سيدى أحمد بن يحيى الونْشريشىّ المولد ، التلمسانى المنشأ والقراءة ، الفاسىّ القبْر والدار آخرَ عمره ، بل أوسط عمره ، وسماه : « بالإشارات الحسان ، المرفوعة إلى حَبْر فاس وتلمسان » . يعنى بحبر فاس وتلمسان : الشيخَ الونشريشىّ المذكور ؛ وقد كتب بطُرّره الشيخُ الونشريشىّ المذكور زوائد ، هأنا أذكرها فى محلها ، تتميما للغرض ، ونصّه :

(١ — ١) فى الأصول : « بأن باب المحروق لم تكن إذا ذاك فتحت » . والمغاربة يؤنثون الباب .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمة

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلّم .

الحمد لله حمدًا كثيرا طيبا مُبارَكا فيه حَقَّ حَمْدِه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيِّه وعبدِه .

إلى السيد الفقيه ، العالم ، المحقق ، المدرِّس ، المفتى ، الصَّدْر ، الحُجَّة ، الكبير ، الخطير ، الأحظى ، الملحوظ ، الأحفلِ الأكملِ ، أبى العباس سيدى أحمد بن سيدى يحيى الوانشريشى ، حفظ الله سبحانه وتعالى كماله ، وبلَّغه فى الدارين آماله ، من مُحِبّه طَبْعا وشرعا ، أصْلا وفرعا ، وِترا وشَفْعا ، إفرادا وجَمْعا ، محمد بن أحمد بن غازى ، سَمح الله سبحانه [وتعالى] له ، مسلِّما عليكم أكمل [٥٥٦]

السلام ، مخصصا لكم بمحض البرّ والإكرام .

سيدى ، متى صار النهرُ يَستمدُّ من الساقيه ؟ وكيف عاد السَّيْح[1] يفتقر إلى السانيه ؟

* فى طلعة الشمس ما يُغنيك عن زُحَل *

* ليس التكحّل فى العينين كالكَحَل *

سؤال الوانشريشى لابن غازى عن مسائل من العلم

كتبتَ ، كتب الله لك السعادة ، وبلّغك منها الحُسْنَى والزيادة ، تُشارِك محبكم فى أمرِ سعيدٍ بُرْدًا باسكات عمرَ بن عبد العزيز ، أو إخراجه من المسجد ، هل كان ذلك فى خلافته ، أو فى إمرته بالمدينة[2] ؟ ومَن بُرْدٌ هذا ، ومن عرّف به ؟ ومَنْ قال بإسلام أبى طالب غيرِ المسعوديّ ؟ ومن أبو العباس المشّاب ، الذى نَقَلَ عنه ابنُ عرفَةَ فى فصل الاستثناء من كتاب الطلاق ؟ ومَنْ الآبِلىّ المِصْرِيّ ؟ وهل ألّفَ أحد فى التعريف برجال أهل السُّنّة والمعتزلة ؟

(١) السيح : الماء الجارى الظاهر. (٢) فى م : « إمرته على المدينة » .

فتورَّعَ فِكْرُ محبكم فى إيرادكم(١) شذَرَ مَذَر ، ولم يكن بُدٌّ من إسعاف رَدِّكم(٢) ، ولو بالتشدُّق والهَذَر .

قضية سعيد بن المسيب مع عمر بن عبد العزيز

١ — أما قضية سعيد بن المسيِّب بن حَزْن ، مع عمر بن عبد العزيز بن مروان ابن الحَكَم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ، المذكورة فى سماع القَرينين من صلاة العُتبية ، فليس عند محبكم فى طرده ، إلا ما فسَّر به القاضى أبو الوليد بن رُشْد : أنه من جِواره ، لا من المسجد جملة ؛ فإن وقَفتُم على تفسير أحد له بالإخراج من المسجد ، فلكم الفضل فى إفادتنا به . ثم لا مِرْيَة أن سعيدًا مَدَنِىّ ، وأن عمر كان عاملا على المدينة ، إلى أن عُزِل عنها سنة ثلاث وتسعين ، حسبما هو فى ترجمة مالك من المدارك ، عن مُصْعَب بن عبد الله .

وفى جامع المُوَطَّأ لمالك ، أنه بلغه أن عمر بن عبد العزيز حين خرج من المدينة ، التفت إليها فبكى ، ثم قال : يا مُزاحِم ، أتخشى أن نكونَ ممن نَفَتِ المدينة(٣) ؟

[٥٥٧] قال أبو عُمَر(٤) : ذكر أهل السِّيَر أن خروج عمرَ مع مُزاحِم مولاه من المدينة ، كان فى شهر رمضانَ سنة ثلاث وتسعين ، وذلك أن الحجَّاج كتب إلى الوليد : إن عمر بن عبد العزيز بالمدينة كَهْفٌ لأهل النفاق ، وأهل البغضاء والعداوة لأمير المؤمنين . فجاوبه الوليد : إنى أعزِله . فعزله ، وولى عُثمان بن حَيَّانَ المُرِّىّ ؛ وذلك فى شهر رمضانَ المذكور . فلما صار عمرُ بالسُّوَيْداء قال لمزاحم : يا مزاحم ، أتخافُ أن نكون ممن نفت المدينة ؟

وقال مَيْمون بن مِهْران : ما رأيت ثلاثة مجتمعين خيرا من عمرَ بن

(١) فى س : « المراد » . (٢) فى س : « ودكم » .

(٣) فى كلام عمر مع مولاه مزاحم إشارة إلى الحديث النبوى : « لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها كما ينفى الكير خبث الحديد » . رواه مسلم .

(٤) هو أبو عمر يوسف بن عبد البر النمرى القرطبى الأندلسى الحافظ المشهور .

عبد العزيز ، وابنه عبد الملك ، ومولاه مزاحم . انتهى .

قلت : مات ابنه ومولاه المذكوران قبله مَطْعُونين ، ومات هو مسموما . ذكر ذلك أبو نُعيم الحافظ فى « حِلية الأولياء » . وكان ميمون بن مِهْران كاتبه ، رضى الله سبحانه [وتعالى] عنهم .

وأفضت الخلافة إلى عُمر باستخلاف [سليمان] (١) النَّهِم إياه ، فاستقر بالشام ، دار خلافة قومه بنى أمية ، إلى أن قُبض ودُفن بدير سَمْعان .

قال ابن الخطيب فى شرح رَقْم الحُلَل : مِنْ عمل حِمْص ، فى أُخريات رجب ، سنة إحدى ومئة . وقبره مشهور ، يغشاه الناس . انتهى .

وقال الشاعر يَرْثيه رضى الله عنه :

أقولُ لما نَعَى الناعون لى عُمَرًا   لا يَبْعَدَنَّ قِوَامُ الحَقِّ والدِّينِ
قدغَيَّب الرامِسُون اليومَ إذ رَمَسوا   بديرِ سَمْعان قِسطاسَ الموازينِ

وفى رواية : « جُرْبان الموازين » . أنشدهما أبو نُعيم فى الحِلية . ورأيت فى نسخة منها « جُرْيان » بالياء آخر الحروف (٢) ، وأظنه تصحيفا ، لأنَّ مصدرَ جرَى جَرَيان بفتح الراء ، والوزن يأباه ، مع ما فيه من القَلَق من جهة المعنى ؛ وصوابُه ، والله [٥٥٨]
[تعالى] أعلم ، « جُرْبان » ، بضم الجيم ، وإسكان الرّاء ، و بالباء ثانية الحروف (٢) ، وأظن أن منه اللفظ الذى فى صَرْف العُتْبيَّة ، فيمن له على رجل دينار ، فأعطاه به نصفين وازنين ؛ قال : لا خير فيه إلا أن يكون للدينار جُرْبان : معيارٌ عنده . قال القاضى أبو الوليد بن رُشْد : جُرْبان ، أى وزن معلوم . وفى صِحاح الجوهرىّ : الجَرِيب ، من الطعام والأرض : مِقدار معلوم ، والجمع أَجْرِبة وجُرْبان . انتهى .

(١) هو سليمان بن عبد الملك ، كان مشهورا بالنهم وكثرة الأكل . وكان موته من أكلة أكلها . (انظر مروج الذهب والعقد الفريد) .

(٢) يريد حروف الهجاء ، لا حروف الكلمة .

و بين التفسيرين فَرْق ، ولـكنهما حول حقيقة واحدة يُدَنْدِنَان . و إن كان عند سيدنا فى تحقيق هذا اللفظ غيرُ هذا ، فعسى أن يفيدنا به .

فإذا تقرّر سُكناه بالمدينة أيام العِمالة ، ثم بالشام أيام الخلافة ، فالأظهر أن طَرْد سعيد إياه كان أيام العِمالة ، حيث كان ثاويا بالمدينة ، لقوله فى الرواية : كان عمر بن عبد العزيز يخرج مِنَ الليل ؛ أراه [فى] آخره ؛ وكان ظاهره فى المثابرة ، ومَظِنتها الإقامة ، لولا أن شيخ الحقيقة ، وإمام الطريقة ، القاضىَ أبا الوليد بن رُشْد قال : لم يَهبْهُ لمكانه من الخلافة ، لجزالته وقوته فى الحق ، وقلّة مُبالاته بالأئمة . فاقتضى كلامُه أنّ ذلك كان وهو خليفة لا وهو عامل . فإن صح ذلك ، فيحتمل أن يكون جاء يزور المدينة ، على ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام ، فى أيام خلافته ، وأقام فيها للعبادة . ورُبما يتعيَّنُ هذا ، بأنَّ النافلة فى البيوت أفضلُ لغير الغُرَباء ؛ والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

وقد ذكّرَ قولُ ابن رُشْد هذا مُحبَّكم ما فى صحيح البُخَارِىّ ، عن سعيد بن المسيّب، أنه قال : جاء جدّى حَزْنٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : ما اسْمُكَ ؟ قال : حَزْن . قال أنت سَهْل . فقال : ما كنت أغيِّرُ اسما سمّانى به أبواى . قال سعيد : فما زالت الحُزُونة فينا بعد . انتهى . [٥٠٩]

محنة سعيد بن المسيب لصلابته فى الدين

ولصلابته فى[1] الحق ، وشدّته على الدين ، امتحنه عبد الملك بن مَرْوان ، وضربه بالسياط ، وألبسه المُسوح ، وتُبَّانًا من شَعَر ، ونهى عن الجلوس إليه . وذلك أيّام استعماله هِشام بن إسماعيلَ على المدينة ، وهو صاحب المُدّ الشامىّ[2]

(١) فى ط : « على » .

(٢) كذا فى م ، وهو منسوب إلى هشام بن إسماعيل المخزومى على غير قاعدة النسب . والذى فى سائر الأصول : الهشامى . أجرى النسب على لفظه ، ولا يستقيم مع قوله بعد : « وتغييرات النسب ...... الخ .

لا الدينار الهاشميّ ، خلافا لمن نسبه له ، وإلا قيل الشامي [١] أيضا ، وتغييرات النَّسَب مقصورة على السماع ، وبالله تعالى التوفيق .

قال عُبَيد الله أحمد بن محمّد المقريّ لَطَفَ الله به : وجـدت بخط الإمام سـيدى أحمد الوانشريشي في طُرّة : قولُ الإمام ابن غازى : « واصلابته في الحق ... الخ » ما نصه :

قلت : ذكر أبو العَرَب [٢] في كتاب المِحَن ، أنه لما أراد عبد الملك بن مَرْوان أن يكتب العهد لابنه الوليد ، قيل له لا يتمّ لك هـذا الأمرُ إلا بابن المُسَيّب ، فاكتب له . فكتب إليـه أن يبايع ، فرد إليه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن نبايع لخليفتين ، فإن أردتها لابنـك ، فاخلَع نفسك ، وإلا فلا . فكتب عبد الملك إلى عامل المدينة ، هشام بن إسماعيل المخزوميّ : إن لم يبايع فاضربه مئة سوط ، فضربه مئة ، وحَلَق رأسه ولحيته ، وكساه تُبّانًا من شَعَر ، ونادى عليه ، وطِيف به إلى الليل ، فأُغْلِقَت الدُّور ، وكثُر البكاء والتحسر ، وما سُمِـع يومئذ بالمدينة إلا نائحةٌ أو هاتف ، لِما انتُهِكَ من حُرمته . وكان أيضا قبل ذلك ضربه جابر [٣] بن الأسود على البَيعة لابن الزُّبَير . انتهى .

ابن الحذّاء : وكان جابر بن الأسود والى المدينة لابن الزُّبير ، فدعاه إلى البيعة لابن الزبير ، فضربه ستين سَوْطا . ودعاه هشام بن إسماعيل أيضا إلى البَيعة للوليد وسليمان بالعهد ، فلم يفعل ، فضربه ستين سَوْطا ، وطاف به في المدينة ، في تُبّان من شَعَر . انتهى . [٥٦٠]

(١) في ط ، س : « الهشامى » والتصويب عن م فكل ما ينسب إلى هشام هذا ، يقال فيه : « الشامى » على غير القياس ، كما تقدم .

(٢) أبو العرب : هو محمد بن أحمد بن تميم التميمى القيروانى الفقيه المحدث المؤرخ ، توفى سنة ثلاث وثلاث مئة . (٣) في الأصول : « حسان » . ورواية ابن الحذاء المذكورة بعد هذا الخبر : « جابر » . وهى موافقة لما جاء في المعارف لابن قتيبة .

قال بعض الشيوخ : إن كان استناد ابن المسيَّب فى إبايته من البيعة للوليد حديث : « إذا بُويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما »(١) ، فإنما الحديث فى البيعة للخليفتين ، يُفرِّق الثانى جماعة الأول ، ويشق العصا . وإن كان النهى فى غير هـذا الحديث ، فهو أعلم بما استند إليه . قال : وأما امتناعه من البَيعة لابن الزبير ، فإن البَيعة حينئذ كانت انعقدت لبنى أمية بالشام ، وكان مذهبُ ابن المسيَّب كمذهب الأكثر ، فى منع القيام على من انعقدت له البيعة ثم ظهر فِسقُه . وانظر هذا مع قول مالك : ابن الزُّبير أحقُّ بها من مروان وابنه عبد الملك .

انتهى ما ألفيته على هذا المحل ، بخط [الشيخ العلامة] الوانشريشى .

ووجدت أيضا بخطه ما نصّه :

تنبيهـــــات

الأول — وُلد أبو محمد سعيد بن المُسَيَّب بن حَزْن بن أبى وَهْب المخزومىُّ ، لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب . وتُوُفِّىَ بالمدينة ، قال يحيى بن سعيد : سنةَ إحدى أو اثنتين وتسعين ؛ وقال الواقدى : سنة أربع وتسعين ؛ وكان يقال لهذه السنة سنةُ الفقهاء ، لكثرة من مات منهم ؛ وقال المدائنى ويحيى بن مُعين : سنةَ خمس ومئة . ميلاد سعيد بن المسيب ووفاته

الثانى — قال غير واحد : عمّال عبد الملك بن مَروان : الحجّاجُ بالعراق ، وأخوه محمد باليمن ، والمهلّب بخُراسان ، وهشام بن إسماعيل بالمدينة ، وابنه عبد الله بمصر ، وموسى بن نُصَير بالمغرب ، ومحمد بن فُلان بالجزيرة . بعض عمال عبد الملك

قال ابن خَلِّكان : وكل واحد من هؤلاء ظَلُوم غَشُوم . [٥٦١]

الثالث — : هشام بن إسماعيل المذكور هنا ، هو ثالث آباء أبى هشام ، بعض آل مخزوم من أصحاب مالك

(١) رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى .

محمد بن مَسْلَمة الفقيه المدنيّ ، صاحب مالك . قال الشيرازيّ : وكان مالك إذا دخل على الرّشيد ، دخل بين رجلين من بنى مخزوم : المغيرةِ عن يمينه ، وابن مَسلمة عن يساره .

وهشام هذا هو الذى نُسِب إليه مُدّ هشام ، المذكور فى الوضوء والطّهار ، [1] والذى يُذكرعنه ذِكْرعُهْدة الرقيق فى خُطبته [1] ، وانظر شدة إنكار ابن العربى اعتبارَمُدِّه فى آية الظِّهار ، من أحكامه تطالع . انتهى ما ألفيت بخط الوانشريشى .

المقرى فى وفاة ابن المسيب

وقد سَنَحَ لى أنّ ما ذكره الشيخ ابن غازى عن ابن رُشْد ، من أنّ طَرْدَ سعيد بن المسيِّب عمر بن عبد العزيز ، إنما كان فى خلافته ، لا يتمّ [إلا] على القول بأن وفاته — أعنى سعيدا — كانت على رأس المئة أو بعدها ، وأما على قول الأكثر إنه بعد التسعين بسنة أو سنتين أو أربع ، فلا يصح قطعا ؛ فتدبره .

ومن العجائب [إغفال الشيخين : ابن غازى والوانشريشى له . وإلى الله منتهى العلم .

برد مولى بن المسيب

ولنرجع إلى] تكميل كلام الشيخ ابن غازى فى التأليف المذكور ، ونصُّه : وأما بُرْد فليس عند مُعَظِّم قَدْرِكم أكثرُ من أنه مولَى سعيد ، كما أن زيد بن حارثة وسَفينة وأبا رافع وشُقْران : موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبلال بن رَباح مولى أبى بكر ، ويَرْفأ مولى عمر بن الخطاب ، وحُمْران مولى عُثمانَ بن عفّان ، ونافع مولى ابن عُمَر ، وكُرَيْب وعِكرمة البربرى موليا ابن عبّاس ، ومُزَاحِم مولى عمر بن عبد العزيز ، رضى الله تعالى عنهم . وقد صرّح بذلك الحافظ أبو نُعيم ، قائلا فى ترجمة سعيد مِنَ الحِلْية ، عن بُرْدٍ مولى سعيد ابن المُسيِّب : ما نودى للصلاة منذ أربعين سنة إلا وسعيد فى المسجد . انتهى . [٥٦٢]

(١ — ١) كذا وردت هذه العبارة فى الأصول ، وفى الديباج المذهب لابن فرحون ، فى ترجمة محمد بن مسلمة الفقيه .

ولم أجد عند أبي جعفر العُقَيلي ولا عند أبي يحيى الباجي ، ولا عند ابن أبي أحدَ عَشَر ، الذي جمع بينهما ، مَن اسمه «بُرْد» ، وذلك والله أعلم لأحد وجهين : إما أنه لم يتكلم فيه أحد بجَرح(١) ، أو لكونه لا رواية له . ولا يُعترض هذا بوقوعه في سَنَد الحِلية المتقدم ، إذ ليس بمرفوع . وقد ذكروا بعض من اسمه بُرَيد وبُرَيدة ، لوقوعهما في أسانيد المرفوع ، وتكلم بعض الأئمة فيهما ببعض الجَرْح ؛ وبالله العصمة ، لا رب غيره .

وأبو عبد الله بن أبي أحَدَ عَشَرَ المذكور : هو من أهل المَرِيّة ، وقد عدّه صاحب بُغية الراغب في أشياخه ، وعرّف به تعريفا كافيا .

القول في إيمان أبي طالب

٢ — وأما أبو طالب فليس عند معظم مُنتصِبكم في شأنه غيرُ ما تضمنته الصِّحاح من قوله آخر كلامه عند الموت : « على ملة عبد المطلب » ؛ وحديث الضحضاح الذي يَغْلِي منه دماغه ؛ وقوله : « لولا أن تعيِّرني النساء على الفزل ، لأقررت بها عينك » ؛ وما نزل فيه من قوله تعالى : « ما كانَ للنبيّ والذينَ آمنوا أنْ يَستغفِروا للمُشركينَ ولَو كانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْـد ما تبيَّنَ لَهُمْ أنهُمْ أصحابُ الجحيم » ؛ وقوله سبحانه : « إنكَ لا تَهْدِي من أحْبَبْتَ ولـكنَّ اللهَ يَهدِي مَنْ يَشاء » ، وقوله جلّ وعلا في أحد التأويلين : « وهُمْ يَنْهَوْنَ عنهُ ويَنأوْنَ عَنْهُ » . وأنشد في تفسيرها الثعلبي والزَّمَخْشَرِيّ له يخاطب رسول الله صلّى اللهُ عليه وسلّم :

والله لن يَصِلُوا إليك بجمعهمْ ... حتى أُوَسَّدَ في التُّراب دَفِينا
فاصدعْ بأمرك ما عليك غَضاضةٌ ... وابْشِر بذاكَ وقَرّ مِنـهُ عُيونا
ودعوتَني وزعمتَ أنك ناصح ... ولقـد صدقتَ وكنتَ ثَمّ أمِينا

(١) في المعارف لابن قتيبة في ترجمة سعيد بن المسيب ما نصه : « وبرد مولاه . وقال له : يا برد ، إياك أن تكذب علي كما يكذب عكرمة على ابن عباس . وقال : كل حديث حدثكموه برد ، ليس معه غيره مما تنكرون ، فهو كذب » .

وعرضتَ دِينا لا محالة أنه من خير أديان البرية دينا [٥٦٣]
لولا الملامةُ أو حِذارى سُبَّةً لوجَـدتَني سَمْحا بذاك مُبينا

وقد فسر الطِّيبيّ فى فتوح الغيب غريبَها .

وبحَسَب ما تقرر من حاله أورد علماؤنا ، القاضى أبو الفضل عياض وغيره ، السؤالَ على قوله عليه السلام : « لعلّه تنفعه شفاعتى » ، مع قوله تعالى : « فما تنفعُهُمْ شفاعةُ الشّافِعِين » ؛ وانفصلوا عنه بما فى كريم علم سيدنا .

وأما عبد المطلب الذى قلّده ، فمن أهل الفترة ؛ وللقاضى أبى بكر بن العربيّ فى كتاب الناسخ والمنسوخ ، كلام مليح على أهل الفترة ، عند قوله تعالى : « إن الذين آمَنُوا والذين هادُوا والنَّصارَى والصّابئين من آمنَ بالله واليوم الآخِرِ وعَمِل صالحا فلهمْ أجرُهمْ عند ربهمْ ، ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون » .

القول فى إيمان أبوى النبي

وقد حدّثَ مجلسَكم غيرُ واحد ، عن الشيخ سيدى أبى محمد عبد الله العبدوسيّ ، أنه كان يلهَجُ بحديث ، وقف عليه فى بعض الكتب [غيرُ واحد ، عن الشيخ سيدى أبى محمد] ، أن الله عز وجل بعث لرسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه ، حتى آمنا به صلى الله عليه وسلم ، إكراما لنبيه عليه السلام ، وكان العبدوسيّ يستحسنه ويُسرُّ به كثيرا .

وقد أنشدنى بعض أصحابنا للتميمى السلَوى :

وإن ابن طَلّاع روى أن أحمدًا رأى أبويه بعد ذوْق المنيةِ
فأحياهما ربُّ العباد فآمنا به ثم عادا مُكرَمَيْن لِتُرْبةِ

وقَدْرُه عليه السلام أوسعُ من هذا كله ، [صلى الله عليه وسلم ، وشرّف وكرم وعظم] :

لو ناسبتْ قدرَهُ آياتُه عِظَمًا أحيا اسمُه حين يُدعَى دارسَ الرِّمَمِ

قول المسعودي في إيمان أبي طالب

وأما قول المَسْعوديّ في أبي طالب ، فما استفاده محبكم إلا من كتبكم ، أبقى الله لنا بركاتكم .

قال جامع هذا الموضوع ، عُبيدُ الله أحمدُ بن محمّدٍ المَقَّريّ ، وفقه الله : [٥٦٤]

وجدت على هذا المحلّ من كلام الشيخ ابن غازي في الطُّرَّة ، بخط الإمام سيدي أحمدَ الوانشريشي رحمه الله ، ما نصّه :

قال القاضي أبو عبد الله محمد بن خَلَفْة الوَشْتَاني ، المعروف بالأُبّي[1] ، في إكمال الإكمال له ، ما نصُّهُ :

السُّهَيْلِيّ : ورأيت في بعض كتب المسعوديّ : وقيل إنه مات مؤمنا[2] . ولا يصحّ ، لما تقدم من الآي والأحاديث

ولا يُحتَجّ لذلك بما في السِّيَر من قول العباس : « والله لقد قال أخي [الكلمة] التي أمرتَه بها يا رسول الله » ، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : لم أسمعها . ولو أن العباسَ شهد بذلك بعد إسلامه قُبلت شهادته ، لأن العدْل إذا قال : سَمِعْتُ ، وقال الأعدل : لم أسمع ، أخذ بقول من أثبت ؛ لأن عدم السماع قد يكون لسبب .

فإن قلت : قد ذكرتَ أن السِّيَر تدلّ على أنه كان مصدّقا بقلبه ، وقدّمتَ الخلاف في صحة إيمان من صدّق بقلبه ولم ينطق بلسانه ، فهل يدخل في إيمانه ذلك الخلاف ؟

قلت : لا يدخل ، لأنه صرّح بالنّقيض في قوله هو : « على ملة عبد المطلب » .

انتهى ما ألفيت بخط الوانشريشي .

ولنرجع إلى تتميم كلام ابن غازي .

أبو العباس القشاب

٣ — قال رحمه الله : وأما أبو العبّاس القَشّاب ، الذي عُرِف بابن طَلحة ،

(١) نسبة إلى أُبّة (بضم أوله ، وتشديد الباء) : مدينة بإفريقية .

(٢) في مروج الذهب للمسعودي ، عند الكلام على ديانات العرب في الجاهلية ، ذكر عبد المطلب ، وأن من الناس من يرى أنه كان مؤمنا .

فلا يعرفه مُجِلُّ سيادتكم إلا من كلام ابن عرفة ، وكأنه مؤرّخ .

قال أحمد المقّريّ وفقه الله : ألفيتُ على طُرّة هذا المحل ، بخط سيدى أحمدَ الوانشريشى رحمه الله ، ما نصه :

قلت : أبو العباس القشّاب ، المعروف بابن طلحة فى كتاب الطلاق ، (وقدْ وُهِم فيه ، وعُرِّف فى ترجمة مواقع الشهادات بابن الخبّاز النحويّ) : هو أحمد بن [٥٦٥] محمد بن إبراهيم المرادى المعروف بالقشّاب . قال ابنُ مرزوق الخطيب فى فهرسة شيوخه : هو مِنْ أعظم مَنْ لقِيت بثغر الإسكندرية ، وأكثرِهم تحصيلا ، قرأت عليه بعض موطّأ الإمام ، وكتاب الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى ، وكتاب التيسير ، وكتاب التفسير من تآليفه ، جمع فيه بين تفسير ابن عطية ، وتفسير الزمخشرى ؛ وقرأت عليه أوائل الكتب الستة بأسانيده فيها . ويَحْمِل عن أعلام ، منهم أبو القاسم بن البراء ، والشيخُ العارف أبو العباس أحمد بن عثمان بن أحمد بن عجلان القيسيّ الإشبيلى ، وأبو عمرَ عثمان بن سُفْيان المعروف بابن الشقّ ، وأبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد الواعظ ، المعروف بابن الحجّام ، وأبو العباس بن الغمّاز ، وعبد الحميد بن أبى البركات بن أبى الدنيا الصّدَفى ، وأبو القاسم بن زيتون ، وأبو على بن عَبِيل .

انتهى ما ألفيت على هذا المحلّ ، بخط الشيخ سيدى أحمدَ الوانشريشيّ .

ولنرجع إلى تكميل كلام ابن غازى .

ابن طلحة اليابرى

قال رحمه الله : نعم ، ابن طلحة الذى عُرّف به(١) : هو شيخُ محمودِ الأعرج الزمخشريّ ، قرأ عليه كتاب سيبويه بمكة ، شرفها الله تعالى ، سمعت ذلك من شيخنا الأستاذ سيدى أبى عبد الله الكبير ، برّد الله تعالى ضريحه . وقد عرّف

(١) أى الذى عرف بابن الخباز النحوى ، كما مر فى أول هذه الصفحة .

صاحب الخريدة بالزَّمخشرى ، وهو بخزانة جامع الأندلس . وفى اعتقاد محبكم أن ابن طَلْحة هذا النحوىّ ، خلافُ الفقيه صاحب المَدْخَل ، وأن حَظَّه من مسألة الاستثناء اللسانُ دُون الفقه . فإن صح عند سيدنا أنه هو ، فليفدْنا به متطوّلا مأجورا مشكورا .

قال أحمد المقّرِىّ وفقه الله :

[٥٦٦] وجدت على طُرّة هذا المحل ، بخط سيدى أحمد الوانشريشىّ رحمه الله ، ما نصّه :

قلت : بل هو هو ، وهو عبد الله بن طلحة بن محمد بن عبد الله اليَابِرِىّ ، نزل إشبيلية ، أبو بكر وأبو محمد ، الأولى أشهرها . روى عن جماعة من الأعلام ، نزل مكة شرفها الله ، وكان من أهل المعرفة بالفقه وأصوله ، ماهرا فى النحو ، حافظا للتفسير ، قائما عليه ، ذاكرا للقصص المتعلقة به ، وذلك كان الغالبَ عليه ، وحُلِّق به للعامة بإشبيلية وغيرها ، فكانت العامةُ تنثال على مجلسه . وله مصنفات ، منها فى التفسير كتاب كبير ، ومنها فى الفقه وأصوله ، وشرحَ صدر رسالة الشيخ أبى محمد ، ومنها ردٌّ على ابن حزْم ، ومنها كتاب فى الفقه على مذهب مالك ، سماه سيف الإسلام ، ومنها كتاب سماه المدخل إلى هذا الكتاب ، واستوطن مصر وقتا ، ثم رحل إلى مكة ، فجاور فيها ، إلى أن تُوُفِّى بها رحمه الله . وكان حَيًّا سنة ستّ عشرة وخمس مِئة ، وكانت له معرفة تامة بكتاب سيبويه ، وبسببه ارتحل إليه الزمخشرىّ من خُوارزم ، لقراءته عليه . انتهى .

من كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك :

وذكر الشيخ أبو حَيّانَ فى باب القَسَم ، أن الزمخشرىّ رحل من خُوارَزمَ إلى مكة قبل العشرين والخمس مئة ، لقراءة كتاب سيبويه ، على رجل من أصحابنا من أهل الأندلس ، يعرف بأبى بكر بن طلحة اليابِرىّ ، وكان مجاورا بها ، عالما

بالكتاب وغيره ، وله تصانيف تقرأ عليه .

قلت : وتُوُفِّىَ فَخْر خُوارَزم ، أبو القاسم محمود ، سنة ثمان وثلاثين وخمس مئة .

وقُطِعت إحدى رجليه بسبب الثلج ، ولم يكن لريبة ، والله أعلم .

انتهى ما وجدت بخط الشيخ الوانشريشى على هذا المحلّ .

ابن طلحة آخر ولنرجعْ لكلام الإمام ابن غازى . [٥٦٧]

قال رحمه الله : وثَم ابن طلحة آخر ، وهو مُخاطِب أحد بنى رغبوش [بقصيدة] مدحية زائية الروىّ ، هائية الوصل ، حسبما ذكره ابن عبد الملك فى تكملته .

الآبلى المصرى ٤ — وأما الآبلىّ المصرىّ ، فلا إخاله طرق اسمُه سمعى إلا من جهتكم ، فإنكم ذكرتموه لى فى غير هذا الوقت ، وقد سألتُ الفقيه المحقق سيدى [أبا] عبد الله القَوْرى ليلة عن ضبط باء الآبلى المذكور الرحّال : أبالضمّ أم بالكسر ، فكأنه ترجّح فيه ، ثم مال إلى الضم (١) .

أخبار أهل السنة والمعتزلة ٥ — وأما رجال أهل السُّنة والمعتزلة ، فلا علم لمحبّكم هل صُنِّف فيهم أم لا . نعم ، ربما سمعت أو رأيت بعض حكاياتهم فى المناظرة ، كمناظرة الشافعى حفصا الفَرد ، بعد ما أنشده الشافعى يتوعده متمثلا :

« ستعلم يا يزيد إذا التقينا بشطّ الزاب أىَّ فتى أكونُ » (٢)

وذكرها أبو نُعيم فى الحِلية ؛ ومناظرةِ القاضى أبى بكر بن الطيِّب الباقلانىّ ابنَ المؤدِّب ، إذ أخرج ابنُ المؤدّب فُولا فرمى به ، يُعرِّض بالباقلانىّ ، فأخرج

---

(١) آبِل (كصاحب) : أربعة مواضع بالشام . وآبُل (كآنُك) بلد بالأندلس ، ولا ندرى إلى أيهما نسب .

(٢) رجعنا إلى ترجمة الشافعى فى حلية الأولياء لأبى نعيم ، فوجدنا الشافعى تمثل بالبيت المذكور فى مناظرة بشر المريسى ، فى حضرة الرشيد ، لا فى مناظرة حفص الفرد .

الباقلانيّ سَوْطا فرمى به ، يُعرِّض بابن المؤدِّب ؛ والحكاية ظريفة ، ذكرها صاحب بغْية الراغب ، فى ترجمة أبى عبد الله البغدادى .

قال أحمد المقَّرىّ وفقه الله : وجدت بخط الوانشريشىّ بطُرة هذا المحل مانصه : أبو عبد الله هذا هو أبو بكر[1] بن مُجاهد ، والله أعلم . انتهى .

ولْنرجع إلى كلام ابن غازى .

مناظرة الباقلانى المعتزلة

قال رحمه الله : ونصّها :

قال فنَاخُسْرُو يوما لوزرائه : هؤلاء المُثْبِتة ، أما لهم ناصر ؟ فقال له القاضى ، قاضى الجماعة بشر بن الحسين : ليس لهم ناصر ، وإنما هم قوم رَعاع ، أتباع ، حَشْوية ، لا يعرفون النظر ، وإنما هم أصحاب روايات وأخبار ؛ والمعتزلة هم فُرسان المناظرة والجدل . فقال فناخُسْرُو : محال أن يكون مذهب [٥٦٨] قد طبّق الأرض وليس له ناصر . فقال له بشر بن الحسين : سمعت أن رجلين بالبَصرة ، أحدهما شيخ ، والآخر شاب . فأما الشيخ فهو أبو بكر[1] محمد بن مجاهد ، وأما الشاب فهو أبو بكر بن الطّيِّب . فأرسلَ إليهما الأمير فناخسرُو خمسةَ آلاف درهم فضة طيبة . فقال أبو بكر[1] بن مجاهد هؤلاء قوم ظَلَمة فَسَقه ، لا يحل لى أن أطأ بُسُطَهُمْ ، وليس غرضُه منا إلا أنْ يقال إن مجلسه مشتمل على أصحاب المحابر ، ولو كان ذلك لله تعالى ، لكانت أموره جارية على السَّداد ، وأنا لا أحضر عند قوم هذه صفتهم . قال أبو بكر بن الطيب : فقلت له : هكذا قال عبد الله ابن كِلاب والحارث بن أسَد المُحاسبى : إن المأمون ظالم فاسق ، ولا نحضر مجلسه ، حتى سِيق أحمد بن حنبل إلى طَرَسوس ، ولما مات المأمون ضربه المعتصم

(١) هذا وهم من الشيخ الوانشريشى ، لأن أبا عبد الله بن مجاهد المتكلم غير أبى بكر ابن مجاهد شيخ القراء ، وسيأتى تفصيل لهذا الوهم بعد قليل .

بالسياط ؛ ولو نصروه لكان أولى ، لأن الرجل كان يدّعى أن أهل السنة ليست لهم حُجة على قولهم ، وإنما غرضهم رياسة العامة ، ودفنُ الحق ؛ ولو مَضَوا إلى المعتصم ، وبيّنوا له أن الذى يُدّعى عليه زور وبهتان ، لأرتدع المعتصم ، ولكن أسلموا أحمد بن حنبل لابن أبى دُواد القاضى ، فجرى على أحمدَ ما جرى ، وهم ينظرون . وكذلك أنتَ سلكتَ مسلكهم ، حتى يجرىَ على الفقهاء ما جرى على أحمد بن حنبل ؛ وهأنا خارج .

فقال له ابن مجاهد : إذا شرح الله صدرك لذلك ، فافعل .

قال القاضى أبو بكر بن الطيِّب : فخرجت إلى شيراز ، فلما دخلت المدينة استقبلنى ابن خفيف ، فى جماعة من الصُّوفية وأهل السنة ، فلما جلسنا فى موضع كان ابن خفيف يُدارِس فيه أصحابَه اللُّمَع ، للشيخ أبى الحسن الأشعرىّ ، قال له [٥٠٦٩] القاضى أبو بكر : عادَ على التدريس كما كنت ، فقال له ابن خفيف : أصلحك الله ! إنما أنا بمنزلة المتيمِّم عند عدم الماء ، فإذا وُجد الماء فلا حاجة إلى التيمم .
فقال له القاضى : جزاك الله خيرا ، وما أنت بمتيمم ، بل لك حظ وافر من هذا العلم ، وأنت على الحق ، والله ينصرك .

قال القاضى أبو بكر : فقلت : متى الدخول إلى فناخُسْرو ؟ فقالوا لى : يوم الجمعة لا يُحْجَب عنه صاحب طَيْلسان . فدخلت والناس قد اجتمعوا ، والمَلِك قاعد على سرير مُلكه ، والناس صفوف على يسار الملك ، وفوق الكُلّ قاضى القضاة بشرُ بن الحسين ، وكان يدخل مع الوزراء فى وزارتهم ، ويصغى الملك إلى رأيه فى أمر الدولة .

قال القاضى أبو بكر : فلما رأيت ذلك كرهت أن أتقدم على الناس ، وأتخطَّى رقابهم ، من غير أن أُرْفَع ، ولم تدعنى نفسى أن أقعد فى أُخْرَيات الناس ،

وكان عن يمين الملك المجلسُ خاليا ، ولا يقعد هناك إلا ملك أو وزير عظيمُ المنزلة ، فمضيتُ وقعدتُ عن يمينه ، بحذاء قاضى القضاة ، فوجَدوا من ذلك ، وفزعوا واضطربوا ، لأنه كان عندهم من الجنايات العِظام ، وما كان فى المجلس مَن يَعرفُنى إلا رجل واحد ، فقال للقاضى : أطال الله بقاء سيدنا ! هذا هو الرجل الذى طلبَه المَلِك مولانا . فقال قاضى القضاة : أطال الله بقاء مولانا ! هذا هو الرجل الذى كتبتُ فيه ، وهو لسان المُثْبِتة . فنظر إلى الغِلمان الذين بين يديه والحُجّاب ، فطاروا من بين يديه ، ثم قال لهم : اذكروا له مسألة . وكان فى [٥٧٠] المجلس رئيس البَغداديين من المعتزلة ، وهو الأحدب ، وما كان فى زمانه أفصحُ منه ، ولا أعلمُ منه عندهم ؛ فأما البصريون فحضر منهم خلق كثير ، أقْدمهم[1] أبو إسحاق النَّصيبىّ . فقال الأحدب لتلاميذه : سلُوه : هل لله تعالى أن يكلف الخلق ما لا يُطيقونه أو[2] ليس له ذلك ؟ فقال الرجل للقاضى : هل لله تعالى أن يكلف الخلق ما لا يطيقون أو ليس له ذلك ؟ فقال له القاضى أبو بكر : إن أردت بالتكليف القول المجرد ، فالقول المجرّد قد توجّه ، لأن الله تعالى قال : « قلْ كُونُوا حِجَارةً أَوْ حَدِيدًا » ، ونحن لا نقدر أن نكون حجارةً ولا[3] حديدا ؛ وقال تعالى : « أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » ؛ فطلَبهم بما لا يعلمون ؛ وقال تعالى : « وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ » . وهذا كله أمر بما لا يَقدر عليه [الخلق] ؛ وإن أردت التكليف الذى نعرفه ، وهو ما يصحّ فعله وتركه ، فالكلام متناقض ، وسؤالك فاسد .

فأخذ الأحدبُ الكلامَ وقال : أيها الرجل ، أنت سُئلت عن كلام مفهوم ،

(١) فى س : « قدمهم » . (٢) فى الأصول : « أم » .
(٣) فى س : « أو » .

فطرحته فى الأحتمالات ، وليس ذلك بجواب ؛ والجواب — إذا سُئلت : هل لله تعالى أن يكلّف الخلق ما لا يُطيقون — أن تقول : نعم ، له أن يكلّف ، أو ليس له أن يكلف . فعدَلْت عن الجواب ، إلى ما ليس بجواب ؛ وهذا اضطرابٌ شديد .

قال القاضى : فلمّا لم يُوَقِّرْنى ، ولم يخاطبْنى بما يليق ، قلت له : أيُّها الرجل ، أنت عائم ورجْلاك فى الماء ؛ إنى طارحتَ الكلام فى الأحتمالات ، فلمْ تَعْدِل أنتَ إلا لعجز أو لعىّ ، فإن كان معك كلام فى المسألة ، و إلا تكلم فى غيرها . [٥٧١]

فقال الملك للأحدب : هذا قد بين الأحتمالات ، وتلا عليك الآيات .

ثمَّ إنى ما جمعتكم إلا لنستفيد ، لا للمهاترة ، ولا لما لا يليق بالعلماء . ثم التفت إلىّ ، وقال لى : تكلم على المسألة . فقلت :

ما لا يُطاق على ضرْبين : أحدهما لا يطاق للعجز عنه ، والآخر لا يُطاق للاشتغال عنه بضده ، كما يقال : فلان لا يُطيق التصرف ، لاشتغاله بالكتابة ، وما أشبه ذلك ؛ وهذا سبيل الكافر : إنه لا يُطيق الإيمان ، لا لأنه عاجز عن الإيمان ، لكنه لا يُطيقه لاشتغاله بضدّه ، الذى هو الكفر ؛ فهذا يجوز تكليفه بما لا يُطاق .

وأما العاجز فما ورد فى الشريعة تكليفه ، ولو ورد لكان صوابا ؛ وقد أثنى الله تعالى على من سأله ألا يُكلّفه ما لا طاقة له به ، لأن الله تعالى له أن يفعل فى مُلكه ما يريد .

ثم تجاوز الأحدبُ إلى غيره من الكلام ، ومال الملك إلى قول القاضى أبى بكر .

قال القاضى : ثم سألنى النّصيبى عن مسألة الرُّؤية : هل يُرى البارئ سبحانه بالعين ؟ وهل تجوز الرؤية عليه أو تستحيل ؟ وقال : كل شىء يُرى

بالعين ، فيجب أن يكون فى مقابلة العين . فالتفت الملك إلى القاضى أبى بكر ، وقال له : تكلم أيها الشيخ فى المسألة .

فقال القاضى : لو كان الشىء يُرى بالعين لوجب أن يكون فى مقابلة العين ، على ما قال ، ولكن لا يُرى الشىء بالعين . فتعجب الملك من ذلك ، والتفت إلى قاضى القضاة ، فقال : إذا لم يُرَ الشىء بالعين ، فبأى شىء يُرَى ؟ [فقال : يسأله الملك . فقال : أيها الشيخ ، فبأى شىء يُرى إذا لم ير بالعين] ؟ فقال أبو بكر : يُرَى بالإدراك الذى فى العَين . ولو كان الشىء يُرى بالعين ، لكان يجب أن تَرَى كلُّ عَيْنٍ قائمة[(١)] ؛ وقد علمنا أن الأجهرَ عينهُ قائمة ولا يرى شيئا .

فزاد الملكُ تعجبا ، وقال للنَّصيبى : تكلم . فقال النَّصيبى : إنى لم أعلم
[٥٧٢] أنه يقول هذا ، ولا تَبنيت إلا على ما تَعرِف ، وظننت أنه يسَلِّم أن الشىء يُرَى بالعين . فغضب الملك وقال : ما أنت مثلُ الرجل ، لأنك بنيت المسألة على الظن . ثم التفت إلىّ وقال : تكلم . فقلت : العين لا تَرَى ، وإنما تُرَى الأشياء بالإدراك الذى يحدثه اللهُ تعالى فيها ، وهو البصر ، ألا ترى أن المحتضَر يَرى الملائكة ونحن لا نراهم ؟ وكان النبى صلى الله عليه وسلم يَرَى جبريل عليه السلامُ ولا يراه من يحضُرُه ؟ والملائكة يَرَى بعضهم بعضا ولا نراهم نحن ؟ والدليل على جواز رؤية البارئ تعالى ، أنه ليس فيها قلب للحقائق ، ولا إفساد للأدلة ، ولا إلحاق صفة نقص بالقديم تعالى ، فوجب أن يكون كسائر الموجودات ، لأنه تعالى موجود ، والشىء إنما يُرى لأنه موجود ، لأن المرئىّ لم يكن مرئيا لأنه جنس ، لأنا نرى سائر الأجناس المختلفة ، ولا لقيام معنى بالمرئى ، لأنا نرى الأعراض التى لا تحتمل المعانى ، وقد ثبت بالنص

(١) العين القائمة : التى ذهب بصرها والحدقة صحيحة .

وجوب رؤية الحق سبحانه فى الدار الآخرة . ثم طوّل الكلام .

قال : ولم يزل فنا خسرُو يتقرّب إليه ، وينزل عن سرير ملكه ، حتى صار بين يديه ، لِما استعذَبَ من كلامه .

فلما فرغ من المسألة ، قيل للفارابى صاحب المنطق : تكلّمْ معه ، فتلجلَج فى كلامه ، واقشعرّ ، وقال : إنما أنا صاحبِ أصطُرلاب ، ما قدر هؤلاء وهم فُرسان الكلام : الأحدب و بُرغوث وغيرهم ، على جداله .

فخرج القاضى أبو بكر ، وأمر الملك بإنزاله والجراية عليه ، وقال : والله ما كنت إلا مُفكّرا بأىّ لونٍ من القتل أقتلُه ، إذا لم يَستحقّ مكانه ؛ وأمّا الآن فقد ظهر لى أنه أحقّ بمكانى هذا ، ولكنّى مُبتلًى بالمُلْك . انتهى .

***

تسمية أهل السنة المثبتة والمجبرة

والمراد بالمُثبِتَة هنا : أهلُ السُّنّة ، والزمخشرىّ يسمّيهم المُجْبِرَة ، وقع له ذلك فى أماكنَ من الكشّاف ، منها فى تفسير قوله تعالى : (قُلْ لَا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ) ، وفى قوله سبحانه : (وَقَالَ ٱلشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ) . ولصاحب «الانتصاف[1]» ، من الكشّاف » ولصاحب « فُتوح الغيب[2] » فى الرد عليه ، [٥٧٢]
عند تفسير الآيتين ، كلام حَسَن ، ينبغى الوقوفُ عليه . وسمّى أهلَ السُّنّة المُجْبِرَة ، لاعتقاده قُرب مذهبهم من مَذْهبِ الجَبْرِيّة ، [لا][3] سيّما وقد قال بعض أئمة أهل السُّنّة : « وبالجَبْرِ أقول ، والله المستعان » .

---

(١) هو ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندرى المالكى ، بين فى كتابه «الانتصاف» هذا ما تضمنه الكشاف من الاعتزال وغيره . توفى سنة ٦٨٣ ﻫ . (عن كشف الظنون) .

(٢) هو شرف الدين الحسن بن محمد الطيبى ، صاحب الحاشية على الكشاف المسماة « فتوح الغيب ، فى الكشف عن قناع الريب » . توفى سنة ٧٤٣ ﻫ (عن كشف الظنون) .

(٣) زدنا « لا » قبل « سيما » إيثارا لأفصح الأساليب .

بعض من قال بالجبر وبالجهة

وقد حدّثنا شيخُنا الأستاذ سيّدى أبو عبد الله الكبير ، عن شيخه أبى عبد الله العِكْرِمىّ ، وكان نَسِينا ، أنه كان كثيرا ما يقول : إمامان عظيمان قالا بالجَبْرِ من أئمتنا : القاضى أبو بكر بن العَرَبىّ ، والفَخْرُ بن الخطيب ؛ كما أنّ إمامين عظيمين من أئمتنا ، نُسب إليهما القولُ بالجِهَة ، وهما أبو محمد بن أبى زَيْد ، وأبو عُمَر بن عبد البَرّ ؛ وجَنح لذلك ابن المرابِط فى تفسير البخارىّ ، وهو ديوان كبير بخزانة جامع الأنْدلس .

أبو بكر بن مجاهد

ثم عند مُحِبّكم تردّد فى أبى بكر بن مجاهد هذا ، هل هو شيخ أئمة الإقْراء ، الذى يعتمد عليه أبو عمرو الدانى فى « إيجاز البيان » وفى التمهيد كثيرا . وقال فيه الجَعْبَرى إنه المسبِّع الأول . صنّف كتاب السّبْعة على رأس الثلاث مئة . وقال أبو على الأهوازى : هو الذى أخرج يعقوب من السّبْعة ، وجعل الكِسائىّ مكانه . وهو الذى قال له الشِّبْلى : أين تجد فى القرآن العزيز ، أنّ الحبيب لا يعذِّب حبيبه ؟ فقال : لا أدرى . فأشار إلى قوله تعالى : (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ) حسبما بسطه القاضى أبو الفضل عياض فى ترجمة الشِّبْلىّ من « المَدارك » . وفى ظنى أنّ اسم المُقْرِئ موسى [1] ، وقد سُمّى هذا هاهُنا محمدا [2] ، فلسيدنا الفضلُ فى تحقيق ذلك لنا ، فى كتاب طبقات القراء لأبى

---

(١) أبو بكر بن مجاهد هو : أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد ، شيخ القراء فى عصره ، وهو المسبع الأول للقراء السبعة . توفى سنة ٣٢٤ هـ (انظر تاريخ الخطيب : الترجمة رقم ٢٥٨٠ ؛ و « نهاية الدراية فى طبقات القراء » لابن الأثير : الترجمة رقم ٦٦٣ ؛ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى فى سنة ٣٢٤ هـ .

(٢) أجل ، هو محمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب بن مجاهد ، أبو عبد الله الطائى ، البصرى ثم البغدادى أحد شيوخ المالكية . وصاحب أبى الحسن الأشعرى ، وناصر مذهب أهل السنة . غلب عليه علما الأصول والكلام ، وكان حسن الدين ، جميل الطريقة . وعنه أخذ القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المالكى ، المتوفى سنة ٤٠٣ هـ علم الكلام . وهو الذى راوده الباقلانى على =

عَمْرو الدانى ، ومن تعريف الجَعْبَرى ، الذى ختم به شرح القصيد ، وهما بخزانة جامع القَرَوِيِّين ، عمَّره الله تعالى .

التصحيف فى أسماء الرجال

ولله دَرُّ علىّ بن المَدِينى[1] حيث قال : أشدُّ التصحيف التصحيفُ فى أسماء الرجال . ولا شك أن هذا موضعُ لَبْس ، كابنى نافع وابنى زياد ، ممن اتّحد [٥٧٤]
أسمه ، وتعدَّد مسماه ، وكالأبهرىّ والصالحىّ فى عكسه[2] .

تتمة القول فى أبى بكر ابن العربى

ورحم الله الشيخ الفقيه سيِّدى أبا محمد عبدَ الله العَبْدوسى[3] ، فقد حدثنى عنه الثقة أنه كان يُمثِّل هذا المَعْرِض الذى نحن بصَدَده ، بقضية القاضى أبى بكر ابن العربى ، فإنّ كثيرا من الناس ينكرون أن يكون هو المدفون خارجَ باب المحروق ، ويقولون إنما هو مدفون خارج باب الجيسة ؛ واغترُّوا فى ذلك بظواهر التواريخ . [وذلك أن القاضىَ أبا الفضل عياضا ذكر فى « الغُنية » أنه دُفن خارج باب الجيسة . قال : وجوابه أن باب المحروق لم يكن فُتح فى ذلك الوقت ، وإنما فتح على رأس ست مئة سنة ؛ فكان ذلك الخارجُ كله يُنسب لباب الجيسة . ثم يَدْفَع فى صدر هذا الجواب ما فى بعض هذه التواريخ] أنه دفن على مقربة من حارة الجَذْمَى . قال : وجوابُه أن الجَذْمَى كانوا هناك قديما ، حتى تضرر أهل فاس بسكناهم على رأس مائهم ، فنُقِلوا إلى موضعهم اليوم .

= الخروج إلى شيراز لمناظرة المعتزلة بحضرة فنا خسرو ، كما أفاده المقرى فى أزهار الرياض ، لا أبو بكر بن مجاهد شيخ القراء ، المذكور فى الحاشية (رقم ١ ص ٨٥) لأن ابن مجاهد المقرىء ليس معاصرا للباقلانى ، بل هو متقدم الوفاة ، كما سبقت الإشارة إليه .
(انظر ابن مجاهد المتكلم على طريقة الأشعرى ، فى تاريخ بغداد للخطيب — الترجمة ٢٦١ — وفى : الديباج المذهب فى علماء المذهب لابن فرحون ، وهو فى طبقات المالكية) .

(١) هو أحد شيوخ محمد بن إسماعيل البخارى .

(٢) يريد أن الأبهرى والصالحى : نسبتان لأبى بكر محمد بن عبد الله بن صالح الأبهرى ، الفقيه المالكى البغدادى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ .

(٣) فى ط : « أبا محمد عبد الله بن محمد العبدوسى » .

ثم يَرِد على هذا أنا نجد عند باب الجيسة إلى جنب حارة الجَذْمَى قبرَ رجل يسمى بابن العربيّ ، يقصده الناس بالزيارة كثيرا ، فلعله هو . قال : وجوابه أن ذلك رجل آخر ، يدعى أيضا بابن العربيّ ، كان مُوَقّتا فى القرويين .

قلت : ويزاد فيه أن الفقيه هو أبو بكر ، وهذا الذى خارج باب المحروق اشتهر بأبى يحيى . وجوابه أنهما كنيتان مترادفتان على مسمى واحد ، وبالله سبحانه وتعالى التوفيق .

وقد هَذَى محبّكم [هنا] وهَجَر ، وأهدى التمر لأهل هَجَر ، وجلب المنبر ، إلى البحر الأخضر ، فلكم الفضل فى الإغضاء ، والتجاوز والإمضاء .

و[كُتب](١) فى أوائل ذى الحجة الحرام خاتم عام سبعة وثمانين وتسع مئة ، عرّفنا الله خيره ، ووقانا ضيره . والسلام الكريم يخُصّ مقامكم العليّ ، ومنصبكم السميّ ، وأهليكم وذويكم ، ومن هو منكم وفيكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

انتهى التأليف العجيب ، للشيخ العلامة أبى عبد الله بن غازى رحمه الله .

فى حاشية كتاب ابن غازى

وجدت فى آخره ما نصُّه : الحمد لله . وكذلك يسلّم على كريم مقامكم ، خديمُكم أحمد بن محمد بن غازى ، قاصدا بتوالى كتبه التبرّكَ بكم ، ملتمسا منكم الدعاء . أفاض الله علينا من بركاتكم ، ونفعنا بمحبتكم ، بجاه النبى عليه السلام . انتهى . [٥٧٥]

وأوردت جميعه لما قدمته ، والله تعالى المُنْجِد المعين .

***

نفى الاحتمال فى أمر أبى بكر ابن العربى

قلت : وقد وقفت على كلام لبعض الأقدمين [ينفى الاحتمال] فى أمر ابن العربيّ المذكور . ونصّه : تُوُفّى ابن العربى مُنصرَفه من مرّاكش ، بموضع

(١) زدنا هذا اللفظ لأن العلامة ابن غازى يؤرخ هنا كتب رسالته ، فلعله سقط من قلم الناسخ .

يعرف بأغلان ، على مسيرة يوم من فاس ، غربا منها ، فاحتُمِل ميّتا إلى فاس فى اليوم الثانى من موته ، وذلك يوم الأحد السابع من ربيع الأول ، سنة ثلاث وأربعين وخمس مئة ، ودفن بأعلى مدينة فاس ، خارج القَصَبة ، بتربة القائد مظفر ، وصلّى عليه صاحبُه أبو الحكم بن الحجّاج ، رحمه الله . انتهى .

وقدّمنا عن ابن بَشْكُوال أنه توفى فى ربيع الآخر من هذه السنة ، فالله أعلم .

وقد ذكر بعضُ من شرح الشفا أن ابن العربى توفى سنة اثنتين وأربعين .

قلت : هو غيرُ صحيح إن شاء الله ، وإنما الصحيحُ ما قدمته .

مثال من صلابة ابن العربى فى القضاء

ومن صلابة الإمام أبى بكر بن العربى ، رحمه الله ، أنه حَكَم فى زامر بثَقْب أشداقه ، حسبما نقله صاحب المعيار وغيرُه .

مثال من شعره

ومن بديع نظمه ، رحمه الله :

أَتَتْنِي تُؤَنِّبُنِي بالبُكا فأهـلاً بها وبتأنيبها
تقول وفى نفسها حسرةٌ أتبكى بعين ترانى بهـا
فقلت إذا استحسنتْ غيرَكُمْ أمرتُ جفونى بتعذيبها

إجازته بيتا لابن صارة

وقال رحمه الله : دخل عليَّ ابن صارة(١) وبين يَدَيَّ نارٌ قد علاها رَماد ، فقلت : لتقل فى هذا ، فقال :

شابتْ نواصِي النار بعد سَوَادها وتسـتَّرتْ عنا بِثَوْب رمادِ

ثم قال لى ابنُ صارة : أجز . فقلت :

شابت كما شبنا وزال شبابنا فكأنما كنّا على ميعادِ

(١) ابن صارة الشنتريني : يكتب (بالصاد) و (بالسين) .

ارتجاله الشعر فى مجلس الدرس

وحكى غيرُ واحد أنّ القاضىَ أبا بكر بن العربىّ رحمه الله ، بينما هو جالس فى محل درسه إذ دخل شابٌّ من المُلَثَّمين و بيده رُمْح ، فهزّه ، فقال القاضى أبو بكر رحمه الله : [٥٧٦]

يَهُزُّ علىّ الرمحَ[1] ظبىٌ مُهَفْهَفٌ   لَعوبٌ بألباب البريّة عابثُ
فلو كان رمحا واحـدا لاتّقيتُه   ولـكنه رمح وثانٍ وثالث

وقد اختلف حُذّاق الأندلس من أهل الأدب فى معنى الرمح الثانى والثالث ، وأكثرهم يقول : هما القَدُّ والّلحظ ، والله أعلم .

وصفه البحر شعرا

ولما ذكر [الإمام] ابنُ العربى المذكور رحمه الله فى كتاب « قانون التأويل » ركوبَه البحر فى رحلته من إفريقية ، قال :

وقد سبق فى علم الله أن يَعْظُم علينا البحر بزَوْله ، ويُغرِقنا فى هوله ، فخرجنا من البحر ، خروجَ الميّت من القبر ، وانتهينا بعد خَطْب طويل ، إلى بيوت بنى كعب بن سُليم ، ونحن من السَّغَب ، على عَطَب ، ومن العُرْى ، فى أقبح زِىّ ، قد قذف البحر زِقاق زيت ، مَزّقت الحجارة مَنيئتها[2] ، ودسّمت الأدهانُ وَبَرَها وجِلدتَها ، فاحتزمناها أُزُرا واشتملناها لُفُما[3] ، تمجُّنا الأبصار ، وتخذُلنا الأنصار ، فعطفَ أميرُهم علينا ، فأوينا إليه فآوانا ، وأطعمنا الله تعالى على يديه وسقانا ، وأكرم مثوانا ، وكسانا بأيسر حقير ضعيف ، وفنٍّ من العلم ظريف .

بعض ما صادفه فى رحلته من ثمرات الأدب

وشرحه : أنا لما وقفنا على بابه ألفيناه ، يدير أعوادَ الشاه ، فِعْلَ السامِد اللّاه ، فدنوت منه فى تلك الأطمار ، وسمح لى بَيَاذِقَته ، إذ كنت من الصغر فى

(١) فى م : « يهددنى بالرمح » بدل : « يهز على الرمح » .

(٢) منيئتها : جلدها .

(٣) لفم : جمع لفاع (بوزن كتاب) ، وهو ما يتلفع به .

حد يُسْمح فيه للأغمار ، ووقفت بإزائهم ، أنظر إلى تصرُّفهم من ورائهم ، إذ كان عَلِق بنفسى بعضُ ذلك من بعض القرابة فى خُلَس بَطالة ، مَعَ غلبة الصَّبْوة والجهالة ، فقلت للبياذقة : الأميرُ أعلم من صاحبه ، فلحظونى شَزْرا ، وعَظُمت فى أعينهم بعد أن كنتُ نَزْرا ، وتقدَّم إلى الأميرِ مَنْ نقل إليه الكلام ، فاستدنانى ، فدنوت منه ، وسألنى : هل لى بما هم فيه بَصَر ؟ فقلت لى فيه بعضُ نظر ، سيبدو [٥٧٧] لك ويظهر . حَرِّك تلك القطعة ، فَفَعَل ، وعارضه صاحبُه ، فأمرته أن يحرك أخرى ، وما زالت الحركات بينهم كذلك تترى ، حتى هزمهم الأمير ، وانقطع التدبير ، فقالوا : ما أنت بصغير . وكان فى أثناء تلك الحركات قد ترنم ابن عم الأمير مُنشدا :

وأحلَى الهوى ما شَكَّ فى الوصل رَبُّه ... وفى الهجر فهو الدَّهرَ يرجو ويتَّقِى

فقال : لعن الله أبا الطيِّب ! أَوَ يَشُكُّ الربُّ ؟ !

فقلت له فى الحال : ليس كما ظنَّ صاحبُك أيُّها الأمير ، إنما أراد بالربِّ ها هنا الصاحب . يقول : ألذ الهوى ما كان المحب فيه من الوِصال ، وبلوغ الغرض من الآمال ، على ريب ، فهو فى وقته كلّه على رجاء لما يُؤَمِّلُه ، وتُقَاةٍ لما يُقطع به ، كما قال :

إذا لم يكن فى الحب سُخْط ولا رِضًا ... فأينَ حلاوات الرسائل والكُتْبِ

وأخذنا نُضيف إلى ذلك من الأغراض ، فى طرَفى الإبرام والانتقاض ، ما حرك منهم إلى جهتى داعىَ الانتهاض ، وأقبلوا يتعجبون منى ، ويسألونى كم سِنى ؟ ويستكشفونى عَنّى ، فبَقَرتُ لهم حديثى ، وذكرت لهم نَجيثى ، وأعلمت الأمير بأن أبى معى ، فاستدعاه ، وقمنا الثلاثة إلى مَثواه ، فخلع علينا خِلَعه ، وأسْبل علينا أَدْمعه ، وجاء كلُّ خِوان ، بأفنان الألوان .

ثم قال بعد المبالغة فى وصف ما نالهم من إكرامه :

فانظر إلى هذا العلم الذى هو إلى الجهل أقرب ، مع تلك الصُّبابة اليسيرة من الأدَب ، كيف أنقذانا من العَطَب ؟ وهذا الذى يرشدكم إن غفلتم إلى الطلب .

وسرنا حتى انتهينا إلى ديار مصر . انتهى مختصرا .

تفسير بعض الغريب

والزَّوْل : العَجَب . ونَجِيثُ الخبَر : ما ظهر من قبيحه ، يقال : بدا نجيث القوم : إذا ظهر سرّهم الذى كانوا يخفونه . قاله الجوهرى .

من لقى ابن العربى فى رحلته من كبار العلماء

إفادة : قال الإمام بن غازى رحمه الله :

[٥٧٨] فى هذه الرحلة : لقى ابن العربى شيخيه دَانِشْمَنْدَ(١) الأكبر ، وهو إسماعيل الطوسىّ ، ودَانِشْمَنْدَ الأصغر ، وهو أبو حامد الغزّالى الطوسىّ . ومعنى « دَانِشْمَنْدَ » بلغة الفرس : عالم العلماء ؛ وكان شيخنا الأستاذ أبو عبد الله الصغير يحكى لنا عن شيخه أبى محمد عبد الله العبدوسى أنه بلغه أن الفرس يفخمون « ميم » دَانِشْمَنْد . والله تعالى أعلم .

قال ابن العربىّ فى قانون التأويل : وردَ علينا دَانِشْمَنْد ، يعنى الغزّالىّ ، فنزل برباط أبى سعد ، بإزاء المدرسة النّظامية ، مُعْرِضا عن الدنيا ، مُقْبلا على الله تعالى ، فمشينا إليه ، وعرضنا أُمْنِيَّتَنا عليه ، وقلنا له : أنت ضالّتُنا التى كنا نَنْشُدُ ، وإمامُنا الذى به نسترشد . فلقِيَنا لقاء المعرفه ، وشاهَدْنا منه ما كان فوق الصّفه ، وتحقّقنا أن الذى نُقِل إلينا ، من أن الخبر على الغائب فوق المشاهدة ، ليس على العموم ، ولو رآه على بن العبّاس(٢) لما قال :

إذا ما مدحْتَ امرأً غائبا ‏ ‏ ‏ ‏ فلا تغلُ فى مدحه واقصِدِ

(١) (دانشمند : Danishmand) معناه فى الفارسية : المثقف أو الماهر ، أو الحكيم ، أو الذكى . انظر (Persian English Dictionary) تأليف (Stengass) .

(٢) هو على بن العباس المعروف بابن الرومى الشاعر العباسى .

فإنك إن تَغْلُ تَغْلُ الظنو ... نُ فيه إلى الأمد الأبعدِ
فيصْغُر من حيثُ عظَّمته ... لفضل المَغيب على المَشْهد

انتهى .

***

تعريف ابن خاقان في المطمح بابن العربي

وقال بعض من عرّف به ، أعني بابن العربيّ رحمه الله ، ما نصه :

عَلَمُ الأعلام ، الطاهرُ الأثواب ، الباهرُ الألباب ، الذي أنسى ذكاء إياس (١) ، وترك التقليد للقياس ، وأنتج الفرعَ من الأصل ، وغدا في يد الإسلام أمضى من النصل ، سقى الله به الأندلس ، [بعد] ما أجدبتْ من المعارف ، ومدَّ عليها منه الظلَّ الوارف ، فكساها رونقَ نُبله ، وسقاها رِيّقَ وَبْله ، وكان أبوه أبو محمد بإشبيلية بدرا في فلكها ، وصدرا في مجلس مُلكها ، واصطفاه مُعْتَمَدُ بني عبّاد ، اصطفاء المأمون لابن أبي دُواد ، ولاّه الولاياتِ الشريفة ، وبوّأه المراتبَ المُنيفه ، فلما أقفرتْ حِمْص (٢) من مُلكهم وخلت ، وألقتهم منها وتخلّت ، رحل به إلى [٥٧٩] المشرق ، وحلّ فيه محل الخائف الفَرِق ، فجال في أكنافه ، وأجال قداح الرجاء في استقبال العز واستئنافه ، فلم يستردّ ذاهبا ، ولم يجد كمعتَمَده باذلا واهبا ، فعاد إلى الرواية والسماع ، وما استفاد من إجالة تلك الأطماع ، وأبو بكر إذ ذاك في ثرى الذكاء قضيبٌ ما دوّح ، وفي روض الشباب زهرٌ ما صوّح ، فألزمه مجالس العلم رائحا وغاديا ، ولازمه سائقا إليها وحاديا ، حتى استقرتْ به مجالسُه ، واطّردت له مقايسُه ، فجدّ في طلبه ، واستجدّ به أبوه مُنخرق أربه ،

(١) هو إياس بن معاوية قاضي البصرة لعمر بن عبد العزيز ، المعروف بالزكانة والفقه .
(٢) المراد بها : إشبيلية من مدن الأندلس ، سكن بها أهل حمص الشام عند الفتح ، فسموها بها .

ثم أدركه حِمَامُه ، ووارته [هناك] (١) رِجامه ، وبقي أبو بكر متفرِّدا ، وللطالب متجرِّدا ، حتى أصبح في العلم وحيدا ، ولم تَجِد عنه الرياسة مَحيدا ، فكرَّ إلى الأندلس ، فحلّها والنفوسُ إليه مُتطلِّعه ، ولأنبائه مُتسمِّعه ، فناهيك من حُظْوة لقي ، ومن عزَّة سُقِي ، ومن رِفعة سما إليها ورَقِي ، وحسبُك من مفاخرَ قلّدها ، ومن محاسنِ [أُنسٍ] (٢) أثبتها فيها وخلّدها .

مثال آخر من شعره

وقد أثبتُّ من بديع نظمه ما يهزُّ أعطافا ، وتردُه الأوهام (٣) نِطافا .

فمن ذلك قوله يتشوّق إلى بغداد ، ويخاطب أهل الوداد :

أمنكِ سَرَى والليلُ يخدع بالفجرِ ... خَيالُ حبيبٍ قد حوى قَصَبَ الفخْرِ
جَلا ظُلَمَ الظَّلْماء مُشْرِقُ نوره ... ولم يخبط (٤) الظلماءَ بالأنجُمِ الزُّهرِ
ولم يرضَ بالأرض البسيطة مَسْحَبا ... فسار على الجوزا إلى فَلَكٍ يجْرِي (٥)
وحثّ مطايا قد مَطاها بعِزِّه ... فأوطأها قسْرا على قُنّة النَّسْرِ
فصارت ثِقالا بالجلالة فوقها ... وسارت عِجالا تتَّقي ألم الزَّجرِ
وجرَّت على ذيل المَجرّة ذيلها ... فمن ثَمَّ يبدو ما هناك لمن يَسْرِي (٦)
ومرَّتْ على الجَرْباء (٧) تُوضِع فوقها ... فآثارُ (٨) ما مرت به كلَفُ البدرِ
وسافَتْ أريجَ الخُلْد من جَنّة العُلى ... فدع عنك رملا بالأُثَيْم يستذري

(١) زيادة عن نفح الطيب ، ومطمح الأنفس . والإشارة بهناك إلى الإسكندرية حيث توفي والده .
(٢) زيادة عن نفح الطيب ، ومطمح الأنفس .
(٣) في نفح الطيب « الأفهام » .
(٤) في المطمح : « تخض » .
(٥) هذا الشطر في المطمح : « فطار على الجوزاء في فلك يسري »
(٦) في المطمح : « يجري » .
(٧) في نفح الطيب والمطمح : « الجوزاء » .
(٨) في س ، م : « بآثار » .

فما حَذِرْتُ قيسا ولا خَيْلَ عامرٍ ولا أضمرْتُ خوفًا لقاء بني ضَمْر
سَقَى الله مِصرًا والعِراقَ وأهلَها وبغدادَ والشامَيْنِ مُنْهمِلَ القطر [٥٨٠]

[انتهى].

وما أقربه من نَفَس [الفَتْح]، صاحب القلائد والمطمح، ولعلّ هذا من كلامه فى المطمح[1]. والله أعلم.

وقد طال الكلام، ولكن لا يلحقنا فى مثله الملام.

* * *

بعض تآليف ابن العربي

ومن تآليف الإمام أبى بكر بن العربى المذكور، كتاب «القَبَس» فى شرح موطأ مالك بن أنس»، وكتاب «ترتيب المسالك، فى شرح موطأ مالك»، وكتاب «أنوار الفجر» [فى تسعين سفرا]، وكتاب «أحكام القرآن»، وكتاب «عارضة الأحْوَذِيّ (بفتح الهمزة وسكون الحاء المهملة، وفتح الواو، وكسر الذال المعجمة، وآخره ياء مشدده) على التِّرْمِذى»، وكتاب «مراقى الزُّلَف»، وكتاب «الخلافيات»، وكتاب «نواهى الدواهى»، وكتاب «سراج المريدين»، وكتاب «المُشْكِلَيْن»: مشكلِ القرآن والسنة، وكتاب «الناسخ والمنسوخ فى القرآن»، وكتاب «قانون التأويل»، وكتاب «النيرين، فى الصحيحين»، وكتاب «سراج المهتدين»، وكتاب «الأمَد الأقصى، بأسماء الله الحُسْنى وصفاته العليا»، وكتاب فى الكلام على «مُشكل حديث السُّبُحات والحجاب[2]»، وكتاب «العقد[3] الأكبر، للقلب الأصغر»، و«تبيين الصحيح، فى تعيين الذَّبيح»، و«تفصيل التفضيل،

(١) وجدنا هذا التعريف كله فى مطمح الأنفس لابن خاقان.

(٢) اقرأ الحديث فى شرح القاموس مادة (سبح). (٣) فى م: «الفقه».

بين التحميد والتهليل » ، ورسالة « الكافى ، فى أن لا دليل على النافى » ، وكتاب « السُّباعيات » ، وكتاب « المسلسلات » ، وكتاب « التوسط فى المعرفة بصحة الاعتقاد ، والرد على من خالف أهل السنة من ذوى البدع والإلحاد » ، وكتاب « شرح غريب الرّسالة » ، وكتاب « الإنصاف » ، وكتاب « مُلْجِئَة المتفقهين ، إلى معرفة غوامض النحويين » .

نضرة وجوه أهل الحديث

ورأيت فى بعض المجاميع ما نصه : قال القاضى أبو بكر بن العربىّ رحمه الله : قال علماء الحديث : ما مِن رجل يطلب الحديث إلا كان على وجهه نَضْرة ، لقول النبى صَلّى الله عليه وسلم : « نَضَّرَ الله امْرأ سمع مقالتى فوعاها ، فأدّاها كما سمعها » الحديث .

قال : وهذا دعاء منه عليه السلام لحمَلة علمه ، ولا بد بفضل الله مِنْ نَيل بَرَكته . [٥٨١]

شعر للعزفى فى ذلك

وإلى هذه النَّضْرة أشار أبو العباس العَزَفى رحمه الله بقوله :

أهلُ الحديث عِصابةُ الحقِّ … فازُوا بدعوة سيدِ الخلقِ
فوجوهُهمْ زُهْرٌ مُنَضَّرةٌ … لَألاؤها كتألّقِ البَرقِ
يا لَيْتَنى مَعَهم فَيُدرِكَنى … ما أدركوه بها من السَّبْقِ [انتهى] .

***

ومن أشياخ القاضى عياض رحمه الله

أبو عبد الله بن حمدين من شيوخ عياض

القاضى أبو عبد الله بن حَمْدين التَّغْلَبىّ ، وهو محمد بن على بن محمد بن عبد العزيز بن أحمد التَّغْلَبىّ ، بمثناة من فوق ، وغين معجمة ، منسوب لتغلِب ؛ بكسر اللام وفتحها[1] .

(١) يريد بكسر اللام وفتحها عند النسب . أما اسم القبيلة فبكسر اللام .

ميلاده ووفاته

وُلِد سنة تسع وثلاثين وأربع مئة ؛ ومات يوم الخميس لثلاث بقين من المحرّم سنة ثمان وخمس مِئة ؛ ودُفن يوم الجمعة بعد صلاة العصر.

وقال فى حقه صاحبُ القلائد :

ما قاله ابن خاقان فى حقه

حامى ذِمارِ الدين وعاضِدُه ، وقاطعُ ضرَرِ المعتدين وخاضدُه ، مَلَكَ للعلوم زِماما ، وجعل العُكوفَ عليها لزاما ، فحيَّا رسْمَها ، وأعلى اسْمَها ، وخاصمتِ المُلْحِدِين منه ألسُنٌ لُدّ ، وتهدّلت به على الطالبين أغصُنٌ مُلْد ، وكَفّ أيدىَ الظالمين ، فلم تمكن لهم استطالة ؛ وأرهف خواطر المجتهدين ، فلم تسنح لهم بَطالة ؛ فأصبح أهل مِصره بين دارس علم ، ولابس حِلم ، وآيسِ ظُلْم ؛ ناهيك من رجل كثير الرَّعْى لأهل المعارف ، نُوّوِ مِنْ بِرّه إلى ظِلّ وارِف ؛ أعمّ الورى مِنّة ، وأعظم خلق الله مُنّة : أقام وانتهد ، وأدنى وأبعد ، وأنحس وأسْعَد ؛ فتقلّصتْ به الظِّلال وفاءت ، وحَسُنَت به الأيام وساءت ؛ وأعمل للضُّر والنفع لسانَه ويَدَه ، وشغل بالرفع والوَضْع يومَه وغَدَه ، وعمّر بهما فكره وخَلَدَه ؛ حتى هَدّ الجبالَ الشوامخ ، واجتثّ الأصول الرواسخ . [٥٨٢]

ولما أدار ابنُ الحاجّ من خلافه سنة تسع وتسعين ما أدار ، واتّفق هو ومن وَاطَأه على ما فسَخَتْه الأقدار ، استُشير فى الخَلْع فما أساغه ، وأربغَ ضَيرُه[(١)] فلم يكن فيمن راغه ، وعُرِض على الحِمام فما هابه ، ووالى فى نقض ما أبرَموه جيئَتَه وذَهابه ، وسمح[(٢)] فى ذلك بنفسه ، وقنَع من غده بذكر أمسه .

فلما انجلت ظلماؤه ، وتحلّت بنجوم ظفره سماؤه ، أغْرَى بالطالبين اهتضامه

---

(١) فى الأصول : « خيره » . وظاهر أنها محرفة عما أثبتناه .

(٢) كذا فى « قلائد العقيان ، للفتح بن خاقان » . وفى الأصول : « وسما » .

وحيفه ، وسَرَى إليهم مكرُه سُرَى قيسٍ لحَمَلٍ وحُذَيْفَهَ(١) ، وأعلن لمن أسرّ إغراءه [ولم يُنْظِر بالمكروه نظراءه ، فأخمل منهم أعلاما ، وأوْرث نَفْس الدين منهم آلاما ، وألبسهم ما شاء] ذما من الناس وملاما ، فدَجَت مَطَالِع شموسهم ، وخلت مواضعُ تدريسهم(٢) ، فأصبحوا ملتحفين(٣) بالمهانه ، مقشوّفين إلى الإهانه ، يَرُوعهم الرّواح والغُدُوّ ، ويحسبون كل صيحة عليهم هُم(٤) العدوّ ، ويَذْعَرُهُمْ طُروق النوم للأجفان ، وينكرهمُ الثابت العرفان ، فقد فقدوا حُبورا ، وعادت منازلهم قبورا ، إلى أن نُفِّس مُخَنَّقهم بعد أحوال ، وخلا أفقهم من تلك الأهوال(٥) ، فتنشقوا رِيح الحياة ، وأشرقوا من تلك الظلمات ، بعد أن أحال البؤس نعيمهم ، وأخذ الحِمام زعيمَهم .

وكان رحمه الله مُتَّضِحَ [طريق](٦) الهُدَى ، منفسح الميدان فى العلم والندى ، مع أدَب كالبحر الزاخر ، ونثرٍ كالدُّرّ الفاخر ، وقد أثبتُّ منه ما تعذُب مقاطفُه ، وتلين مَعاطِفه .

فصل من رسالة له راجع بها ابن شماخ

فمن ذلك فصل راجعَ به ابن شَمّاخ :

عَمِر بابُك ، وأخصب جَنابك ، وطاوعك زَمانُك ، ونعِم بك أوانُك

وسَقَى ديارَكَ غيرَ مُفسِدِها صوبُ الربيع ودِيمةٌ تَهْمِى

فما دَرَج لسبيله من كنتَ سُلالةَ سليله ، ووارث مَغْرِسه ومَقِيله ، وما خام

(١) يريد أنه انتقم من أعدائه كما انتقم قيس بن زهير العبسى من حمل بن بدر وأخيه حذيفة يوم الهباءة ، وهو من أيام حرب داحس . (انظر أيام عبس وذبيان فى العقد الفريد لابن عبد ربه) .

(٢) كذا فى ط ، س والقلائد . وفى م : « رئيسهم ومرءوسهم » موضع كلمة : « تدريسهم » . (٣) فى هامش س : « ملتفحين » .

(٤) فى القلائد : « هو » .

(٥) كذلك فى القلائد . وفى الأصول : « الأحوال » .

(٦) زيادة عن قلائد العقيان .

وضَرَع ، فخرَّ رَمى عن وَتَر قوسك ونَزَع ، ولم يَهلِك هالك ، ترك مثلَ مالك ، فتركتَ المهاد ، وألِفتَ السُّهاد ، وَتَقَيَّلْت الآباء والأجداد ، فأمرحْتَ فى ميدان المجد بُراقا ، اتخذ [الريح] (١) خافيةً وساقا ، فاحتلّ من شهاب المجد صُعُدا ، أثار به نَقعا ، ودَوَّمَ فى أفق السماء ، تدويم فَرْخ الماء ، حتى كأنه على قمة الرأس ابنُ ماء ، فحُقّ (٢) لباهر فضلك أن يَطول ، فيقول : [٥٨٣]

لا بقومى شَرُفْتُ بل شَرُفُوا بى ... وبنفسى فَخَرتُ لا بجـــدودى

أو يتنزّل فيتمثل :

لَسْنا وإن أحْسَابُنا كَرُمتْ (٣) ... يوما على الأحســـاب نتّـكل

نبنى كما كانتْ أوائلُنا ... تبنى ونفعلُ مثلَ ما فعـــلوا

كَمْ متعاطٍ شأوَ طلقك ، سوّلت له نفسُه شَقَّ غُبارك ، واقتفاء مناهج آثارك فما أدرك ، وطَلَح بعيرُه وبَرَك .

وفى فصل منها : فصل آخر منها

بيننا وسائل ، أحكمتها الأوائل ، ما هى بالأنــكاث ، والوشائج الرِّثاث ، مِنْ دونها عهد ، جَناه شَهْد ، أرِجُ عَرْف النسيم ، مُشْرق جبين الأديم ، رائق رقعة الجلْباب ، مُقْتَبِلُ رِداء الشَّباب ، كالصَّباح المُنْجاب ، تروق أساريرُه ، وتلقاك قبلَ اللقاء تباشيرُه .

وَرِثْناهنّ عن آباء صِـــدْقٍ ... ونُورِثُهـا إذا مُتْنا بَنينا

***

(١) زيادة عن قلائد العقيان .

(٢) فى القلائد : « فأخلق » .

(٣) كذا فى الأصول . وفى القلائد : « لسنا وإن كرمت أوائلنا » .

أبو بكر بن عطية من شيوخ عياض

ومن أشياخ القاضي أبي الفضل عياض

الفقيه الإمام الحافظ أبو بكر بن عطية رحمه الله .

قال صاحب القلائد في حقه :

شيخُ العلم وحامل لوائه ، وحافظ حديث النبي صلى الله عليه وسلم وكوكب سمائه ، شَرَح الله لتحفُّظه صدره ، وطاول به عمرَه ، مع كونه في كل علم وافرَ النصيب ، مُياسِرًا بالمعلّى والرقيب ، رحل إلى المشرق لأداء الفرض ، لابس بُرْدٍ من العمر الغَضّ ، فروى وقيّد ، ولقيَ العلماء وأسْنَد ، وأبقى تلك المآثرَ وخلَّد . نشأ في بِنْبِتة(١) كريمه ، وأَرُومة من الشرف غير مَرُومه ، لم يزل فيها على وجه الزمان أعلامُ عِلْم ، وأربابُ مجد ضخم ، قد قيدتْ مآثرَهُمُ الكتب ، وأطلعتهم التواريخُ كالشهُب ، وما برح الفقيه أبو بكر يتسنّم كواهلَ المعارف وغواربَها ، ويُقيّد شوارد المعاني وغرائبها ، لاستضلاعه بالأدب الذي أحكم أصولَه وفروعه ، [٥٨٤] وعَمَر بُرْهَة من شبيبته رُبوعَه ، وبرّز فيه تبريزَ الجواد المستولي على الأمد ، وجلّى عن نفسه به كما جلّى الصِّقالُ عن النَّصْل الفَرَد ، وشاهدُ ذلك ما أثبتُّهُ من نظمه الذي يروق جملةً وتفصيلا ، ويقوم على قوّة العارضة دليلا .

أمثلة من شعره

فمن ذلك قوله يُحذِّر من خُلَطاء الزمان ، ويُنَبِّه على التحفظ من الإنسان ، قال :

كُنْ بذئبٍ صائدٍ مستأنِسًا وإذا أبصرتَ إنسانًا فَفِرّ
إنما الإنسان بحرٌ مالَهُ ساحلٌ فاحذَرْه إيّاكَ الغَرَرْ
واجعَلِ الناس كشخص واحدٍ ثم كُنْ من ذلك الشخص حَذِرْ

وله في الزهد :

(١) في الأصول : «بيتة» ولعلها محرفة عما أثبتناه . يقال : فلان حسن النبتة ، أي الحالة التي ينبت عليها ويربى . انظر تاج العروس .

أيُّها المطرودُ من باب الرِّضا كم يراكَ اللهُ تلهو مُعْرِضا
كَمْ إلى كَمْ أنتَ فى جهل الصِّبا قد مضى عمرُ الصِّبا وانقرضا
قُمْ إذا الليلُ دَجَتْ ظُلْمَتُه واستلذَّ الجفنُ أن يَغتمِضا
فَضَعِ الخَدَّ على الأرض ونُحْ واقْرَعِ السِّنَّ على ما قد مضى

وقال فى هذا المعنى :

قلبيَ يا قلبيَ المُعَنَّى كَمْ أنا أُدْعَى فلا أجيبُ
كَمْ أتمادَى على ضلالٍ لا أرعوِى لا ولا أنيب
ويلاهُ مِن سُوءِ ما دهانى يتوب غيرى ولا أتوب
وا أسفا كيف برء دائى دائى كما شاءه الطبيب
لو كنتُ أدنو لكنت أشكو ما أنا من بابه قريب
أبعدَنى منه سُوء فعلى وهكذا يُبْعَد المُريب
ما لِيَ قَدْرٌ وأىُّ قَدْرٍ لمن أَخَلَّتْ به الذنوب

وله فى المعنى أيضا :

لا تجعلَنْ رمضانَ شهرَ فُكاهة تُلْهيك فيه من القبيح فُنونُهُ [٥٧٥]
واعلم بأنك لا تنال قبولَهُ حتى تكونَ تصومُه وتصونُه

وله فى مثل ذلك :

إذا لم يكن فى السمع منى تصاوُنٌ وفى بصرى غَضٌّ وفى مِقْولى صَمْتُ
فحظِّى إذنْ من صَوْمِيَ الجوعُ والظَّمَا وإنْ قلتُ إنى صُمْتُ يومى فما صمت

وله فى المعنى الأول :

جفوتُ أناسًا كنت آلَفُ وصلَهم وما فى الجفا عند الضرورة من باسِ

بَلَوْتُ فلم أَحْمَدْ وأصبحتُ آيِسًا ولا شىءَ أشفَى[1] للنفوس من الياسِ
فلا تعـــذُلونى فى انقباضى فإننى رأيت جميعَ الشرِّ فى خُلْطةِ الناس

وله يعاتب بعضَ إخوانه :

وكنت أظن أنّ جبالَ رَضْوَى تزول وأن وُدَّكَ لا يزولُ
ولـكنّ الأمورَ لها اضطرابٌ وأحوالُ ابنِ آدم تستـــتحيل
فإن يك بيننا وصلٌ جميـــل وإلا فليكن هجرٌ طويـــل

وأما شعره الذى اقتدحه من مَرْخ الشباب وعَفاره ، وكلامُه الذى وشَّحَه بمآرب الغزل وأوطاره ، فإنه أُنسِىَ إلى ما تناساه ، [وتركه حين كساهُ العلم والورع من ملابسه ما كساه] . فما وقع من ذلك قوله :

كيف السُّلُوُّ ولى حبيبٌ هاجرٌ قاسِى الفؤادِ يسومُنى تعذيبَا
لمّا دَرَى أن الخيال مُواصِلى جعل السُّهاد على الجفون رقيبا

وله أيضا ، رحمه الله :

يا مَنْ عهودى لديكِ نُرْعَى أنا على عهـــدكِ الوثيقِ
إن شئتِ أن تسمعى غرامى من مُخبِر عالمٍ صَـــدُوق
فاستخبِرى قلبَـــكِ المُعَنَّى يخبرْكِ عن قلبىَ المشُوق

[انتهى] .

***

ومن أشياخ القاضى أبى الفضل عياض ، رحمه الله :

ابن السيد البطليوسى من أشياخ عياض

الشيخ الإمام النحوى الأديب اللغوى أبو محمد عبد الله بن محمد بن السِّيد ،

(١) كذا فى القلائد . وفى الأصول : « أشق » ، وهو تحريف .

(بكسر السين) البَطَلْيَوْسِيّ ، بفتح الموحدة والطاء المهملة والتحتانية وسكون اللام والواو ؛ نزيل بَلَنْسِيَة .

ذكره السيوطى فى البغية

قال السيوطى فى الطبقات : كان عالما باللغات والآداب ، متبحرًا فيهما ، [٥٨٦]
انتصب لإقراء علم النحو ، واجتمع إليه الناس ، وله يد فى العلوم القديمة .
ذكره فى قلائد العِقيان ، وبالغ فى وصفه .

وكان لابن الحاجّ صاحبِ قرطبة ثلاثةُ أولاد ، من أجمل الناس صورة :
رَحْمون ، وعَزّون ، وحَسّون ؛ فأولِع بهم ، وقال فيهم :

أَخْفَيْتُ سُقْمِى حَتّى كاد يُخْفِينِى وهِمْتُ فى حب عَزُّونٍ فعزُّونى
ثم ارْحَمونى برَحْمون فإن ظَمِئَتْ نفسى إلى رِيقِ حَسُّون فَحَسُّونى

ثم خاف على نفسه ، فخرج من قرطبة .

مصنفاته كما فى البغية

صنّف : شرحَ أدب الكُتّاب[١] ، شرح الموطأ ، شرح سقط الزند ، شرح ديوان المتنبى ، إصلاح الخلل ، الواقع فى الجمل ، الحُلل فى شرح أبيات الجُمل ، المثلث ، المسائل المنثورة فى النحو . وله كتاب[٢] « التنبيه على الأسباب التى أوجبت الاختلاف بين المسلمين فى رأيهم واعتقاداتهم » ، وهو كتاب عظيم . لم يُصَنَّف مثله ، وغير ذلك . وُلِد سنة أربع وأربعين وأربع مئة ، ومات فى رجب سنة إحدى وعشرين وخمس مئة [بِبَلَنْسِيَة][٣] .

---

(١) انفردت س بذكر واو العطف بين أسماء الكتب هنا ، وهى غير موجودة فى ط ولا فى بغية الوعاة للسيوطى ، جريا على عادته فى ذكر كتب المؤلفين .
(٢) من هنا إلى قوله : « لم يصنف مثله » من عبارة المؤلف ؛ وليس من كلام السيوطى فى البغية . وعبارة السيوطى : « كتاب سبب اختلاف الفقهاء » . واسم هذا الكتاب فى كشف الظنون : « تنبيه على الأسباب الموجبة للخلاف بين المسلمين » . وقد طبع هذا الكتاب بمطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٣١٩ هـ باسم « الإنصاف فى التنبيه على الأسباب التى أوجبت الاختلاف بين المسلمين فى آرائهم » .
(٣) زيادة عن « بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة » للسيوطى .

مثال من شعره

ومن شعره :

أخو العلم حيٌّ خالدٌ بعد موته وأوصـــالُه تحت التراب رَميمُ
وذو الجهل مَيْتٌ وهو ماشٍ على الثَّرى يُظَنُّ من الأحياء وهو عـديم

ذُكِرَ في جمع الجوامع . انتهى كلام السيوطى فى الطبقات .

تأليف خاص لابن خاقان فى التعريف بابن السـيد

[ترجمة ابن السِّيد البطليوسى]

[للفتح ابن خاقان]

ورأيت تأليفا (١) بديعا للفتح ، صاحب القلائد والمطمح ، ضمَّنـه التعريف بهذا الإمام ابن السِّيد خاصة ، وهأنا أورده بجملته ، لغرابته وفصاحته و بلاغته ، و إن كان فيه بعض ما هو من قبيل الهزل ، الذى الإعراضُ عنه أولى ، وقد جرت عادة الأشياخ بذكر مثل ذلك ، وحسبك ما ذكره الإمام السيوطى آنفا فى حق ابن السِّيد . وقد اغتفر الناس المقامات ، مع ما فيها من سخيف المقالات ، والأعمالُ بالنيات .

مقدمة تأليف الفتح

قال ذو الوزارتين الكاتب أبو نصر ، الفتح بن عُبيد الله المعروف بابن خاقان ، [٥٨٧]
رحمه الله :

أما بعدَ حمدِ الله الذى جعل الليل لباسا ، وأزال عن قلوبنا شكا والتباسا ؛

---

(١) ذكر بروكلمان (Brockelmann) ضمن مؤلفات الفتح بن خاقان كتاب ترجمة عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسى ، وذكر أن منه نسخة خطية بمكتبة الأسكوريال رقم ٤٨٨ ومن حسن الحظ أن الكتاب قد نقله المقرى هنا كاملا . ويؤخذ من كلام الفتح فى مقدمته أنه جزء من كتاب كبير ألفه فى تراجم عظماء الأندلس ، ثم منعته أمور من إذاعتـه ، وخاف عليه الدثور ، فاستخرج منه هـذه الترجمة الفريدة ، وجعلها عنوانا يدل على الكتاب وقيمته .

(٢) فى م : « لجاس » .

وأرانا من الهُدَى مَنارا ، وجعل لنا من الشجر الأخضر نارا ، وخلقنا أطوارا ، وأطلع لنا شموسا وأقمارا ؛ تدلُّ على حكمته ، ويُسْتَدَلُّ بها على مقدار نعمته .

والصلاةِ على نبيه الذى بعثنا من مرقد الضلاله ، وجلَّى عنا غياهبَ الجهاله ؛ فظهر الرشاد بعد احتجابه ، وتوارى الغَيُّ فى حجابه ، صلَّى الله عليه وسلم تسليما .

فإنى لمَّا فرغت من الكتاب الذى أبديت به للإحسان مَنْسِما ، وجعلته لمحاسن الثناء مَوْسِما ؛ وجلوت فيه أبكار المفاخر وعُونَها ، وخصصْت به نُكَتَ المآثر وعُيونَها ، وشَعْشَعْتُ فيه المحاسنَ وَرَوَّقتُها ، وفَتَقْتُ فيه كمائم البدائع وشقَقْتها ؛ حتى أتت أزهى من الحديقه ، وأبهى من مُلك النُّعْمان بين الشقيقه ؛ يتمنى السِّحْرُ أن يحُلَّها ، والعيون النُّجْل أن تَكْحَلَها ؛ فصارت به لأهل الأندلس ألسُن مفتخِره ، وانتشرت لمَعاليهم عظام نَخِره ؛ ورأيت فيه فضل الأواخر على الأوائل ، وجَرَيْتُ به أمام سحبان وائل ؛ وملكت بسببه كل قِياد ، وتركت ورائى قُسَّ إياد ؛ وكان لى فيه أملٌ ثنانى أن يُجْلَى ، وعَدانى أن يُنَصَّ ويُتلَى ؛ فطويتُه طى السِّجلّ ، ولويته لَىَّ مُحيَّا الخَجِل ؛ وتركته كالبدر فى السرار ، وأخفيته كما خَفِى فى الغِمد ماضى الغِرار ؛ والخواطر تهيم به أعظم هَيْم ، وتستمطره استمطار المَحْلِ للدِّيْم ؛ والنفوسُ تتشوف إليـه ، تشوُّف الضالّ للمرشد ، والآذان تُصيخ إليه ، إصاخة الناشد للمنشد ؛ وأنا أجعل لِقاحه حِيالا ، ولا أُريه طَيْفا ولا خيالا ؛ ثم خشيتُ أن يكسوَ الزمان جوهرَهُ عَرَضا ، ويتخذ الحِدْثان بدرَهُ غَرَضا ؛ فَتُمْحى من وجه الزمان غُرَّتُه ، وتسقط عن جبين الدهر دُرَّتُه ؛ وما المُسحَ منه عُنوان ، ولا شِيم منه ما فيه سُلْوان ؛ فتذوب النفوس عليه كَمَدا ، وتُغْشَى عيون الذكاء بعده رَمَدا ؛ فرأيت أن أستخرج من أخباره [٥٨٨] خبرا يدلُّ عليه ، دِلالة اللفظ على المعنى ، واللحظ على المَغْنَى ، وينبئ عنه ، إنباء

النسيم على الزَّهَر ، ويشير إليه ، إشارة الشاطئ إلى النَّهَر .

ولما كان الفقيه الأجلّ ، أبو محمد عبد الله بن السِّيد — أدام الله عُلُوَّه — تاجَ مَفرِقه ، وهلال أُفُقِه ، ومَهَبَّ نفح صُوارِه ، [ومَحْلَى أنْوارِه] ، ومجلى أنجاده وأغواره ؛ وكنت قد أحكمت نَسَق أخباره وسرْدها ، وفوَّقْتُ مُطرَفها وبُردها ؛ وأطلعْتُها قمرا ، وجعلتها سَمَرا ، إذ هو أزخر علمائنا بحرا ، وأوسعهم نحرا ؛ وأحسنهم خواطر ، وأسكبهم مواطر ؛ وأسيرهم أمثالا ، وأعدمهم مثالا ؛ وأصدقهم لسانا ، وأعمّهم إحسانا ؛ وأرفعهم رايه ، وأبعدهم غايه ؛ ومحاسنه أعذب جماما ، وأصفى غماما ؛ وأظهر إعجازا ، وأحسن صدورا وأعجازا — رأيت أن أفرد كتابا فى أخباره ، وأجرّد ذُبابا فى إعظامه وإكباره ؛ ليتبينَ به فضل من ضمَّنتُه تصنيفى ، ويُعلم بأخباره ما أودعت فى تأليفى ؛ ويُرى أنه قطرة من غمام ، ودُرَّةٌ من نِظام ؛ وصبح يدل على نهار ، ونفح صَدَر عن حدائق وأزهار .

والله المولى العون ، والكفيل بالكَلاءة والصون ، لا رب غيره .

ثناء ابن خاقان على ابن السيد

الفقيه الحافظ ، الإمام الأوحد ، أبو محمد : هو عبد الله بن محمد بن السِّيد البَطَلْيَوْسِىّ ؛ وشابُ ببضتُه ، ومنها كانت حركة أبيه ونهضته ؛ وفيها كان قرارُهم ، ومنها نَمَّ آسُهُمْ وعَرارُهم ؛ ونُسِب إلى بَطَلْيَوْس ، لمولده بها ؛ ومن حيثُ كان فقد طبَّق الأرض علما ، وملأها ذكاء وفهما .

[٥٨٩] وأنا أقول : لو أن الأيام ألسنا ناطقه ، وأوصافا مُتناسِقه ؛ تردّد فُنون بيانها ، كالطير تُرَجِّع على أفنانها ، ما جرَتْ إلى إنصافه ، ولا درَت بعض أوصافه ؛ ولو أنى أُمْدِدْت ببيان سَحْبان وأُيِّدْت تأييد لسانِ حسّان ، وأعارنى

ابن صُوحان(١) الفصاحة ، وعلمنى خالد بن صفوان(٢) إيضاحه ، لما أعربت عن مقداره الرفيع ، ولا أغربت بما أنحوه له من التعظيم والترفيع ؛ فكيف بلسان [قد] فلّ غِراره ، وبنان قد ذوى زَنده وعَراره ؛ وخاطر قد ارتمى فى لُجج الأخطار ، ووُخِز بأطراف القَنا الخَطَّار ؛ فما تُذلّ له عَصِىّ إحسانه ، ولا تَحُل النوائب عُقْدة من لسانه ؛ فحسْبى أن أقتصر من وصفه على لَمْحه ، وأُعطّر من عَرْفه بنفْحه ، فأقول :

حظه من العلوم والمعارف

إنه ضارب قِداح العلوم ومُجيلها ، وغُرّة أيامنا البَهيمة وتحجيلها ، لو أدركه قَيْس لما قضى للحِلم وِترا ولا شفْعا ، ولو عاصره ابن العاصى لما ادّعى ضُرًّا ولا نفعا ؛ حَلَبَ الدّهرَ أشْطُرَه ، وتلا حروفه وأسْطُرَه ؛ وخدم الرِّياسات ، وعَلِم طُرُق السِّياسات ؛ ونَفَق وكَسَد ، ووقف وتوسّد . وهو اليوم شيخُ المعارف وإمامها ، ومن فى يديه مقودها وزمامها ، لَدَيه تُنْشَد ضوالُّ الأعراب ، وتوجد شوارد اللُّغات والإعراب ، إلى مَقْطع دَمِث ، ومَنْزع فى النفاسة غير مُنتكِث ؛ ونَدًى خَرّق به العوائد ، وأورق عودُه فى يد الرائد ؛ وعفافٍ كَفّ ، حتى عن الطَّيْف ، وحكَى المُحْرِمين بالخَيْف ؛ ولقد نزلتُ منه بالتّقىّ الطاهر ، ولقيت منه ما لقى عوف بن محلِّم من ابن طاهر(٣) ؛ ورأيتُ نارَ مكارمه تتألق ، وبت كأنما على النار الندى والمُحلِّق ؛ وله تحقق بالعلوم الحديثة والقديمه ، وتصرف فى طرقها المستقيمه ؛ [٥٩٠] ما خرج بمعرفتها عن مِضمار شرع ، ولا نَكَّب عن أصل للسنة ولا فرع . وتواليفه

(١) يريد صعصعة بن صوحان من أصحاب على بن أبى طالب ، وكان من أخطب الناس . (انظر المعارف لابن قتيبة) .

(٢) خالد بن صفون بن عبد الله بن الأهتم المنقرى التميمى البصرى كان لسنا بينا خطيبا ، عاش إلى قيام دولة بنى العباس . (انظر المعارف) .

(٣) يشير إلى منزلة عوف بن محلم الشيبانى عند عبد الله بن طاهر بن الحسين والى خراسان للمأمون ، وكان من المختصين به ، المقربين إليه .

فى الشروحات وغيرها صُنوف ، وهى اليوم فى آذان الأيام شُنُوف . فمنها «المقتبس ، فى شرح موطأ مالك بن أنس » . و « الاقتضاب ، فى شرح أدب الكتّاب» . وكتاب «التنبيه على السبب الموجب لاختلاف العلماء ، فى اعتقاداتهم وآرائهم ، وسائر أغراضهم وأنحائهم » ، وغير ذلك مما يشتمل عليه هذا الموضوع ويخفيه ، ويُوقف على تفسيره فيه .

وقد أثبتُّ من محاسنه التى تدور جرْيالا ، ويصير الخبر بقصتها نيالا(١) ، ما يُفْشِى ويُشْكِر ، ويحمده الوسْمِىُّ المُبْكِر .

وصفه مجلس القادر بن ذى النون

فمن ذلك أنه حضر مع القادر بالله بن ذى النون بمجلس الناعورة بطُلَيْطُلة ، فى المُنْية المتناهية البهاء والإشراق ، المُباهية لزوراء العراق ؛ التى ينفح شذاها العطر ، ويكاد من النضارة يُمطِر ، والقادر بالله رحمه الله قد التحف الوَقار وارتداه ، وحكّم العُقارَ فى جوده ونَدَاه ؛ والمجلس يشرق كالشمس فى الحَمَل ، ومَنْ حَواه يبتهج كالنفس عند مَنال الأمل ؛ والزهرُ عَبِق ، وعلى ماء النهر مُصطبِحٌ ومُغتبِق ؛ والدُّولاب يئنُّ كناقة إثْرَ حُوار ، أو كثكلى من حرّ الأوار ؛ والجوّ قد عنبرته أنواؤه ، والروض قد بلّلته أنداؤه ؛ والأسْد قد فغرت أفواهَها ، ومجّت أمواهَها ؛ فقال — رحمه الله — يصف الحال :

يا منظرًا إن رمقتُ بَهْجَتَه ... أذكرنى حسنَ جنّةِ الخُلْدِ
تُرْبة مِسْكٍ وجوّ عَنْبرةٍ ... وغيمُ نَدٍّ وطَشُّ ما وَرْد
والماء كاللازَوَرْدِ قد نُظِمَتْ ... فيه اللآلى فواغرُ الأُسْدِ [٥٩١]
كأنما جائل الحَباب به ... يلعَبُ فى حافتيْه بالنَّرْد
تراه يُزْهَى إذا يَحِل به الـ ... قادر زَهْوَ الكُعَّاب بالعِقْد

(١) كذا فى الأصول .

تخالُه إن بدا به قمــــرا ... تمًّا بدا فى مَطالع السعدِ
كأنما ألبست حــــدائقه ... ما حاز من شيمة ومن مجد
كأنمـــا جادها فروّضها ... بوابل من يمينـــه رَغْد
لا زال فى عزة مُضاعفـــة ... ميمّم الرِّفــدِ وارِيَ الزَّند

ولـه يصف فرسا ، وهو مما أبدع فى التمثيل له والتشبيه ، ونبّه خاطرَه فيـه أحسن تنبيه ، وخلع عليه شياتِ لاحقٍ والوَجيه ؛ وعمّه بالمحاسن وتوّج ، ونسبه إلى الخَطّار وأعْوَج (١) : ولـه يصف فرسا

وأقبَّ من آل الوَجيه ولاحقٍ ... قَيْدُ العيون وغاية المتمثِّـلِ
مَلَكَ النواظرَ والقلوبَ بحسنه ... فمتى تَرُقْ العينُ فيه تَسْهُل
ذو مَنْخِرٍ رَحْبٍ وزَوْرٍ ضيِّقٍ ... وصَمَاوَةٍ خِصْبٍ وأرضٍ مُمْحِل
قَصُرت له تِسْعٌ وطالت أربع ... وصَفَتْ ثلاث منــه للمتأمِّل
وتراه أحيانا لعزة نفســـه ... يرنو بلاقبـلٍ بعين الأقبل
وكأنمـا سال الظلام بمتنــه ... وبدا الصباح بوجهه المتهلِّل
وكأن راكبه على ظهر الصَّبا ... من سرعة أو فوق ظهر الشَّمأل

وله يصف فرسا للظافر عبد الرحمن بن عبيد الله بن ذى النون رحمه الله :

وأدهمَ من آل الوَجيه ولاحقٍ ... له الليـلُ لَوْنٌ والصباح حُجولُ
تحيّر ماء الحسن فوق أديمه ... فلولا التهابُ الخَصْر ظلّ يسيل
كأن هلال الفِطر لاح بوجهه ... فأعيُننا شوقا إليه تميـــل
كأن الرياح العاصفاتِ تُقِلّه ... إذا ابتلّ منــه مَحْزِم وتَليـل

(١) لاحق ، والوجيه ، والخطار ، وأعوج : أفراس مشهورة عنـد العرب بالعتق والكرم .

إذا الظافر الميمون فى متنه علا بدا الزهوُ فى العِطفين منه يجول
[٥٩٢] فمن رام تشبيها له قال مُوجِزًا وإن كان وصف الحسن منه يطول
هو الفلَكُ الدوّار فى صَهَواته لبــدر الدياجى مَطلع وأفول

وله فى وصف الراح

وما أبدع قوله فى وصف الراح ، والحض على النبذ للهموم والاطراح ، بمعاطاة كئوسها ، وموالاة تأنيسها ؛ ومعاقرة دِنانها ، واهتصار ثمار الفُتُوَّة وأفنانها ؛ والإعراض عن الأيام وأنكادها ، والجرى فى مَيدان الصَّبْوة إلى أبعد آمادها :

سَلِّ الهمومَ إذا نبا زمنٌ بمُدامةٍ صــــفراء كالذَّهبِ
مُزِجتْ فمِنْ دُرٍّ على ذهبٍ طافٍ ومن حَبَبٍ على لَهَبِ
وكأنَّ ساقِيَها يثير شَــذًا مِسْكٍ لدى الأقوام مُنْتَهَبِ

ولله هو ! فقد نَدَبَ إلى المندوب ، وذهب إلى مداواة القلوب ، من النُّدوب ، وإبرائها من الآلام ، وإهدائها كل تحية وسلام ؛ وإبهاجها بآصال وبُكَر ، وعلاجها من هموم وفِكَر ؛ فى زمن حَلِيَ عاطلُه ، وجُلِّى فى أحسن الصُّور باطله ، ونَفَقَت مُحالاته ، وطَبَّقَتْ أرضَه وسماءه استحالاتُه ؛ فلبيبُه كاسد ، وذِيبه مستاسِد ؛ وأحْفاشُه[1] تنمَّر ، وبغاثه قد استنسر ؛ فلا استراحة إلا فى مُعاطاة حميّا ، ومؤاخاة وسيم المحيّا .

ولابن عمار فى مثله

وقد كان ابن عمّار ذهب مذهبَه ، وفضَّضه بالإبداع وذهَّبه ، حين دخل سَرَقُسْطه ؛ ورأى غَباوة أهلها ، وتكاثُف جهلها ؛ وشاهد منهم من لايعلم معنى ولا فصلا ، وواصل من لايعرف قطعًا ولا وصلا ؛ فأقبل على راحه يتعاطاها ،

(١) أحفاش الأرض : ضبابها وقنافذها . والذى فى الأصول : «أخفاشه» ، ولعلها محرفة عما أثبتناه .

وعكف عليها ما تعدّاها ولا تخطاها؛ حتى بلغه أنهم تقمّوا معاقرته للعُقار، وجالت ألسنتهم فى توبيخه مجال ذى الفقار، فقال:

نَقَمْتُمْ علىّ الراحَ أدْمِنُ شُرْبَها   وقلتم فتى راحٍ وليس فتى مجـدِ
ومن ذا الذى قاد الجياد إلى الوغى   سِوايَ ومن أعطى الكثيرَ ولم يُكْدِ [٦٩٣]
فديتكمُ لم تفهموا السرّ إنمـا   قَلَيتكمُ جُهْدِى فأبعدتكمْ جُهْدِى

والمترجم فى وصف مجلس أنس

ودُعى ليلة إلى مجلس قد احتشد فيه الأنس والطرب، وقرع السرورُ نبعَه بالغَرَب؛ ولاحت نجوم أكواسه، وفاح نسيم رَنْده وآسه؛ وأبدت صدورُ أباريقه أسرارها، وضمت عليه المجالس[1] أزرارها؛ والراح يديرها أهيف وأوطف، والأمانى تُجْنَى وتُقْطَف، فقال:

يا رُبّ ليلٍ قد هتكتُ حجابَه   بمدامةٍ وقّادة كالكوكبِ
يَسْعَى بها أحوى الجفون كأنّما   من خَدّهِ ورُضاب فيه الأشنب
بدران: بدر قد أمنت غروبه   يَسْعى ببـدر جانحٍ المغرب
فإذا نعمتَ برشْفِ بدر غاربٍ   فانْعَمْ برشفة طالع لم يَغْرُبِ
حتى ترى زُهْر النجوم كأنهـا   حول المَجَرّة رَبربٌ فى مَشْرَب
والليـل مُنْحَفِزٌ يطيرُ غرابُه   والصبح يطردُه ببازٍ أشهب

وله يمدح بعض الأعيان

وقال يمدح بعض الأعيان، وهى قصيدة اشتملت على المحاسن اشتمال الليل، وانفردت بالمحاسن انفراد سُهَيْل؛ ودَرّت فيها أخلافُ الإبداع، وزُرّت عليها جيوبُ الانقطاع، وأفصح فيها لسانُ الإحسان، وسَحّ عليها عَنانُ الأفتنان؛ فجاءت بالإغراب محفوفه، ولاحت كالخريدة المزفوفه.

---

(١) لعلها: «المحاسن».

وسمعت السيّئ الاعتقاد، الغبيّ الفهم والانتقاد، الكافرَ المُلْحِد، المنافر لمن يعظّم الله ويوحّد؛ الذي ما نطق متشرّعا، ولا رُمِق متورّعا؛ ولا أقر بباريه، ولا قرّ عن جريه في ميدان الغيّ وتباريه؛ يدّعي مدحها، ويقول: إنّه إليه بعث نفحها؛ وإنه الذي افتضّ عُذرتها، وقطف زهرتها. وحاشا لقائلها أن يمدح بها المذموم، وينفضح بكونها نفحة سموم؛ أو يُشرّف بها وضيعا، ويُرْضِع ثديها من غدا للؤم رضيعا، وهي:

[٥٩٤] أما إنه لولا الدموع الهوامعُ ... لما بان مني ما تجنّ الأضالعُ
وكم هتكتْ ستر الهوى أعين المها ... وهاجت لي الشوقَ الديارُ البلاقع
خليليّ مالي كلما لاح بارق ... تلظّى الحشا وارفضّ منّي المدامع
هلِ الأفق في جنبيّ بالبرق لامعٌ ... أم المزن في جفنيّ بالودق هامع
ففي القلب من نار الشجون مصايفٌ ... وفي الخدّ من ماء الشئون مرابع
وما هاجَ هذا الشوقَ إلا مُهفهفٌ ... هو البدرُ أو بدرُ الدجى منه طالع
إذا غاب يومًا فالقلوب مغاربٌ ... وإنْ لاح يومًا فالجيوب مطالع
يُضرّجُ خدّيه الحياء كأنما ... بخدّيه من فتك الجفون وقائع
رماني عن قوسِ المحاجرِ لحظُه ... بسهمٍ غدا من مُهجتي وهو وادع
وما زلتُ من ألحاظه متوقّيا(١) ... ولكنّه ما حُمّ لا بدّ واقع
يرقّ فتور اللحظ منه كأنّه ... إلى قلبه من قسوة الهجر شافع
كما رقّ بالآداب طبعُ محمد ... فحاكت لمى الأحباب منه الطبائع
رخيمُ حواشي الطرف حُلْو كأنما ... سجاياه أيامُ السرور الرواجع

* * *

(١) في الأصول: متوقفا؛ ولعله محرف عما أثبتناه.

أبا بكرٍ أستوفيتَ زُهْرَ محاسنٍ تُنافِسها زُهْرُ النجومِ الطَّوالعُ
قدحتُ زنادًا من ذَكائك لم يَزَلْ يُنير فتَعْشى البارقاتُ اللوامع
وما ذاكَ عن نيْلٍ لديك رجوته فيَصْدُقَ ظنٌّ أو يُكذَّبَ طامع
ولا أنا ممن يَرتضى الشعرَ خُطَّةً فتجذبَه نحوَ الملوك المطامع
ولكنّ قلبًا بين جنبىّ قد غدا يجاذبنى فيك الهوَى ويُنازِع
طوَى لك من مَحْضِ الوداد كائنًا تبدَّت لها فوق اللسان طلائع
الأزعَمُ[1] فى نظم البديع ولم يَزَلْ لك السَّبْقُ فيه والورَى لك تابع
وأىُّ مقال لى وقولك سائرٌ وأىّ بديع لى ومنك البدائع

وقال يتغزّل ، وتصرّفَ فيه تصرفَ غَيْلانِ مَىّ ، ووصفَ كلَّ حَوّاء وحىّ ، وذكر العِشق ، وارتاد الإبداع ، حتى غدا به مِصره ، فأجاد معانيَه ، وأشاد مبانيَه : وله يتغزل

تأوّبَه من همّه ما تأوّبا فبات على جَمْرِ الأسى متقلّبا
مَرَتْ مُزْنَ عينيهِ غداةَ تحمّلوا عواصفُ ريحِ الشّوق حتى تصبّبا
دُموعٌ هتكْنَ السِّتْرَ عن مُضمرِ الجوَى وأبدين من سِرِّ الهوى ما تغيّبا
خليلىّ مالِى كلما لاحَ بارقٌ تذكَّرتُ بَرقًا بالعَقيق وزَيْنَبا
أؤنّسُ بالنائين نَوْمًا مُشرّدًا وأطمِعُ بالثاوين[2] قلبًا معذّبا
ومَنْ لى برَدِّ الخل إذ جدَّت النّوَى به وبوصلِ الحَبْل أن يتقضّبا
أفى كلِّ حين أمْتَرِى غَرْبَ مُقْلَةٍ أبَى الوَجْدُ إلا أن تَجُودَ فتُغْرِبا[3]

---

(١) يقال زعم يزعم زعامة (من باب شرف) : بمعنى ساد ورأس .
(٢) فى الأصول : « بالثامين » ولعلها محرفة عما أثبتناه ، أو عن كلمة بمعناها .
(٣) يقال : أغرب الساقى : إذا أكثر الغرب ، أى الملء ، وأغرب الحوض والإناء : ملأهما .

إذا عنّ لى ظبىٌ بوجرةَ شادنٌ ... تذكّرتُ مَنْ عنّى الفؤادَ وعذّبا
وأرتاح للأرواح من نحو أرضها ... وتثنى عِنانى للصَّبا نفحةُ الصَّبا
ولولا التهابُ الشّوق بين جوانحى ... لأمرعَ خدّى بالدّموع وأعشبا
ألا قاتلَ اللهُ الهوى كيف قادنى ... إلى مصرعى طوعًا وقد كنتُ مُصْعَبا(١)
وما كنتُ أخشى أن أبيتَ مُعذّبا ... بعَذْب رُضابٍ مَنْ حَمَى الثغرَ أشنَبا
وخدٍّ ألاقِى دونَ شمّ رياضِهِ ... من اللحظ هنديًّا وللصُّدغ عقربا
أجِدّكَ لم تُبصر تألُّق بارقٍ ... يُجِدُّ نشاطا(٢) فى ذُرى الأفق أهدبا
إذا ما بدا فى الجوّ أحمرَ ساطعًا ... حسبْتَ الظلامَ آبنوسا مُذَهَّبا
كأنّ الرّياضَ الحُوَّ غِبَّ سمائه ... تَرَدَّيْن وشْىَ العبقرىِّ المخلّبا(٣)
كأن الشّقيقَ الغضَّ والفجرُ ساطعٌ ... خدودٌ زهاها الحسنُ أن تتنقّبا
تمتّعْ بريعان الشّباب وظلّه ... فلا بُدَّ يومًا أن يَبِينا ويَذْهبا
فما العيشُ إلاّ أن تَروحَ وتغتدى ... مُحِبًّا تَرَاه شُقْمُه أو محبَّبا

* * *

وكتب إلى الكاتب أبى الحسن راشد يستدعيه إلى مجلس قد لاحت شموسُ مُدامه ، وارتاحت نفوس نِدامه ، وتأوّدت تأوّدَ الغُصون قدودُ خُدّامه : (بينه وبين أبى الحسن راشد وقد دعاه إلى مجلس أنس)

عندىَ مشْكودٌ(٤) من الخمْر عَبِقْ
فيه مُنَى مُصْطَبِحٍ ومُغْتَبِقْ
يحكى شذَا المسكِ إذا المسكُ فُتِقْ
كأنهُ من خُلْقِكَ الحُلْو خُلِقْ

(١) المصعب من الإبل : الفحل الذى لا ينقاد . (٢) هذه الكلمة غير ظاهرة فى الأصول . وهى فى ص أقرب إلى ما أثبتناه . (٣) المخلب (كمعظم) : الكثير الوشى . (٤) فى الأصول : « مسكود » ، ولا معنى له . ونظنه محرفاً عما أثبتناه . والمشكود : الممنوح .

كأنما كئوسه تحت الغسق
فى راحة الساقى نجوم تأتلق
تخالها وهى تلظى كالحرق
أحشاء صب مُلئت من الحُرق
ترى لدى المزج إذا الماء اندفق
فيها حبابا لاح كالدر النسق
وأنت أنسى والمفدّى بالحدق
فاطلع طلوع القمر التم اتّسق
فى يومنا هذا إذا الظهر نطق
يا راشدا إذا دجى الغىّ غسق
وماجدا قد حاز فى السّبق السّبق
لله معنى طابق اسما لك حق
توافقا فيك إذا الاسم اتفق

فراجعه راشد : [٥٩٦]

لبيك من داع إلى العيش الغدق
فى سجسج من ظله غض الورق
تدير صفو الراح صرفا قد عتق
وشبهها لونا وطعما وعبق
وكان يجلى فى ملاءه من فلق
تحسده فى حسنه بيض السّرق

ثم كساه الشهد ثوبا من شفقْ
بل من إياة الشمس من غير رَنَقْ (١)
كأنه من خـدّ مَن أهوى استرقْ
كأنه بريقه العـــذب فُتِقْ
فجاه يشفى من جوًى ومن حُرَقْ
أحلى من الأمن أتى بعد الفرقْ
رضيتُه مُصطبَحا ومُغتبَقْ
على رياض أدبٍ ذات أنَقْ
أجنينَ ما أهوى وأذهبنَ القلقْ
عند فتًى ندبٍ عبيريّ الخُلُقْ
مؤتزرٍ بالمكرُمات مُنتطِقْ
إن قال قد سُدْتُ الورى قيل صدقْ

* * *

وله يصف مجلس أنس

وقال يصف مجلس أنس وتصرّف فى وصف سُقاته ، وإقبال الصُّبح لميقاته ، ومَدح الراح بأحسن أسمائها ، وطلوع الفجر هازما لدُجى لياليهم وظَلْمائها ، وإيقاظ أصحابه من نومهم ، وترغيبه لهم فى اصطباح يومهم :

صاحِ نَبِّهْ كلَّ صاحٍ يَصْطَبِحْ — فَضْلَةَ الزِّقِّ الذى كان اغْتَبَقْ
قهوةً تَحْـكِى الذى فى أضلعى — من جَوى الحُبِّ ومن لَفْحِ الحُرَقْ
بيدَىْ ساقٍ ترَى فى طَوْقه — بَدرَ تِمٍّ قد تجـلَّى فى غَسَقْ

(١) فى ط ، س : « زنق » وفى م : « زنق » . ولعلها محرفة عما أثبتناه . والرنق : الكدر .

خِلتها إذ غربَتْ فى ثغره ... شمسُها أبقت(١) بخديه شفقْ
أفرغ الماء عليها فحكتْ ... ذائب الإبريز أو ذوبَ ورِقْ
إنّ مِسكَ الليل قد أعقبه ... مِنْ سَنى الإصباح كافورٌ عَبِقْ
فكأنّ الفجر عينٌ فُجِّرتْ ... وكأنّ الليلَ زنجىٌّ غرِقْ
وكأنّ الأنجم الزُّهْر مَهًا ... راعه السِّرْحان صُبْحا فافترقْ

***

وله فى الزهد

وقال فى الزهد ، وهو غرض قد أكثرَ القول فيه ، والضراعةَ لبارِيه ؛ وراشَ أنواعه وبَرَى ، وحَلَب فنونه ومَرَى ؛ وذلك مما يدل على وَرَعه ، وصفاء منهله فى التقى ومشْرَعه ؛ فكثيرا ما يُعلِن به ويُسِرّ ، ويطالعُ على لسانه مُتمًّا ولا يستسرّ :

إلهىَ إنى شاكر لك حامدُ ... وإنى لَساعٍ فى رضاك وجاهدُ [٥٩٧]
وإنكَ مهما زلّتِ النعلُ بالفتى ... على العائد التوّاب بالعفو عائد
تباعدت مَجدًا وادّنيتَ تعطُّفا ... وحِلْما(٢) فأنت المُدّنى المتباعد
ومالى على شىء سواك معوّلٌ ... إذا دهمتْنى المُعضلات الشدائد
أغيرَك أدعو لى إلٰهًا وخالقا ... وقد أوضح البرهانُ أنك واحد
وقِدْمًا دعا قومٌ سواك فلم يَقُم ... على ذاك برهانٌ ولا لاح شاهد
وبالفلكِ الدوّارِ قد ضلّ معشرٌ ... وللنيِّرات السبع داعٍ وساجد
وللعقل عُبّاد وللنفس شيعة ... وكلُّهم عن منهج الحق حائد
وكيف يَضِلُّ القصدَ ذو العلمِ والنُّهى ... ونهجُ الهُدى من كان نحوكَ قاصد(٣)

---

(١) فى م : « أبدت » .
(٢) كذا فى قلائد العقيان . وفى الأصول : « علما » .
(٣) كذا فى الأصول وقلائد العقيان .

وهَلْ فى الّتى طاعُوا لهَا وتعبّدوا | لأمرك عاصٍ أو لحقّك جاحدُ
وهل يوجد المَفْعُول من غير عـلة | إذا صحّ فكرٌ أوْ رأى الرشدَ راشد
وهل غبتَ عن شىء فيُنكر مُنْكِرٌ | وُجودَك أمْ لم تَبدُ منك الشواهد
وفى كل مَعْبودٍ سواك دلائلٌ | من الصُّنع تُنْبِى أنه لك عابد
وكلُّ وُجودٍ عن وُجودك كائن | فواجدُ أصناف الوَرَى لك واجد
سَرَتْ منك فيها وَحْدَةٌ لو مَنَعْتَها | لأصبحت الأشياء وهى بَوائد
وكم لك فى خَلْق الوَرَى من دلائلٍ | يَراها الفَتَى فى نَفْسه ويُشاهد
كفى مُكْذِبًا للجاحديك نفوسُهم | تُخاصمهم إن أنكروا وتُعانِد

* * *

وقال يمدح الظافر عبدَ الرحمن بن عُبَيْد الله بن ذى النُّون ، وهو مدحٌ طابق الممدوح ، ووصفٌ شاكله كالروض والغمام السَّفوح ؛ فنظم الدُّرّ بأبهَى جِيد ، وقلّد الفخرَ أعلى مجيد ؛ ووضع العلق فى يدَىْ مُمَيِّزه ، وأجرى الجواد فى ميدان مُجَوِّزه ؛ لم يحمله إلى غير موضع نَفاق ، ولا شام به مَخِيلَةً ذات إخفاق ؛ فإنه كان أندى من الغيث ، وأمضى من الليث ؛ وأذكى من الحُسام ، وأبهى من البدر ليلة التَّمام ؛ حتى خاض هَوْلًا لم يَسْرِ فيه إلى صُبْح ، وسلك شِعْبًا لم يَنْشَ[1] منه بريح ؛ فصافح المنايا ، وطَلَع له غيرَ معهود الثنايا ؛ والشعر قولُه : | وله يمدح الظافر ابن ذى النون

[٥٩٨] لعلكمُ بعد التجنُّب والهَجْر | تُديلونَ من بُعْدٍ وتَشْفُون من ضُرّ
فإن الذى غادرتمُ بينَ أضلُعى | يَزيد على مرّ الزمان ويَستشرى
ولم تُنْسِكم عَنّى النَّوَى غيرَ أنكم | رحلتم من الجَفْن القريح إلى الفِكر
ومِنْ عَجَبٍ أنّى أسائلُ عنكمُ | ومنزلُكمْ بين الجوانح والصَّدْر

(١) يقال : انشى منه ريحا ، أى شمها . والباء هنا : زائدة .

وأستعطف الأيام فيكم لعلّها ... تُعيد الليالى السابقاتِ كما أدْرى
وأطمعُ منها فى الوصال ولم أزَل ... عليما بما يؤثِرْنَ من شِيَمِ الغَدْرِ
ويُوحِشُنى حُسْنُ الزّمان لنأيكم ... وإن كنت مأنوسَ الجوانح بالذكر
ولم أنسَ إذْ صَدّت كما صدّ شادن ... غَرِيرٌ من الرَّبْعِىّ(١) أوجس من ذُعْر
تميس كما ماس القضيب على النّقا ... وترنو كما أغضى الشريفُ من الشُّكْر(٢)
وما زلتُ صَبًّا بالغوانى تَصيدنى ... ذواتُ الثنايا الغُرِّ والأوجه الزُّهْر
وعندىَ أحشاء مُلِئْن صَبابةً ... كألحاظ أجفان مُلِئْن من السِّحْر
ولوعةُ وجد ما تُفِيقُ وظماءةٌ ... لأشنبَ معسول اللّمى طيّب النَّشْر
وكم فى كِناس السمهرية من رَشًا ... أغنّ يقيم العُذْرَ فى الخَلْع للعُذْر
وأهيفَ يَثْنيه النسيم إذا جرَى ... فلو شاء من لِينٍ تَخَتّمَ فى الخصر
وساحرةِ الألفاظ لو أنها دَعَتْ ... بنغمتها مَيْتا لَلَبّى من القبر
حسَرت قناع السّتر فيها ولم يكن ... يطيب الهوى يوما لمن دان بالسّتْر
ولله ليلٌ باللّوَى أبعدَ الجوَى ... وقرّب نحرًا مِنْ مَشُوق إلى نحْر
فما شئتُ من شكوَى أرَقّ من الهوَى ... وما شئتُ من نجْوَى ألذّ من الخمر
سَرَتْ لم تمسّ الطِّيبَ عُجْبًا بحُسْنها ... وقد أفعَمَتْ عُرْض البَسيطة بالعِطْر
فقلت: عُبيد الله أو نجله سَرَى ... فذكّرَنى دارِينَ أو بثّ بالشَّحْر
كأنّ ضياء الصُّبح فى الليل إذ سَرَى ... بصيرةُ إيمان سرت فى عَمى كفْر
كأنّ سَنَا فى الأفْقِ رِيعتْ وقد بدا ... لها ذنبُ السِّرْحانِ مِنْ وَضَحِ الفجر
كأنّ سَنَى الشمس المنيرة إذ بدا ... كسا ورق الإصباح ذَوْبا(١) من التبر
وإلاّ فوجْه الظافر الملك انجلى ... فجلّى ظلام النّقْع فى الجحْفَل المَجْر

(١) الربعى: الحديث الميلاد. (٢) فى م: «الشكر». (٣) فى م: «ثوبا».

عجبت لأيامٍ تداعتْ خطوبُها ... لِتَثْلِمَ من غَرْبى وتقدحَ فى وَفْرِى
ولم تدرِ أنى فى حِمى الظافرِ الرِّضا ... أَرُدُّ العِدى عنى بِصَمْصَامَتَىْ عَمْرو
حلَلْتُ جَنابا منــه مَدَّ ظِلالَه ... علىَّ وأعطانى أمانًا من الدهر [٥٩٩]
جنابٌ بكتْ فيه غمائمُ جوده ... فأضحكن روضَ المجدِ عن زَهَرِ الشكر
وكم نِلتُ مُذْ أصبحتُ ألثِمُ كفه ... بيمناه من يُمْنٍ ويُسراه من يُسْر
لَدَى ملِكٍ ما لاح ضوء جبينه ... بجنحِ الدُّجى إلا كَفَى مَطْلَعَ البَدْر
ومُتَّقِدِ الآراء لو جال فى الوَغى ... بخاطره أغنَى عن البيض والسُّمْر
ولولا اضطرام البأس فيه غدَا القنَا ... براحتــه يهتزُّ بالوَرَق الخُضر
أرَى عابدَ الرحمن رحمةَ من قَسَتْ ... عليه الليالى ، وأمنَ مَنْ رِيعَ بالفقْر
وكعبةَ آمالٍ كثيرا حجيجُها ... لها حرمٌ فيــه مشاعرُ للشِّعْر
له من حِجاه بالسماحــة آمرٌ ... ومن حِلمه ناهٍ عن اللغْو والهُجْر
فتًى لم يشمِّرْ قطُّ إلا عَنَا له ... عِداه وساقُ الحربِ مُسبَلةُ الأُزْر
ولم يعترِكْ بُخْلٌ بميــدان عَذْلِه ... وجَــدواه إلا فاز جَدْواه بالنَّصر
أبا عامرٍ لا زالَ للمجدِ عامرًا ... فإنك وُسْطَى العِقد فى عُنُق الفخر
وَقَيتَ العِدا عنى برأفةِ ماجدٍ ... وغَمْرِ نوالٍ سَرَّ إذ ساء ذا الغمْر(١)
وأوسعتَ نُعْمَى ضِقْتُ ذَرْعًا بحملها ... فإن خفَّفَتْ عُمرى لقد أثقلتْ ظهرى
ولمّا ارتقتْ بى فى سمائك همّتى ... غدا أخمصى فوق النعائم والنسر
تَجَلَّيْتَ شمس الملك فى فلَك العُلا ... وشِمْتُ سحابَ الجودِ فى بارق البِشْر
أيرجو ضلالا أنْ يُناويك حاسدٌ ... وقد حُزتَ خصلَ السَّبْق وهو على الإثر
وأرسى عبيدُ الله بيتك فى العُلا ... وطنَّبه بين السماكين والغفْر(٢)

(١) الغمر (بفتح الغين وكسرها) : الحقد . (٢) الغفر : من منازل القمر .

وأصبحتَ كالمأمون تقفو سبيلَه ... كأنك موسى تقتفِي أثرَ الخِضرِ
وما عِلتَ صبرًا حين قلّدكَ العُلا ... وجاء بأمرٍ من بدائعه أمرى
فللّهِ ما شادوا وشِدْتَ من العُلا ... ولله ما حازوا وما حُزْتَ من ذِكرِ
نَظمتَ شتيتَ المُلكِ بالعدْلِ والتّقى ... وقمتَ بحقّ الله فى السرّ والجهرِ
وجاءكَ صومٌ إثْرَ فطرٍ قضيتَه ... بحظّين من سعدٍ جزيلٍ ومن أجرِ
وأدْبرَ سُقمٌ عنك بشّرَ جسمَه ... بإقبالِ نُعْمَى واتصالٍ من العُمْرِ
سيملأُ شكرى كلَّ قُطْرٍ تَحُلُّه ... بنشرِ ثناءٍ عنك أذكى من العِطْرِ
وتبقى لكم بين الضُّلوعِ محبةٌ ... أُلاقِى بها الرحمنَ فى موقفِ الحشْرِ

* * *

وله يمدح ابن لبون

وكتب إلى ذى الوزارتين أبى عيسى بن لُبون :

قمْ نصْطبحْ من قهوةٍ بِكْرِ ... حتى نُرى صَرْعَى من السُّكرِ
أُنُفٍ تناساها الوَرَى حتّى ... لم تَجْرِ فى بالٍ ولا ذِكرِ
فترى الدّنانَ وما حوتْ منها ... كجوانحٍ طُوِيَتْ على فِكرِ [٦٠٠]
نفَحتْ فقلتُ المسكُ أو ما قدْ ... أحيا أبو عيسى من الذِّكرِ
لا شَىءَ يحكى طِيبَها إلّا ... شِيَمٌ عِذابٌ منه أو شكرى
ما زلت أخْبُرُ من محاسنه ... قِدمًا بعُرفٍ ليس بالنُّكْرِ
وأحِنُّ نحو لقائه طَرَبًا ... كالطّيرِ إذ حنّتْ إلى وَكرِ
فالآنَ شاهدتُ الذى يُحْكَى ... ولقِيتُ فيه الفَضْلَ للشُّكْرِ

تعريف للفتح بابن لبون ومدح ابن السيد له

وكان أبو عيسى ممن رأس وما شَفَّ ، ووَكَفَ جودُه وما كَفّ ؛ وأعاد سوق البدائع نافقه ، ورفع للآمال رايةً من الندى خافقه ؛ وأوردهم منها جودَه مَعِينا ، وزفّ لهم من مبرّاته أبكارا وعُونا ؛ فلما بلغه قوله هذا وسمعه ، استنبله

واستبدعه ؛ وأحضره إلى مجلسٍ نام عنه الدهر وغفل ، وقام لفرط أنسه واحتفل[١] ؛ قد بانت صروفه ، ودنت فى الزائرين قطوفه ؛ وقال هلمّ بنا إلى الاجتماع بمذهبك ، والاستمتاع بما شئته ببراعة أدبك ؛ فأقاموا يُعملون كأسهم ، ويَصِلُون إيناسهم ؛ وباتوا ليلهم ما طرقهم نَوْم ، ولا عَدَاهم عن طيب اللذات سَوْم .

ودخل سَرَقُسْطة أيام المستعين [بالله] وهى جنّة الدنيا ، وفِتنة المَحْيا ؛ ومُنتهى الوصف ، وموقف السرور والقصف ؛ مَلِك نَمير البشاشة ، كثير المشاشة ؛ ومُلْكٌ بَهِجُ الفِناء ، أرِجُ الأرجاء ؛ يروق المجتلِي ، ويفوق النجمَ المعتلي ؛ وحضرةٌ مُنسابة الماء ، مُنجابة السماء ؛ يبسِمُ زهرُها ، ويَنْساب نهرُها ؛ وتتفتّح خمائلها ، وتتضوع صَباها وشمائلها ؛ والحوادث لا تعترضها ، والكوارث لا تَقْتَرِضُها[٢] ؛ ونازِلُها من عُرْس إلى مَوسِم ، وآملها متصل بالأمانى ومُقْسِم ؛ فنزل منها فى مثل الخَوَرْنَق والسَّدِير ، وتصرف فيها بين روضة وغدير ؛ فلم يَخْفَ على المستعين [٦٠١]
اختلالُه[٣] ، ولم تَخْفَ لديه خِلاله ؛ فذكره مُنْهِما به ومُعَرِّفا ، وأحضره مُنوّها له ومُشَرِّفا ؛ وقد كان فرّ مِن ابن رَزِين ، فرار السرور من نفس الحزين ؛ وخَلَص من اعتقاله ، خلوص السيف مِنْ صِقاله ؛ فقال يمدحه :

هُمُ سلبُونى حسنَ صَبرىَ إذْ بانُوا ... بأقمار أطواقٍ مَطالعها بانُ
لئِن غادرونى باللِّوى إنّ مهجتى ... مسايرةٌ أظعانَهم حيثُما كانوا
سَقَى عهدَهم بالخَيْف عَهْدَ غمائمٍ ... ينازعها مُزْنٌ من الدمع هَتّان
أأحبابَنا هل ذلك العهدُ راجع ... وهلْ لِيَ عنكمْ آخِرَ الدهرِ سُلْوان

(١) فى م : « ورفل » .
(٢) تقترضها : تنال منها . (عن تاج العروس) .
(٣) اختلاله : أى سوء حاله .

ولى مقلة عَــبْرَى و بين جوانحى فؤاد إلى لُقْيَاكُمُ الدهرَ حَنَّانُ
تنكَّرَتِ الدنيا لنا بعد بُعْدِكم وحَفَّتْ(١) بنا من مُعْضِلِ الخطب ألوان
أناخت بنا فى أرض شَنْتِ مَرِيَّةٍ هواجسُ ظنٍّ خُنَّ والظنُّ خَوَّان
وشِمْنا بروقا للمواعيــد أتعبَتْ نواظرنا دهرا ، ولم يَهْمِ هَتَّان
فسرنا وما نُلْوِى على متعــذَّر إذا وطن أقصاك آوتك أوطان
ولا زاد إلا ما انتشقته من الصَّـبا أنوفٌ وحازته من الماء أجْفان
رَحلنا سَــوام الحمد عنها لغيرها فلا ماؤها صُدًّا ولا النبت سَعْدَان
إلى مَلِكٍ حاباه بالمجد يوسُفٌ وشـادَ له البيتَ الرفيع سليمان
إلى مستعينٍ بالإله مؤيَّدٍ له النصرُ حزْبٌ والمقادير أعوان
جَفَتْنا بلا جُرْمٍ كأَن مودةً ثَنَى نحوَنا منها الأعنــةَ شَنْآن
ولو لم تَفِدْ منا سوَى الشعرِ وحدَه لحُقَّ لنا برٌّ عليــــه وإحسان
فكيف ولم نجعلْ بها الشعرَ مكسبا فيوجِبَ المُكْدِى جفاءً وحرمان
ولا نحن ممن يرتضى الشعرَ خُطَّةً وإن قَصَّرت عن شأوِنا فيه أعيان
ومن أوهمتــه غيرَ ذاك ظنونُه فثَمَّ مجـالٌ للمقال وميــدان
خليليَّ من يُعْدِى على زمن له إذا ما قضى حَيْفٌ عَلَيَّ وعُدْوان
وهل رِىءٌ مِن قبلى غريقٌ مدامعٍ يَفيض بعينيه الحيا وهو حَرَّان
وهل طَرَفَتْ عينٌ لمجدٍ ولم تكن لها مقلةٌ من آل هُودٍ وإنسان [٦٠٢]
فوجه ابن هودٍ كلما أعرض الورى صحيفةُ إقبال لهــا البشرُ عنوان
فتى المجدِ فى بُرْدَيْه بدرٌ وضيغمٌ وبحر وقُدْسٌ ذو الهضاب وثَهلان

---

(١) فى ابن خلــكان : « وحلت » .

من النفر الشُّمِّ الذين أكفهم غُيوثٌ ولكنَّ الخواطر نيرانُ
لُيوثُ شرًى مازال منهم لدى الوغى هِزَبْرٌ بيمناه من السحر ثعبان
وهل فوق ما قد شاد مقتدر لهم ومؤتمن بالله لقيـــاه إيمان
ألا ليس فخر فى الورى غيرُ فخرهم وإلا فإنَّ الفخر زُور وبهتان
فيا مستعينا مُستعانًا لمن نَبا به وطنٌ يوما وعضَّتْهُ أزمان
كسوتُك من نظمى قلائدَ مَفخرٍ يباهى بهـا جيدُ المعالى ويزدان
وإن قصَّرْت عما لبِسْتَ فربّما تجاورَ درٌّ فى النّظام ومرْجان
مَعانٍ حكت غُنْج الحِسان كأننى بهنَّ حبيبٌ أو بَطَلْيُوس بَغدان
إذا غرَسَتْ كفاكَ غرسَ مَكارمٍ بأرضىَ أجنتك الثَّنا منه أغصان

* * *

ولابن السيد يمدح ابن رزين

وكان عند وصوله إلى ابن رَزِين قد رفعه أرفع محلّ ، وأنزله منزلةَ أهل العَقْد والحلّ ؛ وأطلعه فى سمائه ، وأقطعه ما شاء من نَعْمائه ، وأورده أصفى مناهل مائه ، وأحضره مع خواصّ نُدَمائه ؛ وكانت دولته مَوْقِف البيان ، ومَقْذِف(١) الأعيان ؛ ومُخْصِب جِمار الآمال ، وأعذب موارد الأجمال؛لولا سَطَواته الباطشه ، ونَكَباته البارية لسهام الرُّزْء الرائشه ؛ فقلما سَلِم منها مُفاد الأموال ، ولا أحمدَ عُقْباه معه صاحبٌ ولا والٍ ؛ فأحمدَ هو أوّلَ أمره معه ، واستحسن مَذهبه فى جانبه ومَنْزَعه ؛ ولم يَدْرِ أنّ بعد ذلك الشهد شربَ عَلْقَم ، وأن السّمّ تحت لسان ذلك الأرقم ؛ فقال رحمه الله يمدحه :

عسى عَطفة مِمّنْ جفانى بُعيدُها فتُقْضَى لُباناتى ويدنو بعيدُها
فقد تُعْقِب الأيام بعــد عِتابها ويُمْحَى بوصل الغانيات صدودُها

(١) فى ط : « ومقذف » . وفى م : « ومعدن » . وفى س : « ومقدب » . ولعل الكلمة محرفة عما أثبتناه .

وكم للصِّبا عندى يدٌ لستُ جاحدا ... لها إنَّ كُفران الأيادى جحودُها [٦٠٣]

ليالىَ أَمْرِى فى ليالِى غدائرٍ ... كواكبها حَلْىُ المها وخدودها

وأَقْصِر أغصان القدود فتَنْثَنِى ... علىَّ برُمّان النحور نهودها

فَلِلّهِ ليلٌ بتُّ فيه كأنَّنى ... بوَجْرَةَ أغتال المَها وأصيدها

أُبيحُ ثغورًا كالثغورِ ودُونها ... أسنّةُ ألحاظٍ قناها قدودها

تَشابه منها ما حوته مَباسمٌ ... عِذابٌ ولَبَّات يَرُوق فريدها

فإنْ تكُ من تلك العقود ثغورُها ... وإلاَّ فمِنْ تلك الثغور عقودها

وحمراء حلاَّها المزاجُ نخيلتها ... عقيلةَ خِدْرٍ زينَ بالدُّر جيدها

بدت فى دِلاصٍ من حَباب وأشرعت ... سِنانَ انسكاب والكئوس جنودها

فما بَرِحَتْ حتّى كأنَّ شُروبَها ... من السكر صرعَى أنعستها حدودها(١)

ترى شَرْبَها جُنْحَ الظلامِ كأنهم ... بها مُصْطَلُو نارٍ يُشَبُّ وَقودها

إذا أنكحوا مِنْ فِضّة الماء تِبْرَهَا ... أتى اللؤلؤ المكنونُ وهو وَليدها

كما أنكحوا البدرَ استقامت سُعوده ... هُذيلا من الشمس استقامت سعودها

فجاءا بعبد المَلْكِ للمُلْك كوكبا ... ليحمِى سماء المجد ممن يَكيدها

رمى جِنَّةَ الأعداء لما سَمَوْا لها ... بشُهْبِ القنا حتى استشاط مَريدها

حَلَفْتُ بعَلْيا عابدِ المَلْكِ ذى العُلا ... وأيدٍ له كالقطر جَمٌّ عديدها

لئن كان قد أبلتْ هُذَيلا يدُ الرّدَى ... فإنَّ عُلاهُ ليس يَبْلَى جديدها

وإنْ رَفعتْ كَفّاه قُبّةَ مفخرٍ ... فإن قنا عبد المليك عمودها

فتًى أَحْرَزَ العَلْيا ، وحاز مَدَى النَّدَى ... فما إن له من رُتبة يستزيدها

---

(١) حدودها : جمع حد ، وهو سورة الشراب .

سَرَى بارقٌ من بشره غيرُ خُلّبٍ ... إلى أرض آمالِي فأورق عودُها
وبَوّأني من مجـــده فى مكانةٍ ... سُعودُ النجوم الزاهرات صَعِيدُها
فيأيهـا المولى الذى أنا عبدُه ... وقِدْمًا رَجَا طَوْلَ الموالى عبيدها
أصِخْ نحوَ حُرِّ الشِّعرِ من عبد أنعُمٍ ... بدائعـــه مازال منك يُفيدها
قوافٍ تروقُ السامعين كأنما ... تُحلّى سجاياكَ الحِسانَ قصيدها
حَبَتْكَ العُلا حقًّا بمَثْنَى رياســةٍ ... بها اعترفتْ ساداتهـا ومَسودها
ولولاكَ أضحت أرضُ شَفْتٍ مَرِيّةٍ ... مُناخَ خُطوبٍ لا يُنادَى وليدها
وما زلتَ يَقْظانَ الجُفون لرعيهـا ... إذا أعينُ الأملاكِ طالَ هجودُها
[٦٠٤] تَــكُفُّ الأذَى عن أهلها وتَحوطها ... وتُبْدِى الأيادى فيهم وتُعيدها

***

وله يرثى أبا عبدالملك بن عبـد العزيز

وقال يَرْثِي الوزيرَ الأجلَّ ، أبا عبد الملك بن عبد العزيز ، و بنو عبد العزيز بهذا الشَّرْقِ ، هم كانوا بدورَ غياهبه ، وصدور مراتبه ، و بحور مواهبه ؛ نُظِمَتْ فيهمُ المدائح ، وعظمت منهم المنائح ؛ ونفقت عندهمْ أقدار الأعلام ، وتدفقت لديهم بحار الكلام ؛ وخَدَمتهم الدنيا ودهرها ، وأمِنَتْهمُ الأيام ولم يأمنوها ؛ فرّقتْ جُموعَهم ، وأخْلتْ رُبوعهم ، و نَثرَتْ سلْكهم ، ومزّقتْ مُلكهم ؛ وهدّت مُشيَّد بنائهم ، واختلّتْ الحوادث فى فِنائهم ؛ وَبقِيَ أبو عبد المَلِك هذا آخِرَهم ، فأحيا مفاخِرهم ؛ وكان بدرَ هذا الأفق وشمسه ، وروح هذا القُطْر ونَفْسَه ؛ أبدى لذلك السَّنَى لَمْعًا ، وأعاد من تلك العُلا جَمْعًا ؛ إلى أن دَبَّ إليه الحِمام ، واسْتَسَرَّ(١) بدرُه بعد التَّمام ؛ والقصيدة :

فؤادِي قريحٌ قد جفاه اصْطِبارُهُ ... ودمعِي أبتْ إلاّ انسكابا غِزارُهُ

(١) فى م ، س : « واستتر » .

يُسَرُّ الفتى بالعيش وهو مُبيدُه — ويَفترُّ بالدنيا وما هي داره
وفي عِبَرِ الأيام للمرء واعظ — إذا صحّ فيها فكرُه واعتباره
فلا تحسبَنْ يا غافلُ الدهرَ صامتًا — فأفصحُ شيء ليلُه ونهاره
أصخ لمناجاةِ الزمان فإنهُ — سيغنيك عن جهر المقال سِراره
أدار على الماضين كأسًا فكلُّهم — أبيحت مغانيه وأقوتْ دياره
ولم يحمهم من أن يُسقَّوا بكأسهم — تناوُشُ أطراف القنا واشتجاره
وغالت أبا عبدِ المليك صروفُه — وقد كان دهرًا لا يُباح ذِماره
فأصبح مجفوًّا وقد كان واصلا — وأمسى قصيًّا وهو دانٍ مزاره
ولم أنسَ إذْ أودى الحِمام بنفسه — فلم يبق إلاَّ فضلُه وادّكاره
إذا رقأتْ عيني استهلتْ شئونها — لمأتمِ حزن قد أرنّ صُوَاره
تُجاوِبُ هذي تلكَ عند بكائها — كترجيع شَوْلٍ حينَ حنّتْ عِشاره
كأن لم يكن كالمزن يرهَب صَعْقه — عدوٌّ ويُرجى في المحول انهماره
ودوحةَ عزٍّ يُستَظَلُّ بظلها — وروضًا من الآداب تُجْنَى ثماره [٦٠٥]
أمَا وعُلَى مَرْوان إنّ مُصابه — أثارَ أسًى تُذكَى على القلب ناره
فلا شُرْبَ إلاَّ قد تكدّر صفوهُ — ولا نومَ إلاَّ قد تجافى غِراره
فأيُّ حَيًا للفضل أجلى غمامُه — ونظمٍ من العَلياء حان انتثاره
خوَى المجدُ من مروان وانهدّ طَوْدُه — وجَدّ بجدّ المكرُمات عِثاره
وما خلت أنّ الصُّبح يُشرِق بعدَهُ — امين وأنّ الروضَ يَبْقى اخضراره
فيا طَودَ عزّ زلزل الأرضَ هدُّهُ — وبدرَ عُلاً راعَ الأنامَ انكداره
هنيئًا للحدٍ ضمّ شلوكَ أنْ غدا — عميدُ الندى والمجدِ فيه قراره
ولم أرَ دُرًّا قطُّ أصدافه الثرى — ولا بدرَ تمٍّ في التراب مَغاره
عزاءً بني عبد العزيز وإن خلا — من المجد مَغناه وهُدّ مناره

ففيكم لهـذا الصَّدْعِ آسٍ وجابرٌ　　وإن كان صعبا أسْوُهُ وانجباره

لـكُم شرَفٌ أرْسَى قواعدَ بيته　　أبو بكرٍ السارِى إليكُمْ نجاره

أجلُّ وزيرٍ عطَّر الأرضَ ذكرُه　　وأخجلَ زُهْرَ النَّيِّراتِ فخاره

فلو كان للعلياء جِيدٌ ومِعْصَمٌ　　لأصبح منكمْ عِقْدُه وسِواره

***

وله فى وصف طول الليل

ومما يُستغرَبُ له ويستبْدَع ، ويشاد بذكره ويسمَع ، ويُعدُّ مما ابتـكَر معناه واخترَعَ ؛ قوله فى وصف طول الليل عليه ، كابدَ منه ما عظُمَ لديه .

تُرَى ليلُنا شابتْ نواصيه كَبْرَةً　　كما شِبْتُ أمْ فى الجو رَوْضُ بَهارِ

كأنَّ الليالِىَ السبعَ فى الأُفْقِ جُمِّعتْ　　ولا فضلَ فيما بينها لنهارِ

***

وله فى وصف مجلس الظافر

وحضر عند الظافر عبد الرحمن بن عُبيد الله بن ذى النون ، رحمه الله ، مجلسا رَفَعَتْ فيه المُنَى لواءها ، وخلعت عليـه الشمس أضواءها ، وزَفَّت إليه المَسَرَّات أبكارها ، وفارقت إليه الطير أوكارها ؛ فقال يصفه :

وَمَجْلسٍ جَمّ الملاهِى أزهَرَا

ألَذّ فى الأجفان من طَعْم الـكَرَى

لم تَرَ عينِى مثْـــــلَه ولا تَرَى

أنفسَ فى نفسٍ وأبْهَى مَنظَرَا

إذا تَرَدَّى وشْـيَه المُصَوَّرا

من حَوكِ صنعاءَ وحوكِ عَبْقَرا

ونسْجِ قُرْقُوبٍ(١) ونسْجِ تُسْتَرا(٢)

(١) قرقوب (بالضم ثم السكون وقاف أخرى ، وبعد الواو الساكنة باء موحدة) : بلدة متوسطة بين واسط والبصرة والأهواز ، وكانت من أعمال كسكر (عن معجم البلدان).

(٢) تستر (بالضم ثم السكون وفتح التاء الأخرى وراء) : مدينة بخوزستان .

خلَتْ الربيعَ الطَّلْقَ فيه نوّرا
كأنما الإبريق حين قرقرا [٦٠٦]
قد أمَّ لثمَ الكاسِ حين فغرا
وَحْشِيّةٌ ظلَّتْ تناغى جُؤْذَرا
تُرْضِعه الدُّرَّ ويَرْنو حذرا
كأنما مجَّ عقيقاً أحمرا
أوْفَتَ مِنْ رَيّاه مِسْكاً أذفرا
أو عابدُ الرحمن يوماً ذُكِرا
فنمّ مِسْكاً ذكرُه وعنْبرا
الظافرُ المَلْكُ الذى مَنْ ظَفِرا
بقربه نال العلاء الأكبرا
لو أنّ كسرى راءه(١) أوْ قيصرا
هلَّل إكبارًا له وكبّرا
تُبْدِى سماء الملك منه قمرا
إذا حجابُ المجْد عنه سفَرا
يأيها المُنْضِى المطايا بالسُّرى
تبْغِى غمامَ المكرُمات المُمْطِرا

وقال رحمه الله :

يَغْلو لسانى فيكُمْ وما أفكْ

(١) كذا فى ط ، ص . وراءه : رآه . وفى م : « زاره » .

فاهْزُزْ به عَضْباً إذا هُزَّ فَتَكْ(١)
قائمُهُ قلبِىَ والغِمدُ الحَنَكْ

***

وقال يتغزل أيامَ جَرى فى ميدان الصِّبا مُتهافِتا ، وأبدَى له الجوَى نَفَسًا خافتا ؛ وهو من أبدع أنواع الاستعطاف ، وأحسن من النَّوْر عند القِطاف ؛ خَضَع فيه لمحبوبه وذَلّ ، وهان له وابْتَذَل ؛ ورَضِى بما سامه من العذاب ، وبذل نفسه فى رَشفة من ثناياه العِذاب ؛ وتشكَّى من جَوْره وحيْفه ، وبكَى حتَّى مِن اجتناب طَيفه ؛ واستدعى رِضاه ، وخلع ثوبَ التماسك ونضاه ؛ ونحا فى استلطافه أرقَّ مَنْحَى ، وتصامّ عن قول من عذَلَ ولحَى ؛ وهذا غرض مَنْ كَوَاه الغرام ، وسبيل من رام من الوصال ما رَام ؛ فما مع الهوى عِزٌّ ولا صبر ، وما هو إلا ذُلٌّ أو قبر . وله فى الغزل

[والقطعة] :

أبا عامرٍ أنتَ الحبيبُ إلى قلبى وإن كنتَ دُهرا مِنْ عتابك فى حَرْبِ
أتُعْرِضُ حتى بالخيال لدَى الكَرَى وتبخَلُ حتى بالسَّلام مع الرَّكْبِ
كأنى أخو ذنبٍ يجازَى بذنبــه وما كان لى غيرَ المودة مِنْ ذنبِ
فيا ساخِطا هل مِن رجوع إلى الرِّضا ويا نازحا هــل من سبيل إلى القرب
ويا جَنَّةَ الفِرْدوسِ هَلْ يقطع(٢) العِدا بجرْيالِكِ المختومِ أو مائكِ العذْبِ
ويا بابِنا بان العزاء ببَيْنه فأصبحتُ مسلوبَ العزيمة والقلب [٦٠٧]
أذِقْنِى بالتُّقْى جَنَى النحلِ مُنْعِمًا فإنك قد جرعتنى الصابَ بالعَتْبِ
وكنتُ أرى الهِجْران أعظمَ حادثٍ فقد صار عند البَيْن من أصْغر الخطب

(١) كذا فى ط . وفى ص : « إذا هز بتك » . وفى م : « إذا أهوى فتك » .
(٢) كذا فى الأصول .

أتتركُنى رَهْنا بأيدى حوادثٍ غدوتُ لها نَهْبا وما كنتُ بالنَّهْبِ
سأجعل عيدا يوم عَوْدِك يَمْتَدى مُحيّاك فيه قبلةَ الهائم الصَّبّ
أقيم لواء الوَصْل فى حُلّة الصِّبا به وأُضَحّى بالصَّبابة والكَرْب
لك القلبُ مافيه لغيرك مَنزِل مَنحْسُكه فانْزله بالسَّهْل والرُّحْب

* * *

وقال شاكيا مثلَ هذه الشكْوَى ، مخبرا عما يلقاه من البلْوَى :

خليلىَّ هل تُقضَى لُبانةُ هائمٍ أم الوَجْد والتبريحُ ضَرْبةُ لازِمِ
فإنّى عِما أَلْقَى من الوَجْد مُغرَمٌ كسالٍ وقلبى بائحٌ مثلُ كاتمِ
ولى عَبَرات يَسْتَهِلُّ غَمامُها بخَدّى إذا لاحت بروقُ المباسِمِ
كفَى حَزَنا أَنّى أذوبُ صَبابةً وأشكو الذى أَلْقَى إلى غيرِ راحمِ
وأرتعُ من خدَّيه فى جَنّة المُنَى ويَصْلَى فؤادى مِن هواه بجاحِمِ
تَقضَّى الصِّبا واللهوُ إلا حُشاشةً تجدّدُ لى عهد الصِّبا المتقادِمِ
كأنِّىَ لم أقطع بصُبح وقَهْوَةٍ زمانى ولم أنعَمْ بأحورَ ناعمِ
ولا بِتُّ فى ليل الغَواية لاثما له تحت أستار الدُّجى وهو لاثِمِى
إذا ما أدارَ الكأسَ وَهْنًا حسِبتهُ يُدير هِلالا طالعا فى غمائم
أبا حسَنٍ إنى بوُدِّك مُعْتصِمٌ(١) فهل أنت يوما من جفائك عاصِمِى
جعلتُك فى نفسى وقلبى مُحَكَّمًا لترضَى فقد أصبحتَ أجورَ حاكمِ
أتظلمنى وُدِّى ومازال فيكمُ قَريعُ عُلًى يُرْجَى لرد المظالمِ
وقد كان فصَّ الفخرِ فى خِنصَر العُلَا أبوك ، ووُسْطَى فوق جِيد المكارمِ

---

(١) معتصم : متمسك .

وكم ضمّ ظهرُ الأرض منكم وبطنُها بدورَ دُجًى من كل أشْوسَ(١) حازم
وأبلجَ فضفاضِ القميص حُلاحِلٍ طويل نجاد السيف ماضِي العزائم
وما أذهلتنى عن ودادك غَيْبةٌ قدحتَ بها نارَ الأسى فى حيازمى
وكم لىَ فيها نحوكُمْ مِنْ تحيّة أُحمّلها مَرْضَى الرياح النّواسم
إذا مرّ ذكر منكَ يوما على فمى توهّمْتُه مسكا سرى فى خياشمى
دعانى إليك الشوقُ فاهتاج طائرى ضُحًى بخوافٍ للهوى وقوادمِ
ولو أننى فى مُلْحَدِى ودَعوتنى لَلبّيْتُك من تحت الصّعيد رَمائمى [٦٠٨]
سأُصْفيك محضَ الودّ ماهبّتِ الصّبا وما سجعتْ فى الأيكِ وُرْقُ الحمائم

* * *

(٢)وقال أيضا جاريا على عادته من التشبيب، وسالكا جادّته من الخضوع للحبيب، إلا أنه اعتذر من الهوى فى المشيب، وأنكر أخلاق الشُّبّان على الشيب:

خَليلىّ ما للريح أضحى نسيمُها يُذكّرنى ما قد مضى ونَسيتُ
أبعْد نذير الشّيب إذ حلّ عارضى صبَوْت بأحداق المها وسُبِيت
ولى سَكَنٌ أغرَى بىَ الحزنَ حُسنُه جَرِىءٌ على قتل المحبّ مُقِيت(٣)
تُلاحظنى العينانِ منه برحمة فأحيا ويقسو قلبُه فأموت
فيا قمرًا أغرى بىَ النّقصَ وا كتسى كمالا ووافى سعدَهُ وشَقِيت
وليتِ فَرِقّى إذ وليتِ لهائمٍ سَباه أمَمى كالشّهد منك وَليت(٤)
وجُودِى ببرْد الوصل ياجنةَ المُنَى فإنّى بحرّ الوجد منك صَليتُ

(١) أشوس : متكبر، وهو من الشوس : النظر بمؤخر العين تكبرا .
(٢) من هنا إلى قوله : «الحبيب» ساقط فى م .
(٣) المقيت : الحافظ للشىء . يريد أنه قادر على قتل من يحبه وإحيائه .
(٤) الليت : صفح العنق .

لابن عريب يستدعيه إلى معاطاة قهوة

وكتب إليه الكاتب أبو الحسن راشدُ بن عُرَيْب يستدعيه إلى معاطاة قَهْوَة ، وساعات سَلْوة :

طَرِبت إلى شمسيّةٍ قد تروَّقتْ فأربتْ على الصَّهباء لَوْنا ورائحةْ
فلو أنَّ فيها نقطةً هندسيةً لباتتْ بها فى ظلمة الليل بائحه
فكن مُسْعِدِى يامن سجاياه لم تَزَلْ وأخلاقُه تُغْنِى عن المسك فائحه

رده على ابن عريب

فأجابه رحمه الله :

طَرِبتَ فأطربتَ الخليلَ إلى الذى طربتَ له فالنفس نحوكَ جانحةْ
وكمْ أسكرتْنا منك من غير قَهْوةٍ شمائلُ تغنينا عن المسك فائحه
فلله أيامٌ بقربك أسعدتْ غوادٍ علينا بالسرور ورائحه
فساعاتنا الطُّولَى لديك قصيرةٌ وصفقةُ كفى فى التجارة رابحه

***

وله فى وصف كتاب جاءه من محبوب

وقال يصف كتابا ورد عليه من محبوب كان هجره ، ووعده فيه باللقاء و بَشَّره :

نفسى فداء كتاب حاز كلَّ مُنًى جاء الرسولُ به من عند محبوبِ
مُبشِّرًا أنْ ذاك السُّخط عاد رِضًا وبُدِّلَتْ منه مِنْ بُعْدٍ بتقريب
حَسِبتُــه ناظرًا نحوى بناظِرِه ومُهْدِيًا لىَ ما فى فِيه من طِيب
ظَلِلْتُ أطويه من وجْدٍ وأنشُرُه وكاد يُبليــــه تقبيلى وتقليبى [٦٠٩]
كم فىَ قِباقٍ لىَ فى عُنوانه عَذُبتْ وبَرَّدَتْ بالتلظِّى حَرَّ تعذيب
كأنه حين جلَّى الحزنَ عن خَلَدى «قميصُ يوسف فى أجفان يعقوب»
لو كان ما فيه من مَوْعوده كَذِبًا شَفَى فكيف بوعدٍ غير مكذوب

***

كتب إليه بعض إخوانه متمثلا

وكتب إليه بعض إخوانه متمثلا بقول القائل :

وِدادكمْ كالوَرْدِ ليس بدائمٍ ولا خير فيمن لا يدُوم له عَهْدُ

وودّى لكم كالآسِ حُسْنا وبهجة ... له خُضْرةٌ تبقَى إذا ذهبَ الوَرْدُ

فراجعه بهذا الشعر : — رده عليه

لَعَمْرِى لقد شرّفتَ وُدّى بشَكْلِه ... وصيّرتَ لى فضلا عليك(1) ومَفْخَرا
صدَقْتَ : وِدادُ الوَرْدِ رَطْبًا ويابسًا ... وماء إذا عُمْرُ الأزاهرِ أدْبَرا
ووُدُّك مثلُ الآس ليس بنافعٍ ... ولا نافحٍ إلا إذا كان أخضرا
ألم تَرَ أنّ الوَرْدَ يكرُمُ إن ذَوَى ... ويُطرح فى المِيضاةِ آسٌ تغيّرا
أفَضَّلْتَ عبدَ السوء جهلا على الذى ... غدا فى الأزاهيرِ الأميرَ المؤمَّرا

* * *

وكتب إلى الكاتب أبى عبد الله بن أبى الخِصال ، يراجعه عن شعر خاطبه به : — وله فى الرد على ابن أبى الخصال

بماذا أكافِئُ نَدْبا كساني ... حِلًى من علاه بها قد حَبانى
وقلّدَ جيـــــدِىَ من دُرّه ... ما لم تقلّدْ نحـــورُ الغوانى
محاسنُ أصبحَ لى لفظُهـــا ... مُعارًا وأضحتْ لديه المعـــانى
فقل للذى حاز خَصْـل المدَى ... فليس يُباريه فى السَّبْق ثانى
أهـــــذى شمائلك الزاهرا ... تُ أهْديتَها أم ثغورُ الحِسان
أم الأنجمُ الزُّهْرُ أطلعتَهـــا ... على أفُقٍ بسماء البَيـــــان
أم الوَشْىُ ما نمنمَتْ راحتـا ... كَ أم الأعْيُن الحُورُ جاءت رَوانى
أم الروضُ بات نديمَ الغَمامِ ... يُسَقّيه من غير بِنْتِ الدِّنان
يُضاحِكُه عن ثغور البُرُوق ... ويَشْدُوه مِن وعدِه بالأغانى
لئنْ زُفّ وُدُّك نحوى لقـــد ... غـــدا من فؤادى بأعلى مكان [٦١٠]

(1) كذا فى ط ، س . وفى م : « عليه » .

ومهما أساءت بطول البعاد خطوبٌ فقد أحسنت بالتّدانى
كأنّ الزمانَ أتى تائبـــا إلىّ وأنت اعتذار الزمان

* * *

ومما يستجاد له

ومن شعره الذى يُزْرِى بزَهر الرِّياض ، وغُنْج الأعْيُن المِراض ، قوله :

أيا مُمْرِضًا جسمى بأجفانه المَرْضَى سَلَبْتَ الكَرى(١) عنى فهَبْ منه لى البَعْضا
لِيَهْنِكَ غُمْضُ العين عمَّنْ تركته سمِيرَ نجوم الليل ما يَطْعَمُ الغُمْضا
أتَسْخَطُ من ذُلّى لعِزِّكَ فى الهوى وأرضى بحَدّى أن يكون لكم أرْضا
قضى اللهُ أن أشقى وغيرى بوَصْلِكم سَعيدٌ ومن يَسْطيع رَدًّا لما يَقْضى

* * *

قطعة له تنفك منها ست قطع

وثما أغربَ به وأبدع ، قطعة تَنفَكُّ منها ستّ قِطع ، وهى :

نَفْسى الفِداء لجُؤْذَرٍ حُلْوِ اللَّمَى مُسْتحسَنٍ بصُدوده أضنانى
فى فِيه سِمْطًا جوهرٍ يُرْوِى الظّمَا لو عَلّنى ببَروده أحيــانى

* * *

قطعة أخرى تنفك منها تسع قطع

ثم زاد فى غرابة هذا النزَع ، بأن صنع قطعة تَنفَكّ منها تسع قطع ، وهى :

طيفٌ سَرَى من خاطرِ القلبِ الدَّوى فوفَى لنـــا بعِدَاته وقضى الوَطَرْ
بَذَّ الكَرَى عن ناظرِ الصَّبِّ الجوِى وشَفَى الضنى بهِباته ومضى حَذِرْ

* * *

وله فى وصف تين

وقال يصف تينا أسود مكتّبا :

أهْلاً بتينٍ كالنُّهود حوالكٍ ضُمِّخْنَ مِسكا شِيبَ بالكافورِ
وكأنّ ما زُرّتْ عليه جيوبُها شهدٌ يُشابُ بسِمسِمٍ مقشورِ

---

(١) فى ط : «مِنى» .

وكأنما لَبِسَتْ لُجَيْنًا مُحْـرَقًا ... فيـه بقايا من بياض سُطور

* * *

وله فى وصف حمّام

وقال يصف حمّاما :

أرَى الحمّام مَوْعظـة وذِكْرَى ... لكل فتًى أريبٍ ذى ذكاء

يُذكِّرُنا عذابَ ذوى المعاصى ... وأحيـــانا نعيمَ الأتقياء

شَـقًا هَجْرٍ يَشوبُ نعيمَ وَصْـلٍ ... وحرُّ النـــارِ فى بردِ الهواء

إذا ما أرضَـه التهبت بنـار ... تبـــادرَ سَمْكُه هَطِلًا بمـاء

كصَدْرِ الصَّبِّ جاش بما يلاقى ... فلجَّ الطَّرْفُ منــــه بالبكاء [٦١١]

كأنَّ له حبيبا بانَ عنـــه ... فبانَ وخانَه حُسْنُ العَـــزاء

* * *

وله فى الغزل

ومن شعره المُطرِب ، وتغزُّله المعجِب ، قوله :

أيا قمرًا فى وَجْنتيـــه نعيمُ ... وبين ضُلوعى من هواه جحيمُ

إلى كم أقاسى منكَ رَوْعا وقسوةً ... وصَرْما وسُـقما إنَّ ذا لعظيم

وإنى لأنهى النفس عنك تجلُّدًا ... وأزعُم أنى بالسُّـــــلُوِّ زعيم

فإنْ خطَرَتْ بالقلب ذِكراكَ خطرةً ... خلَتْ بلا لُبٍّ إليـكَ أهيم

* * *

وله فى مدح القادر

ومن مديحه الذى أبدع فيه وأغرب ، وذهب فيه أحسن مَذْهب ، قوله يمدح القادر ، رحمة الله عليه :

ضمانٌ على عينيكَ أنِّىَ هائمُ ... تَصَدَّعُ قلبى حول وصلك حائمُ

فؤادكَ قاسٍ ليس لى فيه رَحْمة ... ويوهِم منك اللحظُ أنك راحِم

ظلمتَ ولم ترهَب مَغَبَّةَ ما جَنَتْ ... جفونٌ لها فى العاشقين مَلاحم

أظنُّ عقابَ الله نالكَ فى الهوَى خصرك مظلومٌ وردْفك ظالمُ
ولحظكَ مُضْنًى ما يُفيق من الضَّنى كما ضنيَتْ فيك الجسومُ النواعم
وخدك بالألحاظ يَجْرح دائبا فكلٌّ له باللحْظ مُدْمٍ وكالِم
يقولون غُصنُ البانِ ما حازَ خَصْرُه ودِعْصُ النَّقا ما حاز منه الَمآكِم
وفى طوقه بدر الدُّجُنَّةِ طالعٌ تَجَلَّله قِطْعٌ من الليل فاحم
وقالوا اللمَى الحمرُ فَصٌّ عقيقةٍ بمَبْسمِه المعسولِ والثغرُ خاتم
لك المثلُ الأعلى وفى الجهل عاذرٌ بتقصيرهم إن لامهم فيكَ لائم
وما أنت إلا آيةُ الله فى الوَرَى وحكمتُه إنْ قال بالعلم عالم
لقد بَخَسُوكَ الحقَّ جهلا وأخطأتْ بما رَجَمَتْ فيك الظنون الرواجم
كما بخسوا يحيى بنَ ذى النُّونِ حَقَّه فقالوا ابنُ سُعْدى فى النوال وحاتم
وقالوا حكى الضِّرغامَ فى الرَّوْع بأسُه وذلك ما لا تَدَّعيه الضراغم
وقالوا هو الدهرُ الذى ليس دونه حِمًى وهو المخدوم والدهر خادم
وأنَّى لِلَيْث الغاب فى الرَّوْع بأسُه إذا صال فى الهيجاء والنقعُ قاتم [٦١٢]
ومن أين للسيف الحُسام مَضاؤه إذا انتُضِيَتْ للحرب منه العَزائم
ومن أين المزن الكَنَهْوَرِ جُودُه إذا انهملتْ من راحتيه المكارم
لنا بارقٌ من بِشْره ليس خُلَّبا إذا شامه يوما من الناس شائم
عليه من المأمون يحيى مَشَابِهٌ تُرَى ولإسماعيل فيه مَياسم
هُمامان(١) شادَا بيتَ مجدٍ له التُّقَى أساسٌ وأطرافُ الرماح دعائم
أبا الحسَنِ استنشقْ ثنائى(٢) فإنما فؤادىَ دارِينٌ وشِعْرى لَطائم

(١) فى م : « إماماَن » .
(٢) كذا فى م . وفى ط ، س : « ثناء » .

لبستَ حُلَى للفضل حائكها التُّقى ... ومُعْلِمها الإفضالُ والمجد راقمُ
وأورثك المأمونُ صارمه الذى ... به لم تزل تفرى الطُّلَى والجماجم
فصمِّم ولا تُحْجِمْ فإنك صارمٌ ... حسامٌ ومنه فى يد الله قائم
لك السرحة الغَنَّاء فى المجد لم تَزَلْ ... تُرَوِّضها من راحتيك الغمائم
رياضٌ لنا سَجْعٌ بمدحك وَسْطها ... كأنَّا على أفنانهن حمائم
ودونَكَ بِكْرًا من ثنائى زففتها ... إليك كما زُفَّ الغوانى الكرائم
كستك بَطَلْيَوْسٌ بها عَبْقَرِيَّةً ... كما انشقَّ عن زَهْرِ الرِّياض كمائم
وما أنت ذو فقرٍ لما أنا واصف ... ولا أنا ذو إفك بما أنا زاعم
سجاياك تُمْلِى الفخر والدهر كاتبٌ ... وعلياك تُعْطى الدُّرَّ والشعرُ ناظم
فدُمْ عامرا للمجد تعنو لك العدا ... وتحسُدنا فيك النجومُ النواجم

قال أبو نصر : هذا ما سمح به خاطر لم تخطر عليه سَلْوة ، وذهن نابٍ لم تُرْهَف له نَبْوَة ، ووقت أضيقُ من المأزِق المتدانى ، ومَقْتٌ للزمن شغلنى عن كل شىء وعَدَانى ، أتجرَّعُ به الصاب ، وأتدرَّع منه(١) الأوصاب ، فما أتفرغ لإنشاء قول ، ولا أصحو من الانتشاء من هول ، وإلا فمحاسنُ هذا الرجل كانت أهلا أن يُمَدَّ عنانها ، ويُسْكَب عَنانها ، لكن عاق عن ذلك الدهر الذى شَغَل ، وأوغلنا فى شعاب الأنكاد حيث وَغَل .

انتهى التأليف البارع .

* * *

ولا بد أن نذكر ما لأبى نصر من القلائد فى حق الرجل المذكور ، وأختصر ما جرى ذكره هنا من النظم . [٦١٣] ترجمة ابن الـ... فى القلائد

(١) فى س : « به » .

قال فى القلائد فى حق الشيخ ابن السِّيد المذكور ما نصه :

الفقيه الأستاذ أبو محمد ، عبد الله بن محمد بن السِّيد البَطَلْيَوْسى ، شيخ المعارف وإمامها ، ومن فى يديه زِمامها ، لديه تُنْشَد ضَوَالُّ الأَعراب ، وتُوجَد شوارد لغات الإعراب[١] ، إلى مقطع دَمِث ، ومَنْزِع فى النفاسة غيرُ مُنْتكِث ؛ وكان له فى دولة ابن رَزِين مجال ممتدّ ، ومكان معتدّ ؛ ولمّا رأى الأحوالَ واختلالَها ، والأقوال واعتلالها ؛ وتلك الشموسَ قد هَوَت ، ونجومَ الآمال قد خَوت ، أضرَبَ عن مثواه[٢] ، ونَكَّبَ عن نَجْواه ، واغترب[٣] بلوعة ابن رَزِين وجواه ؛ ونصب نفسه لإقراء علوم النحو ، وقنِع بتغييم جَوِّه[٤] بعد الصحو ، وله تحقق بالعلوم الحديثة والقديمة ، وتصرف فى طرقها القويمة ، ما خرج بمعرفتها عن مِضمار مشرع ، ولا نكَّب عن أصلٍ للسُّنَّة ولا فرع ، وتواليفه فى الشروحات وغيرها صنوف ، وهى اليوم فى الآذان شُنُوف ؛ وقد أثبتُّ له ما يريك شُفُوفَه[٥] ، ويجد على[٦] النفس خفوفَه[٧] .

فمن [ذلك] قوله فى طول الليل :

تُرى ليلنا .... البيتين . وقد سبقا .

ثم قال الفتح : وأخبرنى أنه حضر مع المأمون بن ذى النون فى مجلس الناعورة ، بالمُنية التى تطمح إليها المُنَى ، ومرآها هو المقترح والمُتَمَنَّى ، والمأمون قد احتبى ،

---

(١) فى قلائد العقيان المطبوع بمصر : « اللغات والإعراب » .

(٢) فى القلائد : « سواه » .

(٣) كذا فى القلائد . وفى الأصول : « وأعرب » .

(٤) كذا فى م والقلائد . وفى ط ، ص : « وجده » .

(٥) شفوفه : يريد فضله .

(٦) فى م : « فى » .

(٧) كذا فى الأصول . وفى القلائد : « حفوفه » . ولم نوفق إلى تصويبه .

وأفاض الحبَا ؛ والمجلسُ يروق كأن الشمس فى أفقه ، والبدرُ [كالتاج][1] فى مَفْرِقه ؛ والنَّوْر عَبِق ، وعلى ماء النهر مصطَبِح ومُغْتَبِق ؛ والدُّولاب يَئِن كناقة إثْرَ الحُوَار ، أو كَثَكْلى من حَرّ الأُوَار ؛ والجوّ قد عَنْبَرَتْه أنواؤه ، والروضُ قد وشَّتْه أنداؤه[2] ؛ والأسْد قد فغَرت أفواهها ، ومجَّت أمواهها ؛ فقال :

يا منظرًا إن نظرتُ بهجتَه . . . . الأبيات . وقد تقدمت .

[٦١٤] ثم قال الفتح : وله رُقْعة يصف بها هذا التصنيف ؛ يعنى قلائد العقيان :

تأملت فسَح الله لسيِّدى روابي فى أمد بقائه ، كتابه الذى شرع فى إنشائه ؛ فرأيت كتابًا سيُنْجِد ويَغُور ، ويبلغ حيث لا تبلغُ البدور ، وتَبِينُ به الذُّرَى والمناسم ، وتتعدى له غُررٌ فى أوجه ومَوَاسِم ؛ فقد أسجد اللهُ الكلامَ لكلامك ، وجعل النيِّراتِ طوْعَ أقلامك ؛ فأنت تَهْدِي بنجومها ، وتُرْدِي برُجومها ؛ فالنَّثرة من نَثْرِك ، والشِّعْرَى من شِعْرك ؛ والبُلَغاء لك مُعْترفون ، وبين يديك مُتصرِّفون ؛ وليس يباريك مُبَار ، ولا يجاريك إلى الغاية مُجَار ؛ إلا وقف حَسِيرا ، وسَبَقْتَ ودُعِيَ أخيرًا ؛ وتقدمت لا عدمت شفوفا ، ولا برح مكانُك بالآمال محفوفا ؛ بعزة الله .

* * *

وله يراجع ابن جوشن — وله يراجع الأستاذَ أبا محمد بن جوشن عن شعر كتب به إليه ، وتضمَّن غزلا فى أول القصيدة ، فحذا حذوه :

حلفتُ بثَغْرٍ قد حَمَى رِيقَه العذبا ... وسلّ عليـــه منْ لواحظه عَضْبا

وَفَرْحَة لُقْيا أذهبتْ تَرْحة النوى ... وعُتْبَى حبيب هاجر أعقبتْ عَتْبا

---

(١) زيادة عن القلائد .

(٢) فى القلائد : « قد وشته أمطاره وأنواؤه » .

لقد هزَّ عِطْفِى بالقريض ابنُ جوشنٍ ... سرورًا كما هزت صَبا غُصُنا رطبا

كأنى ارتياحَ الراحِ حتى حَسِبْتُنِى ... حَلِيفَ بِعادٍ نال من حِبِّه قُرْبا

وأطْرَبَنى حتى دعانى الوَرَى فتًى ... وقالوا كبيرٌ بعد كَبْرَتِهِ شَبّا

كأنَّ المثانى والمثالثَ هَيَّجَتْ ... سرورى ولم أسمعْ غِناءً ولا ضَرْبا

فيا مُزمِع التَّرْحال قلْ لابْنِ جَوْشَنَ ... مَقالَ مُحِبٍّ لم يَشُبْ جِدَّهُ لِعْبا

أَمُهْدِى سـجاياه إلىَّ وناظمًا ... لِىَ الشُّهب عِقْدا راقنى نَظْمُه عُجْبا

وما خِلتُ إهداءَ الشمائلِ مُمكنا ... لمُهْدٍ وأنَّ الدهرَ ينتظمُ الشُّهْبا

فهل نال عبدُ الله من سحرِ بابلٍ ... نَصيبا فأَرْبَى أو حوى الدَّهْىَ والإِرْبا[(١)]

لِيَهْنِكَ فضلٌ حُزْتَ من خَصْلِهِ المَدَى ... ونظمٌ بديعٌ قد غدوتُ له رَبّا

وهاكَ سـلاما صادرًا عن مودةٍ ... عَمَرْتُ به[(٢)] منى الجوانح والقلبا

❊ ❊ ❊

وله فى الزهد

وله رحمه الله فى الزهد من لزوم ما لا يلزم :

أمرتَ إلهى بالمكارم كلِّهـا ... ولم تَرْضَها إلا وأنت لها أهلُ [٦١٥]

فقلتَ اصفحوا عمَّنْ أساء إليكمُ ... وعودوا بحلمٍ منكمُ إن بدا جهل

فهل لجَهُول خاف صَعْبَ ذنوبه ... لديك أمانٌ منك أو جانبٌ سهل

وله يجيب شاعرا مدحه

وله رحمه الله يجيب شاعرا قُرْطُبِيًّا مدحه :

قل للّذى غاص فى بحر من الفِكَرِ ... بذهنه فحَوَى ما شاء من دُرَرِ

لله عَذْراءُ زُفَّتْ منك رائحـةً ... تختالُ من حِبْرِها المرقوم فى حِبَرِ

---

(١) الدهى : الفكر وجودة الرأى والأدب . والإرب : بمعناه .

(٢) فى س : « بها » .

صداقُها الصِّدْقُ من وُدِّى ومَنْزِلُها بصيرتى وسَــوادُ القلبِ لا بصرى[(١)]
كأنّما خامرتْنى من بشاشتها راحٌ وسُكْرٌ بلا راحٍ ولا سَكَر
هزّت بدائعُها عِطْفىَ من طربٍ لحسْنِها هِزّةَ المَشْغوف[(٢)] للذّكَر
ما كنت أحْسِب أن النّيِّرات غدت يَصِيدها شَرَكُ الأوهام والفِكَر
ولا توهّمْت أيامَ الربيــع تُرَى فى ناجر غضّةَ الأنوار والزّهَر
أمّا الجزاء فشىء لستُ مدركه ولو بَدَرْتُ إلى التوجيه بالبـدَر
لـكن جزائى صفاءُ الوُدِّ أُضْمِرُه إذا القلوب انطوت منه على كَدَر
جاراكَ ذِهنىَ فى مضمارها فكَبا ذِهنى وفُزْتَ بخَصْل السَّبْق والظَّفَر
وهلْ بَطَلْيُوسُ فى نظمٍ مناظِرةٌ[(٣)] يوما لقُرْطُبةٍ فى حُكْم ذى نَظَر

وله فى وصف زربطانة

وله أيضا رحمه الله يصف زَرْبَطانة[(٤)] [مُلْغِزا][(٥)] :

وذاتِ تَعَمٍّ لها طَرْفٌ بَصِير إذا رَمِدَتْ فأبصرُ ما تكونُ
لهــا من غيرها نَفَسٌ مُعار وناظرها لدى الإبصار طين
وتبطش بالعيــــون إذا أردنا وليس لها إذا بطشت يمين

❊ ❊ ❊

رسالة إلى ابن الأخضر

وكتب إلى الأستاذ أبى الحسن بن الأخضر رحمه الله :

يا سيدى الأعلَى ، وعِمادىَ الأسنَى ، وحسنةَ الزمان الحُسنى ، الذى جَلَّ قدرُه ، وسار مسير الشمس ذِكرُه ؛ ومن أطال الله بقاءه ، أفضل يملى مناره ،

(١) فى القلائد : «وسواد القلب والبصر» .
(٢) يريد بالمشغوف : الذى هزله الحب وأضناه التذكر .
(٣) فى م : « فى نظم مشاكلة » .
(٤) هى الزبطانة والسبطانة (محركة) ، وهى قناة جوفاء يرمى فيها الطير بالبندق وبالحيات نفخا ؛ قال فى تاج العروس : وهى المشهورة الآن بزربطانة .
(٥) زيادة عن القلائد .

وعلمٍ يحيى آثاره ؛ نحن — أعزّك الله — نتدانى إخلاصا ، وإن كنا نتناءى أشخاصا ؛ ويجمعنا الأدب ، وإن فرّقنا النَّسَب ؛ فالأشكال أقارب ، والآداب مَناسب ؛ وليس يضرّ تنائى الأشباح ، إذا تقاربت الأرواح ؛ وما مثلُنا فى هذا [٦١٦]
الانتظام ، إلا كما قال أبو تمام ، رحمه الله :

نَسيبىَ فى رأيى وعلمى ومذهبى   وإن باعدَتْنا فى الأصول المَناسبُ

ولو لم يكن لمآثرك ذاكر(١) ، ولا لمفاخرك ناشر ، إلا ذو الوزارتين أبو بلان ، أبقاه الله ، لقام لك مقام سَحبان وائل ، وأغناك عن قول كل قائل ؛ فإنه يَمُدّ فى مضمار ذكرك باعا رحيبا ، ويقوم بفخرك فى كل ناد خطيبا ؛ حتى تُثْنَى إليه(٢) الأحداق ، وتُلوَى نحوهُ الأعناق ؛ فكيف وما يقول إلا بالذى علمت سَعْد ، وما تقرر فى النفوس من قبل ومن بعد ؛ فذكرُك قد أنْجَد وغار ، ولم يَسِر فلكٌ حيثُ سار ؛ وإنْ ليلُ جهلٍ أطلعتَ فيه فجرَ تبصيرك ، لجديرٌ بأن يصير نهارا ، وإنّ نَبعَ فكرٍ قدحته بتذكيرك لجدير أن يعود مَرْخا وعَفارا ؛ فهنيئا لك الفضلُ الذى أنت فيه راسخُ القَدم ، شامخ العلَم ؛ منشور اللواء ، مشهور الذكاء ، مُلِّيتِ الآدابُ عمرَك ، ولا عَدِمت الألباب ذكرك ؛ ورَقيتَ من المراتب أعلاها ، ولَقيت من المآرب أقصاها ، بفضل الله .

* * *

وله فى الرد على رسالة للوزير ابن سفيان

وكتب مراجعا إلى الوزير أبى محمد بن سُفيان رحمه الله :

يا سيدى الأعلى ، وعمادى الأسنى ، ومَشربى الأصفى ، ومَنْ أدام الله عزّته ، وحمَى من النوائب حَوْزته ؛ وافانى لك كتاب سرِىُّ الموضع ، سَنِىُّ

(١) كذا فى قلائد العقيان . وفى الأصول : « شاكر » .

(٢) كذا فى الأصول . وفى القلائد : « إليك » .

الموقع ، أطال على إيجازه ، وأطمع بعد إعجازه ؛ وقابلتُ الرغبةَ التى ضمَّنتها فيه ، بما تقتضيه جَلالة مُهْدِيه ؛ ولئن تراخى الكتاب ، عن حسن فى ذلك العتاب ؛ فإن المودة لم يقدح فيها من المَلَل قادح ، ولم يَسْنَح لها من الخلل سانح ؛ بل كانت كالبُرْد طُوِى على غَرّه ، إلى أوان جِلائه ونشره ؛ وقد علم علاّم الضمائر ، والذى يُظَن غائبا وهو حاضر ، أنى أعتقدك القدحَ المُعَلَّى ، وأضرب بك المثلَ الأعلى ، وأرى أنك تحجيلٌ واضح فى دُهْمة الزمان ، وعِلْق راجح فى كِفّة الامتحان ، وبَقية سِنْخ كريم ، ما عهدهم عنا بذميم . [٦١٧]

عليهم سلام الله ما ذَرَّ شارقٌ ورحمته ما شـــاء أنْ يترحّما

[وما أدّعى لك جانبا من السياده ، إلا ولك عليه أعدلُ الشهاده ؛ ولكنْ قديما سَفَل ذو الرُّجْحان ، وعاد الكمال على أهله بالنقصان ؛ وكُبِتَ الأعالى بارتفاع الأسافل ، حتى اقتضى ذلك قولَ القائل :

فوا عجبًا كم يدّعى الفضلَ ناقصٌ ووا أسفًا كم يُظهِرُ النقصَ فاضل](١)

وقال المذمّرُ للنـــاتجين متى ذُمِّرت قبـــلِىَ الأرْجُل(٢)

وقد جاريتك — أعزك الله — فى ميدان من البلاغة أنا فيه كمن كاثَرَ البحر والمَطَر ، وجلب التمر إلى هَجَر ؛ والذى حدانى إليه ، أنه مرّ بى(٣) زمن ، ألهى خاطرى عنك فيه وَسَن ، فقلتُ قد كان من العُقوق ، تَرك رعاية الحقوق ؛ فلأستَمْطِرَنّ مُزْنَ القول ، فقد كنتُ عهِدْتُها تَسْجُم فتُغْدِق ، ولأستَسْقِيَنّ

(١) التكملة عن قلائد العقيان .

(٢) هذا البيت للكميت . والمذمر : الذى يدخل يده فى حياء الناقة لينظر أذكر جنينها أم أنثى . يقول : إن التذمير إنما هو فى الأعناق لا فى الأرجل .

(٣) فى القلائد : « لى » .

جابيةَ الشَّيْخِ العِراقِ ، فقد كانت تَطُمُّ فتَفْهَق[١] ، أيام كنتُ أسحب ذيلَ الشباب ، وأسلُكُ مَسْلَكَ الكُتّاب ، ويُعجبني سلوكُ سهل الكلام وحُزونه ، والتصرف بين أبكاره وعُونِه ، أَسْتَنُّ استنانَ الطِّرْف [الجامح ، ولا أَثْنى عِنان الطِّرْف][٢] الطامح ، وأُرَوِّى هامتى ، وأقول بما صَبّت علىّ غمامتى ، إلى أن تعمّم مَفْرِق بالقَتِير[٣] ، وعَلَتْني أُبّهة الكبير ؛ وودّعتُ زمنى الزائل ، وعادت سهامى بين رَثٍّ وناصل[٤] ؛ وعُرِّيَتْ أفراسُ الصِّبا ورواحله[٥] ، وسُدِّدَتْ عَلَىَّ سوى قصد السبيل مَعادِلُه[٦] ؛ فلئن هُريق [ماء][٢] الشباب ، واستَشَنّ الأديم[٧] ؛ وأقشع السَّحاب ، وتجلّت الغيوم ، فلعلّ فى الأفق رَبابَه ، وفى الحوض صُبابه ؛ وعسى أن يكون فى أخْلاف المقالة دَرٌّ يُرْضَع ، وفى حِقاق البلاغة دُرٌّ يُرَصَّع ؛ ولأَزُفّنّها عذراء ، لا ترتضى إلا الأكفاء ؛ فليس يَبين النّجْد إلا فى مأزِق الهيجاء ، ولا يحسن العِقد إلا فى عُنُق الحسناء ؛ ولأَجعلَنّ الشِّعْر لها شِعارا ، وفقر النثر لها دثارا ؛ فاعتصرْها إليك وَلْهَى[٨] عَرُوبا[٩] ، قد رَضِيَت

---

(١) الجابية : الحوض ؛ والعراق إذا تمكن من الماء ملأ جابيته لأنه حضرى ، فلا يعرف مواقع الماء ولا محاله . وفى العبارة إشارة إلى قول الأعشى :

نفى الذم عن رهط المحلق جفنة ... كجابية الشيخ العراقى تفهق

(انظر كتاب الكامل لأبى العباس المبرد) .

(٢) التكملة عن القلائد .

(٣) القتير : رءوس مسامير حلق الدروع ، شبه بها الشيب إذا نقب فى سواد الشعر . (عن اللسان) . (٤) الناصل من السهام : ما لا نصل له . .

(٥) يشير إلى بيت زهير بن أبى سلمى :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله ... وعرى أفراس الصبا ورواحله

(٦) معادل الطريق : مذاهبه ومسالكه . وهو من قول زهير :

وأقصرت عما تعلمين وسددت ... على سوى قصد السبيل معادله

(٧) استشن الأديم : يبس وتشنج . وجلد الإنسان : تغضن عند الهرم . وهو من قول أبى حية النميرى : * هريق شبابى واستشن أديمى *

(٨) ولهى : ذاهبة العقل من الفرح .

(٩) العروب (فى الأصل) : الحسناء المتحببة إلى زوجها .

بك مُحِبًّا ومحبوبا ، فتضمّخك بمسكها ، وتؤمّنك من فِرْكِها[1] ، وتذرّ ذُرور[2] الشمس عليك ، وتهزّ فى نَدْوة الحىّ عطفيك ؛ فإنْ قضت من حقّك فرضا ، ورتقت من فتق الإخلال ولو بعضا ؛ فذاك ما تضمنه الخاطر الذى نمنم[3] [٦١٨]
بُرْدَها ، ونظَم عقدها ؛ وإن أخلف الظنُّ ما أوهم ووعد ، وقصَّر الذّهن فيما أحكم وسدّد ؛ فللخاطر عُذْر فى أنه مُنْصُل أُغفِل شحذه وجِلاؤه ، حتى ذهب فِرِنْدُه وماؤه ، ومَنهل ضُيِّعَ[4] وِرْدُه ، فنَضَب عِدُّه :

والشَّوْل ما حُلِبَت تدفّقَ رَسْلُها ... وتَجِفُّ دِرّتها إذا لم تُحْلَبِ

* * *

وله يمدح ابن الفرج

وله من قصيدة يمدح بها ذا الوزارتين أبا محمد بنَ الفرَج :

نَبِّهِ الليلَ بالوَجيف ولا تُو ... لِعْ بدار الهوان بالإغماضِ
واقْرِ ضيفَ الهموم كل أمونٍ ... عَنْتَرِيسٍ وبازلٍ شِمْرِواضِ[5]
أنقذتْنى من الردَى وطأتى البيـ ... ـدَ ونقضُ الهموم بالإنقاضِ[6]
شكلُها كالقسِىِّ وهْىَ سِهامٌ ... لِلْفَلا[7] والرُّغاء كالإنباضِ[8]

---

(١) الفرك (بكسر الفاء وتفتح) : بغضة المرأة لزوجها .

(٢) ذرور الشمس : طلوعها .

(٣) كذا فى القلائد . وفى الأصول : « سهم » بمعنى جعل فيه نقوشا كالسهام .

(٤) ضيع (بالبناء للمجهول) : صار مهملا .

(٥) الأمون : الناقة القوية على السفر التى يؤمن عثارها . والعنتريس : الناقة الغليظة الوثيقة . والبازل من الإبل : الذى طلع نابه ، وذلك فى التاسعة من عمره . والشمرواض : الضخم .

(٦) الإنقاض : حث الدابة على السير ، يقال أنقض بالدابة : إذا ألصق لسانه بالحنك ثم صوت فى حافتيه . (٧) فى القلائد : « للبلا » .

(٨) الإنباض : رنين القوس عند جذب وترها .

خِلْتُها حين خاضتِ الليلَ سَبْحًا غُمِسَتْ من دُجاه فى خَضْخاضِ (١)
صَدَعَتْ عَرْمَضَ الدياجر حتى كَرَعَتْ فى ماء الصّباح المُفاض (٢)
حين راعَ الظّلامَ وَخْطُ مَشيبٍ قد سَرَى فى سوادِه ببياض

وله فى الزهد وقال فى الزهد :

تجَوْهُرك الأدنى عُنيتَ بحفظه وضيّعتَ من جهلٍ تجوهرك الأقصى
لقد بِعْتَ ما يَبقى بما هو هالك وآثرتَ لو تدرى على فضلك النقصا

وقال فى ذلك أيضا :

« وما دارنا إلا مَوات . . . » البيتين (٣) .

وقد تمثّلت بهما فى خُطبة هذا الكتاب ، فراجعهما .

وله يعزى ابن ابون فى أخيه وله أيضا يُعَزّى ذا الوزارتين أبا عيسى بنَ ابُّون فى أخيه :

المرء فى أيامه عِبَرٌ والصَّفْوُ يَحْدُث بعده كَدَرُ
خَرَسُ الزمانِ لمن تأمّله نُطْقٌ وخُبْرُ صروفه خَبَرُ
نادَى فأَسمعَ لوْ وَعَتْ أذُنٌ وأرَى العواقبَ لوْ رأى بصر
كم قال هُبُّوا طالما هَجعتْ منكم عيونٌ حقّها السَّهَرُ
أَبأذْنِ مَن هو مُبْصِرى صَمَمٌ أم قلبُ من هو سامعى حَجَرُ
لولا عماكم عن هُدَى نُذُرى ومواعظى ما جاءتِ النُّذُرُ

(١) الخضخاض : ضرب من النفط أسود رقيق ، تهنأ به الإبل الجرب .
(٢) العرمض : الطحلب يكون على الماء . والدياجر : جمع ديجور ، وهو الظلام .
(٣) البيتان هما :

وما دارنا إلا موات لو اننا نفكر والأخرى هى الحيوان
شرينا بها عنها بهون جهالة وشتان عن للفتى وهوان

هذى مَصارعُ مَعْشرٍ هَلكوا　　وَعَظتْكم بالصمت فاعتبروا

[ومنها]:

قالت أرى ليلَ الشباب بدتْ　　للشَّيب فيه أنجمٌ زُهُرُ

فأجبتُها لا تُنكرى عجبًا　　من شَيْبةٍ لم يَجْنِها كِبَرَ [٦١٩]

لكنْ طَوَيْتُ من الهموم لظًى　　أضحى لها فى عارضى شَرَرَ

ومنها:

حسُنَتْ شمائلُكم وأوجهكم　　فتطابقا مَرْأى ومُختَبرُ

والحسْن فى صُوَرِ النفوس وإن　　راقتك من أجسامها الصُّوَر

لاضَعْضَعَتْ أيدى الخطوب لكم　　رُكْنا ولا راعتْكمُ الغِيَرَ

وله يخاطب مكة

وقال يخاطب مكة أعزها الله:

أمكةُ تَفْديكِ النفوسُ الكرائمُ　　ولا بَرِحَت تَنهلُّ فيكِ الغمائمُ

وكُفَّتْ أكُفُّ السُّوء عنكِ وبُلِّغت　　مُناها قلوبٌ كى تَراكِ حوائمُ

فإنكِ بيتُ اللهِ والحرمُ الذى　　لِعزّته ذَلَّ الملوكُ الأعاظم

وقد رُفِعت منكِ القواعدُ بالتُّقى　　وشادتْكِ أيدٍ بَرّةٌ ومعاصم

وساويتِ فى الفضل المَقامَ كِلا كُما　　تُنالُ به الزُّلْفَى وتُمحَى المآثم

ومن أينَ تَعدوكِ الفضائلُ كلُّها　　وفيكِ مَقامان: الهُدى والمعالم

ومَبْعثُ مَن ساد الوَرَى وحوَى العُلا　　بمولده عبدُ الإله وهاشم

نبىٌّ حوَى فضلَ النَّبيِّين واغتدَى　　لهم أوّلا فى فضله وهو خاتم

وفيكِ يَمينُ اللهِ يَلثِمها الوَرَى　　كما يَلثِم اليُمْنَى من المَلْك لاثم

وفيكِ لإبراهيمَ إذْ وَطِئَ الثَّرَى (١)　　ضُحَى قَدَمٍ بُرهانُها متقادِم

(١) كذا فى م. وفى ص، ط: «الصفاء».

دعا دعوةً فوق الصفا فأجابهُ قطوفٌ من الفجِّ العميقِ ورازمُ
فأعجبْ بدعوى لم تبلغ مسامعى فتى ولم يحوها إلاّ ذكىٌّ وعالم
أأنْفى لأقدارٍ عدتْ عنك همتى فلم تنتهض منّى إليكِ العزائم
فيا ليتَ شعرى هل أرى فيكِ داعيًا إذا ما دعتْ لله فيكِ الغمائم
وهلْ تمحُونْ عنّى خطايا اقترفتُها خُطَى فيكِ لى أو يَعْمَلاتٌ رواسم
وهل لىَ من سُقْيا حجيجكِ شربةٌ ومن زمزمٍ يُرْوِى بها النفسَ حائم
وهل لى فى أجرِ المُلبِّين مَقسِمٌ إذا بُذلتْ للنّاس فيكِ المقاسم
وكَمْ زارَ مَغناكِ المعظّمَ مُجرِمٌ فحُطّت به عنه(١) الخطايا العظائم
ومن أينَ لا يُضحِى مُرَجِّيكِ آمنًا وقد أمِنَتْ فيكِ المها والحمائم
لئنْ فاتنى منكِ الذى أنا رائمٌ فإنّ هوى نفسى عليكِ لدائم
وإنْ تحْمِنى حامى المقادير مُقدِمًا عليكِ فإنى بالفؤادِ لقادم [٦٢٠]
عليكِ سلامُ اللهِ ما طاف طائفٌ بكعبتكِ العُليا وما قامَ قائم
إذا نَسَمٌ لم تُهْدِ عنّى تحيةً إليكِ فتُهديها الرياحُ النَّواسم
أعوذُ بمن أسناكِ من شرِّ خلقِهِ ونفسِى فما منها سوى اللهِ عاصم
وأُهْدِى صلاتى والسلامَ لأحمدٍ لعلّى به من كَبّةِ النار سالم

انتهى ما أوردهُ له فى القلائد دون ما قدمناه .

* * *

[ولْنختمْ ترجمةَ ابن السيد بقوله :

إليكَ أفِرُّ من ذُلّى وذنبى فأنتَ إذا لقيتُ اللهُ حسْبِى
وزَوْرة أحمدَ المختارِ قِدْمًا مُناىَ وبُغْيتى لو شاء ربّى
فإنْ أُحْرَمْ زيارتَه بجسمى فلم أُحْرَمْ زيارتَه بقلبى

(٢) فى س ، ط : «عنى» . وفى م : «عنده» . ولعلهما محرفان عما أثبتناه .

فدى لكَ يا رســولَ الله منّى تحيةَ مؤمنٍ وهُــدى مُحِبِّ
سأجعلُ عُرْوَتى الوُثْقى بقينى لصحّةِ ما أتيتَ بهِ وحبى
عسى وُدٌّ نوَى لكَ فى فؤادى على بُعْدٍ سيوجِبُ منكَ قربى
شهدتُ بأنّ دينكَ خيرُ دينٍ بلا شكٍّ وصحبكَ خيرُ صَحْبِ]
ولْنُمْسِكِ العِنان .

***

أبو على الغسانى من شيوخ عياض

ومن أشياخ القاضى أبى الفضل عياض رحمه الله :

الشيخ أبو علىٍّ الجَيّانىّ ، وهو حُسين بن محمد بن أحمد الغَسّانىّ (بغين معجمة وسين مهملة مشددة) الجَيّانىّ (بجيم ومُثنّاة من أسفلَ مشدّدة) رئيسُ المحدّثين بقُرطبة ، وليس هو منها ، وإنما نزلها أبوه فى الفتنة ، وأصلهم من الزّهراء .

روى عن أبى العاصِى حَكَمِ بن محمّد الجُذامىّ ، وأبى عُمَر بن عبد البرّ ، وأبى شاكرٍ القَبرىّ ، وأبى عبد الله محمد بن عَتّاب ، وأبى القاسم حاتم بن محمد ، وأبى عُمَر بن الحذّاء القاضى ، وأبى مَرْوان الطُّبْنىّ ، والقاضى سراج بن عبد الله ، وابنه أبى مروان ، وأبى الوليد الباجىّ ، وأبى العباس العُذْرىّ ، وجماعة غيرهم يطول[1] تعدادُهم ، سمع منهم ، وكتب الحديث عنهم .

وكان من جَهابذة المحدّثين ، وكبار العلماء المُسْنِدين ، وعُنِى بالحديث وكتبه وروايته وضَبْطه ، وكان حسن الخط ، جيد الضّبط ؛ وكان له بَصر باللغة والإعراب ، ومعرفةٌ بالغريب والشعر والأنساب ، وجمع من ذلك كله مالم يجمعه أحد فى وقته ؛ ورحل الناس إليه ، وعوّلوا فى الرواية عليه ، وجلس لذلك بالمسجد

(١) فى الصلة لابن بشكوال : « يكثر » .

الجامع بقرطبة ، وسمع منه أعلام قرطبة وكبارها ، وفقهاؤها وجلّتها .

أخبر عنه غير واحد من الشيوخ (١) ، ووصفوه بالجلالة ، والحفظ والنباهة ، [٦٢١]
والتواضع والصيانة . وذكره الشيخ أبو الحسن بن مُغيث فقال : كان [من]
أكمل من رأيت علماً بالحديث ، ومعرفة بطرقه ، وحفظا لرجاله ، عانَى كُتب
اللغة ، وأكثر من روايته الأشعار ، وجمع من سعة الرواية ما لم يجمعه أحد أدركناه ؛
وصحح من الكتب ما لم يصححه غيره من الحُفّاظ ، كتبه حُجّة باللغة ، وجمع
كتابا فى رجال الصحيحين ، سماه « تقييد المهمَل ، وتمييز المشكِل » ، وهو كتاب
حسن مفيد ، أخذه الناس عنه .

قال أبو القاسم بن بَشْكُوال : قرأت بخط أبى علىٍّ رحمه الله تعالى فى كتابه :
أنا حَكَم بن محمد ، قال أخبرنا أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن رُزَيْق ، قال :
سمعت أبا بكر محمد بن أحمد البغدادىَّ الورّاق ، قال : سمعت ابن الأصم يقول :
سمعت أبى يقول — إذا رأى أصحابَ الحديث — :

أهلاً وسهلا بالذين أحبُّهمْ وأوَدُّهمْ فى الله ذى الآلاء
أهلا بقوم صالحين ذَوِى تُقى غُرِّ الوُجوهِ وزَيْنِ كلِّ مَلاء
ياطالبى علمِ النبىِّ محمّــدٍ ما أنتمُ وسِواكُمُ بسَواء

وأصابت الشيخَ أبا على زَمانةٌ عطّلته ، فأعمل الرحلة إلى المَرِيّة للاستشفاء ،
بماء حَمّتها ، حَمّة بَجّانة ؛ فقَدِم عليها فى صدر المحرّم سنة ستّ وتسعين وأربع مِئة ؛
وكان نزوله بها على الشيخ الفقيه أبى الرّبيع سليمانَ بن حَزْم السَّبائىّ ، وفى منزله
وبقراءته وقراءة القاضى أبى القاسم بن وَرْد ، كان أكثرُ ماسمع عليه [مَنْ] بالمريّة ،
ووجد السماع عليه بحَمّة بَجّانة ؛ ثم قفَل إلى قريته ، وبها توفى رحمه الله ليلة

(١) فى الصلة لابن بشكوال : « وأخبرنا عنه غير واحد من شيوخنا » .

الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من شعبان ، وقال أبو جعفر بن الباذش لعشر خلون منه سنة ثمان وتسعين وأربع مئة ؛ ودُفن يوم الجمعة بمقبرة الرَّبَض عند الشريعة القديمة ؛ ومولده فى المحرم سنة سبع وعشرين وأربع مئة ؛ وكان لزم داره قبل موته لزمانته . [٦٢٢]

ذكر ذلك كلّه ابنُ بَشْكُوال ؛ وفيه عن غيره ، وهذا هو الصحيح الذى لا يُلتفت إلى غيره ، ممن قال إن وفاته سنة ست وتسعين وأربع مئة . والله أعلم .

***

ومن أشياخ القاضى أبى الفضل عِياض رحمه الله تعالى : أبو على الصدفى من شيوخ عياض

القاضى الشهير [الشهيد] أبو علىّ الصَّدَفى . وهو حُسَين بن محمد بن فِيرُّة ابنِ حَيُّونَ بن سُكَّرة . وفِيرُّة (بكسر أوله ، وياء مُثناة فى أسفل ، وراء مضمومة مشدّدة ، وهاء ساكنة) : قيل معناه الحديد بلغة العجم ، وقد صرّح بذلك صاحب الدِّيباج المُذْهَب . وحَيُّون بحاء مهملة ، وياء مُثناة من أسفل مشددة . وسُكَّرة : (بضم السّين المهملة ، وفتح الكاف المُشَدَّدة ، وآخره تاء تأنيث) : مؤنث سُكّر . والصَّدَفىُّ : بفتح أوله وثانيه . وهو من أهل سَرَقُسْطة ، سكن مُرْسِيَة ، وروى بسرقُسْطة عن أبى الوليد سليمان بن خَلَف الباجىّ ، وأبى محمد عبد الله بن محمد بن إسماعيلَ وغيرهما ، وسمع ببَلَنْسِيَة من أبى العباس العُذْرىّ ، وسمع بالمَرِيّة من أبى عبد الله محمد بن سَعْدونَ القَرَوِىّ ، وأبى عبد الله بن المرابط ، وغيرهما .

ورحل إلى المشرق أولَ المحرم من سنة إحدى وثمانين وأربع مئة ، وحجّ من عامه ، ولَقِىَ بمكّةَ أبا عبد الله الحسينَ بن علىّ الطَّبَرىّ : إمامَ الحَرَمين ، وأبا بكر الطُّرْطُوشِىّ ، وغيرَهما ، ثم صار إلى البَصْرَة ، فلقى بها أبا يَعْلَى المالكىّ ، وأبا العبّاس الجُرْجانىّ ، وأبا القاسم بن شُعْبَة ، وغيرهم : وخرج إلى بغداد ، رحلته إلى المشرق

فسمع بواسط من أبى المعالى محمد بن عبد السّلام الأصْبَهانى وغيره ؛ ودخل بغداد يومَ الأحد السادسَ عشر لجمادى الآخرة ، سنة اثنتين وثمانين وأربع مئة ، فأطال الإقامة بها خمسَ سنين كاملة ، وسمع بها من أبى الفضل أحمد بن الحسن [٦٢٣]
ابن خَيْرون مُسْنِد بغداد ، ومن أبى الحسين [بن] المبارك بن عبد الجبار الصيْرفىّ ، وأبى محمد رِزْق الله بن عبد الوهاب التميمىّ ، وأبى الفوارس طراد بن محمد الزَّيْنَبىّ ، وأبى عبد الله الحُميدىّ ؛ وتفقه على [الفقيه] أبى بكرٍ الشاشىّ وغيره ، وسمع من جماعة سواهم من رجال بغداد ، ومن القادمين عليها أيام كَوْنه بها . ثم رحل عنها فى جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وأربع مئة ، فسمع بدِمَشْقَ من أبى الفتح [نصر] بن إبراهيم المَقْدِسىّ ، وأبى الفَرَج سَهْلٍ بن بِشْر الإسْفَرائنىّ وغيرهما ، وسمع بمصر من القاضى أبى الحسن على بن الحسين الخِلَعىّ ، وأبى العباس أحمد بن إبراهيم الرّازى وأجاز له بها أبو إسحاق الحَبّال ، مُسْنِدُ مِصْر فى وقته ومكْثرُها ؛ وسمع بالإسكندرية من أبى القاسم مَهْدِىّ بن يوسف الورّاق ، ومن أبى القاسم شُعَيْب بن سَعْد وغيرهما .

عودته إلى الأندلس

ووصل إلى الأندلس فى صفر من سنة تسعين وأربع مئة ؛ وقصد مُرْسِية ، فاستوطنها ، وقَعَد يحدث الناس بجامعها ؛ ورحل الناسُ من البُلْدان إليه ، وكثر سماعهم عليه . وكان عالما بالحديث وطُرُقه ، عارفا بِعلَله وأسماء رجاله ونَقَلَته ، بصيرا بالمُعَدّلين منهم والمُجرّحين ؛ وكان حسن الخط ، جيّد الضبط ، وكتب بيده علما كثيرا وقيّده ؛ وكان حافظا لمصنفات الحديث ، قائما عليها ، ذاكرا لمُتونها وأسانيدها ورُواتها ، وكتب منها صحيح البخارىّ فى سِفر ، وصحيح مسلم فى سِفر ، وكان قائما على الكتابين ، مع مصنف أبى عيسى التِّرْمِذىّ .
وكان فاضلا دَيِّنا ، متواضعا حليما ، وَقورا عالما عاملا ؛ واسْتُقْضِىَ بِمُرْسِيَة ثم [٦٢٤]

استعفى فأعفى؛ وأقبل على نشر العلم وبثّه.

حديث ابن الأبار عنه

قال ابن الأبّار: وقد ذكره أبو القاسم بن عساكر فى تاريخه، لدخوله الشام. قال: وبعد أن استقرّت به النّوى، واستمرّت إفادته بما قيّد وروى؛ رفعته ملوك أوانه، وشفّعته فى مطالب إخوانه؛ فأوسعته رَعْيا، وحَسُنت فيه رَأيا؛ ومن أبنائهم من جعل يقصده، لسماع مُسنده. وعلى وقاره الّذى كان به يُعرَف، نَدَر له مع بعضهم ما يُستطرَف، وهو أنّ فتًى منهم يسمى يُوسُف، لازم مجلسه، معطّرًا رائحته، ومُنظِّفا ملبَسه، ثم غاب لمرض قطعه، أو شغل منعه؛ ولمّا فرَغ أو أبلّ، عاود ذلك النادىَ المباركَ والمحلّ؛ وقبل إفضائه إليه دلّ طيبه عليه؛ فقال الشيخ، على نزاهته من المجُون، وسلامته من الفُتُون: «إنى لأجد ريح يوسف لولا أنْ تُفنّدون». وهى من طُرَف نوادره، رحمة الله عليه.

توليه قضاء مرسية واستشهاده فى وقعة قتندة

ولما قلّد الشيخ أبو على قضاء مُرْسِيَة، وعُزِم عليه فى توليه، ولم يُوسِعه عُذراً فى استعفائه مُتقدِّمه لذلك ومُولّيه؛ خرج منها فارًّا إلى المَريَّة، فأقام بها، [سنة خمس وبعض سنة ست وخمس مئة. وفى سنة ست قبل قضاءها على كره، إلى أن استخفى آخر سنة سبع، فى قصة يطول إيرادها. وطاول مقامه بالمرية أخذ الناس عنه فيها]، فلما كانت وقعة كُتُنْدَة، ويقال قُتُنْدة بالقاف، من خيْز دَوْرَقة، من عَمَل سرقُسْطة، من الثغر الأعلى، وذلك سنة أربعَ عشْرة وخمس مِئة كان الشيخ أبو على ممن حضرها، هو وقرينه فى الفضل أبو عبد الله بن الفرَج، خرجا مع الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين غازيين، فكانا فيمن فُقِد فيها. واختلف فيها أصحابه، فجعلها أبو جعفر بن الباذِش بعد العصر، من يوم الأربعاء السابعَ عشَر من ربيع الآخر، من السّنة المذكورة، وتابعه أبو عبد الله بن عبد الرحيم؛ وجعلها القاضى أبو الفضل عياض بن موسى يوم الخميس، لستّ

بقين منه . وقال أبو القاسم بن بَشكُوال : استشهد القاضى أبو على فى وقعة
قُتُنْدَة ، بثغر الأندلس ، يوم الخميس ، ووافق عياضا إلا فى الشهر ، فإنه قال من [٦٢٥]
ربيع الأول . قال ابن الأبّار : وهو الأصح . وقال أبو عمرو الخضر بن عبد الرحمن :
تُوُفِّى فى الكائنة على المسلمين بِكُتُنْدة ، عَشِيَّ يوم الخميس ، الثامنَ عشَرَ من
شهر ربيع الأول ، فتابعَ ابنَ بَشْكُوال على الشهر . قال أبو عبد الله بن الأبّار :
وقرأت بخط أبى عبد الله بن مُدْرِك الغَسّانى المالَقى : استشهد الفقيه أبو على
رحمه الله تعالى فى وقْعة كُتُنْدة ، يومَ الخميس ، التاسعَ عشَرَ من ربيع الأوّل ،
وذكر السنة . قال : وكانت على المسلمين ، جَبَرَهُمُ الله تعالى ، قُتِل فيها من
المطَوِّعَة نحوٌ من عشرين ألفا ، ولم يُقتل فيها من العسكر يعنى الجندَ أحد ،
وحكَى غيرُهم أنّ العسكر انصرف مَفلولا إلى بَلَنْسِيَة ، فى الموفِّى عشرين من
ربيع الأول أيضا ، وأن القاضى أبا بكر بن العربى حضرها . قال : وسُئِل
مُخلِّصُهُ منها عن حاله ، فقال : حال من ترك الخِبا والقِبا . قال ابن بَشْكُوال :
وكان القاضى أبو على يومئذ من أبناء السّتين ، وقد ذكره ابن بَشْكُوال ، وقال :
وهو ممن كتب إلينا بإجازة ما رواه ، ولم ألقه . وذكره ابن الأبار فى معجم أصحابه ،
وقد ألّف ابن الأبّار هذا المعجم فى أصحاب القاضى أبى على ، كما ألّف القاضى
أبو الفضل عِياض بن موسى معجمَ شيوخه ، رحمة الله عليهم أجمعين .

* * *

ابن بقوى من أشياخ عياض

ومن أشياخ القاضى أبى الفضل عياض رحمه الله تعالى :

أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام الهلالىّ ، يُعْرف بابن بَقْوَى ، ويُقال
ابن بَقْوَة ، من أهل غرناطة ، وسكن المَرِيَّة وسمع من شيوخ المرية ، مثل طاهر
ابن هشام الأزدىّ ، وأبى محمد حَجّاج بن قاسم بن محمد الرُّعَيْنى ، المعروف بابن [٦٢٦]

المأمونى ، وأبى القاسم خَلَفِ بن أحمد الجَرَاوىّ ، وأبى العبّاس أحمد بن عمر العُذْرىّ ، وغيرهم ؛ ومن الطارئين عليها ، مثل القاضى أبى الوليد الباجىّ ، وأبى عبد الله محمد بن سَعدونَ القَرَوىّ . وكان خروجه من المَرِيّة بعد سنة اثنتين وتسعين وأربع مِئة (١) ، وسكن غَرناطة مدة ، ووَلِىَ الأحكام بعدّة جهات من كورة ألبيرة . وكان من حُفّاظ الحديث المُعتنين بالتنقير عن معانيه ، واستخراج الفقه منه ، مع التقدم فى حفظ مسائل الرأى ، والبصر بعقد الوثائق ، والتقدم فى معرفة أصول الدين . روَى عنه جماعة . ووُلِد فى صفر سنة أربع وأربعين وأربع مئة ، وتُوُفِّى بغرناطة فى شهر ربيع الأول سنة ثلاثين وخمس مئة ؛ ذكره ابن بَشْكُوال .

* * *

ومن أشياخ القاضى أبى الفضل عياض رحمه الله : ابن شبرين من أشياخ عياض

القاضى أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن على [بن سعيد] بن عبد الله بن شِبْرين ، بشين معجمة مكسورة ، وباء موحّدة ساكنة ، وراء مكسورة ، بعدها ياء ، آخِر الحروف ، وآخره نون ، الجُذامىّ ، من أهل مُرْجِيق : حِصن من حصون شِلْب ، بينهما أربعون ميلا من الغرب .

أخذ عن القاضى أبى الوليد الباجىّ كثيرا من مَرْويّاته وتآليفه ، وصحبه واختصّ به ، وكان من أهل العلم ، والمعرفة والفهم ، عالما بالأصول والفروع ، واستُقْضِىَ بإشبيلية ، وحُمِدت سيرته ، ولم يزل يتولّى القضاء بها ، إلى أن تُوُفِّى ليلة الأربعاء ، لثلاثٍ خَلَوْن من رجبٍ الفَرْد ، سنة ثلاث وخمس مئة .

قال ابن بَشكُوال : كتب إلىّ القاضى أبو الفضل عياض بن موسى بن

---

(١) الذى فى الصلة لابن بشكوال بالأرقام لا بالحروف : « بعد سنة ٤٨٠ » .

عياض بوفاته ، وقال قَيَّدتُها حين وفاته . قلت : وهذا هو الصواب ، لا ما قاله بعض من شَرَح الشِّفا : إنه تُوُفِّى يومَ الخميس رابع رجب المذكور ، ولعلّه ظنّ [٦٢٧]
أن يوم دفنه هو يوم وفاته ، على أنّ مِثل هذا قريب ، لاسيما إن كانت وفاته آخرَ الليل ، فلا يكون بين اليوم والليلة إلا مُدَيْدة قليلة جدًّا ، فافهم .

وحكى القاضى أبو الحسن عيسى بن حبيب : أنه رَحَل إلى أبى الوليد الباجىّ سنة تسع وستين وأربع مئة ، وصحِبه بسرقُسْطة ، ثم سافر معه إلى المَرِيّة ، حتى مات أبو الوليد ، فكانت صحبته له نحو أرْبعة أعوام ، ووصل من منفعته به فى العلم فى هذه المدة ، مالم يصل إليه غيره منه فى المدة الطويلة ، رحمهما الله تعالى ؛ وأجاز له جميع رواياته أبو العباس العُذْرىّ ، وأبو القاسم عبد الجليل الرَّبَعى القَيْروانىّ ، مع تواليفه ، وأجاز له أبو عبد الله بن المُرابِط روايته عن الطَّلَمَنْكِىّ وخَلَف البَغَوِىّ ، وصحب بعد وفاة القاضى أبى الوليد الباجىّ ابنه أبا القاسم ، وأجاز له جميع ما رواه ، وانصرف إلى حصْن مُرْجِيق ، فولى الأحكام به ، ثم نُقِل إلى قضاء شِلْب ، فأقام بها قاضيا أعواما ، ثم نقله الأمير سير بن أبى بكر إلى قضاء إشبيلية ، بعد صرف أبى القاسم بن منظور عن قضائها ، فضبط الأمور ، وجمع المُفْترِق من شئون القضاء ، وكان صَليبا فى الحق ، نافذا فى أحكامه ، لا تأخذه فى الله لومةُ لائم ، وشَنِئَه أقوام ، فبَغَوْا عليه ، بغيا وحسدا ، عند أمير المسلمين علىّ بن يوسف بن تاشفين ، فصرفه عن القضاء ، ثم لم يَلْبَثْ إلّا نحو خمسةَ عَشَر يوما ، حتى ردّه إليه أحسنَ ردّ . وكان الفقيه أبو مَروانَ الباجىّ يُثْنِى عليه ، ويبالغ فى تقريظه ، ويقول : ما علّمنا القضاء إلا أبو عبد الله بن شِبْرين . ولم يزل قاضيا بإشبيلية ، مضْطَلِعا بأعباء القضاء ، حسن السياسة فيه ، ناشرا للعلم ، إلى أن تُوُفِّى بها ، رحمه الله تعالى . ذكره ابن بشكوال . [٦٢٨]

* * *

وإذا تتبَّعْنا أشياخ القاضى عِياض بالتعريف ، لم يَسَعْ ذلك هذا الموضوع ، وقد تقدم أنهم نحوُ المِئة ، ورتّبهم ولده على الحروف ، حَسْبما نُقِل من فِهْرَسَتِه .

فمنهم فى حرف الهمزة :

ابن بقى من شيوخ عياض

الشيخ بن بَقِيّ ، وهو أحمد بن محمد بن مَخْلَد بن عبد الرحمن بن أحمد ابن بَقِيّ بن مَخْلَد . ولد فى شعبان سنة ست وأربعين وأربع مِئة . ومات مُنْسَلَخ ذى الحِجّة سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة . وكُفّ بصره بآخر عمره . رحمه الله .

* * *

ومنهم فى هذا الحرف :

ابن المرخى من شيوخ عياض

أبو جعفر بن المرخى ، وهو أحمد بن محمد بن عبد العزيز اللَّخْمِيّ تُوُفِّىَ ليلة الجمعة ، لثمانٍ بقين من ربيع الأول ، سنة ثلاث وثلاثين وخمس مئة .

ومنهم :

ابن غلبون من شيوخ عياض

الشيخ ابن غَلْبون ، وهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عثمان ابن غَلْبون ، بفتح الغَين المعجمة ، وضم الباء الموحدة ، وآخره نون . وُلِد سنة ثمانَ عشرة وأربع مئة ، ومات فى شعبان سنة ثمانٍ وخمس مئة .

ومنهم :

أبو العباس الشارقى من شيوخ عياض

أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الأنصارىّ الشـارقى ، تُوُفِّىَ قرب خمس مئة .

ومنهم :

أبو إسحاق اللواتى من شيوخ عياض

أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر بن أحمد الفقيه اللَّواتى ، بفتح اللام ، منسوب

لِوَاتَة ، مخففة الواو ، مفتوحتها ، ومفتوحة اللام أيضا ، وتاء مثناة من فوق ، قبيلة . الفاسى ، نسبة لفاس الحضرة المشهورة ، حاط الله أرجاءها ، و بلغها من الأمن والعافية رجاءها . مات فى الثامن من جمادى الآخرة ، سنة ثلاث عشرة وخمس مئة .

ومنهم :

ابن بشتغير وابن مكحول من شيوخ عياض

أحمد بن سعيد بن بَشْتَغِير ، وأحمد بن محمد بن مكحول ، إلى غيرهم من جملة سبعة عشر رجلا فى هذا الحرف ، أعنى حرف الهمزة . ٦٢٩ أ

ومنهم فى حرف الحاء :

من شيوخ عياض المذكورين فى حرف الحاء

الحسين بن محمد الصَّدَفى ، والحسين بن محمد الغَسَّانى ، وقد تقدم الكلام عليهما ، والحسين بن عبد الأعلى السَّفَاقُسى ، والحسين بن على بن طريف .

ومنهم فى حرف الخاء :

من شيوخ عياض المذكورين فى حرف الخاء

خلف بن إبراهيم أبو القاسم الخطيب المُقْرِئ . وهو خلف بن إبراهيم بن خَلَف بن سعيد ، المعروف بابن النخَّاس ، بخاء معجمة ، وبابن الحصَّار . ولد سنة سبع وعشرين وأربع مئة ، وتُوُفِّىَ بقُرطبة يوم الثلاثاء ، سادس عشر صفر سنة إحدى عشرة وخمس مئة . وخَلَف بن خَلَفِ الأنصارىّ بن الأنقر . وخَلَفِ ابن يوسف بن فَرْتُون .

ومنهم فى حرف الميم :

من شيوخ عياض المذكورين فى حرف الميم

القاضى أبو الوليد بن رُشْد ، والقاضى أبو عبد الله بن حَمْدِين ، والقاضى أبو عبد الله بن الحاجّ ، والقاضى ابن العربىّ ، والقاضى ابن شِبْرِين ، و [قد] تقدّم ذكرهم .

وأبو عبد الله التميمىّ ، وهو محمد بن عيسى بن حسين ، ولد سنة تسع وعشرين وأربع مئة ، ومات بسَبتة صَبيحة يوم السبت التسع بقين من جمادى الأولى ، سنة خمس وخمس مئة .

وأبو عامر محمد بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن إسماعيل الطُّلَيْطِلِىّ ، بضم الطاءين(١) ، ولد سنة ستٍّ وخمسين وأربع مئة ومات بقُرْطبة ، فى ربيع الأول ، سنة ثلاث وعشرين وخمس مئة .

وأبو عِمْرانَ موسى بن عبد الرحمن بن أبى تَلِيد ، بمُثَنَّاةٍ من فوق مفتوحة ، الشاطبىّ الرُّعَيْنى ، منسوب لذِى رُعَيْن مِنْ حِمْيَر . وُلِد سنة أربع [وأربعين] وأربع مئة ومات فى ربيع الآخر سنةَ سبع عشرة وخمس مئة .

ومن شعره رحمه الله ، ورضى عنه :

[٦٣٠] اللَّيالى تَسُــوء ثم تَسُرُّ وصُروفُ الزمانِ ما تستقرُّ
بينما المرء فى حَـلاوة عيشٍ إذ أتاه على الحلاوة مُرُّ
فالكريم المصابُ يَفزَعُ فيه لكريمٍ وينْفَعُ الحرَّ حُرُّ

وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن سعيد الأشقرىّ المقرئ النحوىّ ، مات سنة خمس وخمس مئة . ومحمد بن على الشاطبىّ ابن الصَّيقل ، ومحمد بن سليمان النَّفْزِىّ بن أخت غانم ، ومحمد بن عيسى التُّجِيبىّ القاضى ، إلى غيرهم ، من جملة أحد وثلاثين شيخا فى هذا الحرف ، منهم المازَرِىّ والطُّرْطوشىّ ، لكن بالإجازة [له] ، إذ لم يَلْقَهما كما سيأتى قريبا .

(١) هكذا ضبطها الصاغانى . قال شارح القاموس : « والصواب بكسر الطاء الثانية ، كما ضبطه مؤرخو المغرب وابن السمعانى » . وقال ياقوت فى المعجم : « أكثر ما سمعناه من المغاربة : بضم الطاء الأولى وفتح الثانية » .

ومنهم فى حرف العين :

من شيوخ عياض المذكورين فى حرف العين

أبو محمد عبد الله بن السيِّد البَطَلْيَوْسِىّ ، وقد تقدم ذكره . وأبو محمد بن عَتّاب الجُذامىّ ، الإمام الشهير ، فقيه قُرطبة وإمامها ، وشيخ زمانه فى العلم الموروث كابرا عن كابر ، تُوُفِّى سنة ثمان وخمس مئة . وأبو محمد عبد الله بن أبى جعفر ، وهو عبد الله بن محمد بن عبد الله الخُشَنِىّ . وعبد الرحمن بن محمد السَّبْتى ابن العَجوز ، وعبد الله بن محمد بن أيُّوبَ الفِهْرِىّ . وعبد الرحمن بن محمد بن بَقِىّ . وعلى بن أحمد الأنصارى بن الباذِش . وأبو الحسن عَلِى بن مُشَرَّف [اسم مفعول شُرِّفَ بالتشديد] وهو ابن مُسَلَّم [مفعول ، سُلِّمَ مُشدَّد] ابن أحمد بن عبد المنعم بن عبد الرحمن الأغماطى [بفتح الهمزة] ، [الإسكندرانى . وأبو محمد عبد الله بن أحمد العَدْل « بالفتح وسكون الدال » ، التميمىّ] ، مات بسَبْتة عام أحد وخمس مئة . وعلى بن عبد الرحمن التُّجِيبىّ بن الأخضر ؛ إلى غيرهم من جملة سبعة وعشرين فى هذا الحرف .

ومنهم فى حرف الغين .

من شيوخ عياض المذكورين فى حرف الغين

غالب بن عطية المحاربىّ ، وقد تقدم .

ومنهم فى حرف السين .

من شيوخ عياض المذكورين فى حرف السين

سِراجُ بن عبد الملك بنِ سراج أبو الحسن . وأبو بحر سفيان بن العاصى الأسَدىّ ، مات بقرطبة لثلاث بقين من جُمادى الآخرة سنة عشرين وخمس مِئة ، [١٣١]
ووُلد سنة تسع وثلاثين ، وقيل أربعين وأربع مِئة ، وفى سنة وفاته المذكورة توفى القاضى أبو بكر الطُّرْطُوشِىّ رحمه الله ، وفيها أيضا توفى الإمام المؤرخ ، الشيخ الراوية ، أبو مروان حَيَّان بن حَيَّان رحمه الله .

وشيوخ القاضى أبى الفضل فى هذا الحرف خمسة .

بعض شيوخ عياض المذكورين فى حرف الشين

ومنهم فى حرف الشين .

شُرَيح بن محمد الرُّعَيْنِيّ الإشبيلى .

بعض شيوخ عياض المذكورين فى حرف الهاء

ومنهم فى حرف الهاء .

أبو الوليد هشام بن أحمد بن القوّاد ، الفقيه المشهور ، ولد سنة اثنتين وخمسين وأربع مِئة ، وتُوُفِّى سنة تسع وخمس مِئة .

وهشام بن أحمد الهلالىّ الغرناطىّ ، وقد تقدم ذكره .

بعض شيوخ عياض المذكورين فى حرف الياء

ومنهم فى حرف الياء .

يُونس بن محمد بن مُغيث بن الصَّفَّار .

ويوسف بن موسى الـكلبىّ ، سمع القاضى أبو الفضل منه أُرْجُوزته .

[وهو الضرير ُ الأديب النحوىّ المتكلم الزاهد . وأصله من سَرَقُسْطَة، وسكن مَرّاكُش ، وبها توفّى سنة عشرين وخمس مئة . وهو من تلامذة أبى بكر محمّد ابن الحسن المُرادىّ الحضرمى . والمُرادىُّ هذا أوّلُ من أدخلَ علومَ الاعتقادِ إلى المغرب الأقصى ، وسكن بأغمات ؛ فلما توجّه أبو بكر بن عمر إلى الصحراء ، حمله ، وولّاه القضاء ، فمات بأركر[1] من صحراء المغرب سنة تسع وثمانين وأربع مئة ؛ فخلَفَه أبو الحجاج يوسف فى علوم الاعتقادات ، وغلب عليه الزهد؛ وله أرجوزة صُغْرى فى علم الاعتقاد ، قرأها عليه القاضى أبو الفضل عياض ، كما ذكرناه .

قال عياض : وأجازنى أرجوزته الـكبرى وجميعَ تآليفه ورواياته ، وكتابَ التحرير لشيخه المرادىّ ؛ وعن المرادى كان أكثرُ أخذِ أبى الحجاج .

من شعر المرادى

قال عياض رحمه الله تعالى : أنشدنى لشيخه أبى بكر المرادى رحمه الله تعالى :

(١) كذا فى الصلة لابن بشكوال ، وفى نسخة منها « أزكد » وفى م : « أركى » .

عليَّ بقُبْحِ المعاصى حين أركبُها ... يقضى بأنِّىَ محمولٌ على القَـــدَرِ
لو كنتُ أملكُ نفسى أو أصرِّفُها ... ما كنتُ أطرَحُها فى لُجَّة العِذَرِ
كُلِّفْتُ فعْـــلاً ولم أقدِر عليه ولم ... أكُنْ لِأفعلَ أفعالا بِلا قَدَرِ
وكان فى عدل ربِّى أن يعذِّبَنِى ... فلم أُشارِكْهُ فى نَفْعٍ ولا ضَرَرِ
إن شاء نعَّمَنى أو شـــاء عذَّبنى ... أو شاء صوَّرَنى فى أقبح الصُّوَرِ
يا ربِّ عفوكَ عن ذنب قضيْتَ به ... عدلا علىَّ فهَبْ لى صفحَ مُقْتَدِرِ

***

ومن شيوخ القاضى عياض رحمه الله تعالى فى حرف الياء] .

يُوسف بن عبد العزيز بن عُدَيس الطُّلَيْطِلِىّ ، رحم الله جميعهم .

***

ممن أجاز عياضا أبو بكر الطرطوشى

وممن أجاز القاضى أبا الفضل عياضا ولم يلقه :

الشيخ الأستاذ أبو بكر محمد بن الوَليد الطرْطُوشِىّ ، الطائر الصيت ، المشهير الذكر ، وقد تقدم ذكر وفاته .

وهو محمد بن الوَليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيُّوب القُرشىّ الفِهرىّ الطُّرْطوشىّ [بضم الطاءين المهملتين؛ وقد تفتح الطاء الأولى] ؛ أصله من طُرْطُوشة ، بلاد بالأندلس ، ويُعْرَف بابن أبى رَنْدَقَة ، [براء مهملة مفتوحة ، ثم نون ساكنة ، ثم دال مهملة مفتوحة ، ثم قاف . كنيته أبو بكر ، وهو المَعْنِىّ] بقول ابن الحاجب فى مختصره الفقهىّ ، فى باب العتق : « وقال الأستاذ : ومُقْتضاه إذا باعه قبل التَّقْوِيم أن يُقوَّم » .

صَحِب القاضىَ أبا الوليد الباجىّ بسَرَقُسْطَة ، وأَخَذَ عنه مسائل الخلاف ، [٦٣٢]
وسمع منه ، وأجازه ، وقرأ الفرائض والحساب بوطنه ، وقرأ الأدَب على أبى محمد ابن حَزْم بمدينة إشْبِيلِيَة .

ثم رحل إلى المشرق سنة ستٍّ وسبعين وأربع مِئة ، وحجَّ ودخل بغداد والبَصرة ، فتفقه عند أبى بكر الشاشىّ ، وأبى أحمد[1] الجُرْجانىّ ، وسمع فى البَصْرة من أبى على التُّسْتَرىّ ، وسكن الشام مدة ، ودرّس بها ، وكان إماما عالما عاملا ، زاهدا متواضعا ، دَيِّنا وَرِعا ، متقشِّفا متقللا مِنَ الدنيا ، راضيا منها باليسير .

ومن كلامه رضى الله عنه : إذا عرض لك أمران : أمر دنيا وأمر أخرى ، فبادر بأمر الأخرى ، يحصلْ لك أمر الدنيا والأخرى .

وله عدة تآليف ، منها مختصر تفسير الثعالبى ، والكتاب الكبير فى مسائل الخلاف ، وكتاب فى تحريم جُبْن الرّوم ، وكتاب سِراج الملوك ، وهو من أنفع الكتب فى بابه وأشهرها ، وكتاب بِدَع الأمور ومُحْدَثاتها ، وكتاب شرح رسالة ابن أبى زيد .

وُلد سنة إحدى وخمسين وأربع مِئة تقريبا ، وتُوُفِّى فى ثلث الليل الأخير من ليلة السبت ، لأربع بقين من جُمادى الأولى ؛ وقال ابن بَشْكُوال فى الصِّلة : فى شعبان سنة عشرين وخمس مِئة ، كما تقدم ، بثغر الإسكندرية ، وصلّى عليه ولدُه محمّد ، ودُفن قِبْلِىّ الباب الأخضر . رحمه الله ورضى عنه .

تعريف ابن خلكان بالطرطوشى

وقال ابن خَلِّكانَ فى حقه ما نصُّه[2] : محمد بن الوَليد بن محمد بن خَلَف ابن سُليمان ، [بن أيوبَ][3] القرشىّ الفِهرىّ ، [الأندلسى][3] الطُّرطوشىّ المالكىّ ، المعروف بابن أبى رَنْدَقَة (بالراء المهملة المفتوحة[4] ، وتسكين النون) ،

---

(١) كذا فى الصلة لابن بشكوال وابن خلكان . وفى الأصول : « وأبى محمد » .

(٢) بين الكلام المنقول هنا عن ابن خلكان والنسخة المطبوعة منه بمصر خلاف كثير بالتقديم والتأخير والزيادة والنقص ، والتصرف فى العبارة .

(٣) زيادة عن نسخة ابن خلكان ، طبعة الميمنية بالقاهرة سنة ١٣١٠ هجرية .

(٤) ضبطها ابن فرحون فى الديباج المذهب بالعبارة : « بضم الراء » .

إمام وَرِع ، أديب مُتقلّل . كان يقول : إذا عَرَض لك أمران : أمر أُخْرَى وأمر دنيا ، فبادر بأمر الأُخْرى يحصُلْ لك أمر الدنيا والأخرى .

وله طريقة فى الخِلاف ، وله أشعار ، منها : [١٢٣]

إذا كنتَ فى حاجةٍ مُرْسِلاً وأنتَ بإنجازِها مُغْـــرَمُ
فأرسِلْ بأَبْلَهَ[١] خَلّابةٍ به صَمَمٌ أَغْطَشُ أَبْكَم
ودعْ عنكَ كلَّ رسولٍ سِوَى رَسُولٍ يُقـــالُ له الدِّرْهَم

قال الطُّرطوشى : كنت ليلة نائما فى البيت المُقَدّس[٢] ، إذْ سمعت فى الليل صوتا حزينا يُنْشِد :

أخوفٌ ونومٌ إنّ ذا لعجيبُ ثَكِلْتُكَ من قلبٍ فأنتَ كَذُوبُ
أمَا وجلالِ الله لو كنتَ صادقا لَمَا كان للإغماضِ فيك[٣] نصيب

قال : فأيقظ النُّوّام ، وأبكى العُيون .

وكان الطّرْطُوشى يُنْشِد[٤] :

إنّ لله عبـــادا فُطَنَا طَلَّقوا الدُّنيا وخافُوا الفِتَنَا
فَـكّروا فيها فلمّـــا عَلِموا أنّهـــا ليستْ لحيٍّ وَطَنا
جعَلوها لُجّةً واتخـــذوا صـــالحِ الأعمالِ فيها سُفُنا

ودخل الطّرْطُوشىّ على الأفضل بن أمير الجيوش ، فوعظه ، وقال : إن الأمر الذى أصبحتَ فيه من المُلك ، إنما صار إليك بموت من كان قَبْلك ، وهو خارج عن يدك ، بمثل ما صار إليك ، فاتّق الله فيما خَوّلك من هذه الأمة ، فإنّ

(١) فى م ونفح الطيب وابن خلكان : « بأكمه »
(٢) فى ابن خلكان : « فى بيت المقدس » :
(٣) فى ابن خلكان : « منك » .
(٤) فى ط : « ينشد ويقول » .

الله عز وجلّ سائلك عن النَّقير والقِطْمِير والفتيل ؛ واعلم أنّ الله عز وجلّ آتى سليمانَ بن داود مُلْكَ الدنيا بحذافيرها ، فسخَّر له الإنس ، والجن ، والشياطين ، والطير ، [والوحش] ، والبهائم ؛ وسخَّر له الريح تجرى بأمره رُخاء حيث أصاب ، ورفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال عزّ من قائل : « هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَاب » ؛ فما عدّ ذلك نعمة كما عددتموها ، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها ، بل خاف أن يكون استدراجا من الله عز وجل ، فقال : « هذا من فضل ربى ؛ ليبلونى أأشكُرُ أم أكفر » ؛ فافتح الباب ، وسهّل الحجاب ، وانصر المظلوم ؛ وكان إلى جانب الأفضل رجل نصرانىّ ، فأنشده :

[٦٣٤] يا ذَا الَّذِى طاعتُــه قُرْبَةٌ ... وحقّهُ مُفْتَرَضٌ واجبُ
إنّ الَّذِى شُرِّفْتَ مِنْ أجْلِهِ ... يَزْعُمُ هــذَا أنّهُ كَاذِبُ

وأشار إلى [ذلك] النّصرانىّ ، فأقامه الأفضل من موضعه .

وتُوُفّى الطُّرْطُوشىُّ سَنة عشرين وخمس مئة بالإسكندرية .

انتهى كلام ابن خَلّـكان . وذكرته برُمّته وإن كان بعضه قد تقدم ، تكميلا للغرض ؛ وقد يقع لى مثل هذا فى هذا الموضوع[1] كثيرا ، والقصد به التقوية لما تكرّر معه ، أو غير ذلك ، كارتباط الكلام بعضه ببعض ؛ وعلى الله قصد السبيل .

* * *

من أجاز عياضا أبو عبد الله المازرى

وممن أجاز القاضى عياضا ولم يلقه :

الشيخ الإمام المجتهدُ أبو عبد الله المـازَرِىُّ ، محمد بن علىّ بن عُمر بن محمد التميمى المازَرِىّ ، بفتح الزّاى عند الأكثر ، وجوّز كسرَها جماعة ؛ نسبة إلى مازَر ، بُلَيْدة بجزيرة صِقِلِّية ، أعادها الله . أخـذ عن الشيخين أبى الحسن

(١) يريد بالموضوع : التأليف .

اللَّخْمِىّ ، وأبى محمد بن عبد الحميد القَرَوِى المعروف بالصائغ ، وكان إماما مُحَدِّثا ، وهو أحد الأئمة الأعلام ، المشار إليهم فى حفظ الحديث والكلام عليه ، عُمْدة النُّظَّار ، وتُحفة الأمصار ، المشهور فى الآفاق والأقطار ، حتى عُدَّ فى المذهب إماما ، وملك من مسائله زِماما . وله تآليف مُفيدة ، عظيمة النفع ، منها كتاب المُعْلِم ، بفوائد مُسْلِم ؛ وكتاب التعليقة على المدوّنة ؛ وكتاب شرح التلقين ، وكتاب الردّ على الإحياء للغزّالى ، المسمى بكتاب الكشف والإنباء ، عن المترْجَم بالإحياء ؛ وكشْف الغطا ، عن لمس الخطا ؛ وكتاب إيضاح المحصول ، من بُرهان الأصول ؛ وتعليقة على أحاديث الجَوْزَقىّ ؛ وله أيضا إملاء على شىء من رسائل إخوان الصفاء ، سأله السلطان تميمٌ عنه ، وكتاب النُّكت القَطْعية ، فى الرد على الحَشْوِيَّة والذين يقولون بقدم الأصوات والحروف ؛ وفتاوَى .

تُوُفِّى ثامنَ عشَرَ ربيع الأوّل سنة سِتٍّ وثلاثين وخمس مئة ؛ وقيل يوم الأثنين ثامن الشهر المذكور بالمهديّة ، وعمره ثلاث وثمانون سنة ، رحمه الله ورضى عنه . [٥٣٦]

وحُكِىَ أن بعض طلبة الأندلس ورد على المهْديّة ، وكان يحضر مجلس المازَرِىّ ، ودخل شعاع الشمس من كَوَّة ، فوقع على رجل الشيخ المازَرِىّ ، فقال الشيخ : « هذا شعاع مُنْعَكِس » فذيله الطالب المذكور حين رآه متزّنا ، فقال :

هَـذَا شُعَاعٌ مُنْعَكِسْ ... لِعِـلَّةٍ لا تَلْتَبِسْ
لَمَّا رَآكَ عُنْصُرًا ... مِن كل علْمٍ يَنْبَجِسْ
أتى يَمُـدُّ ساعِدًا ... مِنْ نُورِ علمٍ يَقْتَبِسْ

وأظنّ أنّى رأيت هذه الحكايةَ فى نظم الدُّرّ والعِقْيان ، للشيخ الحافظ

أبي عبد الله التَّقَوِيُّ التِّلِمْسانى ؛ فَلْتُراجَع ثَمَّ لأنى نقلتها بالمعنى .

* * *

من أجاز عياضا الحافظ السلفى

وممن أجاز القاضي عياضا ولم يلقه :

الشيخ الحافظ إمام المحدِّثين أبو الطَّاهر السِّلَفِيّ ، أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سِلَفَة الأصبهانيّ ، الملقب صَدْرَ الدين .

قال ابن خَلِّكان : هو أحد الحُفّاظ المكْثِرين . رَحَل فى طلب الحديث ، ولَقِى أعيان المشايخ ، وكان شافعيَّ المذهب . ورد بغداد ، واشتغل بها على أَلْكِيا[1] [أبى الحسَن علىّ الهرّاسىّ][2] فى الفقه ، وعلى الخطيب أبى زكريا يحيى بن على التِّبْرِيزىّ اللغَوِىّ باللغة ، ورَوى عن أبى محمد جعفر بن السَّراج وغيره من الأئمة الأماثل ، وجاب البلاد ، وطاف الآفاق ، ودخل الإسكندرية سنة إحدى عشرة وخمس مئة ، فى ذى القَعدة ؛ وكان قدومه إليها فى البحر من مدينة صُور ، وأقام بها ، وقصَده الناسُ من الأماكن البعيدة ، وسمعوا عليه ، وانتفعوا به ، ولم يكن فى آخر عمره فى عصره مثلُه . وبنى له العادل أبو الحسن على بن السلّار وزير الظافر العُبَيْدىّ صاحب مصر ، فى سنة ست وأربعين وخمس مئة ، مدرسة بالثغر المذكور ، وفوّضها إليه ، وهى معروفة به الآن . وأدركت جماعة من أصحابه بالشأم والديار المصرية ، وسمعت عليهم ، وأجازونى ، وكان قد كتب الكثير ؛ ونقلت [٦٣٦] من خطه فوائد جمة ؛ ومن جملة ما نقلت من خطه لأبى عبد الله محمد بن عبد الجَبّار الأندلسى من قصيدة :

---

(١) قال ابن خلكان : « الكيا » فى اللغة العجمية : هو الكبير القدر ، المقدم بين الناس .

(٢) زيادة عن ابن خلكان طبعة الميمنية بالقاهرة سنة ١٣١٠ هجرية .

لولا اشتغالى بالأمير ومدحه لأطلتُ فى ذاك[1] الغزال تغزُّلِى
لكنَّ أوصاف الجلال عَذَبْنَ لِى فتركتُ أوصاف الجمال بمعزل

ونقلت من خطه أيضا لبُثينة [صاحبة جميل ترثيه] :

وإنَّ سُلُوِّى عن جميلٍ لَساعةٌ من الدَّهْرِ ماحانتْ ولا حان حِينُها
سَواء علينا يا جميلَ بنَ مَعْمَرٍ إذا مِتَّ بأْساء الحياةِ ولِينُها

وكان كثيرا ما يُنْشِد :

قالوا نفُوسُ الدارِ سُكَّانُها وأنتمُ عِنْدِى نفُوس النفُوسْ

وأماليه وتعاليقه كثيرة ، والاختصار بالمختصَر أوْلَى .

وكانت ولادته سنة اثنتين وسبعين وأربع مئة تقريبا بأصبهان ، وتُوُفِّى ضَحْوة نهارِ الجُمُعة ، وقيل ليلة الجُمُعة خامس شهر ربيع الآخِر ، سنة ست وسبعين وخمس مئة ، بثغر الإسكندرية . ودُفِن فى وَعْلَة ، وهى مَقْبَرة داخلَ السُّور ، عند الباب الأخضر ، فيها جماعة من الصالحين ، كالطَّرْطُوشِىِّ وغيره ، وهى بفتح الواو وسكون العين المهملة ، وبعدها لام ثم هاء . ويقال إن هذه المقبرة [٦٢٧
منسوبة إلى عبد الرحمن بن وَعْلَة السَّبَئِىِّ المصرىّ ، صاحب ابن عباس رضى الله عنهما . وقيل غير ذلك ، رحمه الله تعالى ، آمين .

تحقيق ميلاد الحافظ السلفى ونسبته

قلت : وجدت العلماء المحدِّثين بالدِّيار المصرية ، من جُمْلتهم الحافظ زكىّ الدِّين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوى المُنْذِرِىّ المحدِّث ، محدِّث مصر فى زمانه ، يقولون فى مولد الحافظ السِّلَفِىّ هذه المقالة . ثم وجدت فى كتاب : زَهْر الرِّياض المفصِح عن المقاصد والأغراض ، تأليف الشيخ جمال الدين أبى القاسم عبد الرحمن ابن أبى الفضل عبد المجيد بن إسماعيل بن حَفصٍ الصَّفْرَاوِىّ الإسكندرىّ ، أن

(١) كذا فى ابن خلكان . وفى الأصول : « فى وصف » .

الحافظ السِّلَفِيّ المذكور ، وهو شيخه ، كان يقول : مولدى بالتخمين لا باليقين سنة ثمان وسبعين ، فيكون مبلغُ عُمْره على مقتضى ذلك ، ثمانيًا وتسعين سنة . هذا آخر كلام الصَّفراوى المذكور .

ورأيت فى تاريخ الحافظِ مُحِبّ الدين محمد بن محمود المعروف بابن النَّجَّار البغدادىّ ، ما يدل على صحة ما قاله الصَّفْرَاوِىّ ، فإنه قال : قال عبد الغنىّ المقدسىّ : سألت الحافظ السِّلَفِىّ عن مولده ، فقال : أنا أذكر قتل نظام المُلْك فى سنة خمس وثمانين وأربع مئة ، وكان لى من العمر حدود عشر سنين .

قلت : ولو كان مولده على ما يقوله أهل مصر إنه فى سنة اثنتين وسبعين ، ما كان يقول أذكر قتل نظام الملك فى سنة خمس وثمانين وأربع مئة ، فإنه على ما يقولونه قد كان عمره ثلاث عشرة سنة ، أو أربع عشرة سنة ، ولم تجر العادة [٦٣٨] أن من يكون فى هذا السّنّ يقول : أنا أذكر القضية الفلانية ، وإنما يقول ذلك من يكون عمره تقديرًا أربعَ أو خمسَ أو ستّ سنين .

فقد ظهر بهذا أنّ قول الصَّفراوِىّ تلميذِه أقربُ إلى الصحة ، وقد سُمِع منه أنه قال : مولدى فى سنة ثمانٍ وسبعين ، وليس الصفراوىّ ممن يُشَكُّ فى قوله ، ولا يُرْتاب فى صحته ، مع أننا ما علمنا أن أحدًا منذ ثلاث مئة سنة إلى الآن بلغ المئة ، فضلا عن أنه زاد عليها ، سوى القاضى أبى الطَّيِّب طاهر بن عبد الله الطَّبَرِىّ ، فإنه عاش مئة سنة وسنتين ، كما سيأتى فى ترجمته .

ونِسْبَة السِّلَفِىّ إلى جَدّه إبراهيم سِلَفَه ، بكسر السّين المهملة ، وفتح اللّام والفاء ، وفى آخره الهاء ، وهو لفظ عجمى ، ومعناه بالعربىّ ثلاثُ شفاه ، لأن شفته الواحدة كانت مشقوقة ، فصارت مثل شفتين ، غير الأخرى الأصلية ،

والأصل فيه سِلَبَة ، بالباء ، فأبدلت بالفاء .

انتهى كلام ابن خلكان .

تعليق المؤلف

قلت : ولا يخلو ما ذكره من بحث ، لأن السِّلَفي قال : أنا أذكر قتل نظام المُلك وأنا في حدود العشر السنين ، وبحث ابن خلكان يقتضي أنه ابن ست سنين ونحوها ؛ بل قد يقال : إن قول السِّلَفي وكان في حدود عشر سنين ، لا ينافي قول الآخرين ، لما جرت العادة به من العلماء ، من إلغاء الكسر الزائد . سلمنا عدم ذلك ، فلا دليل فيه لواحد منهما ، فتأمله مُنصفا ، والله سبحانه أعلم .

وكأنّ ابن قُنْفذ اعتمد في وفاته على قول المِصْريِّين في مَولد أبي الطّاهر السِّلَفي ، فلذا قال ما نصُّه : « وتُوفِّي القاضي بغَرناطة ، أبو عبد الله محمد بن القاضي عياض سنة خَمْس وسبعين وخمس مئة ، وعَرَّف في تاريخه بأبيه ، وفي التي [٦٣٩] تليها تُوُفِّي الشيخ أبو الطاهر السِّلَفِيّ ، وعمره مِئَة وأربع سنين ، وكان أجاز لكل من أدركته حياتُه . وسِلَفَه (بكسر السين المهملة) : قرية في المَشْرق » . انتهى .

وما قاله في سِلَفَه مخالف لما سبق قريبا لابن خَلّكان ؛ ولعل قول ابن خَلّكان هو الصَّواب ، والله تعالى أعلم .

شيء من نظم الحافظ السلفي

ومن مشهور نظم السِّلَفِيّ رحمه الله [قوله] :

لَيسَ عَلَى الأَرضِ في زماني ... مَنْ شانُه في الحديث شاني
عِلْماً ونَقْدًا ولا عُلُوًّا ... فيه على رَغْمِ كلّ شاني

ومن ذلك قوله رحمه الله :

بالله يا مَعْشَر أصحـــابي ... اِغتَنِموا عِلْمي وآدابِي

إن نذيرَ الموت جاء وقد ... حلفَ لا يَرْحلُ إلا بِي

ومن نظمه ، رحمه الله ، ما أجاب به القاضي عياضا حين استجازه بقصيدة على رَوِيّ القاف ، أولها :

أبا طاهر خُذها على البُعْدِ والنَّوى ... تحيـــةَ مُشتاق لذكراكَ شيِّقِ

فأجابه أبو الطاهر بقوله :

أتانيَ نظم الألمعيِّ المـــوفَّقِ ... يَميس اختيالا بين غَرْبٍ ومَشْرقِ

وسيأتيان ممّا عند تعرضنا لذكر نظم عياض ، رحم الله الجميع .

* * *

الإجازة العامة عند تعذر اللقاء

أقول : ولم يزل الفُضَلاء من الأئمة ، والنُّبهاء من أعلام هذه الأمة ، يستجيزون الأشياخَ الأخيار ، عند تعذُّر اللقاء و بُعْد الديار ، ولو تتبَّعْنا ذِكر من فعل ذلك لضاق عنه هذا الموضوع ، ولما احتمله هذا المجموع . وقد استجاز [٦٤٠] الإمامُ الشهير ، الأديب الكبير ، الشيخ العلامة أبو الحسن حازم ، صاحب المقصورة ، وَجيهَ الدين منصورا ، فكتب إليه الوجيه رحمه الله بقوله :

إني أجزتُ لحازمِ بنِ محمدٍ ... صَدْرِ الأفاضلِ والإمامِ السيِّدِ

مجموعَ ما رُوِّيتُــــه فرَوَيتُه ... عن ألف شيخ مِن رُواة المُسْنَد

في مِصرها مع شامها وعِراقها ... وحِجازها من مُتْهِمٍ أو مُنْجِد

وجميعَ ما صنَّفْتــه وجمعته ... في علم فقهِ الشافعيِّ محمّد

فلْيَرْوِ عنّي ما رَويْتُ رِوايةً ... مَشْروطةً بتوثُّقٍ وتشدُّد

ولْيبقَ في رَوض العلوم مُنعَّمًا ... بسعادةٍ وســـيادةٍ وتأيُّد

* * *

ترجمة السيوطي لحازم القرطاجني

وإذْ جرى ذكر حازم ، فلا بد أن نُورد بعض التعريف به ، فنقول :

قال السُّيوطىّ فى الطبقات :

حازم بن محمد بن حسن بن محمد بن خلف بن حازم الانصارى القَرْطَاجَنّىّ النحوىّ ، أبو الحسن ، شيخ البلاغة والأدب .

قال أبو حَيّان : كان أوحدَ زمانه فى النظم ، والنثر ، والنحو ، واللغة ، والعَروض ، وعلم البيان . روى عن جماعة يقارِبون الألف ؛ وروى عنه أبو حيان وابنُ رُشَيد ، وذكره فى رحلته ، فقال : حَبْر البُلغاء ، و بحر الأدباء ، ذو اختيارات فائقة ، واختراعات رائقة ، لا نعلم أحدا ممن لقِيناه جمَعَ [من علم اللسان ما جَمَع] ، ولا أحكَمَ من مَعاقد علم البيان ما أحكم ، من منقول ومُبتَدع ؛ وأما البلاغة فهو بحرها العَذْب ، والمتفرِّد بحَمْل رايتها أميرا فى الشرق والغرب ؛ وأمّا حفظ لغات العَرب وأشعارها وأخبارها ، فهو حَمّاد رواياتها ، وحَمّال أوقارها ؛ يجمع إلى ذلك جَوْدةَ التصنيف ، و براعة الخط ؛ ويَضْرب بسهم فى العقليات ، والدِّرايةُ أغلبُ عليه من الرِّواية .

صَنّف : مِراج البلغاء فى البلاغة ، وكتابا فى القوافى ، وقصيدةً فى النحو على روى الميم ، ذكر منها ابن هشام فى المغنى أبياتًا فى المسألة الزُّنبورِيّة ، وقد ذكرناها [٦٤١]
فى الطَّبقات الكُبرى مع أبيات أخر .

مولده سنة ثمان وست مئة ، ومات ليلة السبت الرابع والعشرين من رمضان سنة أربع وثمانين وست مئة .

ومن شعره :

من قال حَسْبِى من الوَرَى بَشَرٌ ... فحَسْبِىَ اللهُ حَسْبِىَ اللهُ
كَمْ آيةٍ للإلٰهِ شاهدةٌ ... بأنّه لا إلٰه إلا هُو

انتهى كلام السيوطى .

ولنزد نحن ما أمكننا ، حيث لم يوفِّ السيوطي بحقه في الطبقات الصُّغرى ، لأنها مبنية على الاختصار ، ولم نقفْ على الطبقات الكُبرى التي أحال عليها ؛ فنقول : تكملة المؤلف لترجمة حازم

قال بعض المؤرخين : هو حازم بن محمد بن الحسن بن حازم الأنصاريّ ، فجعل والد الحسن حازما ، وجعله السُّيوطي محمدا ، فلا ندري هل هذا من النِّسْبة إلى الجَدّ ، فيرجعَ مع ما عند السُّيوطي إلى وِفاق ، أو هما مختلفان ؟

القَرْطَاجَنّي : منسوب إلى قَرْطاجَنّة من سواحل كُورة تُدْمِير ، من شَرْقِ الأندلس . وهو خاتمة شعراء الأندلس الفُحول ، مع تقدمه في معرفة لسان العرب وأخبارها ، ونزل إفريقيّة بعد خروجه من بَلَده ، فطار له بها صِيْت ، وعُمِّر إلى أن مات بتونس، حضرة ملوكها ، ليلةَ السبت الرابع والعشرين من رمضان ، من سنة أربع وثمانين وست مِئة . وفي بعض المجاميع الأدبية من تآليف ابن المُرابِط نزيل تُونس ، أنه كان في حضرة مَرّاكش أيام الرشيد ، انتهى .

[٦٤٢] قلت : وله في الرشيد أمداح كثيرة ، أنشدها في الإشادة ، ومدحَ الأمير أبا زكرياء ، صاحب إفريقية ، وولدَه أبا عبد الله المستنصر ، وله ألَّفَ المقصورة المشهورة ، وقصر محاسنها على مدحه ، ومَدَحَ أخاه أبا يحيى .

[ومطلعها[(١)] :

لِلّهِ ما قدْ هِجْتَ يا يومَ النَّوَى   على فؤادى من تباريح الجَوَى

قلت : قد كنت ضَمّنت مطلعها باكتفاء وتورية فقلت :

لم أنسَ يومًا للنوى عيونَه   في نهر فاس شَجَنٌ هاج الجَوَى

(١) زدنا هذه الكلمة ليتصل الكلام .

فقلت إذ ذكَّرنى مَعاهِــدًا «لله ما قد هِجتَ يا يومَ النوَى»

ومقصورته تدل على اطلاعه ، وصَــدَّرها بخطبة بليغة جدًّا ، وتولى شرح هذه المقصورة الشيخ أبو القاسم الشريف الحَسَنىّ القاضى كان بغرناطة ، وسَمّى شرحه هذا رفع الحُجُبِ المستورة عن محاسن المقصورة ، وملأه بكل غريبة ، وقد طالعته غير مرة . وقد ألف الإمام المــكُّودىّ شارح الألفيه ، مقصورة بديعة نبَويه ؛ وعاب على ابن دُرَيْد وحازم جعلهما مقصورتيهما مدحا فى بنى الدنيا ، فــكان من جملة أبياتها :

فحازم قد عُدَّ غيرَ حازم وابن دُرَيد لم يقده ما دَرَى

وقد تولى شرح مقصورة المــكّودىّ بعض أصحابنا ، وهو الــكاتب الأديب، أبو عبد الله المَــكْلاتِىّ أعانه الله تعالى] .

جيميته التى يعارض بها رائية ابن عمار

ومن بديع نظمه رحمه الله قصيدة جيمية ، غريبة المنزع ، لها صيت عظيم عند الحُذَّاق من أهل الأدب ، والنحارير من الفضلاء ، عارض بهــا فى المعنى رائية ابن عمّار(١) الوزير ؛ المعتمد بن عبّاد . وفضَّل غيرُ واحد هذه الجيمية الحازمية ، على تلك الرائية العمّارِيَّة :

أدِرِ المُدامَةَ فالنَّسيمُ مُؤَرَّجُ والرَّوضُ مَرقومُ البُرودِ مُدَبَّجُ
والأرض قد لَبِسَتْ بُرودَ جَمالِها فكأنّما هى كاعبٌ تتبرّج
والنّهر مما ارتاح مَعْطِفُــــه إلى لُقْيا النسيم عُبـــابُه مُتموّج
يُمْسِى الأصيل بِعَسْجَدِىّ شعاعِه أبدا يُوشِّى صفحَه ويدَبّج
وترومُ أيدى الريح تسلُبُ ما كتسَى فتَزيدُه حُسْنا بما هِىَ تنسُج

(١) مطلع رائية ابن عمار :
أدر الزجاجــة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى

فارتحْ اشرب كُئوسِ راحٍ نَوْرها … بل نارُها في مائهـا تتوهّجُ
واسكرْ بنشوةِ لحظِ مَن أحببته … أو كأسِ خمرٍ من لَماه تُمزَج
واسمعْ إلى نغماتِ عودٍ تطّبي … قلبَ الخليِّ إلى الهوى وتُهيّج
بمٌّ وزيرٌ يُسعدانِ مثانيا … ومثالثا طبقاتهـا تتدرّج
مَنْ لم يُهيّجْ قلبَه هـذا فما … للقلبِ منـه محرّكٌ ومُهيّج
فأجبْ فقد نادى بألسُن حالِه … للأنس دهرٌ للهموم مُفرّج
طربت جماداتٌ وأفصح أعجمٌ … فرحًا وأصبح من سرورٍ يهزِج
أفيفضُلُ الحيَّ الجمادُ مسرّةً … والحيُّ للسّراء منـه أحوج
ما العيش إلّا ما نعمتَ به وما … عاطاك فيه الكأسَ ظبيٌ أدعج
ممّن يروقك منـه ردفٌ مُرْدَفٌ … عبْلٌ وخصرٌ ذو اختصارٍ مُدمَج
فإذا نظرتَ لطرّةٍ ولغرّةٍ … ولصفحةٍ منـه بدتْ تتأجّج
أيقنتَ أن ثلاثهن وما غدا … مِنْ تحتها يتأوّدُ أو يتموّج
ليـلٌ على صبحٍ على بدرٍ على … غصنٍ تحمّله كثيبٌ رجرج
كأسٌ ومحبوبٌ يظل بلحظِه … قلبُ الخليِّ إلى الهوى يُستدرَج
[٦٤٣] يا صاحِ ما قلبي بصاحٍ عن هوى … شيئين بينهما المُنى تُستنتَج
وبمهجتي الظبيُ الذي في أضلعي … قد حلّ وهو يشبّها ويؤجّج
ناديتُ حاديَ عيسه يومَ النّوى … والعيسُ تُحدى والمطايا تُحدَج
قفْ أيهـا الحادي أودّعْ مهجةً … قد حازها دون الجوانح هودجُ
لمـا تواقفنا وفي أحداجها … قمرٌ منيرٌ بالهلال مُتوّج
ناديتهمْ قولوا لبدركُمُ الذي … بضيائه تسري الركاب وتُدلج
يحيا العليلُ بلفظةٍ أو لحظةٍ … تُطفي غليلا في الحشا يتأجّج

قالوا تخافُ يزيد قلبك لاعجًا ... فأجبتهم خَلُّوا اللواعج تلعجُ
وبكيتُ واستبكيتُ حتى ظلّ مِنْ ... عَبَراتنا بحرٌ ببحر يمزجُ
وبقيت أفتحُ بشدهم بابَ المُنى ... ما بيننا طَوْرًا وطورا يُرْتج
وأقولُ يا نفسُ اصبرى فعسى النَّوى ... بِصَباح قربٍ ليلها يتبلَّج
فترقَّب السَّرَّاء من دهرٍ شَجَا ... والدهرُ من ضِدٍّ لضدٍّ يخرُجُ
وترجَّ فُرْجَة كلِّ همٍّ طارقٍ ... فلكلِّ همٍّ فى الزمان تفرُّج

***

جيمية ابن قلاقس

[وقد ذكَّرت بهذه الجيمية قصيدة ابن قلاقِسَ الإسكندرىّ ، رحمه الله تعالى :

عرضَتْ لمفترِض الصباح الأبلَجِ ... حوْراء فى طرَف الظلام الأدْعجِ
فتمزقَتْ شيَةَ الدُّجا عن غُرَّتَيْ ... شمسين فى أفقٍ وكِلّةِ هوْدج
ووراءَ أستار الحمول لواحظٌ ... غازلْنَ معتدل الوشيج الأعوج
من كلِّ مبتسم السِّنان إذا جرى ... دمعُ النَّجيع من الكَمِىّ الأهوج
ولقد صحِبْتُ الليلَ قلَّصَ بُرْدُه ... لعُباب بحر صَبَاحه المتموِّج
وكأنَّ منتثر النجوم لآلئٌ ... نُظِمت على صرحٍ من الفَيْرُوزج
وسهرتُ أرقبُ من سُهيل خافقاً ... مُتفرِّدا وكأنه قلب الشَّجى
واستعبرَتْ مُقَلُ السحاب فأضحكت ... منها ثغورَ مُفَوَّف ومدبَّج

***

ولابن قلاقس أيضا

وابن قلاقسَ هذا له فى النظم الباع المديد ؛ ومن محاسنه قوله رحمه الله تعالى :

سَدَّدوها من القلوب رِماحا ... وانتضوْها من الجفون صِفاحا

يالَمَا حالةٌ من السُّلم حالت فاستحالتْ ولا كِفاحَ كِفاحا
صحَّ إذ أذرت العيونُ دماءً أنَّهم أثخنوا القلوب جِراحا
يا فؤادي وقد أُخِذْتَ أسيرًا أتُطِرْتَ أم وَضَعْتَ سلاحا
قلْ لأعدائك التي اقتسموها ضربوا فيك بالعيون قِداحا
عجبًا للجفون وهْي مِراضٌ كيفَ تستأسِرُ القلوبَ الصِّحاحا
آهِ من مَوْقفٍ يَوَدُّ به المُغْرَمُ لو مات قبله فاستراحا
حيثُ يَخْشى أن يَنْظِمَ الدمْعُ عِقْدًا فيه أو يَفْقِدَ العِناقُ وِشاحا

* * *

رجع إلى قول حازم رحمه الله تعالى :

ولحازم في الوصف

فمن قوله من قصيدة :

فَتَقَ النسيمُ لَطائمَ الظَّلْماء عن مِسْكةٍ قَطَرتْ مع الأنداء
وغدا الصباحُ يفُضُّ خاتمَ عنْبرٍ بالشرق عن كافورة بيضاء
والكوكبُ الدُّرِّيُّ يَزْهو سابحًا في مائه كالدُّرة الزهراء
وكأنما ابنُ ذُكاء يُذْكِي مِجْمرًا منه يُفيد الريحَ طيبَ ذَكاء

* * *

وله يتغزل في صدر قصيدة مدحية

وقال سامحه الله من قصيدة في المستنصر :

أمِنْ بارقٍ أورَى بجُنْح الدُّجى سِقْطَا تذكرتَ مَنْ حَلَّ الأبارقَ فالسِّقْطا
وبان ولكنْ لم يبن عنك ذكرُهُ وشطَّ ولكن طيفه عنك ما شطَّا
حبيبٌ لوَ انَّ البدرَ جاراه في مَدًى من الحسن لاستدنَى من البدر واستبطا
سقَى اللهُ عيشًا قد سقانا من الهوَى كئوسا عسول اللَّمَى [(١)] خلطت خلطا

* * *

(١) في ط : « المنى » .

وله مطلع قصيدة :

سُلْطانُ حُسْنٍ عَلَيْهِ لِلصِّـــبا عَلَمُ إذَا رأته جيوشُ الصَّـــبْرِ تنهزمُ

***

وله يصف وردة

وقال رحمه الله يصف وردة بيضاء :

ومُبيضَّةِ الأثوابِ تُدْعَى بوردةٍ تقِلُّ لهـا الأشباهُ عند الْتِماسِها

أنافَتْ على ساقٍ لتشربَ عندما أشارتْ لها كفُّ البُروقِ بكاسِها [٦٤٤]

كجاريةٍ قامت ببيضِ غلائلٍ مُرفَّعــةٍ أذيالَها حول راسِها

***

تضمينه معلقة امرئ القيس

ومن بديع نظمه رحمه الله تعالى تضمينه قصيدة امرئ القيس ، وصَرف معناها إلى مدح المصطفى صلَّى الله عليه وسلم ، وهى من غُرّ القصائد :

أمينيَّك قُلْ إن زرتَ أفضلَ مُرْسَلِ «قِفا نبكِ مِن ذِكرى حبيبٍ ومَنْزِلِ»

وفى طَيْبةٍ فَانْزِلْ ولا تغشَ منزلا «بسِقْطِ اللِّوَى بينَ الدَّخول فحَوْمَلِ»

وزُرْ رَوضةً قد طالما طابَ نشرُها « لِمَا نَسَجتْها مِنْ جَنُوبٍ وشَمْأَلِ »

وأثوابَكَ اخلعْ مُحْرِمًا ومصــدِّقًا « لدى السِّتْرِ إلّا لِبْسَةَ الْمُتَفضِّلِ »

لَدَى كعبةٍ قد فاضَ دمعى لِبُعْدها[(١)] « على النَّحْرِ حتّى بَلَّ دَمْعِى مِحْمَلِى »

فيا حادِيَ الآبالِ سِرْ بِي ولا تقُــلْ «عقرتَ بعيرى يامْرأَ القَيْسِ فانْزِلِ»

فقــدْ حلَفَتْ نفسِى بذاكَ وأقسمتْ « علىَّ وآلتْ حَلْفَةً لم تَحلَّلِ »

فقلتُ لها لا شــكَّ أنِّىَ طائعٌ « وأنَّكِ مَهْمَا تأمرِى القلبَ يفعلِ »

وكم حَمَلَتْ فى أظْهُرِ العزمِ رَحلَها « فيـا عجبًا مِنْ كُورِها الْمُتحَمَّلِ »

وعاتَبَتِ العجزَ الذى عاقَ عزمَها « فقالتْ لكَ الويلاتُ إنكَ مُرْجِلى »

(١) فى م : « لذكرها » .

نبيُّ هُدًى قد قالَ للكفرِ نورُهُ « ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انجلِ »
تلا سُوَرًا ما قولُها بمعارضٍ « إذا هيَ نصّتْهُ ولا بمعطَّلِ »
لقد نزلَتْ في الأرضِ مِلّةُ هَدْيِهِ « نزولَ اليماني ذي العِيابِ المُحمَّلِ »
أتَتْ مَغْرِبًا من مَشْرِقٍ وتعرَّضتْ « تعرُّضَ أثناءِ الوِشاحِ المُفصَّلِ »
ففازتْ بلادُ الشرقِ مِنْ زينةٍ بها « بشِقٍّ وشِقٌّ عندنا لم يُحوَّلِ »
فصلَّى عليهِ اللهُ ما لاحَ بارقٌ « كلمعِ اليدينِ في حَبِيٍّ مُكلَّلِ »
نبيٌّ غزا الأعداءَ بينَ تلائمٍ « وبَيْنَ إكامٍ بُعْدَ ما مُتأمَّلِ »
فكمْ مَلِكٍ وافاه في زيِّ مُنْجِدٍ « بمُنْجَرِدٍ قيدِ الأوابدِ هيكلِ »
وكمْ من يمانٍ واضحٍ جاءهُ اكتسى « بضافٍ فُوَيْقَ الأرضِ ليسَ بأعزلِ »
ومِنْ أبْلَجيٍّ نِيطَ منـهُ نجادُهُ « بجيدِ مُعَمٍّ في العشيرةِ مُخْوَلِ »
أزالُوا ببدرٍ عن مُرُوجِهِمُ العِدا « كما زلَّتِ الصَّفْواءُ بالمتنزَّلِ »
ونادَوْا طَغامَهُمْ لا يَفْتِنكِ فتًى ولا « كبيرُ أناسٍ في بجادٍ مُزمَّلِ »
[٦٤٥] وفضَّ جموعًا قد غدا جامعًا بها « لنا بطنُ حِقفٍ ذي قِفافٍ عَقَنْقَلِ »
وأحمَوْا وَطيسًا في حُنَيْنٍ كأنَّهُ « إذا جاشَ فيه حَمْيُهُ غَلْيُ مِرْجَلِ »
ونادَوْا بناتِ النَّبْعِ بالنصرِ أثْمِري « ولا تُبْعِدِينا مِنْ جَناكِ المُعلَّلِ »
ومَنْ لهُ سدَّدْتِ سهمينِ فاضربي « بسهميكِ في أعشارِ قلبٍ مُقتَّلِ »
فما أغنتِ الأبدانَ درعٌ بها اكتستْ « ترائبُها مصقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ »
وأضحتْ لواليها ومالكِها العِدا « يقولونَ لا تَهلِكْ أسًى وتجمَّلِ »
وقد فرَّ مُنْصاعًا كما فرَّ خاضبٌ « لدى سَمُراتِ الحيِّ ناقفُ حنظلِ »
وكم قالَ يا ليلَ الوغى طُلْتَ فانبلِجْ « بصُبْحٍ وما الإصباحُ مِنْكَ بأمثلِ »
فليتَ جوادي لم يسرْ بي إلى الوغى « وباتَ بعيني قائمًا غيرَ مُرْسَلِ »

وكمْ مُرتقٍ أرطاسَ منهم بمُسرجٍ « متى ما ترقَّ العينُ فيه تَسهّلِ »
وقرطهُ خُرصًا(١) كمصباحِ مُسرجٍ « أهان السَّليطَ في الذُّبالِ المُفتَّلِ »
فيرنو لهادٍ فوق هاديه طَرْفُه « بناظرةٍ من وحشِ وجرةَ مُطفلِ »
ويسمعُ من كافورتين بجانبيْ « أثيثٍ كقنوِ النخلةِ المتعثكلِ »
ترفّعَ أن يُعزى له شدُّ شادنٍ « وإرخاءُ سِرحانٍ وتقريبُ تتفلِ »
ولكنّه يَمضي كما مرَّ مُزبدٌ « يكُبُّ على الأذقانِ دوحَ الكنهبلِ »
ويغشى العِدا كالسهمِ أو كالشهابِ أوْ « كجلمودِ صخرٍ حطّه السيلُ من علِ »
جيادٌ أعادتْ رسمَ رُستمَ دارسًا « وهلْ عند رسمٍ دارسٍ من مُعوَّلِ »
ورِيعتْ بها خيلُ القياصرِ فاختفتْ(٢) « جواحرُها في صرّةٍ لم تزيّلِ »
سبتْ عُرُبًا من نسوةِ العُرْبِ تشتقي « إذا ما اسبكرّتْ بين درعٍ ومِجْوَلِ »
وكمْ من سبايا الفُرسِ والصُّفرِ أشهرتْ « نؤومَ الضُّحى لم تنتطقْ عن تفضُّلِ »
وخزّنَ بُدورًا من ليالي شُهورِها « تضِلُّ المَدارى في مُثنًّى ومُرسَلِ »
وأبقتْ بأرضِ الشامِ هامًا كأنّها « بأرجائها القصوى أنابيشُ عُنصُلِ »
وما جنتْ من حبِّ القلوبِ بغورِها « وقيعانها كأنّه حبُّ فُلفُلِ »
لخضراءَ ما دبّتْ ولا نبتتْ بها « أساريعُ ظبيٍ أو مساويكُ إسحلِ »
شدا طيرُها في مُثمرٍ ذي أرومةٍ « وساقٍ كأنبوبِ السّقيِّ المُذلَّلِ »
فشدّتْ بروضٍ ليس يذبُلُ بعدها « بكلِّ مُغارِ الفتلِ شُدَّ بيذبُلِ » [٦٤٦]
وكمْ هجّرتْ في القيظِ تحكي دوارعًا « عذارى دوارٍ في المُلاءِ المُذيَّلِ »

---

(١) الخرص « بالضم ويكسر » : حلقة الذهب والفضة أو حلقة القرط ، أو الحلقة الصغيرة من الحلي . يريد بها الحلقة التي في عذار اللجام .

(٢) في م : « فاقتدت » .

وكم أدلجت والقطر يهفو هزيزه ... « ويلوي بأثواب العنيف المثقل »
وخضن سيولا فضن بالبيد بعد ما ... « أثرن غبارا بالكديد المركل »
وكم ركزوا رمحا بدعص كأنه ... « من السيل والغثاء فلكة مغزل »
فلم تبن حصنا خوف حصنهم العدا ... « ولا أطما إلا مشيدا بجندل »
فهدت بعضب شد(١) بعد صقاله ... « بأمراس كتان إلى صم جندل »
وجيش بأقصى الأرض ألقى جرانه ... « وأردف أعجازا وناء بكلكل »
يدك الصفا دكا ولو مر بعضه ... « وأيسره على الستار فيذبل »
دعا النصر والتأييد راياته اسحبي ... « على أثرينا ذيل مرط مرحل »
لواء منير النصل طاو كأنه ... « منارة ممسى راهب متبتل »
كأن دما الأعداء في عذباته ... « عصارة حناء بشيب مرجل »
صحاب بروا هام العداة وكم قروا ... « صفيف شواء أو قدير معجل »
وكم أكثروا ما طاب من لحم جفرة ... « وشحم كهداب الدمقس المفتل »
وكم جبن من غبراء لم يسق نبتها ... « دراكا ولم ينضح بماء فيغسل »
حكى طيب ذكراهم ومر كفاحهم ... « مداك عروس أو صلاية حنظل »
لأمداح خير الخلق قلبي قد صبا ... « وليس صباي عن هواها بمنسل »
فدع من لأيام صلحن له صبا ... « ولا سيما يوم بدارة جلجل »
وأصبح عن أم الحويرث ماسلا ... « وجارتها أم الرباب بمأسل »
وكن في مديح المصطفى كمدبج ... « يقلب كفيه بخيط موصل »
وأمل به الأخرى ودنياك دع فقد ... « تمتعت من لهو بها غير معجل »

(١) فى الأصول ونفح الطيب : «شذب» ؛ ولعلها محرفة عما أثبتناه .

وكم لنبيث للفؤاد منابث[1] «نصيح على تعذاله غير مؤتل»
ينادى إلهى إن ذنبى قد عدا «علىّ بأنواع الهموم ليبتلى»
فمكن لى مجيرا من شياطين شهوة «علىّ حراص لو يشرون مقتلى»
وينشد دنياه إذا ما تدللت «أفاطم مهلا بعض هذا التدلل»
فإن تبل حبلى بخير وصلته «وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى» [٦٤٧]
وأحسن بقطع الحبل منك وبته «فسلى ثيابى من ثيابك تنسل»
أيا سامعى مدح الرسول تنشقوا «نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل»
وروضة حمد للنبى محمد «غذاها نمير الماء غير المحلل»
ويا من أبى الإجفاء ما أنت مهتد «وما إن أرى عنك الغواية تنجلى»
فلو مطفلا أنشدتها لفظها ارعوت «فألهيتها عن ذى تمائم محول»
ولو سمعته عصم طود أمالها «فأنزل منها العصم من كل منزل»

* * *

وله فى مدح الرسول

وقال رحمه الله فى مثل هذا الغرض ، مؤديا من مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض المفترض ، مضمنا قصيدة أخرى لامرئ القيس :

أقول لعزمى أو لصالح أعمالى «ألا عم صباحا أيها الطلل البالى»
أما واعظى شيب سما فوق لمتى «سمو حباب الماء حالا على حال»
أنار به ليل الشباب كأنه «مصابيح رهبان تشب لقفال»
نهانى عن غى وقال منبها «ألست ترى السمار والناس أحوالى»
يقولون غيره لتنعم نزهة «وهل يعمن من كان فى العصر الخالى»

---

(١) النبيث : ما يستخرج من البئر من التراب ، شبه به ما فى القلب من خواطر السوء . والنابث فى الأصل : الذى يستخرج التراب ، والمراد هنا من يستخرج أسرار غيره .

أغالطُ دهرى وهو يعلمُ أننى « كبِرْتُ وألّا يُحْسِنُ اللهْوَ أمثالِى »
ومُؤْنِسُ نارِ الشيبِ يَقْبُح لهوُهُ « بآنسةٍ كأنَّها خطُّ تِمثالِ »
أشيْخًا وتأتى فعلَ من كان عمرُه « ثلاثين شهرا فى ثلاثة أحوال »
وتَشْغَلُكَ الدنيا وما إنْ شَغفْتَها « كما شَغَفَتْ المهنوءةَ الرجُلَ الطالى »
ألا إنها الدنيا إذا ما اعتبرتَها « ديارٌ لسلمَى عافياتٌ بذى خالِ »
فأينَ الذينَ استأثروا قبلَنا بها « لناموا فما إنْ مِنْ حديثٍ ولا صالِ »
ذهلْتُ بها غَيًّا فكيف الخلاصُ مِنْ « لعوبٍ تُنسِّينى إذا قمتُ سِرْبالى »
وقد علِمَتْ منى مواعيدُ توبتى « بأنَّ الفتَى يهذِى وليس بفعّالِ »
ومُذْ وَثِقَتْ نفسى بحبِّ محمدٍ « هصرتُ بغُصْنٍ ذى شماريخَ ميّالِ »
وأصبح شيطانُ الغواية خاسئا « عليه القتامُ سيّئَ الظنِّ والبالِ »
ألا ليتَ شعرى هل تقول عزائمى « لخيلِى كُرِّى كرّةً بعد إجفالِ »
فأنزلَ دارًا للرسولِ نزيلُها « قليلُ الهموم ما يَبِيتُ بأوجالِ » [٦٤٨]
فطُوبَى لنفسٍ جاورتْ خيرَ مرسَلٍ « بيثربَ أدْنَى دارِها نظرٌ عالى »
ومِنْ ذكرِه عند القبول تعطّرتْ « صبًا وشمالٌ فى منازلِ قُفّالِ »
جِوارُ رسولِ الله مجدٌ مؤثَّلٌ « وقد يُدْرِكُ المجدَ المؤثّلَ أمثالى »
ومَنْ ذا الذى يَثْنِى عِنانَ السُّرى وقدْ « كفانى ولم أطلبْ قليلٌ من المالِ »
ألم تَرَ أنَّ الظبيةَ استشفعتْ به « تميلُ عليه هُونةً غيرَ مِجْفالِ »
وقال لها عُودى فقالت له نعمْ « ولو قطّعوا رأسى لديكَ وأوصالى »
فعادتْ إليه والهوى قائلٌ لها « وكان عداءُ الوحشِ منّى على بالِ »
ويالَبعيرٍ قال أزمعَ مالكى « ليقتُلَنى والمرءُ ليس بقتّالِ »
وثورٍ ذبيحٍ بالرسالة شاهدٍ « طويلِ القرا والرَّوقِ أخنسَ ذيّالِ »

وحَنَّ إليه الجِذعُ حَنّةَ عاطشٍ « لغيثٍ من الوَسْمِيّ رائدُه خالِ »
وأصلَيْنِ من نخلٍ قد التأما له « معًا احتسبا من اين دسٍّ وتَسْبالِ »
وقبضةِ تُرْبٍ منه ذَلَّتْ لها العُليا « ومَسْنُونةٍ زُرْقٍ كأنيابِ أغوالِ »
وأفضى ابن جَحْشٍ بالقضيب مُقاتلا « وليس بذي رُمْحٍ وليس بنَبّالِ »
وحسبُك من سَوْطِ الطُّفَيْلِ إضاءةً « كمصباحِ زيتٍ في قناديلِ ذُبّالِ »
وَبَذَّتْ به العَجْفاءُ كلَّ مُطَهَّمٍ « له حَجَبَاتٌ مُشرفاتٌ على الفالِ »
ويا خَسْفَ أرضٍ تحتَ باغيه إذ علا « على هيكلٍ نهدِ الجُزارةِ جَوّالِ »
وقد أخمدَتْ نارٌ لفارسَ طالما « أصابتْ غَضًى جزْلًا وكُفّتْ بأجزالِ »
أبانَ سبيلَ الرُّشْدِ إذ سُبُلُ الهُدَى « يَقُلْنَ لأهلِ الحِلْمِ ضُلًّا بتَضْلالِ »
لأحمدَ خيرِ المرسلينَ انتقيتُها « ورُضْتُ فذَلَّتْ صعبةً أيَّ إذلالِ »
وإنّ رجائي أن أُلاقيه غدًا « ولستُ بمَقْليِّ الخِلالِ ولا قالِ »
فأُدْرِكَ آمالي وما كلُّ آملٍ « بمُدْرِكِ أطرافِ الخطوبِ ولا آلِ »

* * *

تحقيق نسبة القصيدة السابقة

قلت : هكذا وجدت بخط بعض أعلام مَرّاكُش نِسبةَ هذه القصيدة لأبي الحسن حازمٍ المذكور ، واعتمدت على هذه النّسبة ، ثم بان لي خطؤها ، وإنما هذه القصيدة من نظم الفقيه العلامة أبي بكر بن جُزَيٍّ الكلْبيّ الغَرْناطي ، حَسْبما نصّ على ذلك غير واحد .

ولْنُورِدْ كلام بعض الأئمة في حقه ، لأنّ فيه المطلوبَ وزيادة ، ونصّه(١) : [٦٤٩]

ترجمة أبي القاسم ابن جزي

محمدُ بن أحمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يُوسُف بن جُزَيٍّ الكلبيّ ،

---

(١) هذه الترجمة لأبي القاسم بن جزي ، والد أبي بكر صاحب القصيدة، وسنأتي ترجمته بعد والده .

يُكْنى أبا القاسم، من أهل غَرناطة، وذوى الأصالة والنباهة فيها، وأصل سلفه من وَلْبَه، من حِصن البراجلة، نزل بها أولهم عند الفتح، مُحْبَةَ قريبهم أبى الخطَّار حُسام بن ضِرار الكلْبىّ، وعند خلْع دعوة المرابطين كان لجدهم [يحيى] بجَيان، رياسة وانفراد بالتدبير.

وكان رحمه الله على طريقة مُثْلَى، من العُكوف على العلم، والاقتيات من حُرّ النَّشَب، والاشتغال بالنظر والتقييد والتدوين، فقيها حافظا، قائما على التدريس، مشاركا فى فنون من العربية والفقه والأصول والقراءات والحديث والأدب، حافظا للتفسير، مستوعبا للأقوال، جمّاعةً للكتب، مُلوكىّ الخزانة، حسَن المجلس، مُمْتِع المحاضرة، قريب الغَوْر، صحيح الباطن؛ تقدم خطيبا بالمسجد الأعظم من بلده، على حَداثة سِنّه، فاتُّفِقَ على فضله، وجَرَى على سَنَنِ أصالته.

ومن شيوخه الأستاذ أبو جعفر بن الزّبير وابن الكمّاد وابن رُشَيْد والحضْرمىّ وابن أبى الأحوص وابن بَرْطال، وأبو عامر بن ربيع الأشعرىّ والولى أبو عبد الله الطَّنْجالىّ، وابن الشاطّ. بعض شيوخه

تواليفه: كتاب «وسيلة المسلم فى تهذيب صحيح مسلم»؛ و«الأنوار السَّنِيَّة فى الكلمات السُّنِّيَّة»؛ وكتاب «الدعوات والأذكار»؛ وكتاب «القوانين الفقهية»؛ وكتاب «تقريب الوُصُول إلى علم الأصول»، وكتاب «النور المبين فى قواعد عقائد الدين»؛ إلى غير ذلك مما قيّده فى التفسير والقراءات. تواليفه

[٦٥٠] شعره: قال فى الأبيات الغينيَّة، ذاهبا مذهب الجماعة، كأبى العلاء المعرى، والرئيس ابن المظفر، وأبى الطاهر السِّلَفِىّ، وأبى الحجاج بن الشيخ، وأبى الربيع من شعره يبين غرضه فى الحياة

ابن سالم ، وأبى على بن [أبى] الأحوص ، وغيرهم :

لكلّ بنى الدُّنيا مُرادٌ ومَقْصِدٌ وإنّ مُرادِى صحّةٌ وفَراغُ
لأبلغ فى علم الشريعة مَبْلَغًا يكون به لِى للجِنان بَلاغُ
ففى مثل هذا فلينافسْ ذوو النُّهَى وحَسْبِىَ من دار الغُرور بَلاغُ
فما الفوز إلا فى نعيمٍ مُؤَبَّدٍ به العيشُ رَغْدٌ والشرابُ يساغُ

* * *

وله يفخر بعفته

وقال فى مذهب الفخر :

وكم من صفحةٍ كالشمس تبدو فيُسلِى حُسنُها قلبَ الحزينِ
غَضَضْتُ الطرف عن نَظَرى إليها محافظةً على عِرضى ودينى

[انتهى] .

* * *

وله فى جلال مقام النبوة

ومن مشهور نظمه رحمه الله :

أرومُ امتداحَ المصطفى فيردُّنِى قُصُورِىَ عن إدراكِ تلك المناقِبِ
ومَنْ لى بحصْرِ البحرِ والبحرُ زاخرٌ ومَنْ لى بإحصاء الحَصَى والكواكب
ولو أنّ أعضائى غدتْ وهْى ألسنٌ لما بَلَغَتْ فى القول بعضَ مآربى
ولو أن كلّ العالمين تألَّفوا على مدحه لم يبلغوا بعض واجب
فأقْصرت عنه هيبةً وتأدُّبًا وعجزا وإعظامًا لأعظم جانب
ورُبّ سكوت كان فيه بلاغةٌ ورب كلام فيه عَيْب لعائب (١)

* * *

ورأيت بخط الإمام ابن داود أن قوله وكم من صفحة ... البيتين ، ليس

(١) كذا فى ط ، م . وفى س والديباج لابن فرحون ونفح الطيب : «عتب لعاتب» .

من كلامه ، بل من كلام ابنه أبى بكر ، وهو خطأ ، لأن ابن الخطيب ذكر فى الكتيبة أن البيتين للشيخ أبى القاسم لا لابنه أبى بكر ، والله الموفق .

ثم قال هذا المعرّف بابن جُزَىّ :

[١٥١] مولده : يوم الخميس التاسع لربيع الثانى من عام ثلاثة وتسعين وست مئة . مـولده

وفاته : فُقِدَ وهو يُحَرِّض الناس ويَشْحَذُ بصائرهم ويُثَبِّتهم ، يوم الكائنة بطَرِيف ، ضَحْوة يوم الاثنين ، السابع لجمادى الأولى عام واحد وأربعين وسبع مئة . تقبّل الله شهادته . [انتهى] . وفاته

ولنختم ترجمته بقوله [رحمه الله تعالى ، وعفا عنا وعنه بمنه] : وله فى الرجوع إلى الله

يارَبِّ إنَّ ذنوبى اليومَ قد عَظُمَتْ ... فما أُطيقُ لهـا حَصْرًا ولا عَدَدَا

وليس لى بعذابِ النّار[1] من قِبَلٍ ... ولا أُطيقُ لها صَبْرًا ولا جَلَدا

فانظرْ إلهى إلى ضعفى ومَسْكَنتى ... ولا تُذِيقَنّى حَرَّ الجحيمِ غـدا

* * *

ثم قال فى التعريف بولده أبى بكر المقصود ذكره هنا ، وهو الذى ألف له[2] أبوه الأنوار السنية ، ما نصّه : ترجمة أبى بكر ابن جزى

هو أحمد بن محمد بن أحمد بن جُزَىّ الكَلْبىّ ، يُكْنى أبا بكر ، من أهل الفضل والنزاهة والهمة ، وحسن السَّمت ، واستقامة الطريقة ، غَرْبٌ فى الوقار ، ومال إلى الانقباض ، وله مشاركة حسنة فى فنون ، من فقه وعربية وخط ورواية وأدب ، وشعر تسمو ببعضه الإجادة إلى غاية بعيدة ، وقرأ على والده ولازمه ، واستظهر ببعض تآليفه ، وتفقّه وتأدب به ، وقرأ على بعض معاصرى أبيه ، ثم ارتسم فى

(١) كذا فى ص ، م والديباج لابن فرحون . وفى ط : « الله » .
(٢) كذا فى الأصول . وفى نفح الطيب « أو » بدل « له » .

الكتابة السلطانية لأول دولة السلطان أبى الحجّاج بن نَصْر ، وولى القضاء بِبَرْجة و بأَنْدَرَش ، ثم بوادى آش ، مشكور السيرة ، معروف النزاهة .

شعر له فى حب الناس للمال

ومن شعره :

أرى الناسَ يُولون الغنىَّ كرامةً وإن لم يكن أهلاً لرفعة مِقْــدارِ
ويَلْوُونَ عن وجه الفقير وجوهَهم وإن كان أهلا أن يُلاقَى بإكبار
بنو الدهر جاءتهم أحاديثُ جمّةٌ فما صحّحوا إلا حديثَ ابنِ دينـارِ

* * *

تصديره أعجاز قصيدة امرئ القيس

ومن بديع ما صدر عنه تصدير أعجاز قصيدة امرئ القيس بقوله :

أقول لعزمى أو لصــالح أعمالى «ألا عِمْ صباحًا أيها الطّلَلُ البالى»

ثم سرد منها أحد عشر بيتا إلى قوله :

فأين الذين استأثروا قبلنا بهـا «لَناموا فما إن من حديثٍ ولا صالِ» [٦٥٢]

ثم قال ما نصه : وهى ثمانية وأربعون بيتا ؛ ولا خفاء ببراعة هـذا النظم ، وإحكام هذا النسج ، وشدة هذه المعارضة .

* * *

بعض تواليفه وأعماله

وله تقييد فى الفقه على كتاب والده المسمى بالقوانين الفقهية ، ورجز فى الفرائض ، وإحسانه كثير .

وتقدم قاضيا للجماعة بحضرة غَرْناطة ثامن شوال عام ستين وسَبْع مئة ، ثم صُرِف عنها . ثم لما تُوُفّى الأستاذ الخطيب العالم الشهير ، أبو سعيد فَرَجُ بن لُبّ رحمه الله تعالى ، وكان خطيب الجامع الأعظم بغَرْناطة ، وُلّىَ عِوَضًا منـه أستاذا وخطيبا ، عام اثنين وثمانين وسبع مئة ، فبقى فى الخطابة ثلاثة أعوام ، ثم تُوُفّى . وأظن أن وفاته إنما كانت فى أواخر عام خمسة وثمانين وسبع مئة ، رحمه الله تعالى . انتهى .

ولا شك أن ما ذكره هذا الإمام فى حق والده ، إنما هو من كلام ابن الخطيب فى الإحاطة ، والله أعلم .

* * *

ترجمة أبى عبدالله بن جزى

ولأبى بكر بن جُزَىّ هذا أخ كاتب مجيد ، من عجائب الزمان ، وهو الفقيه الكاتب محمد بن محمّد بن أحمد بن عبد الله بن يحيى بن الأمير أبى بكر عبد الرحمن ، الثائر بجيّان ، ابن يوسف بن سعيد الغرناطىّ ، المتوفَّى بفاس فى عام ثمانية وخمسين وسبع مئة رحمه الله ، وقيل بل تُوُفِّىَ آخر شوال من السنة قبلها مَبطونًا ، رحمه الله .

قلتُ : وهذا هو الصواب فى وفاته ، فإنى رأيت بخط من يُوثَق به من الأعلام الذين عرفوا حاله[1] ، أنه تُوُفِّىَ بداره من البيضاء ، قُرب المغرب من يوم الثلاثاء التاسع والعشرين لشوال ، من عام سبعة وخمسين وسبع مئة ، وكان دفنه يوم الأربعاء بعد صلاة العصر ، وراء الحائط الشرقى الذى بالجامع الأعظم ، من المدينة البيضاء ؛ وكان مولده فى شوال من عام واحد وعشرين وسبع مئة . انتهى . [٦٥٣]

يكنى أبا عبد الله . قال ابن الأحمر فى نثير الجمان : أدركته ورأيته ، وهو من أهل بلدنا غَرْناطة ، وكان أبوه أبو القاسم محمد أحد المُفتين بها ، عالم الأندلُس ، الطائرة فتياهُ منها إلى طرابُلُس ، وقُتِل شهيدا فى المُعتَرَك ، فى الوقيعة التى كانت للنَّصارَى ، دَمَّرهم الله ، بطَريف على المسلمين ، فى سنة إحدى وأربعين وسبع مئة ، بعد أن أبْلَى بَلاء حسنا .

وأبو عبد الله محمد هذا كتب بالأندلس فى حضرة ابن عم أبينا أمير المسلمين أبى الحجّاج يوسف ، وله فيه أمداح عجيبة ، ولم يزل كاتبا فى الحضرة الأحمرية

(١) فى م : « وفاته » .

النَّصْرية ، إلى أن امتحنه أمير المسلمين أبو الحجاج ابن عمّ أبينا .

قلتُ : كان هذا الامتحان الذى ذكره ابن الأحمر ، هو أنه ضربه بالسياط من غير ذنب اقترفه ، بل ظلمه ظلما بيّنا . هكذا ألفيته فى بعض التقييدات ، والله أعلم .

ثم قال ابن الأحمر : فقوّض الرحال عن الأندلس ، واستقرّ بالعدوة ، فكتب بالحضرة المرينية ، لأمير المؤمنين المتوكل على الله أبى عنان ، إلى أن تُوُفّىَ بها رحمه الله .

حاله رحمه الله :

طالع فى سماء العلوم بدرا مُشرقا ، وسارت براعته غربا ومشرقا ، وسما بشعره فوق الفرقدين ، كما أربَى بنثره على الشّعرَى والبُطَيْن ، له باع مديد فى التاريخ ، واللغة ، والحساب ، والفقه ، والنحو ، والبيان ، والآداب ، بصيرا بالأصول والفروع والحديث ، عارفا بالماضى من الشعر والحديث ؛ إنْ نظم أنساك أبا ذُؤَيب برقّته ، ومُصَيْبا بمَنصبه ونخوته ؛ وإن كتب أربى على ابن مُقْلةَ بخطّه ، وإن أنشأ رسالة أنساك العمادَ بحسن مَساقها وضبطه ؛ وهو رب هذا الشأن ، [٢٥٤]
وفارس هذا الميدان ؛ ومع تفنّنه فى العلوم فهو فى الشعر قد نبَغ ، وما بلغ أحدٌ من شعراء عصره منه ما بلغ ؛ بل سلّموا التقدُّم فيه إليه ، وألقَوْا زمام الاعتراف بذلك فى يديه ؛ ودخلوا تحت راية الأدب التى حمل ، إذ ظهر ساطع براعته ظهور الشمس بالحَمَل .

قصيدة له فى مدح أبى الحجاج يوسف

أنشدنى لنفسه يمدح أميرَ المسلمين أبا الحجّاج يوسف بن أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل ، عمّ أبينا ، ابن جدنا الرئيس الأمير أبى سعيد فرج ، ابن جدنا

الأمير أبى الوليد إسماعيل ، ابن جدنا الأمير أبى الحجاج يوسف الشهير بالأحمر ، ابن جدنا أمير المؤمنين المنصور بالله أبى بكر ، محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر الخزرجيّ ، هذه القصيدة البارعة ، وحذف منها الراء المهملة :

قسمًا بوضّاح السّنى وهّاجِ ... مِن تحت مسبولِ الذوائبِ داجِ
وبأبلجٍ بالمسكِ خطّتْ نونُه ... مِن فوقِ وسنانِ اللواحظ ساجِ
وبحسنِ خدٍّ دُبّجتْ صفحاتُه ... فغدتْ تحاكى مُذْهَبَ الدّيباجِ
وبمبسمٍ كالعقد نُظّم سِلْكُهُ ... ولمًى حكى الصّهباءَ دُون مِزاجِ
وبمنطقٍ تصبو القلوبُ لحسنِهِ ... أنسى المسامعَ نغمةَ الأهزاجِ
وبعاسلِ الأعطافِ تثنيه الصّبا ... فيميسُ كالكمىِّ يومَ هياجِ
ومُنعَّمٍ مثلِ الكثيبِ يُقلُّه ... مُتَنعِّمٌ يشكو من الإدماجِ
وبموعدٍ للوصلِ أُنجزَ فجأةً ... من بعدِ طولِ تمنّعٍ ولَجاجِ
وبأكؤسٍ أطلعنَ فى جنحِ الدّجى ... شمسَ السُّلافةِ فى سماءِ زُجاجِ
وحدائقٍ سحبَ السّحابُ ذيولَه ... فيها وباتَ لها النسيمُ يناجي
وجداولٍ سلّتْ سيوفًا عندما ... فُجئتْ بجيشٍ للصّبا عجّاجِ
وبأقحوانٍ قد تضاحكَ إذْ بكتْ ... عينُ الغمامِ بمدمعٍ ثجّاجِ
وقدودِ أغصانٍ يملْنَ كأنّها ... تُخْفِى حديثًا بينها وتُناجي
وحمائمٍ يهتفْنَ شجوًا بالضُّحى ... فهديلُهُنّ لذى الصّبابةِ شاجي
إن المعالىَ والعوالىَ والنّدى ... والبأسَ طوعُ يدَىْ أبى الحجّاجِ
[٦٥٥] ملكٌ تتوّجَ بالمهابةِ عندما ... لم يستجزْ فى الدين لُبسَ التاجِ
وأفاضَ حكمَ العدلِ فى أيامِهِ ... فالحقُّ أبلجُ واضحُ المنهاجِ
هو مُنقذُ العانى ومُغنى المُعتفى ... ومُذِلُّ العاتى وغوثُ اللّاجي

ماضي العزيمة والسيوف كليلة طلق المحيا والخطوب دواجي
علم الهدى والناس في عمياء قد ضلوا الرشد الحادث المهتاج
غيث الندى والسحب تبخل بالحيا والمحل يبدي فاقة المحتاج
ليث الوغى والخيل تزجى بالقنا والبيض تنهل في دم الأوداج
يتقشع الإظلام إذ يبدو له وجه كمثل الكوكب الوهاج
من آل قيلة من ذؤابة سعدها أعلى بني قحطان دون خلاج
حيث العلا ممدودة الأطناب لم تخلق معالمها يد الإنهاج
والأعوجيات السوابق تمتطى فتظلل الآفاق سحب عجاج
والبيض والأسل الذوابل تقتفى مهج الكماة بأسلم الإزعاج
مجد ليوسف جمعت أشتاته أعيا سواه بعد طول علاج
مولاي هاك عقيلة تزهو على أخواتها كالغادة المغناج
إنشاء عبد خالص لك حبه ومن العبيد مداهن ومداجي
أوى إلى أكناف نعماك التي ليست إليه صلاتها بخداج
سباق ميدان البلاغة والوغى لشباب كل منهما ولاج
جانبت أخت الزاي فيها عامدا فأتت من الإحسان في أفواج
فافتح لها باب القبول وأول من أهداكها ما يبتغي من حاج

* * *

قصيدة له في مدح أبي عنان فارس

قال ابن الأحمر: وأنشدني أيضا لنفسه، يمدح أمير المؤمنين المتوكل على الله، أبا عنان فارسا ملك المغرب، رحمه الله:

إن قلبي لعهدة الصبر ناكث عن غزال في عقدة السحر نافث
أضرم النار في فؤادي وولى قائلا لا تخف فإني عابث

[ورماني من مقلتيه بسهم ثم قال اصطبر لثان وثالث]
كم عذول أتى يناظر فيه كان تمداله على الحب باعث
وبعين آليتها بالتسلي فقضى حسنه بأني حانث
جبر الله صدع قلب عميد صدعت شمله صروف الحوادث [٦٥٦]
فهو يهفو إلى البروق ويروى عن نسيم الصبا ضعاف الأحاديث
سلبته الأشجان إلا بقايا من أمان حبالهن رثائث
وبكاه على عهود مواض ملأت صدره هموما حدائث
است وحدى أشكو بلية وجدى إن داء الغرام ليس بحادث
يا مضيع العهود والله يعفو عنك إنى ارتضيت خطة ناكث
غرنى منك والجمال غرور وظبا اللحظ فى القلوب عوابث
مقل يقتسمن أعشار قلبى بالرضا منى اقتسام الموارث
كيف غيرت بانتزاحك حالى وتغيرت لى ولست بحارث
فرط حبى وفرط حبك إلا أن عينيك بالفتور نوافث
وندى فارس وحسنك ردا قول من قال سد باب البواعث
مالك البأس والندى فهو بالسيـف وبالسيب عابث أو غائث
محرز المجد والثناء فهذا سائر فى الورى وذلك لابث
أوطأ الشهب رجله وترقى صاعدا فى سموه غير ماكث
فدرار تسرى وما لحقته ونجوم خلف القصور لوابث
وله المقربات لا بل هى العقـبان من فوقها الليوث الدلاهث
مطلعات من كل نقل هلالا فلهذا تجلو دجى كل حادث
إن توافقن فالجبال الرواسى أو تسابقن فالغيوث الحثائث

والمواضي كأنها قد أعيرت ... حِدّة الذهن منه عند المباحث
هي نارٌ مُحرقاتٌ الأعادي ... وهي ماءٌ مُطهّراتٌ الخبائث
فيرِدْن الوغى ذكورا عِطاشا ... ثم يصدُرْن ناهلاتٍ طوامث
من معاليه قد رأينا عيانا ... كلُّ فضلٍ ينصّه من يحادث
خُلُق كالنسيم مرّ سُحَيْرا ... بالأزاهير في البطاح الدمائث
في سبيل الإله يُقصي ويُدني ... ويُوالي في ذاته ويُناكث
شرّف المُلكَ منه سامٍ وحامٍ ... ففدته سامٌ وحامٌ ويافث
ها كها من بناتِ فكري بكرا ... ليس يسمو لها من الناس طامث
ذاتَ لفظٍ لا يعتريه اختلالٌ ... ومعانٍ لا تنتحيها المباحث [٦٥٧]
زُعماء القريض أبقَوْا بقايا ... كنتُ دونَ الورى لهنّ الوارث
من أراد انتقادَها فهي هذي ... عُرضةُ البحث فليكن جدَّ باحث

* * *

حسن تخلصه في القصيدة

قلت : رأيت بخط ابن الصبّاغ العقيلي على حاشية قوله :

« وندى فارس وحسنك ردّا ... » البيت ، ما نصه : ما أبدع تخلصه المدح وأطبعه ، فإنه أشار إلى قول الشاعر رادّا عليه بالتبكيت ، ومعنّفا له بالتّمنيت :

قالوا تركتَ الشعر قلت ضرورةً ... بابُ السماحة والملاحة مُغلَقُ
ماتَ الكرامُ فلا كريم يُرتجى ... منه النوالُ ولا مليحٌ يُعشَقُ

انتهى .

* * *

وله في وصف حال

وعَلِقَ بحفظي أن السلطان أبا عِنانٍ أطَلّ من بُرْج ، يشاهد الحرب بين الثور والأسد ، على ما جرت به عادة الملوك ، فقال ابن جُزَيٍّ هذا في وصف

الحال ، ما يكاد تُعَدُّ معارضته من قبيل المحال ، وهو :

لله يومٌ بدار المُلْك مَرَّ بِهِ من العجائب ما لم يَجْرِ فى خَلَدِ
لاحَ الخليفةُ فى بُرْجِ العُلا قمرًا يُشاهِد الحرب بين الثور والأسَد

***

ولهُ فى حفظ العهد

[ومن بارع نظمه رحمه الله تعالى :

أبا حسنٍ إنْ شتَّت الدهر شملنا فليس لوُدّى بالفــؤاد شتاتُ
وإن حُلْتَ عن عهد الإخاء فلم أزَلْ لقلبى على حفظ العهود ثبات
وهبنى سرَتْ منى إليكَ إساءةٌ ألم تتقــدمْ قبلهـا حسنات !]

***

ألف رحلة ابن بطوطة

وهو الذى ألَّفَ رحلة ابن بطُّوطَة ، حسبما هو معلوم .

***

ومن شعر له فى مرضه

قال ابن الأحمر : ومن بارع نظمه رحمه الله تعالى قوله وهو بحال مرض :

إنْ يأخذِ السُّقْم من جسْمِىَ ما أخذَهُ وأصبحَ القومُ من أمْرِى على خطَرِ
فإنَّ قلبى بحمـــد الله مُرْتبطٌ بالصَّبر والشُّكْر والتسليم للقَدَر
فالمرء فى قبضَةِ الأقدار مَصْرِفُهُ للبُرْء والسُّقْم أوْ للنَّفْع والضرَر

***

ومن شعره يخاطب أبا إسحاق بن الحاج

وحكى لى غير واحد ، أن الفقيه الكاتبَ القاضىَ الحاجَّ الرحَّالَ أبا إسحاق ابن الحاج النُّمَيْرِىَّ ، بقى فى خَلْوته جميع شهر رمضان المعظَّم ، من عام سبعة
[٦٥٨] وخمسين وسبع مئة ، فلما خرج يومَ عيد الفطر أنشده سيدى أبو عبد الله بن جُزَىّ المذكور لنفسه يخاطبه :

ما سِرارُ البُدُورِ إلا ثلاثٌ فلمــاذا أرى سِرارَكَ شهرًا
أتَعجَّلتهُ سُرُورًا لعـــامٍ ثُمَّ تَبقَى فى سائرِ العام بَدْرا

وله مصحفا

وحُكي أنه كتب رحمه الله للرئيس الكاتب ، أبي القاسم بن رضوان ، يطلب منه شراب سكنجبين ، وقصد التصحيف بقوله :

أحسن زان بيتك نجيب تسرّ به بزّه مرضى .

تصحيفه :

أحبّ شراب سكنجبين شربه برء مرضي .

[قال] فجاوبه ابن رضوان بقوله :

« إنّ برءك نفيس » . تصحيفه مقلوبا : « يشفيك ربّنا » .

* * *

ولابن الجياب مصحفا

وتذكرت بهذا ما وقع للرئيس ابن الجيّاب ، فإنه أهدى له الفقيه ابن قطبة رمّانا ، ثم دخل عليه عائدا ، فلما رآه قال له : يا فقيه ، نمّ بالهدية زمانك ، أراد : نمّت الهديةُ رمّانُك . وكان هذا قبل موته من مرضه بيسير ؛ وهو مما يدل على ثقوب ذهنه ، حتى قرب الموت ، سامحه الله ، وغفر له .

* * *

ولابن جزى في المرية وأهلها

ومن نظم أبي عبد الله بن جُزَيٍّ المذكور قوله :

رَعَى الله عهدًا بالمَرِيَّة لا أرى ... له أبدًا ما عشتُ في الناسِ بالناسِي
وكيفَ ترى باللهِ صُحْبة معشرٍ ... مُجاهدُ بعضٌ منهمُ وابنُ عبّاس

* * *

وله في زاوية أبي عنان

ومن ذلك قوله رحمه الله في الزاوية التي أنشأها أبو عنان ، وهو مكتوب عليها إلى قرب هذا التاريخ :

هـذا محلُّ الفضل والإيثارِ ... والرِّفق بالسُّكانِ والزُّوّارِ
دارٌ على الإحسان شيدتْ والتُّقى ... فجزاؤها الحُسْنَى وعُقْبَى الدّارِ

هى مَلْجأٌ للواردين ومَوْرِدٌ لابن السبيلِ وكلّ رَكْبٍ سارِى
آثارُ مولانا الخليفـــة فارسٍ أ كْرِم بها فى المجد من آثار
لا زال منصورَ اللواء مُظَفَّراً ماضى العزائم سامىَ المقدار
بُنِيَتْ على يدِ عبدِهِم وخديمِ با بِهِمُ العلىّ محمّدِ بن جِدار [٦٠٩]
فى عام أربعةٍ وخمســين انقضَتْ مِنْ بَعْدِ سبعِ مِئينَ فى الأعصار

* * *

ومن بديع نظمه

ومن بديع نظمه رحمه الله [قوله] :

وما أَنسَى الأحبّةَ حين[١] بانوا تخوضُ مَطِيُّهم بحْرَ الدُّموعِ
وقالوا اليومَ منزلُنـــا الحنايا فقلتُ نعم ولـكنْ من ضُلوعى

* * *

وقوله رحمه الله :

ورُبَّ يهودىٍّ أتى مُتَطَبِّبًا لِيأخذَ ثاراتِ اليهودِ منَ الناسِ
إذا جَسَّ نَبْضَ المرء أَوْدَى بنفسِه سريعًا ألم تسمع بفَتْكَةِ[٢] جَسَّاس

* * *

وقوله رحمه الله :

مِنْ أىّ أشجانى التى جَنَتِ الهوى أشكو العذاب وهُنَّ فى تنويعِ ؟
مِن وصلىَ الموقوف أو من هجرى الـــمَوْصول أو مِن نومىَ المقطوع ؟

* * *

(١) فى س ، م : « يوم » .
(٢) فى م : « بقتلة » .

وقوله رحمه الله :

فَخَدِّى وجسمى والفؤاد وأَدْمُعِى شهودٌ بهم دعوَى الغرام تُصَحَّحُ
ومن عَجَبٍ أَنْ رَجَّحَ الناسُ نقلَهم وكلُّهُمُ ذو جَرْحَةٍ فيه تقدَحُ
فجسمى ضعيف والفؤاد مُغَفَّلٌ وَدَمْعِى مطروحٌ وَخَدِّى مُجَرَّحُ

* * *

وقوله رحمه الله :

يا مُحَيَّا كتبَ الحسنُ به أحرفًا أَبْدَعَ فيها وَرَنَعْ
ميم ثغرٍ ثم نون حاجبٍ ثمَّ عَيْنٌ هى تتميمُ البِدَعْ
أنا لا أَطْمَعُ فى وَصْلِكَ لى وعلى وَجْهِكَ مكتوبٌ مَنَعْ

* * *

قال ابن الأحمر :

تهنئته أبا عنان بأبلال ولده وتوريته بأسماء الكتب

ومن إنشائه البارع مُوَرِّيًا بالكتب (١) ، ورفعها لأمير المؤمنين المتوكل على الله أبى عِنان فارس ، رحمه الله ، يُهَنِّئُهُ بإبلال وَلَدِه وولىِّ عهده ، الأمير أبى زيان محمد من مرض :

ماذا عسى أدبُ الكُتَّاب يوضِحُ مِنْ خِصَالِ مَجْدِك وهْوَ الزَّاهرُ الزاهى
وما الفصيحُ بكليَّاتِ مُوعِبِها كافٍ فيأتى بإنباء وإنباه

أبقى الله مولانا الخليفة وسعادته القِدْحُ المُعَلَّى ، ولزاهر كماله التَّاجُ المحلَّى ؛ تُجتلَى من حلاهُ نزهةُ الناظر ، ويسيرُ بعلاهُ المثل السائر ؛ ويتَّسِق من ثناهُ [٦٦٠]
العِقدُ المنظَّم ، ويتَّضح بهُداه القصد الأَمَم ؛ ولازالت مقدِّماتُ النَّصر له مبسوطة ،

(١) يلاحظ أن هذه الرسالة مشتملة على التورية بأسماء كثير من الكتب المشهورة . وقد اكتفينا بهذه الإشارة عن التنبيه على كل منها .

ومعونة السَّعْد بإشارته مَنُوطه ؛ وهدايته متكفّلة بإحياء علوم الدين ، وإيضاح منهاج العابدين ؛ وإرشادُه يتولّى تَنْبيهَ الغافلين ، ويأتى من شفاء الصدور بالنور المُبين ؛ وميقاتُ الخِدْمة ببابه مَطمَحُ الأنفس ، وملخّص الجود من كفّه بُغْيةُ الملتمِس ؛ قد حكم أدبُ الدِّين والدُّنيا بأنك سراجُ الملوك ، لما أتته عوارفُك بالمَشْرَع السَّلسَل ومعارفُك بنظم السُّلوك ؛ ووضحتْ معالمُ مجدِك وضوحَ أنوارِ الفجر ، وزهَتْ بعدلِكَ المسالكُ والممالكُ زَهْوَ خريدة القصْر ؛ فلك فى جمهرةِ الشَّرَفِ النَّسب الوَسيط ، ومن مُجمَل المآثر الخُلاصةُ والبسيط ؛ وسبلُ الخَيْرَاتِ لها برعايتك تيْسير ، ومحاسنُ الشَّريعةِ لها بتحصيلك تحْبير ؛ وأنتَ حُجّة العلماء ، الذى تقصُر عن تقفّى مآثره فِطَنُ الأذكياء ، إن انتهَم التفسير ففى يديكَ مِلاكُ التأويل ، أو اعتَاصَ تفريعُ الفقهِ فعندكَ فضْلُ البيان له والتحصيل ؛ وإن تشعَّب التاريخُ فلديك استيعابُه ، أو تطاول الأدبُ ففى إيجاز بيانك اقتضابه ؛ وإن ذُكِرَ الكلامُ ففى انتقائك من برهانه المحصول ، أو المنطقُ ففى مُوجز أماليك لُبَابُه المنخول ؛ وليس أساس البلاغةِ إلا ما تأتى به من فصل المقال ؛ ولا جامع الخير إلا ما حُزْتَه فى تهذيب الكمال ؛ ولذلك صارت خدمتُك غاية المطلوب ، وحبُّك قوتَ القلوب ؛ ولا غَرْوَ أنْ كنت من العلياء دُرّتها المكنونة ، فأسلافُك الكِرام هم جواهرها الثمينة ؛ بحماستهم أُصيبَت مقاتِلُ الفُرسان ، وبجود جُودهم نسقَى رِىّ الظمآن ؛ وبتسهيل عدلهم [٦٦١]
وضحَت شُعَبُ الإيمان ؛ وأنت المُنْتقَى من سِمْط جُمانهم ، والواسطة فى قلائد عقيانهم ؛ عنك تؤثر سيرة الاكتفاء ، وعنْ فُروعك السعداء ، تروى أخبار نُجَباء الأبناء ؛ فهم لمملكتك العليّة بهجةُ مجالسها ، وأُنس مُجالسها ؛ وقُطب سرورها ، ومطالع نورها ؛ وولىّ عهدكَ دُرّتهم الخطيرة ، وذخيرتهم الأثيرة ؛

لا زال كاملُ سعادته بطول مُقامك محكمًا ، وحِرْزُ أمانيّه بالجمع بين الصَّحيحين : حبُّك ورضاك مُتَمَّمًا ، وقد وجَبَت التهنئةُ بما كان فى حيلة برئه من التيسير ، وما تهيأ فى استقامة قانون صحّته من نُجْح التدبير ؛ ولم يكن إلا أن بَعُدتْ به عنك المسالك ، وأعوز نورَ طَرْفه تقريبُ المَدارك ، وتذكّر ما عهده [من] الإيناس الموطأ جنابه عند أفضل مالك ؛ فوَرَى من شوقه سَقْطُ الزَّند ، والتهب فى جوانحه قَبَسُ الوجد ؛ فأمددته من دعائك الصالح بحِلْيةِ الأولياء ، فظفر لمَّا شارف مَشارِق الأنوار من حضرتك بالشفاء ؛ وقد حاز إكمال الأجر بذلك العارض الوجيز ، وكان له كتشبيب الإبريز ؛ وها هو قادم بالطالع السعيد ، آئب بالمقصِد الأسنَى من الفتح والتمهيد ؛ يطلُع بين يديك طلوع الشهاب ، ويبسِمُ عن مفصَّل الثناء فى الهناء بذلك زهر الآداب ؛ فأعِدَّ لهُ تحفةَ القادم من إحسانك الكامل ، واخصصه بالتكملة من إيناسك الشامل ، فهو الكوكب الدُّرّىّ ، المستمدّ من أنوارك السنيّه ، وفى تهذيب شمائلِهِ إيضاح للخُلُق[1] الكريمة الفارسيّه[2] ؛ لا زالت تزدان بصحاح مآثرك عيونُ الأخبار ، وتتعطَّر بنفحة الزهر من ثنائك روضة الأزهار ؛ وتُتْلَى من محامدك الآيات البينات ، وتتوالى عليك الألطاف الإلهيات ، بمن الله وفضله . [٦٦٢]

والسلام الكريم يعتمد المقامَ العلىّ ورحمة الله وبركاته . انتهى .

* * *

من نظم ابن جزى موريا بأسماء الكتب

وقد قال أبو عبد الله بن جُزَىّ المذكور رحمه الله عدة قِطع يُوَرّى فيها بأسماء الكتب ، منها قوله :

(١) الخلق مذكر ، لكنه حمله على معنى السجايا ، فأنثه .

(٢) نسبة إلى أبى عنان فارس .

ظبيٌ هو الكامل في حُسْنه وثغره أبهى من العِقْد
جمالُه المُشرِق لكنّها أخلاقُه تحكى صَبا نَجْدِ

وقوله رحمه الله :

لكَ اللهُ من خِلٍّ حباني برُقْعَةٍ حبتنىَ من آياتها بالنوادرِ
رسالةُ رمزٍ في الجمال نهايةٌ ذخيرةُ نظمٍ أتحفَتْ بالجواهرِ

وقوله رحمه الله :

قِصّتى في الهوَى المُدَوّنةُ الكبـــرى وأخبارُ عِشْقىَ المبسوطه
حجّتى في الغرام واضحة إذ لم تزل مهجتى بوجْدٍ مَنُوطه

أقول : ما أبدع هذا الفصل(١) ، الذى حبره هذا الحَبْر فى فن التوريه ، وشاهِدُهُ على استحقاقه مُبَرِّزُ عدل ، لا يحتاج إلى تزكيه .

* * *

من نظم عبد المهيمن الحضرمى موريا بأسماء الكتب

وتذكّرت بهذه التورية بأسماء الكتب قولَ بعض الأكابر ، وأظنّه الشيخَ الكاتب ، أبا محمد عبد المهيمن الحضرَميّ ، لأن الكاتب أبا إسحاق بن الحاج النُّمَيْريّ رحمه الله ، قال حسبُما وجدتُ بخطّه ما نصّه :

أنشدنى شيخُنا الإمام أبو محمد لنفسه :

من اغتدى مُوَطّأً أكنافُه صحّ له التمهيدُ فى أحوالِهِ
وقابَل استذكارَه بالمنتَقَى من رأيه المختارِ من أعماله
وأوضحَتِ المسالكُ الحُسْنى له تُدْنِى تَقَصّيًا قصِى آماله
وسارَ منْ مشارق الأنوار فى أدنى المدارك [أو](٢) إلى إكماله

* * *

(١) فى الأصول : «الفرد» ، ولعله محرف عما أثبتناه .
(٢) زيادة عن نفح الطيب .

لأبى على حسين ابن صالح موريا بأسماء الكتب

ثم قال أبو إسحاق بن الحاج المذكور : ولما وقفَ على ذلك صاحبُنا [٢٦٣]
الفاضل العالم ، أبو على حسين بن صالح بن أبى دُلامة ، أنشدنى له هذه الأبيات ،
وزاد ذكرَ القبس والمُعلِّم :

قل للموطّأ للورَى أكنافُه ... بُشراه بالتمهيد فى الأحوالِ
وإذا اكتفى بالمنتقى استذكارُه ... وَفّى له المختـارُ فى الأعمال
ومسالكُ الحسنى تؤدّيه إلى ... أقصى التقصّى من قَصِىِّ الآمال
وبلوح من قبَس الهداية رُشْدُهُ ... من مُعْلَم التفصيل والإجمال

انتهى كلام ابن الحاج .

***

للوزير لسان الدين بن الخطيب موريا بأسماء الكتب

ومن هذا المعنى قول الوزير أبى عبد الله بن الخطيب :

وقلبى لأوضاع (١) الجمال مدرسٍ ... عليم بأسرار المحاسن ماهرِ
أرى جيدَه نصَّ الحلْى وقرّرَتْ ... ثناياه ما ضمّتْ صِحاحُ الجواهر

***

لابن خاتمة موريا بأسماء الكتب

وقول ابن خاتمة :

ومُعطَّر الأنفاس يبسِم دائمًا ... عن درِّ ثغرٍ زانه ترتيبُ
من لم يشاهد منه عِقْدَ جواهرٍ ... لم يَدْرِ ما التّنقيحُ والتهذيب

ومن قول ابن خاتمة أيضا :

سفّهنى عاذلى عليـه ... وقال لى وُدُّه عليلُ
فقلت معتلٌّ أو صحيح ... يودِعُه عينَه الخليل

***

(١) فى م : « بأوصاف » .

لبعض الشعراء موريا بأسماء الكتب

وقال بعضهم :

حاز الجمال بصورة قمرية تجلو عليك مشارق الأنوارِ
وحوى الكمال بسيرة عمرية تتلو عليك مناقب الأبرارِ

※※※

ومن شعر ابن جزى

ولنرجع إلى نظم ابن جُزَىّ فنقول :

وأنشد فى الإحاطة لأبى عبد الله بن جُزَىّ المذكور :

تلك الذؤابة[1] ذُبْتُ من شوقى لها واللحظُ يحميها بأىّ سلاحِ
يا قلبُ فانجُ وما إخالك ناجيًا من فتنةِ الجعْدىّ والسّفّاحِ[2]

وقوله رحمه الله تعالى .

وعاشقٍ صلّى ومحرابه وَجْهُ غزال خالَ يهواهُ
قالوا تعبدتَ فقلتُ نعم تعبُّدًا يَفْهَمُ معناه

[٦٦٤] وقوله رحمه الله :

نصب الحبائل للورَى بالحسن إذ رفع اللثامَ وذيله مجرورُ
وأماله عنّى العواذلُ ضَلّةً فهوَ المُحَال وقلبىَ المكسور

وقوله رحمه الله :

لا تعدُ صِنْنك إنْ ذهبتَ لصاحبٍ تعتدُّهُ لكن تخيَّر وانتقِ
أوَمَا ترى الأشجارَ مهما رُكّبت إن خُولفت أصنافُها لم تَعْلَق

انتهى .

---

(١) فى نفح الطيب : « الذوائب » .
(٢) الجعدى : هو مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، لقب بالجعدى لصاحبته الجعد ابن درهم المتكلم . والسفاح : هو أبو العباس عبد الله بن محمد مؤسس الدولة العباسية .

ولنختم ما أوردنا من نظمه بقوله :

أيتها النفسُ قِفي عندما ... أُلْزِمْتِ فِعلا كان أو قَوْلا
فمن يكن يَرْضى بما ساءه ... أو سَرَّهُ فَهْوَ له الأَوْلى
لا يُتْرَكُ العبد وما شاءه ... إلا إذا أهمَلَهُ المولى

وقوله رحمه الله :

لولا ثلاث قد شُغِفْتُ بحبها ... ما عِفْتُ في حَوْض المنيّة مَوردي
وهْيَ الرواية للحديث وكَتْبُه ... والفِقْهُ فيه وذاك حسب المهتدي

❊ ❊ ❊

كان حازم وابن الأبار فرسي رهان

ولنعد إلى ذكر حازم ، فنقول :

كان أبو الحسن حازم والكاتب الفقيه المحدث أبو عبد الله بن الأبّار فَرَسَيْ رِهَانٍ في ميدان الآداب ، وقد جمعهما الزمان وتملّقهما من الدولة الحفصية بأهداب .

❊ ❊ ❊

ترجمة ابن الأبار وطرف من أخباره

وإذ قدمنا نُبذة من أخبار أبي الحسن حازم ، فلا بأس أن نُتْبِعَها بمثلها من أخبار الإمام ابن الأبّار .

وهو الفقيه الأجلّ ، الكاتب الحافل ، الراوية المحدِّث ، الفاضل الناقد البارع ، الحافظ الكامل ، أبو عبد الله ، محمد بن عبد الله القُضاعي البلنسيّ ، المعروف بابن الأبّار .

قال قاضي القضاة وَليّ الدّين بن خلدون في تاريخه الكبير ، الموسوم بديوان العِبَر ، وكتاب المبتدا والخبر ، في تاريخ العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ما نصه :

[٦٦٥] **الخبر عن مقتل ابن الأبار وسابقة أوليته**

كان هذا الحافظ أبو عبد الله بن الأبار من مَشْيخة أهل بلنسية ، وكان علّامة في الحديث ولسان العرب ، وبليغا في الترسيل والشّعر ، وكتب عن السيد أبي عبد الله بن حفص بن عبد المؤمن ببلنسية ، ثم عن ابنه السيد أبي زيد ، ثم دخل معه دار الحرب حين نزع إلى دين النّصرانيّة ، ورجع عنه قبل أن يأخُذَ به ، ثم كتب عن ابن مَرْدَنيش . ولما زحف الطاغية إلى بلنسية ونازلها ، بعث زيانُ بوفد بلنسية وبيعتهم ، إلى الأمير أبي زكرياء ، وكان فيهم ابن الأبار هذا الحافظ ، فحضر مجلس السلطان ، وأنشد قصيدته على رويّ السين يستصرخه ، فبادر السلطانَ بإغاثتهم ، وشحن الأساطيل بالمَدَد إليهم ، من المال والأقوات والكُسَا ، فوجدوهم في عُسْرة[(١)] الحصار ، إلى أن تغلب الطاغية على بلنسية ، ورجع ابن الأبار بأهله إلى تونس ، غبْطة بإقبال السلطان عليه ، فنزل منه بخير مكان ، ورشّحه لكَتْب عَلَامته في صدور رسائله ومكتوباته ، فكتبها مدّة ، ثم إن السلطان أراد صرفها لأبي العباس الغسّاني ، لما كان يُحسن كتابتها بالخط المشرق ، وكان آثرَ عنده من الخط المغربي ؛ فسخط ابن الأبار ، أنفةً من إيثار غيره عليه ، وافتات على السلطان في وضعها في كتاب أمر بإنشائه ، لقصور الترسيل يومئذ في الحضرة عليه ، وأن يُبقيَ مكان العلامة منه لواضعها . فجاهر بالرد ، ووضعها استبدادا وأنفة ؛ وعوتب على ذلك ، فاستشاط غضبا ، ورمى بالقلم ، وأنشد متمثلا :

أُطلُبِ العِزّ في لظَى وذرِ الذلّ ولو كان في جِنان الخلودِ

(١) كذا في م . وفي ط ، س : «عرة» .

فَنُمِيَ ذلك إلى السلطان ، فأمر بلزومه بيْتَه ؛ ثم استعتب السلطانَ بتأليفٍ رفعه [٦٦٦]
إليه ، عَدَّ فيه من عُوتب من الكتاب وأُعتِب ، وسَمّاه إعْتابَ الكُتّاب ، واستشفع
فيه بابنه المستنصر بالله ، فغفر السلطانُ له ، وأقالَ عثرتَه ، وأعاده إلى الكتابة . ولما
هلك الأميرُ أبو زكرياء رفعه المستنصر إلى حضور مجلسه ، مع الطبقة الذين كانوا
يحضُرونه من أهل الأندلس [وأهل تونس] . وكان فى ابن الأبار أنفة وبَأْو[(١)]
وضيقُ خلق ، وكان يُزْرِى على المستنصر فى مباحثه ، ويَسْتقصِرُ مداركه ؛ فخشُن
له صدرُه ، مع ما كان يُسْخِطُ به السلطانَ ، من تفضيل الأندلس وَوُلاتها عليه .

وكانت لابن أبى الحسين فيه سماية ، لحقد قديم ، سببه أن ابن الأبّار لما
قَدِم فى الأسطول من بلنسية ، نزل ببَنْزَرْت وخاطب ابنَ أبى الحسين بغرض
رسالته ، ووصف أباه فى عُنْوان مكتوبه بالمرحوم ؛ ونُبِّه على ذلك فاستضحك ،
وقال : إن أبًا لا تُعرف حياتُه من موته لأبٌ خامل ؛ ونُميت إلى ابن أبى الحسين ،
فأسرَّها فى نفسه ، ونصَبَ له ، إلى أن حمل السلطانَ على إشخاصه إلى بجاية ؛
ثم رضى عنه واستقدمه ، ورَجَعه إلى مكانه من المجلس ، وعاد هو إلى مَسَاءَة
السلطان بنزَعاته ، إلى أن جرى فى بعض الأيام ذكرُ مولد الواثق ، وسأل عنه
السلطانُ بعضَ من حضرَهُ فاستبهم ، فغَدا[(٢)] عليه ابنُ الأبار بتاريخ الولادة
وطالعِها ، فاتُّهم بتوقُّع المكروه للدولة والتربص بها ، كما كان أعداؤه يُشيعون
عنه ، بما كان ينظر فى النجوم ؛ فتقَبَّض عليه ، وبعث السلطانُ إلى داره ،
فرُفعت إليه كتبه أجمع ، وأُلفى فى أثنائها — فيما زعموا — رقعة بأبيات أوّلها :

طغا بتونس خلْفٌ سمّوْه ظُلمًا خليفهْ

فاستشاط لها السلطان ، وأمر بامتحانه ثم بقتله ، فقُتِل قَعْصًا بالرماح وسْط محرم [٦٦٧]

---

(١) البأو : الكبر . (٢) فى الأصول : « فعدا »

من سنة ثمان وخمسين ، يعني وست مئة . ثم أُحْرِق شلوه ، وسيقت مجلدات
كتبه ، وأوراق سماعه ودواوينه ، فأحرقت معه .

انتهى كلام ابن خلدون .

* * *

سينيته التي يستصرخ بها أبا زكريا الحفصي

والقصيدةُ السِّينيّة التي أشار إليها ابن خلدون ، كنت عزمت على ذكرها أول تراجم هذا الكتاب ، حين ذكرت أمر الجزيرة ، وأتيتُ بقصيدة صالح ابن شَرِيف ، فنَسِيتُ ذلك ، حتى قضى [الله] به الآن ؛ [وهي] من غُرر القصائد الطنانة ، وهذا نصّها :

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خيلِ الله أندلُسَا   إن السبيلَ إلى مَنْجاتها دَرَسَا
وهَبْ لها من عزيزِ النصر ما التمسَتْ   فلم يزلْ منكَ عزُّ النصر مُلْتَمَسا
وحاشِ مما تعانيه حُشاشتَها   فطالمَا ذاقتِ البلوى صباحَ مَسا
يا للجزيرة أضحى أهلُها جَزَرًا   للحادثات وأمسَى جَدُّها تعِسا
في كلِّ شارقة إلمامُ بائقة   يعود مأتَمُها عند العِدا عُرُسا
وكلِّ غاربةٍ إجحافُ نائبة   تَثْني الأمانَ حِذارا والسُّرورَ أسا
تقاسَمَ الرومُ لا نالت مقاسمُهم   ولا عقائلَها المحجوبةَ الأنَسا
وفي بَلنسية منها وقرطبة   ما يَنْسِفُ النفسَ أو ما ينزِفُ النَّفَسا
مدائنٌ حلّها الإشراكُ مُبْتَسِما   جَذْلانَ وارتحلَ الإيمانُ مُبْتَئِسا
وصيَّرتها العوادي العابثاتُ بها   يستوحشُ الطَّرْفُ منها ضِعْفَ ما أنِسا
فمن دساكرَ كانت دونها حَرَسا   ومن كنائسَ كانت قبلَها كُنُسا
يا للمساجد عادتْ للعِدا بِيَعًا   وللنداء غدا أثناءها جَرَسا
لَهْفي عليها إلى استرجاع فائتِها   مَدارِسًا للمثاني أصبحتْ دُرُسا

وأربُعاً نَمْنَمتْ أيدي الربيع لها   ما شئتَ من خِلَعٍ موشيّةٍ وكُسا
كانت حدائقَ للأحداقِ مونقةً   فصوّح النضر من أدواحها وعسا
وحال ما حولها من منظرٍ عجَبٍ   يستجلسُ الركبَ أو يستركبُ الجُلَسا
سرعانَ ما عاثَ جيشُ الكفرِ واحرَبا   عيثَ الدَّبا في مغانيها التي كَبَسا
وابتزَّ بزّتَها ممّا تحيّفَها   تحيُّفَ الأسْدِ الضّاري لما افترسا
فأين عيشٌ جنيْناه بها خَضِراً   وأين(١) غصنٌ جنيْناهُ بها سَلِسا [٦٦٨]
محا محاسنَها طاغٍ أُتيح لها   ما نام عن هَضْمِها حيناً ولا نَعَسا
ورجَّ أرجاءها لما أحاط بها   فغادر الشمَّ من أعلامها خُنُسا
خلا لهُ الجوُّ فامتدتْ يداه إلى   إدراكِ ما لمْ تطأْ رِجْلاه مُختَلِسا
وأكثرَ الزعمَ بالتّثليثِ منفردا   ولو رأى راية التوحيد ما نَبَسا
صِلْ حبلَها أيُّها المولى الرحيمُ فما   أبْقى المِراسُ لها حَبْلاً ولا مَرَسا
وأحْيِ ما طمستْ منها العُداة كما   أحييْتَ من دعوة المهديّ ما طُمِسا
أيام سرتَ لنصر الحق مُسْتَبِقاً   وبِتَّ من نور ذاك الهدْي مُقْتَبِسا
وقمتَ فيها بأمر الله منتصرا   كالصّارم اهتزَّ أو كالعارضِ انْبَجَسا
تمحو الذي كتبَ التجسيمُ من ظُلَمٍ   والصبحُ ماحيةٌ أنوارُه الغَلَسا
وتقتضي المَلِكَ الجبارَ مُهْجتَه   يومَ الوغى جهْرةً لا ترقُبُ الخُلَسا
هذي رسائلُها تدعوكَ من كثَبٍ   وأنت أفضلُ مرجوٍّ لمن يَئِسا
وافتْكَ جاريةً بالنُّجْح راجيةً   منكَ الأميرَ الرِّضا والسّيد النَّدُسا
خاضتْ خُضارةَ يُعليها ويَخفضُها   عُبابُه فتُعاني اللِّينَ والشَّرَسا
وربما سبحتْ والريحُ عاتيةٌ   كما طلبتَ بأقصى شَدِّه الفَرَسا
تؤمُّ يحيى بن عبد الواحد بن أبي   حفصٍ مقبِّلةً من تُرْبه القُدُسا

(١) في ط: «فأي عيش ... وأي».

مَلْكٌ تقـــلدت الأملاكُ طاعتَه ... دِينًا ودُنْيا فغشَّاها الرِّضــا لِبَسا
من كل غادٍ على يُمْناه مُستلِما ... وكلٌّ صــادٍ إلى نُعْماه مُلْتمِسا
مؤيَّدٌ لو رَمَى نجما لأثبتَه ... ولوْ دعَا أُفقًا لَبّى وما احْتَبسا
تالله إنّ الذى تُرْجَى السعودُ له ... ما جال فى خَلَدٍ يوما ولا هَجَسا
إمارةٌ يحمِلُ المقــدارُ رايتَها ... ودولةٌ عزُّها يَسْتصحِب القَعَسا
يُبْدِى النهارُ بهـا من ضوئه شَنَبًا ... ويُطلِـعُ الليل من ظلمائه لَعَسا
ماضى العزيمة والأيامُ قد نكَلت ... طَلْقُ المُحيَّا ووجهُ الدهر قد عَبَسا
كأنه البـــدرُ والعَلياء هالتُه ... تَحُفُّ من حوله شُهْبُ القنا حَرَسا
تدبيرُه وَســع الدنيا وما وَسِعَتْ ... وعُرْفُ معروفه واسَى الوَرَى وأَسا
قامتْ على العدل والإحسانِ دولتُه ... وأنْشَرتْ من وُجود الجودِ ما رُمِسا
مبارَكٌ هَـــدْيُه بادٍ سكينتُه ... ما قام إلّا إلى حُسْنَى ولا جَلَسا
قد نوَّر اللهُ بالتقوى بصــيرتَه ... فما يبالى طُروقَ الخطب مُلْتبِسا [٦٦٩]
يَرَى العُصاةَ ورَاشَ الطائعين فقُلْ ... فى اللَّيث مفترِسًا والغيثِ مُرْتَجِسا
ولم يُغادِرْ على سَهْلٍ ولا جَبَــل ... حَيًّا لقاحًا[1] إذا وفَّيتَه بَخَسا
فرُبَّ أَصْيَدَ لا تُلْفِى به صَيَدًا ... ورُبَّ أشْوسَ لا تَلْقَى له شَوَسا
إلى الملائك يُنْمَى والملوكِ معًــا ... فى نَبْعةٍ أثمرتْ للمجد ما غَرَسا
من ساطع النور صاغَ اللهُ جوهرَه ... وصــان صيغتَه أن تقربُ الدنَسا
لهُ الثَّرى والثُّريّا خُطّتان فلا ... أعزَّ من خُطّتيه ما سَمَا ورَسا
حسبُ الذى باعَ فى الأخطار يركبُها ... إليــه مَحياه أن البَيْع ما وُكِسا
إن السعيدَ امرؤٌ ألْقى بحضرته ... عصاهُ مُحتزِمًا بالعدل مُحْترِسا

(١) حيا لقاحا: لم يدينوا للملوك، ولم يملكوا، ولم يصبهم سباء.

فظلَّ يُوطِنُ من أرجائها حَرَمًا وبات يوقِدُ من أضوائها قَبَسا
بُشْرى لعبدٍ إلى البابِ الكريم حَدَا آمالَه ومن العَـذْبِ المَعِين حَسا
كأنّما يمتطى واليُمنُ يصحبُه من البحار طريقًا نحوه يَبَسا
فاستقبلَ السّعدَ وضّاحا أسرّتُه من صفحةٍ فاض منها النورُ وانعكسا
[وَقَبّلَ الجودَ طفّاحا غواربُه مِنْ راحةٍ غاصَ فيها البحرُ وانغمسا]
يأيها الملكُ المنصور أنتَ لهـا عَلْياءَ توسِعُ أعداء المدى تَعَسا
وقد تواترتِ الأنباء أنّك مَن يُحْيِي بقتل مُلوك الكُفرِ أندلُسا
طهِّر بلادَك منهم إنّهم نجَسٌ ولا طهارةَ مالم نَغْسِلِ النَّجَسا

تنبيه : « نغسلِ النّجَسا » ، هكذا ثبت بالنون ، كما رأيته في بعض النسخ العتيقة ، وهو أصوب مما وقع بخط بعضهم بالتاء ، لأنّ مثله لا يصلح للمخاطبات السلطانية ، ولم يشتهر عند أكثر الناس إلا بالتاء ؛ والصواب ما قدّمته من أنه بالنون ، والله أعلم .

وأوْطِئِ الفيلقَ الجرّار أرضَهمُ حتى يطأطِئَ رأسًا كلُّ من رَأَسا
وانصُرْ عبيدًا بأقصى شرقها شَرِقَتْ عيونُهم أدمُعا تَهْمِي زَكًا وخَسا(١)
هم شيعةُ الأمرِ وهي الدارُ قد نُهِكَتْ داءً وما لم تُباشر حَسْمَه انتكسا
فاملأْ هنيئا لك التأييدُ ساحتَها جُرْدًا سلاهبَ أو خَطّيّةً دُعُسا
واضرِبْ لها موعدا بالفتح ترقُبُه لعلّ يومَ الأعادى قد أَنَى وعَسَى [٦٧٠]

انتهت القصيدة .

* * *

(١) الزكا : الزوج ؛ والخسا : الفرد .

ارتجاله بيتين في حضرة المستنصر

وذكر غيرُ واحد أنه دخل مرة على المستنصر بالله الحَفْصِيّ ، فلما مَثَل بين يديه آنسه بإقباله وسؤاله ، فأنشده الحافظ رحمه الله :

بُشْرايَ يا شُرْتُ الهُدَى والنورا بلقائِيَ المستنصرَ المنصـــورا
فإذا أميرَ المؤمنين لقيتُه لم ألْقَ إلا نَضْرةً وسرورا

❊❊❊

رسالته للمستنصر

ومن بديع نثره رحمه الله رسالتُــه الحافلة ، التي كتب بها المستنصر ؛ وهي الرسالة الغريبة مَساقا ، المتلألئة نظما واتساقا ؛ التي لم يُنسج على منوالها ، ولم يأتِ أحدٌ بمثالها ؛ يصف وصول الماء إلى تونس ، ويشير في ذلك إلى إشارات عجيبه ، تدل على أن قريحته الوقّادة لداعي الإجابة مجيبه ؛ وهي :

الحمد لله حمدًا لا نُقلّله . هذا الزمان الذي كنا نؤمّله ، « بلدةٌ طيّبةٌ وربٌّ غفور » ، ودولةٌ مباركةٌ لحاسنها سفور .

إلى أبي حَفْص آلوا ، فهل جالت النجوم حيث جالوا ، أو نالت الملوكُ بعضَ ما نالوا ؛ مُلْكٌ يشتمل الإقبال ، وعزٌ يُقاتل الأجيال ؛ وكرم صريح الانتماء ، في النماء ، وشرف سَمَت ذوائبه على السماء ؛ إلى عدْلٍ وإحسان ، هما قوام نوع الإنسان ؛ مع رِفْقٍ وإسْجاح ، ضمنا كل فوز ونجاح ؛ فقد آضت الظلماء أنوارا ، وفاضتْ البركات أنجادًا وأغوارا ؛ أليس العامُ ربيعا ، والعالمُ جميعا ؛ والسعود طالعة ، والعصور طائعة ؛ مصالح الأعمال تُحلّيها ، وعلى مَنَصّات الكمال تُجَلّيها ؟ فمن ذا أيها المولى يجاريك إلى مدَى ، أو يباريك في إقدام صادق ونَدَى ، وآياتك للأبصار هُدَى ، وحياتك للكفار رَدَى ؛ بسيرتك عَدَل الدهر وما جار ، ولولا نور غُرتك ما أنار ؛ لقد حَسُنَت بك الأوقات ، حتى كأنك في فم الزمن ابتسام ، أعرقْتَ في المجدِ والعَليا ، وعُنيتَ بالدين فَعَنَتْ لك الدنيا ؛

أىُّ عنيدٍ أو عميدٍ ما ألقى باليَد ، واتقى فى اليوم عاقبة الغدِ ؛ إصفاقا على التعوُّض بصفحك و إسعادك ، و إشفاقا من التعرُّض لصفاحك وصِدادك ؛ تَمَمُّرُ بالحسنات آثاءك ، وتَتْبَع فى القُرُبات آباءك ؛ بانيا كما بَنَوْا ، بل زائدا على ما أتَوْا ، و باديا [٦٧١]
من حيث انتهوا :

أُناس من التوحيد صِيغَتْ نفوسُهم فزُرهم تر التوحيد شخصًا مركَّبا
ومن ساكبات المُزْنِ فيضُ أكُفِّهم فرِدْهُم ترى ماء الغمام وأعذبا

أمْجَادٌ أجواد ، فى الحِبَاء بِحار وفى الحُبا أطواد ، تقيَّلَ أبو زكرياء نهج أبى محمّد ، وأيّدا جميعا بأبى حَفْصٍ المؤيَّد :

نَسَبٌ كأنّ عليه من شمس الضُّحَى نورا وَمن فَلَقِ الصَّـــباح عمودا

أولئك صَفْوة الأئمهْ ، وحفظة الأذِمّهْ ، والقائمون دون الأمهْ ، فى الحوادث المدلهمّهْ ، وهـذه الدولة المحمديهْ ، الخالدة بمكانها الدعوةُ المهديهْ ؛ إليها انتهت المراشد ، وعليها التفّت المحامد ، وبها اعتزّت حين اعتزَتِ العناصرُ والمحاتد ؛ ومن خصائصها انفعالُ الوجود ، ومن مراسمها الإيثار بالموجود ، والبِـدار إلى إغاثة الملهوف و إعانة المنجود ؛ ما برِحت للخيرات إيضاعها وخَبُّها ، و بالصالحات غرامُها وحُبُّها ؛ حتى لقد فهِمَتْ أسرارَها ، وأُودِعَتْ أنوارَها ، وكُلِّفَتْ أو كَفَلَتْ إفشاءها و إظهارها ؛ يمينا أن يمين الحق به طولَى ، وللآخرة خير لها من الأولى ؛ بمولانا أيَّدَهُ الله عَزَّ مكانُها ، وخلّدت سديدةً آثارها ، شديدة أركانها ؛ لا جَرَم أنه الطاهر كالماء الذى جلبه للطهارة ، والظّاهر ولاء ولواء فى مَصْعَد الخلافة ومقعد الإمارة ؛ بالسعادة الأبدية وَجْدُهُ وكَلَفُه ، وما همُّه إلا تجاوزُ ما أسلفه سلَفُهُ ؛ فجَرّ من الأرض يَنْبُوعا ، وجدد للجدوَى رسوما عافيةً ورُبوعا ؛ ساحته الحرَم ، وهو زمزم قُصّاده وحُجّاجه ؛ وراحته البحر الخِضَمُّ ، غيرَ

[٦٧٢] طَعمِه وارتجاجه ؛ ما أظهره خِلالا ، وأبهره جلالا ، « هكذا هكذا و إلا فلالا » ؛ غابت كُماة المعارك وشهد ، ونامت وُلاة الممالك وسهد ؛ فتى قسطوا أقسط ، و إذا غَوَّرُوا أنبط ، ولذلك ما أبطل عمله أعمالهم وأحبط ؛ غلبهم على صِفتَيِ النَّدَى والباس ، وسَلبَهم مَنْقَبَتَىْ حمزة والعبّاس .

قال جامع هذا المصنَّف : أشار الإمام ابن الأبّار بقوله : « مَنقبتى حمزة والعباس » إلى شجاعة حمزة الشهيرة الذكر ، وثباته الذى يجل عن الفكر ؛ و إلى استسقاء عمر بالعباس رضى الله عنهما ؛ فأتى من الحيا ما عمّ بالإحيا ، وهمر من الماء ما شفى بعميم الإرواء ، نفوس الظّماء ؛ والله أعلم .

رجع الى كلام ابن الأبار

فلا غروَ أنَّ من أمَّنَ ووقَى ، ثم لما كسا وأطعم سقى ؛ آيةُ نُعْمَى وَفَتْ بالميعاد ، وحُسْنَى مثلُها يعود للمَعاد ؛ وأتَتْ بماء مَعين قد أصبح غَوْرا ، وملأت ما بين لابَتَيْها جِنانا تَرِفُ ظِلّا وتَرِقُّ نَوْرًا ؛ فيابُشْرَى اتونسَ أخصبَ جديبها ، وأحسنَ وصفَ الروض والغدير أديبُها ؛ وطالما[(1)] أطلعتْ صحراء بل بغضاء[(1)] ، فكم للإمارة قِبَلها من يد بيضاء ؛ غشِيَتْ حِبَرَ الحبور والسرور ، وعُوِّضتْ بَرْدَ الظِّلِّ من وهَج الحَرور ؛ خمائل وجداول ، تزاول منها العينُ ما تَزاول ؛ تلك يضِلُّ من أحصاها ، وهذه يَصِلُ بها حصاها ؛ ويا لقصرها السعيد ! نَعِمَتْ أدْواحه ، وهبّت على خُضْر الأغصان وزُرْق الغُدران أرواحه ؛ هذا و إن بات السماح المفاض يسقيه ، والجَوْدُ[(2)] الفضفاض ينقع فؤادَه ويشفيه ؛ وهنيئا المسجد الجامع أنْ رَوِيت جوانحه الصَّاديه ، وجُمِّعَتْ فى شِرعته السارِيةُ والغاديهْ ؛

(١ — ١) كذا فى الأصول . (٢) فى س : « الجو » .

فها هو بجره بادى الغرر والأوضاح ، وصخره منبجس بالزلال القراح ؛ وللجمهور بصفوه المنساب ، لجج الغياب بالإياب ، وطرب الشيب لذكر الشباب ؛ [٦٧٣] أمسوا قد سوغوا مآربهم ، وأضحوا قد علم كل أناس مشربهم ؛ فهم يردون على العذب النمير ، ويجدون بركة رأى الأمير ؛ مكرمة ذخرها لسلطانه الزمان ، وكرامة هنأها به الإيمان ، وقضية إن خفيت عن داود فما حجب عنها سليمان :

جمعتَ للناس بين الرىِّ والشِّبَعِ ... فهم بأخصب مُصْطافٍ ومرتبَعِ
ولم تدعْ كرمًا إلا أتيتَ به ... تضيفُ مبتدعًا منها لمبتدعِ
لما رأيتَ خلفتَ الخير أجمعَهُ ... عليهمُ فبدَوْا فى أجمل الحُلَلِ
لله أيامُك استوفتْ محاسنَها ... فلا فضيلةَ للأعياد والجُمَعِ
دامتْ مساعيكَ والأقدارُ تُسعِدُها ... تُولِي(١) المساجد إنصافًا من البِيَعِ

اللهمَّ إن الإيالة الحفصية قد أغليتْ مظاهرَها ، ونصرتْ معاشرَها ، وقصرتْ على المصالح الدينية والدنيوية مواردَها ومصادرَها ؛ ثم اصطفيتَ من شرف بيتها الصُّراح ، ومَعْدِن سُودَدِها الوضَّاح ؛ مولانا الأميرَ الأجلَّ ، المؤيد المبارك ، أبا عبد الله ، فانتضيتَه حُسامًا فى يدك قائمُه ، وارتضيته إمامًا لا تلين فى ذاتك صرائمه ، ولا يَلحق شأوَه فى النَّيْلِ مِن عُداتِك رائمه ؛ يَمْضِي بأسًا حين لا مَضاء للحُسام العَضْب ، ويَهْمِي جُودًا والسماء فى أَزْرٍ من نجيع الجدْب ، ويَنتدِبُ سعْيا لكل حُسْنَى أعيت على القريع النَّدْب .

فاقض اللهمَّ لسلطانه بتأبيد التأييد ، وأدِمْ بأيامه المباركة نعمة التمهيد ، وضاعف عزَّة جانبه بأعزازه كلمة التوحيد . وَاجْزِه اللهمَّ أفضل الجزاء ، عن

(١) فى م : « توفى » .

إفاضة النعماء ، وإنارة الظلماء ، وكافته عن نقع الغُلل والأظماء ، بما فجّر من ينابيع الماء ، وكما شرّفت فعله فى الأفعال واسمه فى الأسماء ؛ فاجعلى فى الدنيا داعيا [٦٧٤] إلى سبيلك ، وفى الأخرى هاديا إلى حوض رسولك ، صلى الله عليه وسلّم ، الذى آنيته بعدد نجوم السماء .

آمين آمين ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

***

مخاطبته رئيس منورقة سعيد ابن حكم

ومن بديع ما كتب به مخاطبا رئيس مَنُورقَة سعيد بن حكم القُرشىّ ، رحمه الله تعالى :

إن سعيدَ بن حَكَمْ صِنْوُ العُلا نجلُ الكَرَمْ
رآسـةٌ بمثلها يفاخرُ السيفَ القلَمْ
وسُـودَدٌ مجموعة فيه محاسنُ الشيمْ
مُعْتَمَدٌ من شأنِهِ رَعْىُ العهُودِ والذِّمَمْ
فاتحنى مُمَهِّـدًا إلى جوابه القَـلَمْ
عادةُ نَدْب أرْوَع خَصَّ ببرِّه وعَمّ
فشكره فى كل حا لٍ ومآلٍ مُلْتَزَمْ
حَيَّا الحيَـا حضرتَهُ وجادَها نَوْءُ الدِّيَمْ

اقتضيتُها أيها السيد الأعظم ، والسَّنَد الأعصم ؛ أبقاه الله وجنابه مَحفُود ، ومَثَابه[١] محمود ، وحزبه مودود ، وشِرْبه مَورود ، ورواق السعادة ، والنُّصرة المفادة ، فوقه مَمْدود ؛ من دانية كلأها الله تعالى ، والوقت مضايِق ، والرُّعْب مُلازم لايفارق ؛ وأنا بسيادته الأصيلة دائم الاعتداد ، وعلى عنايته الجميلة قاصر الأعتماد ؛ والله

(١) كذا فى ط ، س . وفى م : « ومقامه » .

يُبقيه كاسمه سعيدا ، ويُسْميه مُبدِئا فى المَعْلُوات ومُعيدا ، بمَنّه .

ووصلنى وصل الله حراسته ، وكَلَأ من الغِيَر والغِيَل رياسته ، مخاطبتُه الكريمة الخطيره ، مشرِفة بالسؤال عن خاصّ الأحوال ومُنيفه ؛ بما تضمَّنتْ مِن الاعتناء ، والبر المتوافر الأجزاء ، على الأمانىّ البعيدة والآمال ؛ فلثَمْتُ سطورها قياما بحقه الأكبَر ، ولَزِمتُ من شكره ما لا أقصِّر عنه بمشيئة الله تعالى ولا أقْصَر ؛ وكان الظنُّ بناديه الأشرفِ جميلا فقد عاد يقينا ، والأمل فيه مَتينا فعاد مُبينا ؛ ويعلم الله سبحانه أنّى أعطّر بذكره الأمكنه ، وأزكّى بشكره الأزمنه ؛ وبوُدّى لو ركبتُ ثَبَجَ هذا البحر ، حتى أوفّيَه بعض واجبه ، وأشافهه بما أجنح إليه ، وأنطوِى عليه ، مِن اعتماد جانبه ، وإحماد مقاصده الرياسية ومذاهبه ؛ وقد حَمَّلْتُ فلانا عَصَمه الله ويَسّر مَرامه ، وأدام حفظه وإكرامه ؛ من جُمل الإعظام ما يُؤَدّيه مُفسّرا ، وأفهمته أنى كاتَبْتُ معتقِدا خالِصا ومُضمرا ؛ وإن تفضّل سيدى الأعلى حرسه الله بتكليف بعض أغراضه الكريمة ، شَفَع يَدَه البيضاء بمثلها ، واستزاد مَعْلُوَةً لم يَزَلْ من أهلِها ؛ وما يصدُر عن الجناب الرياسى أسماه الله من الالتفات إليه ، والاعتماد عليه ، فإنه معدود فى بِرّه الجسيم ، ويَدٌ من أياديه التى أعيت على التعديد والتقسيم ، واللهُ يُعلِى مَحَلّه ، ويُسْعِد عَقْدَه وحلّه ؛ ويُسَوّغُه من مَوْرد الإسعاد ، فى حالتى الإصدار والإيراد ، أعلاه وأجلّه ؛ ويَصِل حراسته ، ويؤيد رياسته ، بمَنّه وكرمه . [٦٧٥]

والسلام الكريم ، المبارك العميم ، يَخصّ به مقامَهُ الأظهر ، مُلتزِمُ إكباره وإجلاله ، المعتدُّ بتمامه فى السيادة وكماله ؛ محمدُ بن عبد الله بن أبى بكر بن الأبّار ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

* * *

وكتب إليه شافعا ومعتنيا

وكتب إليه أيضا شافعا ومعتنيا .

تعتمدُ رياستَكمُ المؤمَّلة ، وسيادتَكم المُؤَثَّلة ، تحيةُ الشاكرِ لاعتنائها ، المباهي بسناها الوضّاح وسنائها ، المستديم للأحرار ، المُعتطين إنها أثباجَ البحار ، شرفَ عَنائها[1] ، وكرمَ غَنائها ، محمدِ بن الأبّار ، ولا مَزيدَ على ما عنده من إعظامٍ يُؤدّي وظائفَه ، واعتداد يشفع بتالِده طارفَه ، وثناء يُماطيه أولياء جلالكم ومَعارفَه ، والله يُصْعِد مكانكم ، ويُسعِد زمانكم ، بمنه وكرمه . [٦٧٦]

وتتأدّى إلى رياستكم ، حفظها الله ، في جانب أبي فلان ، أعزّه الله ، وبلّغه أبعد أمله وأقصاه ؛ وهو مَن علمتم مكانَ بيته النّبيه مِنْ حَيِّه ، وسببَ نزوحه عن وطنه المحبّب ونأيه ، واستحقاقه بالمزايا المعلومه ، والسجايا الكريمه ، لإجزال حفظه ورَعْيه ؛ ومازال لكمالكم واصفا ، وعلى تعظيم جانبكم والإفصاح بواجبكم عاكفا ، إمضاء لما أكّد بينكم وبينه سالفُ الأيام ، وتمييزا بحفظ الود الذي لا يحفظه غيرُ الكرام .

ومن مَطالبي له ، حملُه من التكرمة والتقدمة على النهج الأقوم ، وإنزالُه من جلالكم ، هُنا وهُنالكُم ، مَنزلةَ المُحَبِّ المكرَّم ؛ وتوصية المخصوص بالسفارة في أشغالكم المباركة ، بأن يستصحبه عند الإياب ، ويُورِدَه محفوظ الجانب على ذاكم الجَناب ؛ واختصاصه مع ذلكم بمخاطبةٍ كريمة ، ترفعه مكانا عليًّا ، ويكون لما يَرِد عليه ؛ ويَخلُص بمشيئة الله إليه ، عنوانا جَليًّا ؛ ومجدُكم حَرَسَه الله يغتفر جِناية الإذلال ، ويُبلِغ نِهاية الآمال ؛ والله يُبقي رياستكم تجبُر الكسير ، وتُيَسِّر المَرام العسير ؛ وهو سبحانه يُؤيِّد مَقامكم ، ويُكافِئ إنعامَكم ، بمنه .

---

(١) كذا في م . وفي ط ، س : «منابها» .

والسلام الكريم ، المبارك العميم ، يعتمد مجلسكم الرياسيّ ، بدءا وعَوْدا ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

***

تهنئته أبا المطرف ابن عميرة بقضاء شاطبة

وكتب يهنئ الفقيه الأجلّ القاضي أبا المُطرِّف بن عَميرة بولايته قضاء شاطبة :

بأيِّ بنانٍ أم بأيّ بيانِ تَخُطُّ وتُملي شُكْرَها المَلَوانِ

لِولاية عقد لِواءها الوُجوب ، وأسفر وجْهُ محاسنها المحجوب ؛ فأشرق لألاء مُحيّاها ، وتعاطى الأولياء حُميّاها ؛ فما شئتَ من جذلان يُجهِر شكرا ، ونَشوان يَجْهَرُ سُكْرا ؛ يترنّم كالشادي الباغم ، ويترنّح كالغصن الناعم ، وكلا أصلح الله [٦٧٧]
قاضينا الأعلى ، لا نُكر ، على من يصف حالة السُّكْر ؛ وإن تناهى طَرَبا ، وقضى من رفض الأناة أرَبا ؛ فالمُرتاح لا يتماسك ولا يتمالك ، والارتياح لا يُهلِكُ أحدًا على راحه يتهالك ؛ لا جَرَم أنه تسمو به الجدود ، وتُدْرَأ عنه بالشُّبُهات الحُدُود ؛ وبأيها المولى المُولى أشرف الخُطَط ، الضيقُ عن عاديّ جَلاله ، وخالديّ خِلاله ، أرحبُ الخطط .

قال جامعُ هذا الموضوع أحمد بن محمد المَقّريّ وفّقه الله :

أشار ابن الأبّار بقوله : « وخالديّ خلاله » إلى أن أبا المطرّف من ولد خالد بن الوليد رضي الله عنه ، فاعلم ذلك .

رجع الى كلام ابن الأبار :

ما نبأ تهاداه النَّجْد والغَوْر ، واقتسم الحياةَ والموتَ به العدلُ والجَوْر ؛ سَوّغ المجدُ المُنيفُ نطاقَه ، وهزّ له الدين الحنيف أعطافَه ؛ حين قرَّ الحكم الشرعيُّ في نصابه ، وشُفِي من آلامه وأوصابه ، وأُرْغِم المناصِبُ لذلك بِنَصْبِه

وانتصابه ؛ وسُرّ قطع الإلْمِ فأساوِرُه مُتَبالّه ، وسُلّ حُسام الحق ، فأبطال الباطل متسلله ؛ وأشرع سِنان الشرع ، فكل مُتَقَيِّد بالجهالة مُتَبَدِّل ، وهبّ نسيم المهابة ، فكل مُعْتزٍ للشماهة مُتَنَزِّل ، أمَا وشُخَاتِه غَلَبَتْ مِنك أكفى أكفائها ، وأقرت عينَ الهُدى بتمييزها لك وهدائها ، لقد غُبِطَتْ بقاضٍ يسعى للقوم ويسعد ، ونيطت بماضٍ ينهضُ فى ذات الله ويَنْهَد ؛ ولا عَجَب أن آثرَتْ جَلاله ، واعتمدتْ خِلاله ، فلم تكُ تصلح إلا له ، فهنيئاً لها ما أُلبستْ من شرف

[٦٧٨] خالد ، وأنْ حُرِمَتْ بأقلام ابن سيف الله خالد ؛ ويا لَبلدة وَطِئ تُرْبتها ، وبُوِّئ رُتْبَتها ؛ ما أخصبَ عيشتَها وأرغدَها ، وأسْعدَ يومَها وغدَها ! وماذا بها مِنْ دين ودنيا ، ومجد وعَليا ؛ إذ جمعتِ المهاجرين إلى الأنصار ، وأطلعتْ محامدَها ومحاسنها بِلْء الأسماع والأبصار ؛ لا زالت حَوْزتُها تحوز الأكابر ، [وإمْرَتُها تَهُزُّ عِزّتُها الأكابر] ؛ ودام عمادُنا المفضل ، وعِمادُنا المُفْضِل ؛ بين وليٍّ شاكر حامد ، وعدو كاشر حاقد ؛ ينزلُ الرقب المنيفه ، ويطاول به مالكٌ أبا حنيفه ؛ والله يُنْهضه بما تقلّد ، ويُخلّد مجدَه الأولى بأن يُخلّد .

والسلام الأتم الأكمل يخصّه كثيرا ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

❊ ❊ ❊

وكتب شافعا فى فك أسير

وَكتب رحمه الله إلى رئيس شاطبة أبى الحسين بن عيسى ، شافعا فى فكِّ أسير ، وتيسير عسير :

كتبته إلى سيدى ، حرس الله شَرَفه المبادى ، وكلأ كنفه السّيادىّ ، ولا مزيد على ما عندى من الإعظام لرفيع جانبه ، والقيام بكبير واجبه ؛ والله يحفظ شرف بيته العتيق ، وحديثَ قديمه الفائت بطيبه المسكَ الفتيتَ الفتيق ؛ ومؤدّيه فلانٌ أدام الله حفظه وعصمته ، وأتمّ عليه إحسانه ونعمته ؛ والمذكور

يَمُتُّ إليكم بقديم الإخلاص ، ويرغب أن يُنْظَمَ لديكم فى أهل الاختصاص ؛ وقد بلغكم ما نابه من غِيَرِ الدَّهر ونُوَبِه ، وكيف نَشِبَ فى حِبالة الأمر الذى أَنى على نَشَبِه ؛ وعِلْمُكُمْ بنباهة بيته أغنى عن التنبيه عليه ، وفضلكم كفيل بتسبيب الإحسان إليه ؛ وقد وَثِق بسعيكم الكريم فى جَبْر كسْرِه ، وأمَّل سيادتكم للتهمُّم بأمره ، والتَّصريف فيما يَصْرف عليه بعض ما بُذِل فى خلاصه من أسْره ؛ ومثلكم اصطنع أمثاله ، وآثر فيما يليق بنباهته استعماله ؛ والله يُعْلِي شأنكم ، [٦٢٩] ويَحْرُس مكانكم ، والسلام .

***

وكتب أيضا شافعا بما نصّه : وكتب أيضا شافعا

تلك السجايا العِذاب ، والكرم اللُّباب ، والساحة التى ألْبَسها جِدَّته الشَّباب ؛ مخصوصةٌ بتحية التوقير والتكبير ، المعبِّرة أنفاسُها العبِقة عن العبير . ومُنْهيها من زانَ قومَه الأمرُ والنهى ، وحَسمَ قضاؤهم وعطاؤهم الوهْن والوهْى ؛ فلان ، جمع الله له بين الأوطار والأوطان ، وأعاده إلى عادته من عزة الجوانب وشدة الأركان ؛ وهو كريمة كِرام ، آمتْ بعدهم الأيام ، وشكا فقدهم الأنام ، ولبِسَتِ الحِدادَ عليهم الأسيافُ الحِداد والأقلام ؛ وما بانُوا ولا بادوا إلا وأياديهم أطواق فى الرقاب ، وتشريفهم باقٍ فى الأعقاب ، على مر الأحقاب .

وهذا فلان عَرَّفه الله إسعادَ الأقدار ، وأعفى مشاربَه ومشارعَه من الأكدار ؛ يَروق وَقارُه ، ويَكرُم سِبارُه(١) ، وعَيْنه فِرارُه ؛ وأدنى حِلاه الطَّلَب ، وبعض خصائصه الأدب ؛ ثم شأنُه الأخطرُ شانه ، ومكانُه من حيه الذى يتقدَّم الأحياء مَكانُه ؛ ورأى عند أخذه فى النُّقْلَة ، وعزمه على الرِّحْلة ؛ أن يستصحب إلى

(١) سباره : يريد اختباره . والسبار فى الأصل : ما يسبر به غور الجرح .

مجدكم هذه الحروف ، ويستدفع بعلوم جدّكم الصروف ؛ وإن تأمّلتم ماله من سَمْتٍ وَسِيما ، أقبلتموهُ وجهَ الإقبال وَسِيما ؛ وأوليتموه من رعْى الحق الواجب ، ما يراه ضُرَباؤكم ضربةَ لازب ؛ واللهُ يُبقيكم للمكارم تُشيّدون رسومها الدائرة ، وتُنَظِّمون عقودها المتناثرة ؛ وهو تعالى يكلأ محلكم الرحيب ، ولا يُعْدِمكم من الزمان وأهله التَّرْجيب(١) والترحيب ، والسلام . [٦٨٠]

* * *

ومن نظمه رحمه الله قوله فى المُجَبَّنات : وله فى المجبنات

بنفسىَ مُثْلِجاتٌ للصدورِ لها سَمْتان من نارٍ ونورِ
حواملُ وهْى أبكارٌ عَذارَى تُزَفُّ على الأكُفِّ مع البُكور
كبَرْد الطَّلِّ حين تُذاق طَعْمًا وفى أحشائها وَهَجُ الحَرُور
لها حالان بين فم وكفٍّ إذا وافتكَ رائعة السُّفور
فتغرُبُ كالأهلة فى لَهاة وتطلعُ فى يمين كالبدور

* * *

وقوله يشكو الزمان : وله يشكو الزمان

تحيَّفَ حالتى حيفُ الزمانِ وصدّقَ اليأس مِنْ كَذِبِ الأمانى
وبَزَّتْ فى أليَّتها الليالى بترْويعى فأبى بالأمان
أما قنعت وقد كلفتْ بهضْمى وضيمى دون أبناء البيان
أحاول أن أقومَ لما يُوَاتى فتُقْعِدُنى الخطوب بلا توانى
وأطْباقُ الثَّرى بالحُرِّ أحْرى إذا ألْفى الثَّراء من الهوان
فهل من آخذٍ بيدَىْ أخيذٍ بعين الله شِـــدّةُ ما يعانى

---

(١) الترجيب : التعظيم .

أيا ما أشتكيه من أيادى ... عوار فى يد البلوى عوانى
وما أبقى على تأنى دليلا ... كفانى أننى حى كفانى

* * *

وقوله أيضا :

يعيرنى قومى بجفوة سلطانى ... ويشفيهم شكوى بنبوة أوطانى
يرون خمولا عطلتى لتوقفى ... وتلك على محض النباهة برهانى
وقالوا خفوف قلت لا بل رجاحة ... كفتنى إلقاء بكفى لإذعان
إذا عهدونى للنزاهة راكبا ... فصعب الأمور سهل وإن هد أركانى

* * *

وقوله أيضا رحمه الله :

علت سنى وقدرى فى انخفاض ... وحكم الرب فى المربوب ماض
إلى كم أسخط الأقدار حتى ... كأنى لم أكن يوما براضى

* * *

وله فى التسليم للمقدور

وقال أيضا فى معنى التسليم للمقدور : [٦٨١]

أما إنه قد خط فى اللوح ما خطا ... فلا تعتقد للدهر جورا ولا قسطا
ولا تسخط المقدور وارض بما جرى ... عليك به إن الرضا يفضل السخطا

وقال أيضا رحمه الله فى معناه :

إلام فى حل وفى ربط ... تخبط جهلا أيما خبط
دع الورى وارج إله الورى ... فإنه ذو القبض والبسط
ليس لما يعطيه من مانع ... ولا لما يمنع من معطى

* * *

وله يعارض الرصافى فى وصف نهر

وقال رحمه الله معارضا للرُّصافى فى أبياته التى أولها :

« ومهذَّبِ الشطين تحسب أنّه »

بقوله :

ونهر كما ذابتْ سبائكُ فِضّة ... حكى بمحانيه انعطافَ الأراقِمِ
إذا الشفقُ استولى عليه احمرارُه ... تبدَّى خضيبا مثلَ دامى الصوارم
وتحسبه سُنَّتْ عليه مُفاضةٌ ... لإزعاج هبّات الرياح النواسم
وتُطْلِعُهُ فى دُكنة بعد زُرْقة ... ظِلالٌ لأدواحٍ عليه نواعم
كما انفجر الفجرُ المُطِلُّ على الدُّجى ... ومِنْ دونه فى الأفق سُحْم الغمائم

وله فى معناه أيضا

وقال أيضا فى معناه :

سَقْيًا لروض رُدْتُه رَأْد الضحا ... وحمامه طربا يناغى البُلبُلا
شتّى محاسنُه فمِنْ زَهْر على ... نهر يسيل كالحَباب تَسَلْسُلا(١)
وكأنما حمَى الربيع لِقطافه ... واستلَّ منه بذود عنه مُنْصُلا
غَرَبت به شمسُ الظهيرة لا تنى ... إحْرَاق صفحته لهيبا مُشعلا
حتى كساه الدوحُ من أفيائه ... بُرْدا تمزَّق بالأصائل هلهلا
وكأنما أنمُ الظلال بمتنه ... قِطَعُ الدماء جَمَدْن حين تخللا

وله فى معناه أيضا

وقال فى معناه أيضا :

لله نهرٌ كالحُبابْ ... ترقيشه سامى الحَبابْ
يصف السماء صفاؤه ... لحصاه ليس بذى احتجاب
وكأنّما هو رِقّةٌ ... مِن خالص الوَرِق المذاب

---

(١) فى م : « تسللا » .

غازلتُ فى شَطَّيه أبــــكار المُنَى عَصْرَ الشباب   [٦٨٢]
والظل يبـدو فوقه   كالخال فى خد الـكَعاب
لا بل أدارَ عليه خَوْ   فَ الشمس منه كالنِّقاب
مثل المجَرَّة جرَّ فيها   ذيله جَرّ السـحاب

***

وله فى تمثال نعل النبي

وقال فى تمثال نعل النبى صلى الله عليه وسلم من قصيدة :

سَجَامٌ لَعَمْرِى أدْمُع وسِــجَال   لِأنْ عَزَّ من نعل الرسول مثالُ
وهل يملكُ العينين فى مثلها سِوى   خليٌّ عداه عن هُداه ضـلال

ومنها :

مثالٌ إلى نعل المُطَهَّر يَعْتَزِى   فإعْزازُه للحُسنَيَيْن مَنـال
أُقَبّـله شَوْقا تَملُّكَنى لِمَـا   حكى وشَهِيدى لوْ يفوهُ قِبال
وَإِنِّى اشتراكٌ فى الّزام شرا كه   وحسْبِىَ منـه عصمةٌ ومَنال
ومعْقِده مما عقدتُ به الهوى   فلا صحّ عزمى إن صحا لىَ بال
مرادىَ من تمريغ شيبى عليه أن   تَسِـحّ من الرُّحمَى علىَّ سِجال
ومن وضعه فى حُرّ وجهى ورفعه   اقِمّـــــــة رأسى أن يعِزّ ما آل
فأحْظَى بحظّى من جِوار محمد   وهـل بَعْدَ تنويل الجوار نوال

وله فى ذلك المعنى أيضا رحمه الله :

لمثال نعل المصطفى أُصْفِى الهوى   وأرى الـلوّ خطيئة ان تُغْفَرا
وإذا أصافحه وأمسح لاثما   أركانه فمعــــــــزّزا وموقّرا
سَرّى اعتزازِى فى جِهار تذلُّلى   لجـــــــلاله أثْرًا بقلبىَ أثَرا

إن شاقنى ذاك المثالُ فطالما شاق الحبَّ الطيفُ يطرُق فى الكَرى
لى أسوة فى العاشقين وقصدُهم لَثمُ الطلول لأهلِهن تذكرا
وبكائهم تلك المعاهدَ ضلّةً تحت الظلام على الغرام توفّرا
أفلا أُمرّغُ فيه شيبى راشدا وأريق دمعى وسْطه مستبصرا
ثقةً بإرثى من الخيراتِ فى شغَفى بنَعْلى خيرِ مَنْ وَطِئ الثرى

***

[٦٨٢] وقال فى التشوق إلى الضريح الشريف على الدفين به صلوات الله وسلامه : وله فى التشوق إلى الضريح النبوى

لو عَنَّ لى عَوْنٌ من المقدار لهجرتُ للدار الكريمة دارى
وحللتُ أطيبَ طيبة من طَيْبة جارا لِمَنْ أوصَى بحفظ الجار
حيثُ استبانَ الحقُّ للأبصار لمّا استنارَ حفائظَ الأنصار
يا زائرين القبرَ قبرَ محمد بُشرى لكم بالسبق فى الزُّوَّار
أوضَعْتُمُ لنجاتكم فوضعتمُ ما آدكم من فادحِ الأوزار
فوزوا بسبقكمُ وفوهوا بالذى حمّلتكم شوقا إلى المختار
أدُّوا السلامَ سلِمْتُمُ وبرَدّه أرجو الإجارة من وَرود النار

[استطراد لما قيل فى نعل النبي صلى الله عليه وسلم]

قلت : وإذ جرى ذكرُ النعل النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، فلا بُدَّ أن نورد جملةً مما قيل فى مثالها على جهة التبرك ، والتوسُّلِ بصاحبها إلى الله سبحانه ، أن يُفرّجَ عنا بجاهه كُرَبَ الدنيا والآخرة ، وأن يجمعنا مع الذين حازوا الرتب الفاخرة ؛ وظفروا بالمقام الأسنى ، وفازوا بالزيادة والحسنى .

محمد بن فرج فى نعل النبى مخمسا لأبيات أبى الربيع ابن سالم

فمن ذلك قولُ الشيخ أبى عبد الله محمد بن فَرَج ، مخمسا لأبيات الإمام الشهير أبى الربيع بن سالم الكلاعى ، رحمه الله ، التى على رَوِيّها وقافيتها سلك ابنُ الأبّار ، رحمه الله ، فى الأبيات المذكورة آنفا :

خبالٌ عرا ما إنْ جناه سوى النوَى
نوى مَنْ نوى من كَشْف بلواى ما نوى
فيا مُنكِرًا ما قد عرانىَ فى الهوى
« خواطرُ ذى البلوى عوامرُ بالجوى فنى كلّ يوم يعتريه خبالُ »
سمعتُ اسْمَه الأعلى الشريفَ المُشرَّفا
تخيلتُنى يعقوب ذُكّر يوسفا
ومن شيم الصب المُتيّم ذِى الوَفا
« متى يدْعُ داعٍ باسم محبوبه هفا فيهتاجُ بَلْبالٌ ويُكشَفُ بالُ »
رعى الله صبًّا بالهوى نفسُه سمتْ [٦٨٤]
له آية فى الحب بالكَتْم أُحْكِمت
فما لَمْ يَلُحْ من حبــه أثرٌ صَمَت
« وإن يَرَ من آثاره أثرًا همَت له من غروب المُقْلتَين سِجالُ »
فيا نفسِىَ الجــالى دُجاها هلالُها
أما إنه نور البــدور كمالُها
ألا فاعذِرى نفسا تَحِن خِلالُها
« كحالى وقد أبصرت نعلا مثالُها لنعل الرسـول الهاشمىّ مثالُ »
ويأيها الرّائى إلىّ مُفنّـدًا
وقد كدتُ لولا نهىُ حبى لأسْجُدَا

هوًى وجوًى إن يَبْلَ دهرٌ تجدّدا

«عرانيَ ما يَعْرُو المحبَّ إذا بدا لعَيْنيه من مَغْنى الأحِبّة آلُ»

ذكرت به عصْرًا مضى ومَعاهدا

فنُودِيتُ من نفسى نداء مُساعدا

وحَدْتَ فعاوِدْ لثمَـــه تُدْعَ وَاجدا

«فقبّلْتُ فى ذاك المِثال مُعاودا أرى أنْ ذُلّى فى هواه جَلال»

وشَـــبَّهْتُه صَفْحا ونفحا حديقةً

مُفتّحة الأزهارِ غَنّا أنيقَـــة

سَـقَتْها غَوادٍ قد غَدَوْنَ غديقة

«ومَثّلتُه نعلَ الرســـول حقيقة وإنى لأدْرِى أنَّ ذاكَ مُحالُ»

فيا جاهلا داءَ المحبِّينَ والدَّوَا

غوَيْتَ ولا تدرى فلا كانَ مَنْ غوى

أتُنكِر لَثْمَ المِثْل فى حالة النّوَى[1]

«ومن سنة العُشّاق أنْ يبعثَ الهوى مثالٌ ويَقْتـــادَ الغرامَ خيالُ»

تساوَتْ معانى الحُبِّ فى كل مَقْصَدِ

فمِنْ مُقْـــلة عَبْرَى وجَفن مُسَهَّدِ

وَبَرْحٍ وَتَهْيام وشـــوق مُجَدَّدِ

«فلا فرْق إلا أنّ حُبَّ محمـــد هُدًى والهوى فيمَن عداه ضَلال»

انتهى .

* * *

(١) فى هامش س عن نسخة أخرى : « أتنكر عرو الحب ... الخ » .

وله فى مدح النعال على حروف المعجم

ولمحمد بن فرج المذكور عفا الله عنه ، وتقبّل بكرمه ورحمته منْه ؛ [قطع] (١) على حروف المعجم ، فى لزوم ما لا يلزم ؛ وسماها بالقطع المُخمّسه ، فى مدح النعال المقدسه .

قال رحمه الله حسبما نقلتُ من خطه :

وآثرت التخميس على التعشير ، ليكون أسرعَ لحفظها ، وأبرع للفظها ؛ وأيضا فوجودُ خمس من القوافى فى نظمٍ لزومىّ أو نثر ، أهونُ على الفكر من وجود عشر . هذا وإن كان اللسانُ العربى فصيحا فسيحا لا يضيق ، ولا يكاد يخرج عنه لسان كل فريق ؛ لكن ليس من شرط المطالعه ، أن يحفظ الغريبَ من الكلام كلُّ مَنْ طالعه ؛ واللهَ سبحانه أسأل أن يجعلها من القرباتِ التى تنفع ، والوسائل التى تشفع ، والتمائم التى تذود كلّ سوء فى الدارين وتدفع ، وصلى الله على الشفيع المشفع ؛ وسلم تسليما ، من آفة الانفصال سليما . [٦٨٥]

قافية الهمزة

أ تمثالَ نعْلٍ كان يلبَسها الذى إذا عُدّتِ الأرسالُ ليس له كُفْءُ
أبوالقاسم الأسمى الذى وطِئ السّما بأخمصه ليــلا فشرّفها الوَطْء
أقبّل فى طِرسٍ حَواكَ كأنّنى عليلٌ وفى تقبيل شكْلِكَ لِى البُرْء
أنا المرء بالآثار ممّن هَويتُــه قنعْتُ وقد يُحْظِى إذا قنع المرء
أأحمـدُ لا يهوَى الفؤادُ سواكَ ما تقدّم عودَ الشىء فى الرُّتبة البدء

قافية الباء

بنفسى مِثالُ النّعلِ نعــلِ محمّدٍ نَبىِّ الهُدَى المخصوصِ بالقرب والحُبِّ

(١) زيادة يقتضيها السياق .

بدا لى فكان البـــدرَ جَلّى بنوره … غياهبَ أشجانٍ ترا كَمْنَ فى قلبى
بكتْ مُقلتى شوقًا اللابسها وهلْ … بمُطفئةٍ نارَ الأسَى دمعةُ الصَّبِّ
بعثتُ به شخصا من الأنْس مَيِّتًا … فبشَّرنى بالقُرْب منـــه على قُرب
بمَوْطِئها قد شرَّف الله تُرْبةً … عليها مَشَتْ فالتِّبْر يحْسُد للتُّرْب

قافية التاء

تلوتُ وقد أبصرتُ مِثْلاً لِنعْل مَنْ … تَميَّز بالوصف الشريف وبالنَّعْتِ
تَرَفَّعْتِ مِن نعلٍ بأخمص مرسَلٍ … قدَ أنقذَ مِن شر الطواغيت والجِبْت
تقدستِ الأرضُ التى قد مَشَى بها … عليهـا فصار الفوقُ يَغبِط للتَّحْت
تمنَّيتُ لو أنّى ظفرتُ بتربهـــــا … فمرَّغتُ فيه الخدَّ للحِين والوقت
تمنّى صَبٍّ عاشق دنِفٍ جَوٍ … مُعنًّى كئيبٍ دأْبُه حفظ ذى السّت(١)

قافية الثاء

ثمارَ الأمانِى قد جنى الطَّرفُ إذا رأى … مِثالَ نِعال المصطفَى من أولى البَعْث
٦٨] ثَراها ومَنْ أعْـــلاهُ طابَ نسيمُه … وما أنا فى هذى اليمين بذى حِنْث
ثُرَيَّا السَّما وَدَّتْ لِتنقل بالثرى … إليك فلم تُنقَل فهاهن فى بث(٢)
ثويتَ به ياطيبُ فهو كمِسْكةٍ … يَفوق شذاها المسكَ فى الطِّيب والمكْث
ثَوابىَ يامَنْ شُرِّفتْ بمثالـــه … على مَدْحها تأمينُ خوفِىَ فى البَعْث

قافية الجيم

جَلَلْتِ أيا نَعلاً بأخمص سـيدٍ … إلى حضرة القُدس العَليّة عارج

(١) يريد الصفات الست ، المذكورة فى البيت .
(٢) فى الأصول : « ذوبث » . والتصويب عن هامش ص .

جُبِلْتُ على حُبٍّ له فَتَى بدَا ... مِنَ آثارِه شئٌ تَنُور لواعجى
جَنَى الأنفُ منها زَهْرَ رَوْض إذا انبرَى ... نسيمُ شَذاهُ بذَّ عَرْفَ النوافج
جَبرتُ به صَدْعًا جناه الهوَى وما ... شُغِفْتُ بغُنْج الخَوْدِ ذات الدَّمالج
جزَى اللهُ عنّى القلْبَ خيرًا فإنهُ ... تَعلّق بالهادِى لأهــدَى المناهج

قافية الحاء

حَظيتِ أيا نعلاً بأخمصِ مرسَلٍ ... قَدَ أنزل ربُّ العرش فيه ألم نشْرَحْ
حَللتِ بساطَ القُدس حين عُروجه ... ليُوضح فى المسْرَى له اللهُ ما أوضح
حَلَفْتُ : لَأرضٌ قد وطِئْتِ تُرابَها ... لَـكالمسكِ مفضوضًا أما إنّهُ أفوح
حللتُ نطاقَ الـكتْمِ لمّا رأيتُها ... فصرَّحَ من حُبِّى اللسانُ بما صرّح
حَبيبِى الرسولُ المصطفى ومِنَ أجْلِهِ ... مَدَحتُ لنعليْهِ وحُقّ بأنْ أمْدح

قافية الخاء

خُذِيها أيا نفسِى المشوقةَ كُلّما ... سَرَى نَفَسٌ مِمّن هَواىَ بِه بَذَخْ
خَمِيلةَ شِعْرٍ أُودِعَتْ مَدْح نَعْلِ مَنْ ... بشِرْعته كلّ الشرائع قد نَسَخ
خَضَبتُ نِصالَ الشّيْب لما رأيتُها ... بدمع مُحِبٍّ عَقْدَ كِتمانِه فسَخ
خُطَاها أفادَ الأرضَ زَهْوا فأنفها ... على قِمَم الشُّهْب المنيفة قد شَمَخ
خُصِصْتِ أيا نعلا بأجْــلَى مزية ... تَبِينُ لمن فى العـلم أخمصُه رسَخ

قافية الدال

دعِ الطّرْفَ يَسْرَحْ فى رياضٍ تزيّنتْ ... بمدح نعالَىْ مصطفى الرُّسْلِ أحمـدَا
دُعِى فمَشَى فوق السماء فلم يَطأْ ... بهـا مَوضعا إلا وأصبح مَسْجِدا

دَنا فتدلّى قابَ قوسَين إذ دنا | فأوحى الذى أوحى إليه من الهُدَى
دُنُوّ حبيب من حبيبٍ لأجله | لآدم أملاكَ السموات أسْجَدا
[٦٨٧] دَرَى فضلَه مَنْ فى السماء فكلهمْ | يرَوْن وجيــــهَ المُرسلينَ محمّدا

قافية الذال

ذَرِ الأنفَ يستنشقْ خمائلَ رَوْضةٍ | تَبذُّ نسيمَ المسكِ أنفاسُها بذّا
ذكرتُ به نعلاً لأكرم مرسلٍ | بَرَاهُ الذى أعلاهُ فى رُسْله فَذّا
ذَرُورُ ثَراها المسكَ فاقَ فإن تسَلْ | عَنَ أذكى من المسك الفَتيقِ شذًا فَذَا
ذُكاء تمنّتْ أنْ تكونَ سحَاءةً | تَعِي مَدْحَها أوْ جِلْدةً مِثْلَها تَحْذَى (١)
ذُوُو حُبّه ألتذُّوا برؤيتها كما | بثوب ابن يعقوبٍ أبوه قدِ الْتَذّا

قافية الراء

رَأيتُ مثالَ النّعْلِ نعلِ الّذى به | إلى حضرة القُدْس العَلِيّةِ قد أسْرى
رَعَى الله منها نعلَ أىّ كريمة | برِجلٍ علتْ نَخرا على قمة النسْر
رُوِى أنه نُودِي وقد رام خلعها | وماء الحيا فى وجنتيه معًا يجرى
رسولِيَ لا تَخْلع تُشَرِّفْ بوطئها | بِساطِيَ يَا معنَى وجودىَ يا سرّى
رَفعتَ لواءَ المكرُماتِ جميعها | بيُمْنَى العُلا والناس فى قبضة الذّرّ

قافية الزاى ، وهى متجانسة

زَفير اشتياقٍ إذ بدا نعلُ مُعتِقى | مخاطِبَتِى كَتْمِى وعَزْمِىَ قد عزّا

(١) السحاءة : قطعة صغيرة من الورق تؤخذ من القرطاس . وتمنى : تحفظ . يريد أن الشمس تتمنى أن تكون هذه السحاءة التى تحوى مدح نعل النبى ، أو أن تكون قطعة من الجلد مثلها .

زكت شفة قد قبلت نعل سيد — به عالم الإنسان أجمعه عزا
زعيم به هنا السرور لنا وفى — مصائبنا العظمى المصاب به عزى
زهو سناه ظلمة الشرك قد جلا — ولولاه كنا نعبد اللات والعزى
زمانى لا أنفك لا ثمها أرى — هوان هوانا يا أخلاءنا عزا

قافية الطا

طوت بعض مامن وخشية نشر النوى — نعال خطاها فى المكارم لا تخطا
طفقت أنادى حين لاحت لناظرى — وزند الهوى بالسقط قد وصل السقطا
طب أنعم نزه يا فؤادى فهذه — نعال الذى جاوزت فى حبه الفرطا
طبعنا على حب له فتى بلثمها — لنا أثر نثره من أدمعنا سمطا
طلعنا نجوما فى هواه فأفقنا — قد أخلد عنه النجم للأرض واحطا

قافية الظاء

ظللت أنادى إذ رأيت نعال من — قد أنقذنى والحمد لله من لظى
ظهرت لنا فى شكل بدر فلم نكن — لبدر الدجى من بعد ذاك نلحظا [٦٨٨]
ظمئنا فكنت الماء مقلوب همزة — تقعت وميم جىء فى إثرها بظا
ظهيرى رسول الله أنت لحظتنى — بهدى وفى الأخرى ترى لمن الحظا
ظلالكم من كل سوء حفظتنى — وما كنت لولا الفضل منكم لأحفظا

قافية الكاف

كرمت أيا نعلا لأكرم مرسل — به وهو معطى السالك قد ختم السلك
كأنك فى عينى نافجة خلت — وأبقى بها للأنف من نفحه المسك

كتمتُ فلمّا لُحْتِ لي باحَ محجري بسرّ معنًّى قلبُه بالنّوى يشكو
كفانِيَ كفانِي أن بَدَا أثرٌ لِمَنْ به من إسارِ الشّركِ قلبيَ منفكّ
كريمٌ كرامِ الرُّسْلِ أحمدُها الذي بتوحيده الإشراكُ أوْدَى فلا شِرْكُ

قافية اللام

لِمِثْلِكِ يا نعـلًا بلابسها نعلو ويا طيبَ قلبي كلّما قلتُ يا نعلُ
لثمتُ وما أبغيه باللثمِ لا ولا سواه فما قصدي النعالُ بلا الرِّجْلِ
لها الله منْ رِجْلٍ مشتْ بأجلِّ مَنْ شأى رسُلَ اللهِ الكرامَ وإن جلّوا
لنا قد أتى منا عزيزٌ عليه ما عَنِتْنا رؤوفٌ راحمٌ ما له مِثْلُ
لعَمْرِيَ لولاه لما سُخِّرت السَّما ولا دُحِيَتْ أرضٌ ولا بُرِئ الكلّ

قافية الميم

وفيها وفيما بعدها لزوم زائد لم يَهد الله إليه ولا أَلْهَمَ ، إلا بعد الفراغ من نظم ما تقدّم ، وإلا فجناب مجده فسيح ، ولسانُ الألكن في مدحه عليه السلامُ فصيح ، [وصلى الله على سيدنا محمد النبيّ المليح] :

مِثالُكِ نَعْلَ المصطفى هاج لي جَوًى جَناهُ هَوًى قلبي السعيدُ به سَمَا
مَدَدْتُ له عَيْنَيَّ مَشُوقٍ به عَلَى صَبابته ألّا نَحولَ قد أقْسَمَا
مَشَيتُ به فوق السماء فكلّما وطئتُ سماءً فاخَرَتْ فوقها سَمَا
مَواطِئهُ قُسِّمْنَ فيها مَناسكًا فأَسْمَى الذي أدناهُ ذاكَ المُقَسَّمَا
محمدُ أبكيتَ الثّرَى إذْ عرجْتَهُ وعُدْتَهُ إليهِ بعدَ ذا فتبسَّما

قافية النون

نظرتُ بعَينَيْ هائمِ القلبِ مُدْنَفٍ شَجِيٍّ أبَى إلاّ البُكا طَرْفُهُ خِدْنا

نعالَ حبيبٍ مُصْطفًى مِن حَبيبه   دَنَا فتَدَلَّى قابَ قَوْسَيْن أوْ أدْنَى [٦٨٩]
نَبِيٌّ جميعَ الرُّسْل سادَ حُلًى كما   بِبَعْثَتِه فينا جميعَ الوَرَى سُدْنا
نجيٌّ لِرَبِّ العَرْش ناجٍ مُحِبُّه   غدًا مِنْ لَظَى ذاتِ الالظى وارثًا عَدْنا
نَزَعْنا إلى التَّوْحيد من مُلْكِ شركنا   ولولاهُ مَا واللهِ للهِ وَحَّـــــدْنا

قافية الصاد

صَبَرْتُ فلما لاح لى مِثْلُ نعلِ مَنْ   حِلاهُ تَعالَتْ أنْ تُعَدَّ وَتُسْتَقْصَى
صَبَبْتُ دموعًا من جفونٍ كأنَّها   عَزَالِى سَحابٍ نُوءُها النَّأْىَ قَدْ أقْصَى
صَبَوتُ هوًى فى السَّيِّد العَلَم الَّذِى   قَدْ أُسْرِى به ليلًا إلى المسجد الأقصى
صَميمٌ صَميمُ الجِلَّةِ القَمَرُ الَّذِى   وقاهُ الإلهُ الحَقَّ والكَشْفُ والنقصا
صِراطى هواه للجِنانِ وإنَّهُ   تُقِى وَوَقَى جيدَ اعْتصامى بهِ الوَقْصَا

قافية الضاد

ضُلُوعِىَ لا تَهْدَا ودَمْعِىَ لا يَرْقَا   وليسَ سِوَى حَالَيْهِمَا مِنهما أرْضَى
ضَلالِى هُدًى فى ذَا الهَوَى عند أهله   ذوى النظر الأقْوَى ذَوِى السَّنَنِ الأرْضَى
ضَعُوا قَلْبِىَ الشَّاكِى بِحَيْثُ نِعالُهُمْ   فَآثارُهُمْ تَشْفِى أحِبَّتَها المَرْضَى
ضَمِمْتِ نعالَ المُصْطَفَى رِجلَه الَّتِى   بها شَرَّفَ اللهُ السَّموات والأرْضا
ضَعُوها كَمِثْلِى فوقَ أرْؤُسِكُمْ فقدْ   زكا من رَأى تعظيمَ مِقْدارِها فَرْضا

قافية العين

عَلَى وَجْنَتِى فاضَتْ دُمُوعِى فَصَرَّحَتْ   بِسِرِّ فُؤادٍ بالتَّكَتُّمِ أُولِعَا
عَشِيَّةَ بدتْ نعلُ الحبيبِ كأنَّها   هِلالٌ بآفاقِ القُلوبِ قد أُطْلِعا

عجبتُ لقلبي أن رآها ولم يطر / ويخرق شغافاً قد حواه وأضلعا
عراه خيالٌ فاستقرّ ولم يطر / إليها وشيكاً حين بالأسر طوّعا
عسى من أراني نعله أو مثالها / يريني ضريحاً للمكارم مطلعا

قافية الغين

غليلي لا يطفا وشجوي لا يفنى / ودمعي لغير الحزن ليس بمنبغي
غسلت به رين الجوى وهو نكتة / بخدي وقلت اشفك بجيماك واصبغ
غداة بدت نعل لأكرم مرسل / رفيع شفيع ذي مكارم مسبغ
غيور شكور راحم متلطف / كريم منيل واسع السيب مسبغ
[٦٩٠] غلامك يا مولاي يبغي شفاعة / وذاك أمر ما لغيرك ينبغي

قافية الفاء

فؤادي لا تشك البعاد فهذه / نعالهم فاستشفين بها تشفى
فمي قبلتها مثل نعل كريمة / بتقبيلها يشفى سقام من استشفى
فليت عيني والشمال ومسمعي / قلبن شفاها تحسن اللثم والرشفا
فأطفي بالتقبيل والرشف جمرة / قد أشعلها شوق على الهالكي أشفى
فأقسم يا نعل الحبيب لأنت من / شراب بطون النحل للمشتكي أشفى

قافية القاف

قلبي لا تقنط فهذي نعال من / علقت به من قبل مرتبة العلق
قد أبصرتها في أفق كفي كأنها / هلال منير للعيون قد ائتلق
قفا في الشفى آثاره القمر الذي / للابسه كالبردة انشق وانفلق

قرأتُ حِذارَ العينِ لما رأيتُه   بأفْقِ يمينى طالعًا سُورةَ الفَلَق
فَتَنتْ مُهجةً قد أبصرتْهُ وما جَرَتْ   مسابقةً شُهْبَ المدامع فى طَلَق

قافية السين

سموتِ أيا نعلَ الرسولِ برجلِه   على قِمم الشُّهبانِ والبَدْرِ والشَّمْسِ
سرَى ليلةَ المعراج فوق بُرَاقِهِ   ليُسْمِىَ أقطارَ السموات بالأَمْس
سماءٌ به فلْتَفْخَرِى بدرَ سؤْدُدٍ   سليمَ السنَى يضحِى منيرًا كما يُمسِى
سِراجٌ به ظُلِمْنا الذين تقدَّموا   ولا عجبٌ أنْ يفضُلَ اليومُ الأَمس
سَلِمْنا بفضلِ اللهِ لَكِنَّنا وهُمْ   حروفٌ وما الإطباق فى الحرف كالهَمْس

قافية الشين

شمختِ أيا نعلا لأكرم سيدٍ   رسولٍ على السَّبْع السَّموات قد مَشَى
شريفٍ له قد أُسْجِدَ البدرُ والْتقِت   إليه تجـــــدُه بالتراب مُنَمَّشا
شفَى مُبصِرَىَّ القلبَ والطرفَ نورُهُ   وقد كنت أعشى القلبِ والطَّرفِ أعمشا
شفاعَتَه نرجو امتداد ظِلالِها   إذا ما الرجا فيما سِواها تكمَّشا
شققت جيوب الكتْمِ وَجْدًا وقُلْتُ يا   يدَىَّ وهى حبلُ[(1)] التصبُّرِ فاخمِشا

قافية الهاء

هى النعلُ قد كانتْ سماءٌ ورجْلُه   هلالاً فما أسنَى وأضوأ أُفقَهَا
هيا منكرًا تقبيلَها بعدَ بذْرِها   على دَنَفٍ ما أنتَ منه بأُفْقِهَا [٦٩١]
هل القصدُ إلاَّ رجلُ لابسِها الَّذى   سيُشْفِعُنى يومَ القيامة خَفْقُهَا

(١) فى الأصول : « حد » . ونظنه محرفا عما أثبتناه .

هلالي وشمسي فى دُجى الحشر سيّدى ٭ مُبلّغُ نفسي ما يوافقُ وَفْقَها
هَمَتْ عَبرتى شوقًا له إذ رأيتها ٭ فما تَرْتَجى الأجفانُ من بَعْدُ رِفْقَها

٭٭٭

انتهى ما ألفيته مِن هذهِ القطع ، ولم أجد تكملة الحروف ؛ وقد كَمّل ما بقى منها على نَمَطِها ، صاحبُنا الفقيهُ الأصيلُ أبو الحسن الشاميّ ، حفظه الله ، وسيأتى ذلك قريبا .

وله مقاطيع فى مدح النعال أيضا

وألفيتُ أيضًا بخط هذا الشيخ محمد بن الفَرَج السَّبتىّ ، رحمه الله ، عِدّةَ قصائد ومقاطيع فى هذا الغرض ، منها قوله رحمه الله :

ولقد رأيت مِثالَ نعلِ محمّدٍ ٭ فاشتدّ شوقى عند ذاكَ وَهَاجا
فظلِلْتُ أمسحُ وَجْنَتى بشِسْعِهِ ٭ مَسْحًا وأجعلُه برأسِىَ تاجا
يا نعلَ أكرمِ مرسَلٍ لما أتى ٭ دخل الورَى فى دينه أفواجا
كُرّمتِ مِنْ نَعْلٍ حوتْ رِجْلاً مَشَتْ ٭ بأجلّ بادٍ فى الظلام سِراجا
شَرُفَتْ بِمَوْطِئِ نعلِه السَّبعُ العُلا ٭ لمّا ارتقاها عارجًا ليُناجَى

٭٭٭

ومنها قوله رحمه الله :

نَثَرَتْ محاجرُ مُقْلتى من سِلْكِها ٭ دُرًّا وشَذْرًا مُفْرَغا من سِلْكِها
شوقا لمبعوثٍ أتى فاستبشرَتْ ٭ مُهجُ الورَى بنجاتها مِنْ هُلْكِها
عاينتُ مثلَ نعاله ومحمدٌ ٭ هوَ خاتمُ الأرسالِ وُسْطَى سِلْكِها
فوجدتُ فيها ريحَه ولرُبّما ٭ فاحَ النوافجُ بعد فُرْقة مِسْكِها
أشرِفْ بها نعلاً عمائمُ كلِّ ذى ٭ شرَفٍ تُقِرُّ بأنها مِن مِلْكِها
فلقد وَعَتْ قدمًا سمَتْ فى فَكِّها ٭ من راحتَىْ كُفْرانها أو شِرْكِها

جملت مواطئها الملائك عندما   أسرى به ليلا مواضع نسكها
يا ليت أعضائى شفاه كلها   فتى تقبلها شـفاهى تحكها
قد كنت ذا خوف ووحشة أبدلا   رغد المسرة للفؤاد بضنكها
فكأنها صك أنى عبدا وقد   تعطى الموالى أمنها فى صكها
وهلال أطلع فانجلى من وحشتى   ما قد تراكم من سحائب حلكها
فأنا العتيق وإن تشك النفس فى   عتقى بمحط للجبين عارض شكها [٦٩٢]
يا منجى الحوباء من بحر الردى   ولقد غدا لولاك معطب فلكها
شكوى غريق ذنوبه مهما شكت   حوباؤه لسواكم لم يشكها
ولقد أمرت بترك أسباب بها   تقوى الذنوب فما أخذت بتركها
ولئن هدمت مبانيا مستورة   بستور لطف لا سبيل لهتكها
فلقد بنيت من الرجاء مبانيا   ردت قوانك خيفتى عن فتكها
وجعلت حبك يا محمـــد أسها   علما بأن الأس ممسك سمكها
صلى عليك إلهنا ما ظل أنـ   ـف ذكرك العطر الشذا مستنشكها

* * *

ومن ذلك قوله رحمه الله :

أقول وهجرانى سيعقبه الوصل   فعقد الهوى الشرعى ما إن له حل
غداة رأت عينى مثال نعال من   بدا فهدى أهل السعادة إذ ضلوا
تمنيت لو أنى ظفرت بتربة   عليها مشت نعل بلابسها تعلو
فأكحل عينا أرمدت ببعاده   وليس سوى ذاك التراب لها كحل
هو الكحل يجلو ما بعينى من قذى   وكم كحل أن تكحل به العين لا يجلو
فطوباك طوبى ثم طوبى وحق أن   أردد طوبى ثم طوبى أيا نعل

فإنك قد أودعت رجلاً علت على   بساط علاً لم تعله قبلها رجل
فأقسم لو تؤتى الغمائم سؤلها   لما كان غير النعل كان لها سؤل
وناهيك من رجل مشت بمحمد   مفضل رسل الله إن عدت الرسل
أبو القاسم الأسمى الذى وطئ السما   فنودى من فيها ألا خلفه صلوا
ولو لم تطأها رجله كان للثرى   على الفلك الأعلى بموطئها الفضل
فيا مرسلاً ما فى النبيين مثله   رسولا وهل للشمس من جنسها مثل
أنرت ظلام الجهل فالقلب نير   محا العلم منه أحرفا خطها الجهل
فكان كمثل السيف أصبح صادئا   وأمسى وقد جلى مضا ربه الصقل
يلوح به الإيمان شكلا لناظر   ولولاك لم يطلع به ذلك الشكل
فحق لذى عقل بأن يقطع المدى   مدى عمره مادام يصحبه العقل
وما شغله إلا امتداح جلالكم   فنعم الفتى من شغله ذلك الشغل
أمولاى يا مولاى ألفا وبعده   كذلك ألف ثم ألف له قبل [٦٩٣]
عديد الحصى والرمل بل عد ما إذا   بدا فالحصى جزء بدا منه والرمل
لحبكم كهفى الذى مذ حللته   إذا اشتد بى كرب على الفور ينحل
وسيفى السريجى الذى مذ سللته   رأيت خطوب الجهل عنى تنسل
ورمحى الرديني الذى مذ شرعته   صرعت به شكلى فلا نعش الشكل(١)
وقوسى التى مذ سدد الصدق نبلها   أصابت أمنى ما خاب قط له نبل
فها أنا فى ظل من الأمن قاطع   على الأمن أن يمتد لى ذلك الظل
ومن يدرى ما أدرى من افضالك الذى   هو الباب والإفضال أجمعه قفل
أو الأصل والإفضال بعض فروعه   وما يستوى فى الرتبة الفرع والأصل

(١) كذا فى ط ، س . وفى م : « أتلى » . . . . « الثقل » .

يَتِمْ آمِناً من جَوْرِ دهرٍ صُرُوفُه … سواهم واستقضى وليس له عَدْلُ
محمدُ يا غَوْثِى وغَيْثِى كلما … تجهّمتِ الأيام أو أجحف المَحْلُ
محمد يا حِرْزِى وعِزّى كلما … تفاقمت الأهوالُ أو طرقَ الذُلُ
أكرّر فى أحوالىَ اسْمَكَ إنه … ـكالشهد ما كررته فى فمى يحلو
[أما إنه أحلى وأين مُجْتَنىً … فكم مُجْتَنٍ للشهد تلسعه النحل
وإن كان فى الشهدِ الشفاءُ لمشتكٍ … بعلّة جسم أصلُها الشربُ والأكل
فباسمك يُشْفَى كلُّ قلب إذا اشتكى … إليكَ بداء جرّه القول والفعل
وما جسدُ الإنسان مثل فؤاده … فمنزل ذا عُلْوٌ ومنزِل ذا سُفْل
فبالفضل يا ذا الفضل والبذل إن عدتْ … خطوبٌ ولمّا يُلْف فضلٌ ولا بذل
أجِرْنىَ من نارٍ ضريعٌ طَعامُها … ومُهْلٌ وما يغنى ضريعٌ ولا مُهل
ومن أهلها العاصى أوامرَ ربّه … وإنّى لها أو يغفر اللهُ لى أهل
أما إننى أرجو النجاةَ وإن تكن … ذُنوبىَ حِمْلا لا يطاق لها حَمْل
فإنّىَ قد أعددتُ أىَّ ذَخِيرةٍ … تخفّفُ من ثِقْل الذُنوب فلا ثِقْل
هواكَ الذى المعضِـلات خَبَأْتُه … فمن مُهْجَتِى حقٌّ ومن غيرتِى قُفْل
ألا هكذا فليَخْبَإِ الحُبَّ مُذْنِبٌ … إذا ما سَلا أهلُ المحبة لا يسلو
وإن يخلُ معمورُ القلوب من الهوى … فما قلبُه المعمورُ من حبه يخلو
وإن يستَحِلْ وقتاً غرامٌ فيختَلِلْ … فما حبُّه يعتلُّ وقتاً فيختلّ
فكمْ بينَ مَنْ قدْ تَيّمَ الفضلُ والعُلا … وبينَ الذى قدْ تيم الغُنْجُ والدَلّ
لَبَيْنَهُمَا ما بين وَصْلٍ وقَطْعةٍ … وهيهات ما بالقطع يشْتَبِهُ الوَصل
وإن غَرَسَتْ كفّاهما شَجَرَ الهوى … فمغروس ذا شَرْىٌ ومغروس ذا نَخْل
فيا قلبىَ أخْلِلْ من هواكَ بِجُنّةٍ … بها احتلّ قلبٌ حبُّه ليس يَعْتَلّ [٦٩٤]

وَنادِ الوَرَى إنِّى احتللتُ بجنَّةٍ ... بها كلُّ مَن يهوَى هواىَ سيحتلُّ
أُديرُ بها كأسًا دِهاقًا وما سِوَى ... سرورى بمحبوبى مُدامٌ ولا نُقْلُ
هى الخمرُ لم يَتْلَفْ بها عقلُ شاربٍ ... وتلك حرامٌ فى الكتاب وذى حِلُّ
ويا فكرِىَ الرّامى المصيبَ بِنَبْلِهِ ... مَقاتِلَ أغراضٍ أراها له النُّبْلُ
وفى قتلها عند اللبيب حياتُها ... ومن أعجب الأشياء أن يُحْيِىَ القتلُ
بتأليف شملِ المدحِ فى المصطفى اشتغِلْ ... يُمِنْكَ على تأليفه ذلك الشَّمْلُ
فذاكَ محلٌّ للمدائحِ قابلٌ ... إذا انحصرتْ فيه مَدائحُ مَنْ قَبْلُ
مَحلٌّ يُسَمَّى فى عُلاه مُقصِّرًا ... أديبٌ وفى الأمداحِ مَنْ طَبْعُه يَغْلُو
محلٌّ علَا فوق السماء ولم يكُنْ ... لأعْلَى محلٍّ ذلك الغُلْوَ أن يعلو
فقل للأديب المُكثِرِ القولِ فى حِلَى ... عُلاه : كثيرُ القولِ فى مَجْدِهِ قُلُّ
فضائله بحرٌ وسَجْلٌ كلامُنا ... وليس يُفيضُ البحرَ دلْوٌ ولا سَجْلُ
وتالله ما البحرُ الغطامطُ مُشبِهًا ... فضائلَهُ أو يُشبِهَ الوابلَ الطلُّ
ولكنها الأمثال تُضرَبُ للوَرَى ... وليسَ من المشروط أن يُفضَلَ الكُلُّ
وقد ضرب الله الأقلَّ لنورِه ... فقال كمشكاةٍ وليس له مِثْلُ
أخيرَ رسولٍ جاء للخلق هاديًا ... وقد دَرَسَتْ سُبْلُ النّجاة فلا سُبْلُ
وكُلُّهمُ نَشوانُ من خَمْرَةِ الهوَى ... فمعبودُهم نَسْرٌ ومَدْعُوُّهم بَعْلُ
فما منهمُ إلا أسيرُ ضَلالَةٍ ... ففى جيده غُلٌّ وفى رِجْلِهِ كَبْلُ
فدُلُّوا عَلَى سُبْلِ النّجاة بنورِهِ ... جميعًا ولولا ذلك النورُ ما دُلُّوا
فأعقبَ ذاكَ النورُ مدلولَه حِلًى ... ففى جيدِه عِقْدٌ وفى رِجْلِه حِجْلُ
وقفتُ بباب الجودِ والكرَمِ الّذى ... غمامتُه وَطْفًا وعارضُه وَبْلُ
فما كرَمٌ يُرْوَى عنِ الجُودِ واهبًا ... مَواهبُه تَتْرَى ونائلُه جَزْلُ

وَقِيسَ بِذَا إلّا وقال أولو النُّهَى — ألا إنّ ذاكَ الجودَ فى جَنْبِ ذا بُخْلُ
ولى حاجةٌ عَنَّتْ إليك ، قضاؤها — عليك بفضل الله يا سيدى سَهْلُ
زيارةُ أرضٍ طيّبَ الله تُرْبَها — فما المسكُ مفضوضَ الختامِ لها شَكْلُ
هِىَ البَلْدَةُ الغَرّاءُ طَيْبَةُ الّتى — بها دِيَمُ الرُّحْمَى مَدَى الدَّهرِ تَنْهَلُّ
فمَنْ حَلَّ مَثْوًى أنت فيه مُخَيِّمٌ — ويا طيبَ أقوامٍ بطَيْبَةَ قد حَلُّوا
يكُنْ آمِنًا مِنْ كل حُزْنٍ وَخِيفَةٍ — ويعظمْ له جاهٌ ويَكرمْ له نُزْلُ [٦٩٥]
فما داخلٌ عَدْنًا يخاف من الردى — وتشهد آياتُ الكتابِ الذى تتلو
ولا فَرْقَ ما بيْنَ الجِنانِ وبينَها — لَدَى من لهُ عَقْلٌ من الناس أو نَقْلُ
وصلّى عليكَ الله ما هبّتِ الصَّبا — وما كان للمُزْنِ التى أعصرتْ هَطْلُ

***

وله فى تشبيه نعل الرسول

ومما له أيضا رحمه ، ملتزما تشبيه النَّعل المختصة بالشرف والرفعة ، وقد أبصرها مرسومة بالحبر فى رُقْعة :

إشْفَقْ برؤيتها يا نفسىَ الدَّنِفَهْ — نَعْلًا لرجل رسول الله مُكْتَنِفَهْ
كأنّ طِرْسًا به بالحبر قد رُسِمَتْ — بُرْدٌ مِنَ الحِبَرَاتِ البيضِ ذُو صَنِفَهْ

***

وله فى وصف النعل أيضا

ومما له أيضا نفعه الله بها ، ورَسَمَ مِثال النَّعْل الكريمة إثْرَها :

يا سائلًا أُفْتيـه إثْرَ سُؤالِهِ — عمّا يَرَى إنْ يَشْكُ مِنْ إشْكالِهِ
تُرِهِ سَوادَ القلبِ والعينينِ فى — شكْلٍ هلالُ الأفقِ مِنْ أشْكالِه
أخطأتُ لستُ بعائدٍ ولـكمْ مُصيـ — ـبٍ مُخْطِئٌ فى البعض مِنْ أقوالِه
فالبدرُ يُكسَفُ فى منازل سَعْدِه — ويصيبُه النقصانُ إثْرَ كمالِه
وكلاهما شَيْنٌ وهـذا قد وُقِى — مِنْ كل شَيْنٍ بَدْرُ سِرِّ جمالِه

أَوَلَيْسَ تِمْثَالُ النِّعَالِ نِعَالِ مَنْ   وَطِئَ السَّمٰوَاتِ العُــــلَى بِنِعَالِهِ
نَعْلٌ بِلَابِسِهَا بَأَتْ وَيَحِقُّ أَنْ   تَبْأَى به لجــــلاله وخلاله
فلقد حَوَتْ رِجْلًا مَشَتْ بالصفوة الـــمختار عند الله من أرساله
فَالْثِمْهُ تِمْثَالًا لهـــا لَثْمَ امْرِئٍ   بِالْلَثْمِ يُرْوَى مِنْ صَدَى بَلْبَالِه
فَلَرُبَّ مُشْتَاقٍ رَأَى آثَارَ مَنْ   يَشْتَاقُهُ فَشَفَتْــهُ مِنْ أَوْجَالِه
أَوَ مَا تَرَى يَعْقُوبَ عَادَ بِثَوْبِ مَنْ   يَهْوَى سَنَى عَيْنَيْه بعد زواله
وهواىَ فى مولاىَ يفضُلُ حُبَّ يَعْـــقُوبٍ عَلَى المَرْوِىِّ مِنْ أَحْوَالِه
فمحمدٌ هو مُنْتَقًى من مَلْكِ شِمْرِ   لِكَ كُنْتُ طَوْعَ يَمِينِهِ وشِمَالِه
قَطَعَتْ هِدَايَتُه حِبَالَ ضَــلَالَتِى   بِحُسَامِهَا الجالى الرَّدَى بِصِقَالِه
فَغَدَوْتُ مُعْتَقَلًا ورُحْتُ مُسَرَّحًا   مُتَمَسِّكًا مِنْ هَدْيِهِ بحباله
يرتاح فى عَدْنِ الهُدَى قلبِى ولا   يَخْشَى الإعادَةَ فى جَحِيمِ ضَلَالِه
أَصِلُ النِّــداءَ مُعَرَّفًا بعوارفٍ   بلغ الفؤادُ بهـا مَدَى آماله
[٦٩٦] يا قومُ إقرارُ امرئٍ بفضـائلٍ   عَظُمَتْ عَلَىَّ لأحمــــدٍ ولآلِهِ
كنتُ الذليلَ فمُذْ تملَّك مجدُه   نفسِى بما قد كان مِنْ إفْضَالِه
ما زال يسمو فى عَزَازَةِ عَبْدِه   حتى محا بالعزِّ نُقْطَةَ ذاله
فأنا الذليلُ لأَعْبُدٍ ذَلُّوا عَلَى   أَنْ يُصْبِحوا مِثْلِى عَبِيدَ جَلَاله
مولاىَ يامولاىَ أَلْفًا مُرْدَفًا   بِمِثَالِه ومِثَالِه ومِثَـــالِه
أَضْعَافَ أَضْعَافِ الّذِى فى البَحْرِ مِنْ   نُقَطٍ: أُجَاجِ المَاءِ أَوْ سَلْسَالِه
أنا عَبْدُكَ القِنُّ الذى أَطْلَقْتَــهُ   مِنْ جَهْلٍ أَوْثَقَ مُهْجَتِى بِعِقَالِه
فَبِمَا عَلَىَّ لَكُمْ من الفضلِ الّذِى   ضَعُفَتْ قُوَى شُكْرِى عَنِ اسْتِقْلَالِه
إلَّا سَمَحْتَ إلى الأُسَاةِ بِطَيْبَةٍ   جِسْمًا شَكَا بِفِرَاقِ قَلْبٍ وَالِه

وأظنه والظنُّ يَصْدُق عامُنا — عِنْـــدِي وإنّي لَلْخَبيرُ بحالهِ
قد حَلَّ من فَلَكِ العُلَى حيثُ الحِلَى — شُهُبٌ تَحُفُّ بشمسه وهلاله
بَلَدًا يذُودُ المارقين جَـــلَالُه — بسيوفه ولِدَانِه ونِبَـــــاله
فكأنّه كِيرٌ نَفَى خَبَثًا وأبْـــقَى من رَضِى الرَّحْمٰنِ باستهاله
أربى عَلَى أمثـــاله ورَجحته — لأفكتُ فى قولى عَلَى أمثاله
فالأرضُ مثلُ ذُبالةٍ وهوَ السَّنَى — منها وكم بين السَّنَى وذُباله
هو طَيْبَةُ الغَرّاء أشرفُ موْطِنٍ — حثَّ النُّهى شرعا على إجْلاله
حَرَمٌ متى ما حَلّه ذو خِيفَةٍ — يأْمَنْ به فى حاله ومآله
أُمِرَ المَلَائِكُ بالدُّعاء لأهلِهِ — أهلِ الفخار نسائه ورجاله
وارَى ثَرَاه مَنْ لأجل سَناه خَرَّ الفَلَكُ المخـــلوق من صَلْصاله
ونجا ابن لامَكَ فى السَّفِينِ إذِ استوى — ماء الرَّدى بسهوله وجِباله
ونجا ابن آزَرَ مِنْ لَظَى الإشراكِ إذ — نال الذى قد نال مِنْ تِمْثاله
وفُدِى ابنُ هَاجَرَ حين تَلَّ وإنّهُ — لَمُسَلِّمٌ لأبيـــــه فى أفعاله
واحتلَّ إدريسٌ مكانًا فى السَّما — أسمَى ، مَنالُ النَّجْمِ دون مَناله
والمرء يُخْلَقُ من ثَرَى القَبْرِ الذى — سيَكون مُنطبِقًا على أوصاله
هـذا حديثٌ صَحَّ عنه لدَى الأُلَى — نقلوا عُمُود مَقـــاله وفِعاله
ولذاك قال بفضل طَيْبَةَ مالكٌ — وهْوَ الإمامُ المُقْتَدَى بمقاله
إذ لا تُراب أجلُّ من تُرْبٍ نَشا — منه حبيب اللهِ مِن أرساله
فهناكَ يُضْحِى الجسمُ مُتَّصِلًا عن — أشجاه وهو القلبُ يومَ فِصَاله
أسْعِدْ بمُجْتَمِعَيْنِ فى دار بها — شَخْصُ الّذى فنَعَما بطيْفِ خياله [٦٩٧]
مولاىَ إنْ لم تُؤتِ عبدَكَ سُؤْلَه — ورددتَ خائبةً يمينَ سُؤاله

لا عَتْبَ بل عُتْبَى فما هو صالحٌ بك لِلذي قد ساء من أعماله
لكنّ سُنّةَ سيدي في عَبدِه إسعافُه ما دام من سؤاله
والصفحُ عن زلّاته ولَوَ أنها كالرّمْل عَدًّا في جميع رِماله
ومتى يَجُدْ فالغيثُ إلّا أنّهُ عمّ الخليقـــة كُلّها بنواله
ومتى يُجِرْ فالليثُ إلا أنه يَضْحِي المُجارُ لَدَيْهِ من أشباله
فالخائفون المُعْسِرون مؤمّنو نَ ومُوسِرونَ بجاهه وبماله
هَذِي خِصالٌ من خِصال جَمّة ومَنِ الذي يُحْصِي شريفَ خِصاله
صلّى عليه إلهنا من مُرسَلٍ وَجَدَ الوجودُ الخيرَ في إرساله

* * *

وله أيضاً في النعل الكريمة

ومما له أيضًا تقبل الله منه ، ولا صرف وجه وقايته بمنّه وكرمه عنه :

خُذْهُ أيا صاحِ خُـــذِ تِمثالَ نَعْـــلٍ قد حُذِي
على نعالِ أحمـــدٍ مُنْجِي الأنام المنقـذ
السيّـــدِ المختار مِنْ قبيــلَةٍ وَفَخِـــذ
ذي الطَّوْلِ ذي الفضل الذي حِلَاهُ لا تُحْصَى بِذِي
وانظُرْ إليـــه نظـرةً يُجْلَى بها طَـرْفٌ قَذِي
وقَبِّلَنْـــهُ دائمـــا تقبيـــلَ ذي تَلَذُّذ
وَقُـــلْ إذا قَبَّلْتَـــه ذي قُبَـــلٌ تَلَذَّذِ
ونادِهِ يا ســـيدًا بغـــيره لم ألُذ
شَكْوَى مُحِبٍّ ما دَرَى غير الهوى مِنْ مَأْخَذ
رُمِي بِنَبْـــلٍ للنوى صـوائبٍ لم تُشْـحَذ
لكنّها مهمـــا رُمِي بهـــا فليس تنفُــذ

فقلبهُ من رشقها كمثل جلد القنفذِ
وقد رجوتُ والرجا نهجى الذى قد احتذى
إذ التقى بالقرب من هذا النوى المستحوذ
وبالجلال النبوىّ الهاشمى تعوّذى [٦٦٨]
من أن يضيع لى هوًى به فؤادى يغتذى
فيا فؤادى بالقرا أقصى المحل انبذ
وإن تسرْ للسمع من زمرّذِ الدجى خذ
وأرهِ لمقلتيها كى تسيل ذى وذى
فذاك فى الأفاعى من عوائد الزمرذ

***

ومما له أيضا رحمه الله تعالى : وله أيضاً فيها

يا مغرما برسولٍ لم يخلقِ الله مثلَه
هذا مثالُ نعالٍ شراكُها(١) ضمّ رِجْلَه
أشرفْ بها ثم أشرفْ نعلاً تماثل نعلَه
فقبّلنْ فيه مثلى تقبيلَ صبٍّ مُوَلَّه
فربَّ شاكى اشتياقٍ نال الشفاء بقُبْلَه
يا ربِّ أشكوك شوقى والشوقُ أعضلُ عِلَّه
فقرّبِ الدار ممّن أبنتَ فى الرسْل فضلَه
فهْو الذى بنواهُ فؤادُ عبدِك وَلَّه
صلّى الإله عليه من شارعٍ خيرَ قِبْلَه

---

(١) فى س : « قبالها » .

وفاسخٍ كلَّ حُكْمٍ ... وناسخٍ كلَّ مِلَّهْ
ما حرَّكَ الوَجْدُ قلبا ... وأرّقَ البُعْدُ مُقْلَهْ

* * *

وله أيضاً في ذلك الغرض

ومما له أيضا، تقبَّل الله عمله، و بلّغه أمله:

انظُرْ إلى هِلَالا ... فاق البُدورَ جمالا
أستغفرُ اللهَ ربّي ... فقد أفكْتُ مَقالا
فالمحَقُ ليس مُصيبي ... وقد يُصيبُ الهلالا
لكنْ حكَيْتُ نِعالا ... لسيِّدٍ قد تعالى
شأى النبيِّين جاهًا ... وحُظوةً وخِلالا
فإن شكوتَ بشوقٍ ... فؤادكَ الصَّبَّ نالا
فَلتَلثِمنّي فَلثْمِي ... يَشفِي اشتياقًا توالى
نعم لثمتُكِ شوقًا ... لما حكيتِ النِّعالا
ومَنْ يظُنّ بنعْلٍ ... شُغفتُ ظنّ المُحالا
بلابسِ النّعْلِ هِمْنا ... ومنه نبغي الوِصالا
يا ربّ يشكوك قلبي ... يشكوك صادًا ودالا
فقرّب الدّارَ ممّن ... برأت فاءً وذالا
فما لأحمدَ ندري ... في المرسلين مِثالا
هذا وإن كان منهم ... والكلُّ حازَ الكمالا
ففي السّما نيّراتٌ ... وكلُّها يتلالا
وليس منها مُضاهٍ ... للشمس في النور لا لا [٦٩٩]

صَلّى عليه إلٰهٌ   به أزالَ الضَّلالا
ما أنجحَ الحزمُ قولًا   أو ألزمَ العتبُ حالا
ثم سلامُ عُبَيْدٍ   ما إنْ عنِ الرِّقِّ حالا
يخصُّ مولًى كريمًا   عَمَّ العبيدَ نوالا
وآلِه خيرَ آلٍ   إنْ عدّدَ الخلقُ آلا
ما أطلعَ الأفقُ شمسًا   وأنشأ الجوُّ آلا

* * *

وله أيضا في ذلك

ومن قوله أيضا، رحمه الله، وهي من أول ما قاله :

بكيتُ وقدْ رأيتُ مِثالَ نعلِهْ   بكاءَ هوًى عنِ الأحبابِ وُلِّهْ
وما حُبُّ النِّعالِ أسالَ دمعي   ولكن حُبُّ مَنْ كَرُمتْ بِرِجْلِهِ
محمدًا الرفيعَ القدرِ أعني   حبيبَ اللهِ أحمدَ خيرَ رُسْلِهِ
عليه سلامُ ذي مِقَةٍ مَشُوقٍ   إليه ظلَّ مُعْتصِمًا بحبلِهِ
مَدَى افتخرَتْ سَمَوَاتٌ وأرضٌ   على حُرِّ الخدودِ بوطءِ نَعْلِهِ

* * *

وله في ذلك وقد نحا منحى رائية أبي الربيع بن سالم

وله رحمه الله قصيدة مطولة، نحا بها منحى رائيّة أبي الرّبيع بن سالم، وهي :

تَبَدّتْ لنا والشّوقُ يَقْدَحُ زَنْدَهُ   بقلبِ شَجٍ لا وَجْدَ يُشْبِهُ وَجْدَهُ
نِعالُ رسولِ اللهِ أشْرِفْ بنعلِ مَنْ   قد اختصَّ بين الرُّسْلِ بالسِّرِّ وحْدَهُ
وإلّا تكن نعْلَ الرسول فإنَّها   مِثالٌ وكمْ نَدٍّ يُذَكِّرُ نِدَّهُ
فيا ناظرًا منها حديقًا تعاهدتْ   عِهادُ الحيا تُرْوِي رُباه ووَهْدَهُ [٧٠٠]
فَلِلّهِ ما أذكى وأطيبَ نفْحَهُ   إذا حرَّكتْ ريحُ الصَّبابةِ زَنْدَهُ

وأطلعَ شوقُ الحبّ بدرًا بهَالَةٍ ... وشمّت أرومُ القرب في الصيف وردَهُ
على النَّوْرِ قبّل فيه تقبيل فاخرٍ ... بمولًى أعزّ الله في الخلق عبدَه
ونزّه به طرفًا جفا النومُ جفنَـــه ... ومرّغ به خدًّا دمُ الجفن خدّه
فربّتَ ذي وجدٍ رأى أثرًا لمَنْ ... له وَجْـــدُه يومًا فأطفأ وَجْدَه
أمولايَ يا أعلى النبيّين منزلًا ... لدى الله والمُختصّ بالفضل عنده
نِداء عُبَيْدٍ أضرمَ الشوقُ وَجْدَه ... فباح محبٍّ أبرمَ الصّدقِ عقْدَه
[وإنّ الهوى ما لم يَبِنْ كَخَمْرَةٍ ... بمنقودها والسَّقْطِ لازمَ زَنْده
بحقّ هواي المحضِ فيك الذى متى ... يُقسْ بهوًى فى الدهر أُلْفِيَ وَحدَه
أنِلْنِيَ ما أبغيـه منكَ وإنّه ... زيارةُ قــبرٍ شرّف اللهُ لَحْدَه
بأشرفِ جُثمانٍ لأشرفِ رُوحِ مَنْ ... وَقَى اللهُ ممـا يوهنُ المجدَ مجْدَه
هو المجدُ لا مجـــدٌ يُماثلُه وهلْ ... يماثلُ صفحُ السيفِ فى القطع حَدَّه
سكِرتُ وما خمرى سوى حُبّه ومَنْ ... حَسَا خمرَ هذا الحبّ لم يخشَ حَدَّه
فيا طَيْبةٌ الغرّاء أسعدَ منزلٍ ... تودّ[1] النجومُ الزُّهرُ تنزيلَ وُهْدَه
ألا فاحملى بَنْـدَ الفخار وحقِّقى ... بأنّك قد شرُفتِ بالحمـل بَنْدَه
ونُوطِى على جِيد العُلا عِقْدَه تُرَىْ ... مُشرّفةً أيضا بذلك عِقْـدَه
بأعضاء مُختار مِنَ الخلق مُرْسَلٍ ... إليهم بدينٍ أوثقَ الله عَهْدَه
به نُسِخَتْ أديانُ من كان قبلَه ... ولا دينَ يأتى الخلقَ للحشرِ بعده
به شاد أبراجَ العُلا اللهُ رَبُّهُ ... وثَلَّ به عرشَ الضــلال وهدَّه
وردَّ به عنا الرَّدَى وهْوَ مُقْبِلٌ ... وما كانَ لولا جاهُه ليَرُدَّه
رسولٌ على الأرسال فضّــله الذى ... حَبَاه بمـا لا يبلغ النطقُ عدَّه

(١) فى هامش ص : «ثنى» .

وإن كان رُسْلُ الله صلّى عليهمُ … وسلّمَ ما ضِدٌّ ينافرُ ضِدَّهُ
حكَوْا سُوَرَ القرآن نورًا وحكمةً … فأحمدُ قد أضحى من الرُّسْلِ حَمْدَه
وفى الحمد ما فيها من الشرف الذى … يُبين لمبتدئٍ من الناس رُشْدَه
وحَسْبُك أنْ يَبْدا ويختِمَ قارئٌ … بها ومُصَلٍّ فرضَه ثم وِرْدَه
كذاك رسولُ الله أوّلٌ آخرٌ … له المنزلُ الأعلى الذى لن نحُدَّه
أمولايَ ذا قصْدى إليك وأنت مَنْ … يبلّغُ ذا الشوقِ المُبَرِّح قصدَه
فيا طِيبَ عبدٍ واصلٍ أرضَ طَيْبةٍ … يُمرّغُ فى تلك المعاهدِ خَدَّه
معاهدُ أمسى الأُنْسُ منها بظاهرها … لذى وَحْشةٍ قد قرّب الله بُعْدَه
وأصبح منقولا إلى بطنها فيا … وَجاهةَ بطنٍ قد وَعاه وسَعْدَه
سَعيدٌ صَعيدٌ منه أُنشِئَ أحمدٌ … وفيه الذى أنشا به الفضلَ رَدَّه
فكان كمثل الوَرْدِ فارَقَ وَرْدَه … لمنفعـــةٍ ما ثم عاود وردَه
أخيرَ كريمٍ ليس تطرُق آفةٌ … فتًى حبُّــه للطارقات أعدَّه
عليك وأنت السيّدُ العَلَمُ الذى … أفاد الثّنا بَهْرَ السَّنَى ومُعَدَّه (١)
بل العالمَ الإنسى عموما ومنهمُ … خصوصا فريق أكمل الله جَدَّه
هى الأمة العُليا التى هُدِيَتْ وَمَنْ … أُريد به خيرٌ من الخلق يَهْدِه
صلاةٌ وتسليمٌ ورُحمى مَدى انتمى … لك الفضل يا فذَّ الوجود وفردَه]
عديدَ صنوف الخلق عُلْوًا وأسفلاً … صُمُوتًا وذا نطق جمادًا وضدَّه
ولستُ مجيزًا أن أضيف إلى كذا … بعدّى فيأتى ما لسانىَ حدَّه
كشمس الضُّحى كالمسك كالقطر لم يَنُطْ(٢) … به بَرْقَه الأفقُ الصَّقيلُ ورعْدَه
أجاعِلَ تشبيهى حقيقةَ النّفتْ … غلطْتَ فللباب المجازىّ رُدَّه
فشمس الضحى والمسك والقطر عابها … أخو النّقد والبرهانُ يعضد نقدَه

(١) كذا فى ص . وفى م : « أجاد الثنا قهر الثناء ومعده » . (٢) فى م : « ينل » .

بكشف وإمساك وهذا دليله على ذاك والإيضاح لم يتعده
وتلك التى شبهتها سلمت سنى فجاءت كما شاء الكمال وده
صلاة وتسليما ورحمى على الذى سنى وحى ذى العرش المجيد أمده
على العروة الوثقى على القمر الذى على الخلق ظل الأمن والمن مده
على منقذ الإنسان من حفر الردى ولولا سناه كان فيها يدهده
على من له الخلق العظيم على الذى أبان جميع الرسل والكتب جده
على من له المجد الصميم على الذى به شرف الرحمن آدم جده
على أحمد المعروف فى ظهر آدم بترديده شكر الإله وحمده
على مجتبى قد نور الله قلبه على مصطفى قد طهر الله برده

* * *

له المعجزات اللاء لحن لطرف من نفى نومه سعد وأثبت سهده
فمنها انشقاق البدر ثم نزوله رآه الذى التوفيق وافق رشده
ومنها حنين الجذع بالمسجد الذى بطيبة لما آنس الجذع فقده
ومنها طلوع القرص بعد غروبه وما بسوى دعوى دعاها استرده
ومنها سقوط السيف من كف غورث وقد كان مقدام الضلال ونجده
ومنها انفجار الماء من بين أنمل تقسم فى أبناء آدم رفده [٧٠١]
إلى أن روى منه الخميس فيا له خميسا أطاب الله ذو الفضل ورده
ومنها نماء التمر حتى قضى به ديون أبيه جابر حين جده
ومنها كلام الشاة تنهى عن أكلها فلم يبلغ السم بالسم قصده
ومنها كلام الضب والجمل الذى شكا كده المولى قواه وجلده
وكيف مواليه يريدون نحره ولما يراعوا فيه بالأمس كده

ومنها البعيرُ المبطئُ السَّيْرِ ساطَه   فما وَخَدَتْ من بعد ذا النُّجْبُ وَخْدَهُ

إلى غيرها من معجزاتٍ بواهرٍ   فضحن عدُوًّا باغيًا رامَ جحْدَه

تُكاثِرُ رملَ الأرض عدًّا ونبتَها   وتفضُلُ سِلْكَ الدُّرِّ حُسْنًا وعِقْدَه

وتُزْرِى سَنًى بالنَّيِّرَيْنِ توصُّلَا   من الفلكِ المجلُوّ بالصَّحْوِ كَبْدَه

❊ ❊ ❊

ومما به قد خصَّه الله رحمةً   وفضلًا وفخرًا قد قضى الله خلْدَه

صحابتُه الغُرُّ الألَى سعِدُوا ففى   قلوبهم قد أسْكَنَ الله وُدَّه

هُمُ نصَرُوا دين الهُدَى بسُيوفهم   كما خذَلوا نسْرَ الضّلال ووَدَّه

وأولهُمْ سبْقًا وحيدُهُمُ حِلًى   وأوْجَهُهُمْ عند الإله وعِنْدَه

مُقرَّبُهُ محْبُوبُهُ مُصْطفَاه مِنْ   جميعهم لا خلْقَ يَعْلَمُ نِدَّه

خَلِيفتُه فى المسلمين الذى لهُ   مناقبُ عُودَ الطَّيِّبِ تُنْسِى وَنَدَّه

مُيَمِّمُ ضُلَّالِ اليمامة غازيًا   لِيُرْوِى دمًا قُضْبَ الحديد وصُلْدَه

فما سَلِمَ الكذَّاب منها رئيسُهُمْ   مُسَيْلِمُ خنزيرَ الضّلالِ وَقِرْدَه

أقاويلُه الزُّورِيَّةُ الآلاء قد دَجَتْ   ورأسُ الدُّجى لا شكَّ بالنور يشْدَه

مقاتِلُ أهلِ الرِّدَّةِ الرِّجْسِ الألَى   نَحَوْا سدَّ بابٍ حرَّمَ الله سدَّه

أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ أصْدَقُ صاحبٍ   وأبذلُهُم فى نُصْرَةِ الدِّين جهْدَه

❊ ❊ ❊

وثانيهم الموصوفُ بالشِّدَّةِ التى   بها دينَه قوَّى الإلهُ وشدَّه

مُلاقِى خطوبِ الدَّهْرِ منه بعزْمَةٍ   تَحُلُّ من الخَطْبِ الكريه أشَدَّه

مكسِّرُ كِسْرَى الفُرسِ واضعُ تاجِه   مُقَلِّبُه بالعُود يُظهِر زُهْدَه

مُقَصِّرُ أعمارِ القياصِرِ بالقَنَا   مُدِذْنَ وبالصَّمْصامِ مزَّقَ غِمْدَه

مُواصِلُ أسبابِ الهُدَى النَّدْسُ الذي ... عن الحقِّ حاشاه من الدّهرِ صَدُّهُ
[أميرُهُمُ فاروقُهمْ عُمَرُ الذي ... مَدَى العمرِ لم يَفْرَقْ من الأمرِ آدُه

* * *

وثالثُهم ذو الهجرتين الفتى الذي ... شكا هَجْرَه شخصُ النّعيمِ وصدَّه]
مجمِّعُ ما في الذِّكْرِ من سُوَرٍ ومَنْ ... مَتَى رُدَّ داعٍ قد دعا لم يَرُدَّه (١) [٧٠٢]
[مُجَهِّزُ جيشِ العُسْرَةِ الفاضلُ الذي ... تَرَدَّى رِداءً غيرُه لم يُرَدَّه]
فذلك عثمانُ الشهيدُ بداره ... بسيفِ شقيٍّ في لظًى يَتَدَهْدَه
أبو عمرٍو المعمورُ قلبًا بذكرِ مَنْ ... له من ضروبِ الصَّخْرِ أَنْطَقَ صَلْدَه
فسبَّحَتِ الحَصْباءُ في كفِّه كما ... أتى في حديثٍ أكْثَرَ الناسُ سَرْدَه

* * *

ورابعُهم مَن ألبسته يدُ العلا ... أجلَّ قميصٍ للعُلا وأجدَّه
[ووشَّحه إيمانُه وجَنانُه ... أجَدَّ حسامٍ للطُّلى وأحدَّه]
تسمَّى لتفريقِ الفقارِ به بذي الـ ... ـفقارِ فما أفْرَى وأقْطَعَ حدَّه
هو السيفُ لم تَجْلُ الصَّياقلُ صفحَه ... ولا رقَمَتْ أيدي القُيُونِ فِرِنْدَه
تزوَّجَ بنتَ الموتِ بِكْرًا صداقُها ... أجلُّ صَداقٍ أحكمَ الحبُّ عَقْدَه
وليس سوى الأرواحِ أشركْنَ بالذي ... براهُنَّ ما أكلا وعجَّلَ نقدَه (٢)
ومن جنةِ الفردوسِ كان خروجُه ... لهذي وتلك الدارُ كانت مَرَدَّه
فيا عُظْمَ ما أبلى به في مواطنٍ ... تُشَيِّبُ رأسَ الطفلِ لم يَعْدُ مَهْدَه
إمامٌ همامٌ قاسرٌ (٣) كلَّ قَسْوَرٍ ... ومدركُه لو كانت الريحُ نَهْدَه
به فتحَ الرحمنُ خَيْبَرَ عَنْوةً ... وسدَّ به ما قبلَه لم يَسُدَّه

(١) يشير إلى مسارعة عثمان إلى الإسلام في الوقت الذي كان الناس فيه يردون دعوة الداعي إليه. (٢) كذا في ط ، ص . وفي م : « براهن نال كل عجل ونقده » .
(٣) في ط : « قاصر » ، وهما بمعنى .

وكان رسول الله قال لأعْطِيَنْ … غدًا راية الفتح المبين وبَنْده
فتًى وَدّه خَـــــلاقه وأوده … كما ودّنا والله يَنْشر وُدّه
فلم يك يُعْطاها سِواه كرامةً … بها اختصّه مَنْ شَدّ بالعَضْد عَضْده
[وقد كان مشدود المحاجر أرْمدًا … ففتّح رِيقُ الحِبّ ما الدّاء سدّه
فهب هبوب الريح قسْوَرُ جحفل … تولّى به ربُّ البريّة عضده]
وبالباب بابِ الحصن يسراه ترّست … فلله منه قسور ما أشدّه
هو الآية العظمى التى طُفِئَتْ به … من الكفر ماقد أضرم الجهْلُ وَقْده
ومن كان مولاه الرسول فإنه … كذلك مولاه فطاو بالك عبدَه
أبوه الذى رَبّى النبىّ ولم يزل … له حاميا فى السّرّ والجهر جهْده
متى خاصمت فيه قريش تلقّهم … خصيمَ اللسان الهاشمىّ ولدّه
ومن قوله فيـــه يعظم شأنَه … وينشر ما الرحمٰن أودعَ مجده
« وأبيضَ يُستسقَى الغمامُ بوجهه » … ثمالُ يتيم كدّر اليُتْمُ وِرْده
فياحسرتَا إن مات لم يَجْنِ زهرة … قد أبْرَزَها الإيمان بالله وحده
ولـكنها الأقدارُ تنفذ بالذى … نودّ وقد تجرى بما لن نودّه
فينأى الذى أدْنى ويُدْنى الذى نآى … وكلٌّ بعلمٍ يجهلُ العبدُ قصده
ونجلاه سبطا المصطفى السيّدان مِن … بنى المجدِ لا ضيمٌ ينالُ مُعَدّه
حبيباه فى الدارين ريحانتاه لم … يزل منهما يستنشق الوردُ وِرْده [٧٠٣]
وأمّهما من أحمدٍ بَضْعةٌ ومن … يكن من رسول الله جُزْءا يُمدّه
أفاطم لم يبلغ نُصَيْفَك فاضلٌ … من الخلق لم يبلغ أولو الفضل مدّه
فيا صاح قل لا مجد يشبه مجده … وصوتك مهما قلت « لا » فلتمدّه
أبو الحسنِ الأسْمَى علىُّ العُلا الذى … هو البحرُ لم تُدْرِك يَدُ الجزْر مَدّه

❊ ❊ ❊

وخامسُهم بحرُ النَّدَى الأسَدُ الذى ... يَبُذُّ ليوث الباسِ أَيْدًا وأشْدَه
مُفَدَّى رسولِ الله بالوالدين إذ ... مَلا قلبَه المغسُولَ بَرْدًا وكِبدَه
وبشَّرَ من قد حَزَّ بالسيف رأسَه ... لئيمَ زمانٍ كان فيه وَوَغدَه
بنارٍ لها غيظٌ على كل قاتل ... بعَمْد فما أَردَى وأشأمَ عَمْدَه
حواريُّه مَنْ قد حَوَى زِيَّه سوَى ... سنَى العلمِ بالرحمن كان مُمِدَّه
أبو عابدِ الله الزبيرُ الذى امتطى ... مُطهَّمَةَ المجد الأثيل وجُرْدَه.

* * *

وسادسُهم ذو الجود والسُّودَد الذى ... يعد الصدِى اللهفانَ للغوث عَدَّه
موقِّى رسول الله بالكَفّ جودُها ... يُحلّ من العيش المهنَّإِ رغدَه
فشُلَّتْ وقد سَلَّت من الهند مُرْهفا ... محلّى صقيلا أكسب الفخرَ هِنْدَه
فطُوبَى لها يُمْنَى جنتْ ثمرَ المُنَى ... وقد حَلَيتْ قُلْبَ النَّعيم وقَلْدَه
[فقلْ طَلحةٌ ذو المجد طلحُ نقاية[(١)] ... لسانُ بيان الشرع أحْكَمَ نضدَه]

* * *

وسابعهم ذو الفضل أقصدُ سالك ... أدلَّ طريقٍ للهدى وأسدَّه
ومُفْرِغُ قِطْرِ الزُّهْدِ يجْعَلُ بينه ... وما بين يأجوجِ الزَّخارفِ سدَّه
أميرُ أولى الإيمان عامرُهم أبو ... عبيدةَ ذو الخير الذى لَنْ نَعُدَّه

* * *

وثامنهم ذو المجد فى المال والتقى ... فلله ما أجدَى وأبْرَكَ وُجْدَه
ملا ذِكْرُه بطنَ السماء وماله ... ملا بَطْنَ هذى الأرض غوْرًا ونجْده
وكم بات لم يَطْعَم وأطعم غيرَه ... وقام ولم يَتْرُك من الجوع وِرْدَه
مُعَمَّمُ خير الرُّسْل فاتحُ دُومَة ... كما وَدَّ خيرُ المرسلين وَوَدَّه

---

(١) كذا ورد هذا البيت فى ص . وفى م : « طلح تنال من » .

فذاك ابن عوفٍ مُقْلةُ المجد طَرْفه ... أجلُّ فتى يُثْنى عليه ويُنْدَه

***

وتاسعهم ذو الرّمي بالنبل والدُّعا ... فمَنْ يَرْمِ مِنْ قوسٍ وفيه يَرُدّه

له السيرة الحُسنى له النّجدة التى ... رمت فارسَ الكفر الصّراح وكِرْده

فعوّضهم من عيشهم واعتزازهم ... بموتٍ وذلٍّ يعذُب الموت عنده

فكم فرسٍ قد راحَ أشهبَ واغتدى ... من الدّم يحكى أشقر اللون وَرْدَه

وكم فارسٍ مِن فارسٍ بشماله ... عِنانٌ فقدّت منه يُمناه قَدّه [٧٠٤]

فيابْنَ أبى وقّاصٍ أنك واقصٌ ... من الكفر جيلا أوجب الله طَرْدَه

ويا سعدُ يا خالَ النبى لقد سمَتْ ... فروعُ نِجارٍ ثابتٍ كنتَ سعده

***

وعاشرُهم ذو النُّسك كالمِسْك ذكرُه ... سعيدٌ ولا سعدٌ يماثل سَعْدَه

فتى المكرُمات الأكرمِ الماجدُ الذى ... يُزيّنُ جمْعَ المجْد طُرّا وَوَفْده

سُلالة زيْد الفخرِ أرشدِ[١] مُهْتدٍ ... عن الشِّرْك جدٌّ سابق قد أصدّه

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
يُبْعث زيد بن عمرو بن نُفيل أمة وحْدَه .

***

ومما به أيضا حَبَا الله أحمدًا ... وعزّز ذا الدينَ العزيزَ وَجُنْدهُ

ذوُو المجد عمّاهُ وجعفرٌ الذى ... ملائكةُ الرّضوان وازتْهُ لَحْدَه

لحمزة ليثُ الله لا لَيْثُ غابة ... يُصادِرُه إن هاجتِ الحربُ جُرْدَه

له الفتكاتُ البيضُ سوّدتِ العِدا ... وزادت سَنَى بدرِ الجهاد وأحْدَه

(١) فى م : « أول » .

وكان إذا ما قرّب الطرْف وامتطى ... قراه بريش الرّأْل يُقلِم بُرْده
ولا بُرْدَ إلّا نَثْرة عربيّـــة ... لأمثالها داودُ قدّر سَرْدَه
فيَبْعَد منه القِرْن حتّى كأنما ... به نافض(١) قد قرّب الورْعُ وِرْده
إلى أنْ أراد الله منه شهادة ... تُبوِّئُه عدْنَ(٢) الجزاء وخُلْده
على يد أشقى الزّنْج راميه غدْرَةً ... بحربتــه شَلّ المهيمنُ زَنْدَه
فنادَى الذى قد ألحف الذنبُ قلبه ... بأسودَ مما ألحفَ الربّ جلْدَه
بقتلك يا وَحشيُّ سامِيَ سامها ... أصاب سوادُ الجلد حاما ووُلْدَه

* * *

وعباسٌ العمّ الأعمُّ مَكارمًا ... تَقَصّرُ من نخر الكرام أمَدَّه
أبو الخُلفا ساقى الحجيج أجلُّ مَنْ ... به يَصْرِفُ الصّرْفُ الجليل ويَنْده(٣)

* * *

وجعفرُ الطّيّار ذو المشهد الّذى ... ملائكة الرّحمٰن غدت فيه شُهّدَه(٤)
مُحمِّرُ رايات الهدى بدم العدا ... بنى الأصفر الأسْدِ الألى لم يُدَهْدِهوا(٥)
مُقَـــدّمُ يُمناه ويُسراه قُرْبةً ... إلى منزلٍ فى دار عَدْنٍ أعدّه
وأمْسك بالعَضُدين بعدهما اللّوا ... لواء الهدى يَبغى من الله عَضْدَه

* * *

وبعدهمُ الأنصارُ والكلُّ أنجمٌ ... قدَ اطلعها مولاهُ تَــكْلأ مجده
بهم خُضِد(٦) الإشراك شرْقا ومغربا ... ولولاهمُ ما كان أعْوَصَ خَضْده!

---

(١) النافض: ضرب من الحمى ينتفض منه الجسم. (٢) فى م: «عدل».
(٣) ينده: يبعد ويطرد. (٤) شهد: جمع شاهد.
(٥) لم يدهدهوا: يريد لم يهزموا.
(٦) فى م: «خدد».

ذَوَائِبهمْ قُضْبانُ بانٍ نواعمٌ … قد أنبتْنَ سُوسانَ الحديدِ ووَرْدهُ [٧٠٥]
تصيبُ قلوبَ الشِّرْكِ طَعْنًا[1] كأنها … تُحِبُّ القضا الجارى فتَقْصِدُ قَصْدَه
وإلا فبيْنَ الشِّرْكِ حقدٌ وبينها … فتطلبُ منه مَوْضِعًا ضُمَّ حِقْدَه
وأسيافُهم زُرْقٌ رِقاقٌ كأنها … نِطافٌ[2] بها قد عيَّنَ الموتُ وِرْدَه
ذُكورٌ ويَعْرُوها المَحيضُ كأنها … إناثٌ ولا غُسْلٌ عليهنَّ بعدَه
فيامَعْشرَ السادات والكلُّ منكُمُ … يَرى الخَيْرَ فى نصرِ الهدى هو شُهْدَه
كأنَّ عُدَاةَ الدين زرْعٌ مُحَطَّمٌ … تَوَلَّيتُمُ بالبِيضِ والسُّمْرِ حَصْدَه
فأقْرَرْتُمُ عينَ الرسولِ وحَسْبُكُم … بذا قُرَّةً تُهْدِى إلى الطَّرْفِ بَرْدَه

* * *

ولله من أزواجه أُمهاتنـــــــا … فرائدُ عَلْياهُ قد أُشْرِبْنَ وُدَّه
وأكرَمُهُنَّ الدُّرَّةُ الفَذَّةُ التى … بها زَيَّنَ المجـــدُ المُؤَثَّلُ عِقْدَه
خديجةُ ذاتُ الجاه إن يَنْشُدِ امرؤٌ … به اللهَ فى أمرٍ تَقَبَّلَ نَشْدَه
لها الأثرُ المحمود والأُثَرُ[3] التى … متى مرَّ عَرْفُ الطِّيبِ عنه تَرُدُّه
بنو المصطفى ما دون إبراهيمَ الذى … رَدَاهُ رِدَاءَ الصَّبْرِ بالثُّكْلِ قَدَّه
بنوها وكلٌّ أَشْمُسٌ وأَهِلَّةٌ … كواملُ رسمَ الفخرِ حازوا وحَدَّه
وفيها رسولُ الله قال مكرِّمًا … خليلتَها والدمعُ يُخْضِلُ خَدَّه
ألا إنها كانت تزورُ خديجةً … ومِنْ خُلُقِ ذى الإيمانِ يحفظُ عهدَه
فبشَّرَها جبريلُ عن ربِّها بما … لها الله فى دار النعيم أعدَّه

* * *

---

(١) فى م : « فيها » .
(٢) كذا فى ص ، والنطاف : جمع نطفة ، وهى الماء الصافى . وفى ط : « قطاف » ، وفى م : « مطاف » .
(٣) الأُثَر (جمع أُثْرة كغرفة) : المكرمة المتوارثة .

وعائشةٌ بنتُ الحبيب عتيقِ الـــمُصدِّق إيعادَ الرسول ووَعْده
فريدة إنسان الوجود مناقبًا متى يَبلَ ذكرٌ صالح تَستجدّه
عليمة أهل العلم شمسُهم التى جلتْ سُدَفَ الجهل المُضِلّ وسَدّه

* * *

وحفصةُ ذاتُ الصِّيتِ والمَنصِبِ الذى هو الطَّوْد لا تَرقَى السوابقُ مَهْدَه
مُواصِلةُ الأوْراد والصَّـوْمِ دائمًا مواصَلةَ القلب الموحِّد عَقْده

* * *

وفَدَّةُ مخـــزومٍ جلالا مبلِّغًا قَصِيَّ المُنَى فى المنزلين مُعَدّه

* * *

وزينبُ ذاتُ الطَّوْل والطَّول أنْمُـلاً مواهبُها تُنْسِى[1] الغَمام وعِهْدَه

* * *

وزينبُ ذاتُ الفضل بنتُ خُزَيْمةٍ لقد وصلَتْ بالجود ما البُخْلُ جَدّه

* * *

وسَوْدة ذات السُّؤْدَدِ المدِّ[2] والتُّقى متى صَدّ عن قلب تُقَى لم يَصُدَّهُ

* * *

ومَيْمونةُ الميمونة البَرّةُ التى لها الفضلُ لم تَرْقَ الفواضلُ مجدَه[3]

* * *

وبنتُ حُيَيٍّ رَبَّةُ الصَّوْنِ والحيا صَفيَّةُ مَنْ أصْفَى لها السَّعْدُ وُدَّه [٧٠٦]

* * *

ورَمْلةُ رَمْلُ الأرض يمكن عَدُّه لنا والذى خُصَّتْ به أنْ نَعدّه

* * *

---

(١) فى ط : «تنسى» . (٢) كذا فى ط ، س . والمد : الكثير . وفى م : «المفد» .
(٣) فى ط : «مجده» .

وجارية العَلْيا جُوَيْرِيَة التى   تقُدُّ سناما أَخْتُها لم تَقُدَّهُ (١)
هنا منتهى الأَزواجِ والكلُّ أَشْمُسٌ   سناهُنَّ أَسدافَ الجهالة يَشْدَهُ

* * *

ومارِىء مِنْ تِرْبِ لمارِيَةَ التى   هواها له لا صَرْدُ (٢) يُشْبِه صَرْدَهُ
سَرِيَّة سُرِّيَّاته أىُّ مَنْزِلٍ   يُرَقِّى (٣) من الطَّوْدِ الفَخَارِىِّ فَنْدَه
فسُرِّيَّة الإنسان تسمو بمن لها   تَسَرِّى وهذا المجد (٤) نِعْمَ جَدُّه
وإن لم تكن أُمًّا لنا فهْىَ أُمُّ مَنْ   افتقدانه أبدى حبيبُك وَحده

* * *

حبيبى حبيبى فِطْرَةً وَشَرِيعَةً   قد احْكَمْتنا مِنْ حَبْلِ حُبِّى مَسْدَه (٥)
مدحتك والأَزواجَ والصَّحْبَ والأُلَى   بقُرْباك شُهْبَ الفخر أجْرَوا وَرْدَه
فماد مُجَلّى كلِّ فَخْرٍ قُدَامِس   سُكَيْتًا تولّى القِرْدُ بالشوط جَلْدَه (٦)
هو المدحُ ما كرّرتُه زاد طيبُه   فيُنْسِى مَشُورَ الأَرْىِ طَعْمًا وقَنْدَه (٧)
فَصِلْهُ أيا فكرى لعلك بالغ   من البحر ذى الماء الرَّوِىّ العذبِ ثَمْدَه (٨)
ولازِمْ جناب المجد ذا المجد مادحا   ودع جانبا هند الجمال وَدَعْدَه
ولا تطلبى يا نفس غيرَ شفاعة   ووصْلَ كريم (٩) لا أُحاذر صدَّه
وعافيـــة شُهْبانُها كلّما عرا   بلاء تولّت عن جَنانى لَهْدَه (١٠)

---

(١) كذا فى الأصول ، ولم نتبين معنى الشطر الثانى .

(٢) الصرد : الصافى الخالص من كل شىء .   (٣) فى ط : « يلق » .

(٤) فى ط : « الجد » .   (٥) المسد : الفتل .

(٦) القدامس : الشديد . والسكيت : آخر خيل الحلبة .

(٧) مشور الأرى : العسل المجموع من الخلية . والقند : عسل قصب السكر إذا عقد .

(٨) الروى : الماء الكثير . والثمد (بسكون الميم هنا وقد تحرك) : الماء القليل .

(٩) فى ط ، س : « نعيم » .   (١٠) لهده : دفعه ورده .

وقمعَ عُداة لم يخافوا إلهَهُمْ ... فبارَوْا ذِئابَ القَفْر ضُرًّا وعُقْده

مذاهبُهم ظلْمُ العباد فإن يَقُل ... لهم ناصح كفُّوا عن الظلم يزدهوا

وعبدُك بالإبشار دانٍ فلم يكُن ... ليَختصَّ دون الغَيْر بالخير وَحْدَه

فَعَمَّ بهذا الخير كلَّ موحِّد ... هواك لديه خيرُ عِلق[1] أعدَّه

وسلَّمَ ربُّ العرش بدءًا وعَوْدَةً ... عليك أيا فَذَّ الوجود وفَرْدَه

سلامًا يُضاهى هَدْى مَنْ قد ذكرتُه[2] ... وتصليةً جاءتْ كذلكَ بعده

انتهى ما أردت جلبه من كلام هذا الإمام، فى تمثال نعل المصطفى عليه الصلاة والسلام.

* * *

عناية الصالحين بالنعل الكريمة

قلت: وقد اعتنى الناس والأئمة بتمثال النَّعل الكريمة، وكيف لا، وحُقَّ

[٧٠٢] على كل مؤمن أن يَفْلِيَ لمشاهدتها الفَلا، فإذا شاهدها قبَّلها ألفا وألفا، وتوسَّل بصاحبها إلى الله [الكريم] زُلْفَى، ولثَمَ ثَرَاها ثَمًّا، وأزاح [به] عن نفسه حُوبًا وإثمًا؛ وجعلها فوق رأسه تاجا، واستغنى بالتوسل بِمَنْ لَبِسَها فلم يَكُ إلى غابِرِ الدهر مُحْتاجا. وقد أفردها أبو اليُمْن بن عساكر بالتأليف، وصنَّف فيها جزءا مُفْردا؛ وكذلك أفردها بالتأليف أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن خَلَف السُّلَمِيّ، الشهير بابن الحاجّ، من أهل المَرِيَّة، وكذا غيرها[3].

---

(١) كذا فى ط. وفى ص: «عقد». وفى م: «خلق».

(٢) كذا فى م. ورواية هذا الشطر فى ط، ص: «سلاما يضاهى للذى مر ذكره».

(٣) فى هامش ص أمام هذا الموضع ما نصه: «وقد ألف فيها المصنف تأليفا سماه: فتح المتعال. وذكر العياشى فى رحلته أنه رأى بالمدينة تأليفا لبعض المغربيين فيه نحو ٥٠ قصيدة لم يطلع عليه هذا الشيخ، رحم الله جميعهم».

بعض ما جرب من بركتها

ومن بعض ما ذكر فى فضلها ، وجُرِّب من نفعها وبركتها ، ما ذكره أبو جعفر أحمد بن عبد المجيد ، وكان شيخا صالحا وَرِعا ، قال : حَذَوتُ هذا المثال لبعض الطلبة ، فجاءنى يوما ، فقال لى : رأيتُ البارحة من بَركة هذه النعلِ عَجَبا ، أصاب زوجي وجع شديد كاد يُهلِكُها ، فجعلتُ النعل على موضع الوجع ، وقلتُ اللّهُمّ أرِنى بركة صاحبِ هذه النعل ، فشفاها الله للحين .

وقال أبو إسحاق : قال [محمد] أبو القاسم بن محمد : ومما جُرِّب من بركته أنّ مَنْ أمسكه عنده متبركا به ، كان له أمانا من بَغْي البُغاة ، وغَلَبة العُداة ؛ وحِرْزا من كل شيطان مارد ، وعينِ كلّ حاسد ؛ وإن أمسكته المرأة الحامل بيمينها وقد اشتد عليها الطَّلْق ، تيسّر عليها أمرُها بحول الله وقوّته .

لأبى اليمن بن عساكر فى مدحها

ولله درّ الإمام [الشيخ] أبى اليُمْن بن عساكر رحمه الله حيث قال :

يا منشِدًا فى رسم ربع خالى ومُناشِدًا لدوارس الأطلالِ
دع نَدْبَ آثار وذِكرَ مآثرٍ لأحبّةٍ بانُوا وعَصْرٍ خالى
والْثِمْ ثَرى الأثر الكريم مُحَبِّذًا أنْ فُزْتَ منه بلثمِ ذا التِّمثال [٧٠٨]
أثرٌ له بقلوبنا أثَرٌ لهـا شَغْل الخَلِيّ بحبِّ ذاتِ الخال
قبِّلْ لك الإقبالُ نَعْلَىْ أخْمَصٍ حَلَّ الهلال بها محلَّ قِبال
ألْصِقْ بها قدمًا بقلبه الهوى وجِلًا عَلَى الأوصاب والأوجال
صافِحْ بها خَدًّا وعَفِّرْ وَجْنَةً فى تُرْبها وَجْدًا وفَرْطَ تَغال
تَشْفِيكَ حَرَّ جوًى نَوَى بجوانحٍ فى الحبِّ ما جَنَحَتْ إلى الإبلال
يا شِبْهَ نعل المصطفى رُوحى الفِدَا لِحَذاك الأسمى الشريف العالى
هَمَلَتْ لمرآك العيونُ وقد رأى مرْآى العِيان بغير ما إهمال
وتذكّرتْ عهدَ العقيق فناثرتْ شوقا عقيقَ للدَّمْع الهطّال

وصَبَتْ فواصلتِ الحنينَ إلى الذى ... ما زالَ بالى منه فى بَلْبالِ

أذكرتِنى قِدَمًا لها قدمُ العُلا ... والجودِ والمعروفِ والإفضـــالِ

أذكرتِنى مَنْ لم يزلْ ذِكْرى له ... يعتاد فى الأبكار والآصالِ

لو أنّ خدّى يُحتذَى لمثالها ... لبلغتُ من نيل المُنَى آمالى

ولهـا المفاخرُ والمآثر فى الدُّنا ... والدين فى الأقوال والأفعالِ

أو أنّ أجفانى لوطء نعالهـــا ... أرضٌ سمتْ عزًّا بذا الإذلالِ

* * *

ولمالك بن المرحل فى مدحها

وما أحسن قصيدة نسبها الشيخ أبو إسحاق بن الحاجّ ، للأديب العلامة أبى الحكم مالك بن المرحّل ، رحمه الله تعالى ، وهى [قوله] :

بوصف حبيبى طرّزَ الشعر ناظمُهْ ... ونمنمَ خدَّ الطِّرس بالنقش راقمُهْ

رءوف عطوف أوسعُ الناس رحمةً ... وجادت عليهم بالنوال غمائمُه

له الحسن والإحسان فى كل مذهب ... فآثاره محبوبة ومعـــالمه

به ختم الله النبيين كلَّهم ... وكلٌّ فعالٍ صالحٍ فهو خاتمه

أُحِبُّ رسولَ الله حبًّا لو أنه ... تقاسمه قومى كفتهم مقاسمه(١)

كأنّ فؤادى كلما مرّ ذكرُه ... من الوُرْق خفّاق أصيبت قوادمه

أهيمُ إذا هبّتْ نواسمُ أرضــه ... ومَن لفؤادى أنْ تَهُبَّ نواسمه

فأنشقَ مِسكًا طيّبًا فكأنما ... نوافجُه جاءتْ به ولطائمــه

ومما دعانى والدّواعى كثيرةٌ ... إلى الشّوق أنّ الشّوق مما أكاتمه [٧٠٩]

مثالٌ لنعلَىْ من أحبّ حديثُه ... فها أنا فى يومى وليلى ألاثمه

أجرُّ على رأسى ووجهى أديمَه ... وألثمه طورًا وطورًا ألازمه

(١) كذا فى م . وفى ط ، س : « تقاسمه » .

أمثله فى رجل أكرم من مشى ... فتبصره عينى وما أنا حالمه
أحرك من خدى أحسب رفعه ... على وجنتى خطوا هناك يداومه
ومن لى بوقع النمل فى حر وجنتى ... لماش علت فوق النجوم تراجمه
سأجعله فوق الترائب عوذة ... لقلبى لعل القلب يبرد جاحمه
وأربطه فوق الشئون تميمة ... لجفنى لعل الجفن يرقأ ساجمه
ألا بأبى تمثال نعل محمد ... لطاب محاذيه وقدس خادمه
يود هلال الأفق لو أنه هوى ... يزاحمنا فى لثمه ونزاحمه
وما ذاك إلا أن حب نبينا ... يقوم بأجسام الخليقة لازمه
سلام عليه كلما هبت الصبا ... وغنت بأغصان الأراك حمائمه

* * *

وللقرطبى فى ذلك أيضا

وللشيخ أبى بكر أحمد بن الإمام أحمد بن الإمام أبى محمد عبد الله القرطبى فى ذلك :

ونعل خضعنا هيبة لبهائها ... وإنا متى نخضع لها أبدا نعل
فضعها على أعلى المفارق إنها ... حقيقتها تاج وصورتها نعل
بأخمص خير الخلق حازت مزية ... على التاج حتى باهت المفرق الرجل
معانى الهدى عنها استنارت لمبصر ... وإن بحار الجود من فيضها تحلو
سلونا ولكن عن سواها وإنما ... يهيم بمغناها الغريب وما يسلو
فما شاقنا مذ راقنا رسم عزها ... حميم ولا مال كريم ولا أهل
شفاء لذى سقم رجاء لبائس ... أمان لذى خوف كذا يحسب الفضل [٧١٠]

* * *

ما كتب فى بعض تماثيل النعل

ورأيت فى بعض تماثيل النعل الكريمة مكتوبا بطرَفها [الشريف] ما نصه :

مثالُ نعلِ الرسولِ خُذْهُ بحسْنِ القَبولِ
فَفضلُه ليس يُحْصَى لدفع كلِّ مَهُولِ

وفى وسطها ما نصه :

أُمَرِّغُ فى المثال بياضَ وجهى فقد عقَدَ(١) النبيُّ لها قِبالَا
وما حبّ المثال شَغَفْن قلبى ولكن حُبُّ من لَبِسَ المثالا

ورأيت مكتوبا بدائرتها ما نصُّه :

ما كان هذا المثال الكريم فى دار فسُرِقت ، ولا فى سفينة فغَرِقت ، وفيه خواصُّ عجيبة . انتهى :

***

ما وقع للفاكهانى حين رأى تمثال النعل

وقد حكى غير واحد أنَّ سِرَاج الدين ، سيدى عمرَ الفاكهانى شارحَ العمدة والرسالة ، لما أبصر تمثال النعال المطهّرة أغمى عليه ساعة ، ثم أنشد [حين أفاق متمثلا :

ولو قيل للمجنون ليلَى ووصلَها تريدُ أم الدنيا وما فى زواياها
لقال غبارٌ من تراب نعالها أحب إلى نفسى وأشفى لبلواها

وقد ذكر أن السِّراج الفاكهانى] لما احتضر أغمى عليه ساعة ، فلقَّنه بعض من حضره ، ففتح عينيه وأنشد :

وَغدًا يذَكِّرنى عهودًا بالحِمَى ومتى نَسِيتُ العهد حتى أذكرَهْ

(١) فى م : « جعل » .

ثم أدخل عليه تمثالُ النعل الطيبة ، فحين شاهدها أغمى عليه ساعة ، ثم أنشد البيتين المذكورين حين أفاق .

* * *

ما قاله ابن رشيد حين رأى تمثال النعل فى دمشق

وقال الشيخ الرحّال أبو عبد الله بن رُشيد الفهرىّ :

لما دخلت دار الحديث الأشرفية برسم رؤية النعل الكريمة المصطفى صلى الله عليه وسلم ولثمتها ، حضرتنى هذه الأبيات ، فقلت :

هنيئًا لعينى أنْ رأت نعلَ أحمدٍ فياسَعْدَ جَدّى قد ظفرت بمقصِدى

وقبّلتُها أشفى الغليلَ فزادنى فياعجبًا زاد الظما عند موْردى [٧١١]

فلله ذاك اللثمُ لهوَ ألذُّ مِنْ لَمى شَفَةٍ لَمْيا وخدٍّ مُوَرّد

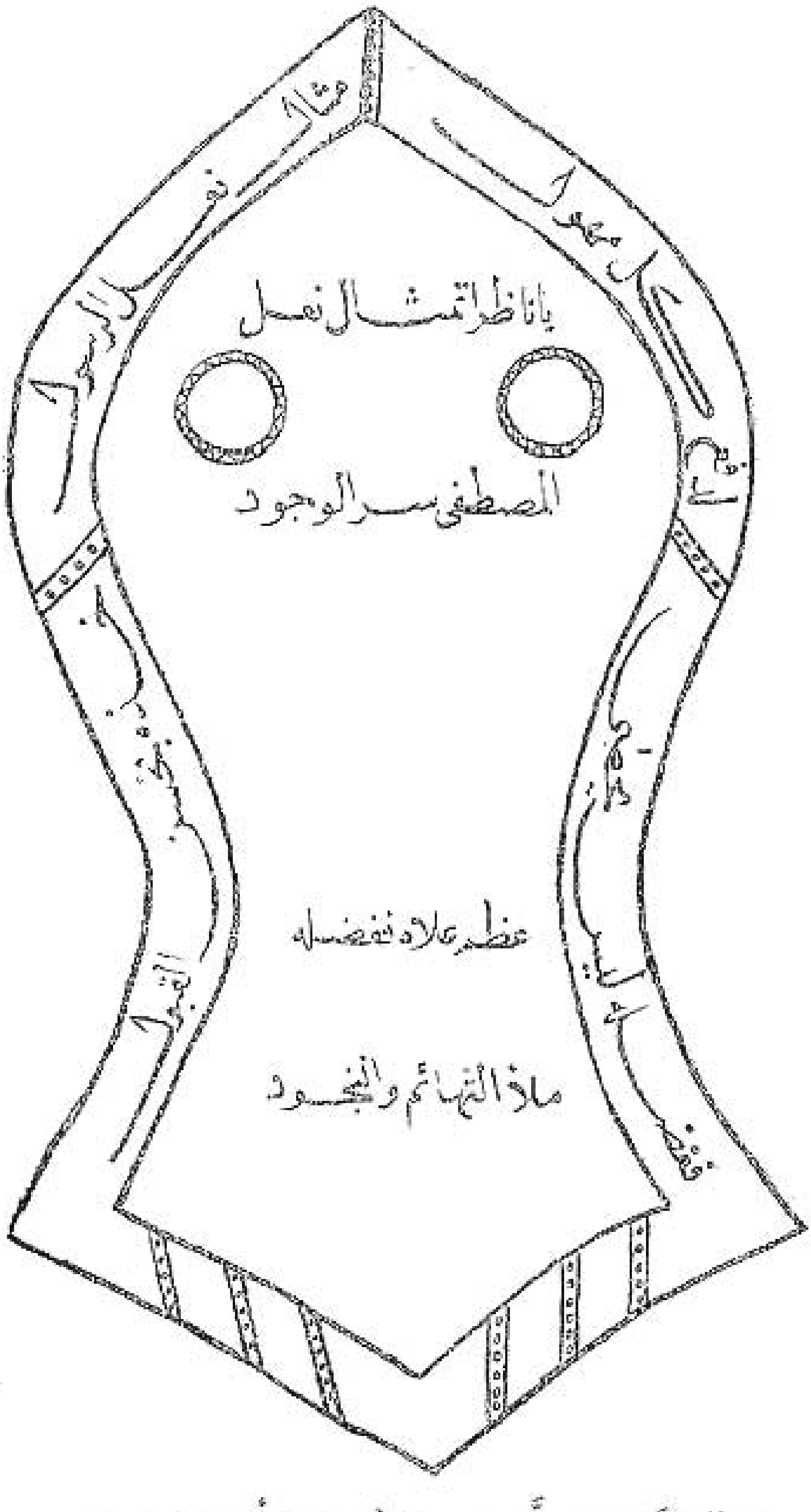
ولله ذاك اليوم عيدًا وموْسمًا بتاريخه أرِّختُ مولدَ أسْعد

عليه صلاة نشرُها طيّبٌ كما يُحبُّ ويَرضى رَبُّنا المحمد

* * *

ولا بدَّ أن نرْسُم تمثالَ النعل الكريمة ، تبركا بصاحبها عليه الصلاة والسلام .

وهذه صفتها :



تمثال النّعل النبويّة ، فى دار الحديث الأشرفيّة بدمشق ،
كما رسمته النسخة التّيموريّة

[ما كتب فى المثال الأيمن]

وكتبتْ(١) فى داخله ما نصّه من نظم المؤلف رحمه الله تعالى :

يا ناظرًا تِمْثالَ نعلِ المصطفى سِرَّ الوجودْ
عَظِّمْ عُلاهُ ففضلُهُ مَلأَ التهائمَ والنُّجُود
واجعله خير وسيلة فالله ذو كرم وجُود
صلَّى عليه اللهُ ما أحيا الحيا الروضَ المَجُود

ولغيره :

يا مُبْصِرًا تِمثالَ نعلِ نبيِّهِ قَبِّلْ مِثال نعالِهِ مُتَذَلِّلَا
واذكر به قَدَمًا علت فى ليلة الـ إسرا به فوق السموات العُلا
واخضعْ له وامسحْ جبينَكَ وانتكُنْ متبرِّكًا أبدًا به متوسِّلَا(٢)

وللمؤلف رحمه الله تعالى :

يا مُبْصِرًا تمثالَ نعلٍ قد علا طالِعْ محاسنه وكن متوسِّلَا(٣)
واخْضَعْ له وامسح جبينك واتكُنْ مُتَبَرِّكًا أبدا به مُتوسِّلا(٢)
واسألْ به مُتَضَرِّعًا مُسْتَمْطِرًا أَلطافَ رَبٍّ لم يزل مُتَفَضِّلا
فَهْوَ الوسيلة والملاذُ إذا عَرَا خَطبٌ وأضحى الكربُ أمرًا مُذْهِلا
فلَكَمْ أغاثَ مَنِ استغاثَ بجاهِهِ وأناله أقصى المَرَامِ مُسَهِّلا

---

(١) رسم الكاتب فى ص مثالَى النعل ، وكتب بداخلهما هذه الأشعار كلها . واكتفت م برسم أحد المثالين وفيه بعض هذه الأشعار ، وقد نقلنا صورة المثال الذى فى م . أما ط فإن الكاتب ترك موضعا خاليا للمثالين ، ولكنه لم يرسمهما ، ولم يذكر شيئا من الأشعار التى كتبت فيهما — نقول : وأكبر الظن أن ما كتب بداخل مثالى النعل ليس من عمل المؤلف ، لاختلاف النسخ فى ذلك .

(٢) هذا البيت مكرر مع البيت الثانى من مقطوعة المؤلف التى تلى هذه الأبيات . ولعله من زيادة الناسخ هنا كما تدل عليه نسخة ص . (٣) هذا البيت ساقط من ص .

يا خيرَ خلق الله دعوةَ حائرٍ ... لم يتخذْ إلا جنابَك مَوْئلا
صلّى عليك الله يا نور الهُدَى ... والآلِ والصحب الكرام ومن تلا(١)
ما حَنَّ مُشْتاقٌ لِذِكْرِكَ أو غَدَا ... لمثال نعلِكَ لاثمًا ومُقبِّلا(٢)

وللشامىّ الفقيه من أهل العصر :

أيا ناظرًا مَتِّعْ جفونَك ساعةً ... بأزهار هذا الرَّوض من حيث ما تخطو
وقفْ مَوْقِفَ الإذلال لله واطْلُبَنْ ... بها نعْمَةَ الرِّضوان إن راعَكَ السُّخْطُ
فلو لم تكن مقبولة عند ربنا ... لما كان من هذا النعال بها وَخْطُ

وللمؤلف :

يا ناظرًا تمثالَ نعل المصطَفى ... قبِّلْه ألفَا
واجعله خير وسيلة ... تدنِى إلى الرحمن زُلْفَى
واحفَظه فهْوَ ذخيرةٌ ... ما مثلُها فى الدهر يُلفَى

وللشامىّ أيضا :

أيا نعلَ الرّسولِ سموْتِ قَدْرًا ... وفَخْرى غيرُ خَفِىٍّ لَّلبيب
أقولُ لمنْ بحبّى ذاب شوقا ... وأعْيا داؤه طِبَّ الطبيب
تنَشَّق مسك أنفاسى لِتَشْفى ... بهذا الطِّيب من عَرْف الحبيب

وللمؤلف أيضا :

بِشَرَف المختار قد شُرِّفَتْ ... نِعَاله حتى سما ذا المثالْ
فاسأل به الرَّحمنَ جَلَّ اسمُه ... فما به يُسْأل إلا أنال
وكيف لا يُدرِكُ مستمسكٌ ... بالعروة الوثقى المُنَى بالسُّؤال

(١) رواية هذا الشطر فى س : « ما دام نعلك فى الشفاعة مقبلا » .
(٢) هذا البيت ساقط من س .

وجاهُ خير الخلق أعْظِم به ... مَلاذُنا فى حالنا والمآل

صلى عليه الله مَعْ صحْبِه ... وآله أجلّ صحب وآل

انتهى ما كتب فى المثال الأيمن .

[ما كتب فى المثال الأيسر]

وفى الآخر ما نصّه :

والمؤلف :

يا ناظرًا تمثـــال نعـــل المصطفى فى ذا الكتابْ

قبّــلهُ ألفًا ثمّ زد ... ما شئت[1] لا تخْشَ العتاب

واسأل به ربّ الوَرَى ... سبحانَهُ حُسْنَ المآب[2]

وله أيضا مما قاله بَديهة :

حاز هذا المثالُ كل المزايا ... إذْ حَكى نعلَ رجْلِ خَيْرِ البرايا

أحمدَ المصطفَى المَلاذ إذا ما ... طرَق الدهرُ أهله بالبلايا

مَلجإِ العــالَمين طُرًّا إذَا ما ... جُمِـعَ الناس يوم تُخْشَى الرَّزايا

خِيرةِ اللهِ ، مُجْتَباه ، وَمَنْ حا ... زَ خِلالًا حميــدة وعطايا

فعليه الصلاةُ ما قَبَّلَ النَّعْـــلَ مَشُوقٌ يرومُ مَحْوَ الخطايا

وللكاتب الكلاتى من أهل العصر ، يشير إلى هذا المثال الكريم :

انظُرْ إلى البدر وتَكْليفِه ... بين شِراكِ يا لها من قِبالْ

ما صار كالعُرجون من تِمِّه ... إلا محاكاة لهــذا المثال

---

(١) فى س : « إن شئت » . (٢) فى س : « المثاب » .

والمؤلف أيضا فى ذلك :

يا ناظرًا فى مثالٍ　　أضحى هنا ذا ارتسامِ
يحكى نعالا تناهتْ　　فى الحسن دون مُسامى
قبّله تقبيلَ صَبٍّ　　مُولَّهٍ مُسْتهام
وضعْه من فوق رَاسٍ　　تاجًا لمَفْرِق هام
وابسُطْ له حُرَّ وجْهٍ　　ولا تخفْ مِنْ مَلَام
ففضْله ليس يُحصَى　　بنثرٍ أو بنظام
واحفظ علاه وصُنْه　　وكُنْ له ذا احترام
أمانُ حُزْنٍ وخوف　　تيسيرُ كلِّ مَرام
لا يَطْرُقُ الدهر دارا　　غدَتْ به فى انْتِظام
والفلكُ إن كان فيها　　لم يخش من هول طامى
فيا لها بركاتٍ　　شهيرةً فى الأنام
وكيف لا وهو يُنْمَى　　للهاشمىّ التِّهامى
خير البريّة طُرّا　　إمام كل إمام
أسخَى الخليقة كَفًّا　　أرْعاهُمُ لِذِمام
إنسان عين المعالى　　وذو السجايا الجِسام
عليه أزكى صلاةٍ　　بطَيْبةٍ وسلام
والصحب والآل طُرّا　　والتابعين الكرام
ما استُنْشِقتْ نَسماتٌ　　مِنْ عَرْف مِسْك الختام

＊＊＊

انتهى ما فى النعل الكريمة ، واتصل به ما نصه :]

ولابن جابر الوادى آشى فى ذلك أيضا

وممـا قيل فى النعل الكريمة ، قولُ الإمام المحدِّث الرَّحَّال ، أبى عبد الله محمد بن جابر الوادى آشى ، ونظمها بدار الحديث الأشرفية من دمشق ، وقد رأى فيها تمثال نعل النبىّ صلّى اللهُ عليه وسلم ، فقبّله وقال : [٧١٤]

دارُ الحديث الأشرفية للشِّفَا فيها رأت عيناىَ نعلَ المُصطفَى
والثمته حتى قنِعت وقلتُ يا نفسى أنُعْمىِ أكفاكِ؟ قالت لى: كفى
لله أوقاتٌ وصلتُ بها المُنى من بعد طَيْبةَ ما أجلَّ وأشرفا
لك يا دِمَشْق على البلاد فضيلة أيامُكِ الأعيادُ لازَمها الصَّفا
ولـكم بجَيْرُونٍ جرَرْتُ ولم أخَفْ ذيلا وَرَوْحُ هواىَ فيها ما اختفى

❊ ❊ ❊

وللشامى الخزرجى فى ذلك

قلت : ومما أنشدنى الفقيه الأريب ، العلامة الأديب ، الحاجّ الرحال ، أبو الحسن صاحبنا ، سيدى على بن أحمد الشامى الخَزْرجى لنفسه ، فى تمثال النعل الكريمة ، قولُه نفعه الله بقصده ، وكتبه لى بخطه ، وكنت طلبت منه ذلك ، لأثبته فى هذا الموضوع :

دَعُوا شَفَةَ[1] المشتاق من سُقْمها تُشْفَى وتَرْشُفُ من آثارِ تُرْبِ الهدى رَشْفا
وتَلثِمُ تمثالاً لنعلٍ كريمة بها الدَّهْرَ يُسْتَسْقَى الغمامُ وَيُسْتَشْفَى
ولا تصرفوها عن هواها وسُؤْلها بعَذْلـكم فالعذلُ عنها انصرفا
ولا تَعْتِبوها فالعتاب يَزيدها هُياما ويسقيها مُدام الهوى صِرْفا
جَفتْها بكمْ الدمع بُخْلا جُفونُها فمَنْ لامها فى اللَّثم فهو لها أجفى

(١) اكتفت م هنا بالإشارة إلى مطالع القصائد والمقطوعات التى ذكرها المؤلف لأبى الحسن على بن أحمد الشامى ومن بعده ، إلى أن وصلت الـكلام بالموضوع الأصلى ، وهو ذكر من استجازه القاضى عياض ، ومنهم الزمخشرى .

لئنْ حُجِبتْ بالبُعْد عنهم فهذه   مكارمُهُمْ لم تُبْقِ سِتْرا ولا سَجْفا
وإن كان ذاك الخيفُ موعدَ وصلهم   فها نفحةُ الإفضال قرّبت الخيفا
وأغنت بفضل عن مشقّة شُقّة   نُكابد مَسْراها شتاء إلى صيفا
فحركتِ الأشواقَ منا لروضةٍ   أباح لنا الإسعادُ من زهرها قطفا
زمانا به موصـــولنا نال عائدا   وأكّدتْ الوصل من نحوهم عطفا
تولّى كمثل الطيف إذ زار في الكرى   وإلاّ كمثل البرق إذ سارع الخطفا
تقضّى وما قضّى بلُبْنَى لُبانةً   اقيسِ الهوى والحبُّ منا وما استوفى
فزُلنا وما زلنا نعلّل بالمقا   نفوسا وما تُجْدِي لعلّ ولا سوفا
كأنّا وما كنّا نجوبُ منازلا   يود بها المشتاق لو راهق الحتفا [٧١٥]
ولم تُبصرِ الأبصار منها محاسنا   ولم تسمع الآذان من ذكرها هتفا
كذاك الليالي لم تحل عن طباعها   متى واصلتْ يوما تحلْ قطعها ألفا
فلا عيش لي أرجوه من بعد بُعدهم   وهيهاتَ يرجو العيشَ من فارق الإلفا
ويا حبّذا قتلٌ إذِ العيش لم تزل   سيوفُ الهوى تفري به القلبَ والجوفا
ومَنْ لي بقتلٍ في سبيل الهُدَى التي   وُعِدْنا عليها بالجنان ومَنْ أوفى
أيا من نأت عنه ديار أحبة   فمن بعدهم مثلي على الهُلْك قد أشفى
لئن فاتنا وصلٌ بخيف مُناهم   فها نفحةٌ من عَرْفهم للحشا أشفى
وهاتيك أزهارُ الرياض تنفّست   بأنفاسهم فاستشفِيَنّ بها تُشفى
وقل للأُلى هاموا اشتياقا لبانهم   هلمّوا لعَرْف البان نستنشق العَرْفا
فصفحة هذا الطّرس أبدتْ نعالهم   وصارت لها ظرْفا فيا حُسْنه ظرفا
تعالَوْا تعالَوْا في مديح علائها   فرُبَّ غلوٍّ لم يَعِب ربّه عُرفا
ولله قومٌ في هواها تنافســـوا   وقد غرفوا من بحر أمداحها غرفا

وإنّا وإنْ كنا على الكلِّ لم نطِق … نحاول بعض البعض من بعض ما نُلفى
لئن قبلوا أنفا نَزِدْ نحن بمدحهم … على الألف ما يستغرق المدَّ والألفا
وإنْ وَصَفوا واستغرقوا الوصفَ حسْبُنا … نُجيل بروض الحسْن من وصفهم طَرْفا
ونقبس من أنوارهم قدرَ وُسْعنا … ونركض فى مضمار آثارهم طِرفا
فمن قال بدرُ التمِّ أو طلعةُ الضحى … أو الروضُ يحكيها فما أنصفَ الوصفا
فما الشمسُ إلا من محاسن ضوئها اســـتنارتْ ولولاها للازَمتِ الكسفا
وما البدرُ إلا من مشارق نُورها اســـتمدَّ ولولاها لما فارق الخسفا
وما طاب نشرُ الروضِ إلا لأنَّه … يُعدُّ مَدى الأيام من نشرها عَرْفا
وما اخضرَّ تُربُ الأرض إلا لأنها … تخطته فاختط النباتُ به حرْفا
فحلّوا بها أعلى المفارق واكحَلوا … بها مُقلَة العينين أو عطِّروا الأنفا
فآثارها تُبرى الجوَى وترابُها … لسُقم الحشا والقلبِ أنفعُ أو أشفى
لها الفخر أن سارت بها رجلُ من سرى … إلى حضرة التقديس والقرب والزُّلفى
ونُودِىَ لا تخلَعْ نعالكَ واقتربْ … وألقى بها من نفحة الحبِّ ما ألفى [٧١٦]
وأدناه قُرْبًا قابَ قوسين ربُّه … وناداه قُلْ تُسمع وسَلْ تُعطَ عِدْ تُكْفى
نبيٌّ به نلنا المُنَى وتوا كفت … علينا من الرحمن سحبُ الرضا وَكْفا
تعلّى على العلياء حتى أنار مِنْ … عُلاه العُلا والفوْزَ والمَجْدَ والخيفا
وقاتل فى إظهار أنوار دينــــه … جميعَ العِدَى حتى زَوَى الضّيمَ والحيفا
وكان إلى الهيجاء أوّلَ سابق … وما فارقَ العضْب المُهنّد والسيفا
هَواهُ هَدَى الهادين منه إلى الهدى … وحُبُّه أهْدَى الواردَ المَوْرِدَ الأصفى
وآياته كالزَّهْرِ والزُّهْرِ نفحـــة … وعدًّا فمن ذا يستطيع لها وصفا
كفَتْ كفُّه الجيشَ اللُّهام عَن الحيَا … وكفّتْ جيوشَ الكفر عن غيِّها كفّا

وردّت له الشمسُ المنيرُ شعاعُها | كذا البدر بعد التم صار له نصفا
وجودُه أجدى من رياحٍ عواصفٍ | ومن ذا يُبارى الريحَ إن رامت العصفا
أمولاىَ يا مولاىَ يا خيرَ سيّدٍ | تسامَى على الأشباه طرًّا مع الأكفا
نأتْ بىَ عنكم مُوبقاتٌ جنيتُها | وعفوكمُ من كلِّ كلفٍ بها أكفى
وهأنا عند الباب راجٍ وخائفٌ | دموعىَ لا تَرقا وشجوىَ لا يُطفا
أناديك يا خير البرية كلِّها | نداء عُبيد يرتجى العفو والعطفا
وإنّى محق فى هوى حبك الذى | يَفُلُّ جيوش الهمّ إن أقبلتْ زحفا
وما أنا فيه كالذى قال هازلًا | «أليلتنا إذ أرسلت واردا وحفا» (١)
فآها لنفسى ثم آها إذا أنا | طُردتُ ويا لهفا أردّدها لهفا
وواحسرتا يا حسرتا ثم حسرتا | إذا لم تكن فى موقف الحشر لى كهفا
ولكنَّ لى ظنًّا جميلا بنسبتى | لأنصاركم يا خيرَ من راقب الحلفا
كما أنّ لى أيضا مُتَاتًا بمدحتى | تمالا بها نيل العُلى والمُنى يُلفى
أبى النظمُ يستوفى حِلاها وهل يَفِى | روىٌّ بآثار الهدى ألِفَتْ أَوْفا
عليك صلاة ما بدا بدر تِمِّكم | وما اشتاق مشتاقٌ إلى وعدك الأوفى

***

وله فى الفرس نفسه

ومما أنشدنيه أيضا لنفسه فى ذلك قوله :

مثالُ النعل فى القرطاس خَطًّا | بسُمْر الشّوق فى الأحشاء خَطَّا
ولما أن لثمتُ ندى ثراه | وغشّى نورُه جفنى وغطّى
شممتُ الوَرْدَ من ريّاه يَنْدَى | وشمتُ البدرَ من علياه حَطَّا
فقجّر لى من العينين بحرا | ونثّر من لآلى الدمع سِمْطا

[٧١٧]

(١) يريد : قول محمد بن هانئ الأندلسى فى مطلع قصيدة له :

أليلتنا إذ أرسلت واردا وحفا | وبتنا نرى الجوزاء فى أذنها شنفا

وروّى من جماد الجفن جسمى ... وأورى من زناد الشوق سقطا
وهزّ من الهوى عطفَ ارتياحى ... لأرضٍ لم تزل تزداد شحطا
وذكّرنى معاهدَ ليتَ أدنى الـ ... ـمزارَ بها ولو بالبعد شطّا
معاهدَ خيرِ من ركب المطايا ... وأكرمِ من خطا نعلا وأوطا
بأخمص رجله الحسناء حازت ... مفاخرَ لم يطقها الوصفُ ضبطا
سمت فسعت لها زُهْرُ الدرارى ... لتلثم ركنها وتطوفَ شوطا
فحلّت دونها وسعت عليها ... ولا بدعا بذاك الفخر يُعطى
فمن قال الهلالُ لها مثالٌ ... لعمرُ الله فى التمثيل أخطا
ولكنّ البدورَ لها نعالٌ ... تودّ بها تداسُ علا وتخطى
وما طلعت عيونُ الشمس إلا ... لطلعتها ترومُ بها محطّا
وما رقصت غصونُ النبت إلاّ ... لغاياها تحطّ الراسَ حطّا
وما غنّت طيور الأيك إلاّ ... عليها تعتلى الأغصانَ خوطا
وما حنّت حُداةُ العيس إلاّ ... إليها تبتغى أثلاً وخمطا
وما هبّت نسيمُ المسك إلا ... لريّاها تنال بذاك خلطا
ولو يوما تخطّت أرضَ جدبٍ ... لما ألفت بها فى الدهر قحطا
يحقّ لنا نعظّمها جلالا ... ونربطُ طرسها بالقلب ربطا
وننتعل الوجوه بها جمالا ... ونجعلها على الآذان قرطا
وتعتصب المفارقُ من ثراها ... وتكتحل العيونُ بذاك شرطا
نعفّر وجنـةً فيها وخدّا ... ونخضب من سواد الرأس شمطا
ونُنشد من يعاتب فى هواها ... «إليك خبطتُ من عشواء خبطا»
ودعنا والهوى إنّا أناسٌ ... يزيد غرامُنا بالعتب فرطا

وإنا معشرَ العُشّاق ممّن ... يَرَى جَوْرَ النَّوَى والبُعْدِ قِسْطا
ونقنع بالخيال مدى الليالى ... وإن طال التَّباعُد أو تشطّا
ولا سِيَّما المثالُ وقد تبدّى ... يَجُرُّ عَلَى عُلَا الجوزاء مِرْطا
[٢١٨] وما نعْلاً نريد ولا مِثالاً ... ولكن من بها العَلْيا تخطّى
نبىٌّ إن أتيتُ إلى حِماه ... وجدتُ سماحة فى الخُلْق بسْطا
أتى والدينُ أصبح فى انقباضٍ ... فداناه إلَى أن نالَ بَسْطا
وقاتلَ فى سبيل الله حتى ... أزالَ عن الورى قَنْطا وضَغْطا
وعمّتْ دعوةٌ منه وعمّت ... بآيات الهدى فُرْسا وقِبْطا
فطوبَى للّذى أتى سريعا ... ويا ويلَ الذى عن ذاك أبْطا
سما ليلا العُلاء فنال قُرْبا ... وهمّ بنعله نَزْعا وكَشْطا
ونُودىَ طَأْ ولا تخلع نعالا ... وأبدِلْ من مَقام الرَّوْع بسْطا
وأيّدَهُ الإله بِرُوح قُدْسٍ ... ومَدَّ له من التقديس بسطا
وعظَّمَهُ على الأرسال طُرًّا ... ونَظَّمه بذاك العِقْد وُسطى
هُناك حَبَاه فرضًا من صلاة ... بها عَنَّا الذنوب تُصيب حَبْطا
وسدّده إلى أن جاء موسى ... وردّده إليه يروم حطّا
إلى أن صير الخمسين خمسا ... وأبقى أجرها والإصْرَ حطّا
وأعطاه الشفاعة يومَ حشر ... يقول أنا لها والناس قَنْطَى
وتَعْجِزُ دونها الأرسال طُرًّا ... وتأتى الناسُ سِبْطا ثم سِبْطا
إذِ الجبّار يبرُز بانتقام ... ويُبْدِى للوَرَى غَضَبًا وسُخْطا
فيُدْنيه ويلهمه بفضل ... محامدَ مثلَها ما قطُّ أعْطَى
ومهما رام يشرَع فى سجود ... ويضرَع بالدُّعا ويخِرّ هَبْطا

يُنادَ ارفع تُطعْ واشفعْ تشفّعْ … وقل يُسْمَعْ وسل ما شئتَ تُعطى

فيحظى بالمراد قريرَ عين … بما أولاه تكرمةً وغبطا

ويكدر شانئا في كلّ ناحٍ … مُصِرّ دنّس الأعمال وخطا

ويُخْرِجُ مَنْ له أدنى نواةٍ … من الإيمان والنيران قرْطا

جزاه الله عنا كلّ خيرٍ … وحاط به ديار الدين حوْطا

ولا زالت صلاة الله تترى … عليه ما بدا بدر وتعلى

تفوح وختمُها مسك عبيق … يعمّ عبيرُه آلا ورهْطا

* * *

ولشاهي أيضا في النعال مكملا ما سقط من كلام ابن فرج السبتي

وأنشدني أيضا لنفسه في ذلك، مكمّلا ما سقط من الحروف من كلام ابن
فرج السبتي المتقدم الذكر قوله جاريا على طريقته: [٧١٩]

قافية الواو

وقفتُ على تمثال نعلٍ كريمةٍ … فأحييتُ برسم الشوق منّيَ ما أقوى

وأيقنتُ أنّي إذ ظفرْتُ بلثْمِها … تمسّكتُ في أُخرايَ بالسبب الأقوى

وناديتُها يا نعـلُ عُذْرًا فإنني … على مَدْح بعضٍ من معاليكِ لا أقوى

وطِئْتُ رُبوعا للهدى ومغانيا … عُلاها على الرضوان أُسّس والتقوى

ولامستُ رِجْلا لو يطاوِعُ تُرْبُها … ثُريّا السما شدّت لتقبيله حقْوا

قافية لام الألف

لآلِي نعالِ المجد أغْلا بها أغلَا … وشُكْرًا لأنْ كُنَّا لتقبيلها أهْلا

لآلِي رسُولٍ مسّها جلْدُ رِجله … بها وِرْدُ فخرٍ يَعْذُبُ العَلّ والنّهْلا

لآدمَ هـذا الفخرُ أيضا لأننا … بذى النعل أُنقِذْنا الغواية والجهلا

لأقسمُ يا من لامَ فيها عليكَ لا ... تعذِّبْ بتَنْدَالى(١) ومهلا به مهلَا
لأنّى غريقٌ فى هوَى حُبِّهَا وكم ... مُحِبٌّ يرى التعذيب فى حُبِّها سهلا

قافية الياء

يوَدُّ لسانى أن يؤدِّىَ مَدْحها ... نعالا فيُعْيِينى عُلاها وحَرْفُ اليَا
يؤدِّى ولكن لا يُطيقُ كمالَهَا ... ولو أنّهُ يُغْلِى بيان الوَرَى غَلْيا
يَمِينًا وإنّى فى يمينىَ صادقٌ ... لَحِلْيَتُهَا صِيغتْ من الجنّة العُليا
يواقيتُ سِرِّ الكون والجود رُصِّعت ... بها وطأة التقديس فانتظمتْ حَلْيا
يُوَارى عُلا رجلٍ عَلَى من مشى بها ... سلامٌ مَدَى ما ازداد من ربه وَلْيا

***

وأنشدنى أيضا لنفسه فى ذلك قوله : ولهُ فى ذلك أيضا

هــذى نعالُ أحمدِ ... مولَى المقام الأحمدِ
فاشكُرْ أخى إذ شِمْتَ من ... بَرْقِ سناها واحمَد
واكْتَحِلَنْ بتُربِهــا ... فهو شفاء الأرْمَد
وارشُفْ ثَرَاها إنَّه ... يَجلِى صدا القلب الصَّدِى
والمِسْ بهَاء طَرْسِها ... تَنَلْ كمال المقصِد
واقبِسْ سَنَى من(٢) نورها ... فهْىَ سراج المهتدى
كم من إمام أمّها ... وبهداهُمُ اقتــد
وضمّها لصـــدره ... ضمّةَ ذى تَوَدُّد
لها خصـــالٌ جمة ... تُرْبِى على التعدّد
من لم تزل فى يمّه ... يحظَى بعيش رَغَد [٧٢٠]

(١) كذا فى ط ، س . وفى هامش س : « بتقنيدى » . وفى م : « بتقنيطى » .
(٢) فى الأصول : « سناء نورها » . ولعله تحريف عما أثبتناه .

يُضْحِى ويُمْسِى آمنا فى كل يوم أو غدِ
لا يَمْتَرِى فى فضلها سوى غَبِىٍّ أوْغَد
أو جاهلٍ بقـــدرها أو جاحد أو مُلْحِد
كم أبرأتْ من عِلة من كل داء مُجْهِد
وكم أبانت منْ هُدًى بنـــورها المؤيَّد
وكم أبادَتْ من عِدًى بسيفها المُهنَّـــد
وكم أجارت من حِمًى بركنهـا المُشــيَّد
فهْىَ أمانُ خائف وهْى رجاء القُصَّـــد
وهْى عمـاد المُلتجى وهْىَ مَراد الرُّوَّد
بالغ أخى فى مدحها واشْدُدْ بأَزْرى واعْضِد
وانسُب لها ما شئتَ من فخرٍ ولا تُفَنَّـــد
وقف هنا هُنَيهــة وِقْفَةَ صَبٍّ مُسْعِد
وانهَض إلى تقبيلها نَهْضَةَ خِلٍّ مُنْجِـد
وقل إذا قبَّلتَهـــا مقـــالة المستنجـــد
يا أكرم الخلق الذى قد حاز كل سودُد
يا مصـــطفًى آثارُه بها الأنام تهتـــدى
ويا مُجِـــير خائفٍ من كل سوء يَفْتدى
ويا مجيبَ ســـائل إذا أتاه يجتـــدى
عُبَيْـــدُكُمْ ببابكم حيرانَ ذا تردُّد
وَافى عُـــلاكَ تائبا منْ ذَنْبـــه المعدَّد

يَرفَعُ من مدحه   إلى عُلاكَ الأمجد
عقائلا تُنْسَق من   دُرٍّ ومن زَبَرْجَد
تَحْكي عُقود جوهر   أقسامُها من عسجد
فامنُن له بعطفةٍ   من فضلك المجدَّد
ونَهلةٍ من حوضك العذْب اللذيذ المَورِد [٧٢١]
ووقفةٍ بروضك النضِّ الندي المُورَّد
وزورةٍ لقبرك المَرضي الزكيِّ الأمجد
وأوبةٍ له عسى يكون ثَمَّ مَرقدي
صلى عليك الله ما   بدا ضياء الفرقد
والآلِ والصحب الأُلى   فازوا بكل الأسعُدِ
ومن أتى من بعدهم   من كُلِّ حَبْرٍ أوحَد
ومَن تلا جميعَهم   ما زُمَّ ركبٌ أو حُدي
ورُدِّدَتْ من مُنشِدٍ   هذي نعالُ أحمد

* * *

وأنشدني أيضا لنفسه في ذلك الغرض : وله في ذلك أيضا

نعالٌ بها يُشفَى العليلُ من الجَوَى   وتُجْلَى بها عنه المصائبُ والبلوَى
هي البرء إلا أنّ شُربَ دوائها   لذائقه أحلى من المَنّ والسَّلوى
هلموا نُقبِّلْ تُربَها فعسى به   نُخمِّد جمرا من لظاها الحشى تُكوى
فرُبَّ عليل جاءه من طبيبه   بشيرٌ خففتْ عنه من حينه الشكوَى

* * *

وله أيضا

وأنشدني أيضا لنفسه في ذلك :

أتتْ شمس السماء تحطُّ رأساً   لهذى النعل من دون النعال(١)
وتلثم تربهـا ذُلًّا لتحظى   بما رامته من رُتب المعالى
فقال لها الهلالُ وقد رآها   أتخضـع لا محالة للنعـال ؟
فقالت أبتـغـيها لا تؤخر   فيفتضح المعـالى بالمعالى

* * *

وله مخاطبا المؤلف راغبا في إثبات هذه المنظومات في أزهار الرياض

[وخاطبني في هذا الغرض ، مشيرًا إلى إثبات هذه المنظومات التي سمحت بها قريحته ، في هذا الموضوع :

أمفتيَ فاسٍ زَنْدُ شوقي قد وَرَى   بخير الورَى فانقاد طوْعَ عِنان
وهبّتْ صَبا نجْدٍ فهاجت صبابتي   وساعدَ بالْمبالى بيانُ بَنانى
وصالتْ على أوصال فكرى فأقلعت   عرائسُ غرْسٍ من جنانِ جَنانى
وقدْ ذوَتِ الأغصان وانتثرتْ بهـا   أزاهرُها تحكى نثير جُمان
وهذا أوانُ الغرْس جودوا بنقلها   لروْضكمُ تحظى بنيْـل أمان]

* * *

ولنرجع بعد هذا القدار إلى ما كنا بصدده ، فإن مثل هذا الغرض لا سبيل لحصر عدده ، فنقول :

[بين القاضي عياض والزمخشري]

عياض والزمخشري

ومِمن استجازه القاضي أبو الفضل عياض رحمه الله ولم يجزه : الزمخشريُّ صاحب الكشاف ، سامحه الله .

---

(١) في ط ، س : « الانتقال » ، وفي هامش س : « الانتعال » ، ولعلهما محرفتان عما أثبتناه .

وسمعت غير واحد ممن لقيته يخبر أنّ القاضيَ عياضا لمّا بلغه امتناع الزّمخشريّ من إجازته قال : الحمد لله الذى لم يجعل علىّ يدًا لمبتدع أو فاسق ، أو نحو هذا من العبارات ، والله أعلم .

[٧٢٢] وإمامة الزّمخشريّ فى العلوم معروفة ، ولكن أعنّة القلوب إلى من بيده التوفيق وضدّه مصروفة . ولا بُدّ من الإلمام ببعض أحوال هـذا الرجل ، الذى اختلفت فى أمره الآراء ، وآنس من جانب البيان والنحو نارا ، وأنكر الحقّ وقد وضح نهارا ، وذكر بعضهم أنه تاب وبأبى ذلك تصريحُه فى كشّافه بما خالف السنة جهارا ، فإنه لو صحّ ذلك لمحاه ، أو أشهد على نفسه بالرجوع عما قصده فيه وانتحاه ؛ وكثير من الأئمة أغْضَى عَنِ اعتزاله ، وانتفع بكشّافه مع مع قطع النظر عن موضع التهمة واختزاله .

[بين الحافظ السلفى والزمخشرى]

استجازة الحافظ السلفى الزمخشرى

ومن استجازه[1] فأجازه الإمام الحافظ أبو الطّاهر السِّلَفيّ الأصبهانى ، المتقدم الذكر ، رحمه الله ، فإنه خاطبه فى ذلك بما نصّه بعد البسملة :

إنّ رأى الشيخ الأجلّ العالم العلاّمة أدام الله توفيقه ، أن يُجيز جميع سَماعاته وإجازاته ورواياته ، وما ألّفه فى فُنون العلم ، وأنشأه من المقامات والرسائل والشعر ، لأحمدَ بن محمد بن أحمد السِّلَفيّ الأصبهانيّ ، ويذكر مولده ونسبه إلى أعلى أب يعرفه ، ويُثبتَ كلّ ذلك بخطه تحت هذا الاستدعاء ، مضافا إليه ذكر ما صنّفه ، وذكرُ شيوخه الذين أخذ عنهم ، وما سمع عليهم من أمهات المهمات ، حديثا كان أو لغةً أو نحوا أو بيانا ، فعلَ مُثابا ؛ وإن تمّم إنعامه بإثبات أبيات قصار ، ومقطوعات فى الحِكم والأمثال والزهد وغير ذلك ،

(١) الضمير هنا يعود على الزمخشرى .

من نظمه ومما أنشده شيوخُه من قِبَلِهم أو من قِبَلِ شيوخهم ، بعد تسمية كلٍّ منهم ، وإضافة شعره إليه ؛ والشرطُ فى كلِّ هذا أن يكون بالإسناد المتَّصِل إلى قائله ، كان له الفضل ؛ وكذلك إن صحبه أصْحَبَهُ بشىْءٍ من رواياته ، أنْعَمَ بكَتْبِ أحاديثَ عاليه ، والله تعالى يوفقه ، ويُحسن جزاءه ، ويطيل لنشر العلم والإفادة بقاءه . [٧٢٣]

ويَعْلَم وفقه الله أنه قد وقع إلينا كتاب من يعقوبَ بن شِرين الجَنْدى رحمه الله ، وفيه قصيدة يَرْثى بها البُرهانَ البُخَارىَّ ، والحاجة داعية إلى معرفة اسمه ونسبه وضبطه ، هل هو ابن شرين «بالسِّين المهملة» ، أو المعجمة ، وكذلك الجَنَدِىّ « بفتح الجيم والنون » أو « ضم الجيم وإسكان النون بعدها » .

والحمد لله حَقَّ حَمْدِهِ ، وصلواته على سيدنا محمد نبيِّه وعبده ، وعلى آله وصحبه أجمعين من بعده .

رسالة الزمخشرى للحافظ السلفى

فكتب إليه الزَّمخشرىُّ بما نصُّه :

بسم الله الرحمن الرحيم . أسأل الله أن يُطيل بقاء الشيخ العالم ويُديمَه لعلم يَغُوص على جواهره ، ويَفْتق الأصْدافَ عن ذخائره ، ويُوَفِّقَهُ للعمل الصالح الذى هو مَرْمى أغراض أولى العقل ، ومطمَحُ أبصار المرتكضين إلى غاية الفضْل ؛ ولقد عَثَرْتُ من مَقَاطِر قلمه ، على جملة تنادِى على غزارَة بحره ؛ وتَطَّبى القلوب إلى التزيُّن بِسُموط دُرِّه . وأما ما طَلَبَ عندى ، وخطب إلىَّ من العلوم والدرايات ، والسَّماعات والروايات ، فبنات خَلَّفْتُ على تربيتهن الشَّباب ، ثم دفنتهن وحَثَوْت عليهن التُّراب ، وذلك حين آثَرْت الطريقة الأُوَيْسِيَّة[1] على بُنَيَّات الطرائق[2] ، وأخذت نفسى برفض الحُجُب والعوائق ؛ وتلات كتبى كلَّها

(١) كذا فى ط ، س . وفى م : «الأوسيه» .

(٢) كذا فى م . وفى ط : «بنيات الطريق» وفى س : «بنات الطريق» .

إلى مَشْهد أبي حنيفة رحمه الله ، فوقفتها ، وأصفرتُ منها يدي ، إلا دفترا واحدا قد تركته تميمة في عَضُدِي ؛ وهو كتاب الله المبينُ ، والحبلُ المتين ، والصراط المستقيم ؛ لأهبَ لما فَمدْت بصدده كُلِّي ، وأُلقي عليه وَحْدَه كَلِّي ، لا يَشْغَلُني عنه
[٧٢٦] بعضُ ما يجعل الرأى مشتركا ، ويردُّ القلب(١) مُقْتَسما ، ولُذْت بحرم الله المعظم ، وبيته المحرَّم ، وطلّقتُ ما وَزَرَني بَتّا ، وكَفَتُّ ذيلي عنه كَفْتا ، ما بي هم إلا خُوَيْصَّتي ، وما يلهيني إلا النظر في قِصَّتي ، أنتظر داعيَ الله صَبَاحَ مَسَاء ، وكأني به وقد امتطيتُ الآلة الحدْباء ؛ قد وَهنَتِ العظام ، ووهَت القُوَى ، وقلَّت الصِّحة ، وكثُرَ الجوَى ، وما أنا إلا ذَماء يتردد في جسَد ، هو هامة اليوم أو غد ، فما لمثلي وليس(٢) له من الآخرة شيء . ولقد أجزتُ له أن يَرْوي(٣) .

محمود الخُوارزمي | ثم | الزمخشريّ ، منسوب إلى قرية منها ، هي مسقط رأسي ، ولبعض أفاضل المشرق :

فلو وَازَنَ الدنيا ترابُ زَمَخْشَرٍ   لأنَّكَ منها زاده الله رُجحانا

وللشريف الأجل الإمام عليّ بن عيسى بن حمزة بن وَهّاس الحَسَني :

جميع قُرى الدنيا سوى القرية التي   تبوأها دارا فِدَاء زَمَخْشَرا
وأحْرِ بأنْ تُزْهَى زَمَخْشَرُ بامرئ   إذا عُدَّ في أُسْد الشَّرَى زَمَخ الشَّرَى
فلولاه ما طنَّ البِلادُ بذكرها   ولا طارَ فيها مُنْجِدا ومُغَوِّرا
فليس ثَناها بالعراق وأهله   بأعرفَ منه في الحجاز وأشهرا

ومن المقطوعات التي اخترعتُها من قِبَلي :

ومَرُوعةٍ بمشيب رأسيَ أقبلَتْ   تبكي فقلتُ لها ودمعيَ جاري

(١) هنا في ط ورقة بيضاء فيها صفحتا ٦٢٤ ، ٦٢٥ والكلام بعدها متصل بما قبلها .
(٢) في الأصول : « وما ليس » . ولعل لفظة « ما » زائدة من الناسخ .
(٣) انقطع الكلام هنا في الأصول . ثم استؤنف بعد على هذا النحو .

هذا المشيب لهيبُ نارٍ أوقدتْ ... في القلب مُوقِدَها حِذارَ النار

أخرى :

إليكَ إلهي المشتكَى نفسَ مشتهٍ ... إلى الشرّ تدعوني عن الخير تنهاني

وما يشتكي الشيطانَ إلا مُغفّلٌ ... ألا إنّ نفس المشتهي ألفُ شيطان

أخرى :

شكوتُ إلى الأيام سوءَ صنيعها ... ومن عجبٍ باكٍ تشكّى إلى المُبكي

فما زادتِ الأيامُ إلا شكايةً ... ومازالت الأيام تُشكي ولا تُشكي [٧٢٧]

أخرى :

مَسرةُ أحقابٍ تلقيتُ بعدها ... مَساءة يومٍ أريُها شِبْهُ الصّابِ

وكيف بأن تَلقَى مَسرةَ ساعة ... وراءَ تقضّيها مَساءةُ أحقاب

أخرى :

الخوض في دُوَل الدنيا تَبالُجٌ[1] بكمْ ... كأنها لُجَجٌ خوّاضها لَجِجُ

كم خاضتْ لُجَجَ البحر الرجالُ وما ... أقلّ من خاضتْه هذه اللُّجَجُ

أخرى :

مبالاةُ مِثلي بالرزايا غَضاضةٌ ... أباها وثيقُ المَعقدَين حَصيفُ

إذا أقبلتْ يوما عليّ صُروفُها ... لأنيابها في مِسمعيّ صَريف

عِتابٌ لها حتى أشُقّ نحورَها ... أسنّةُ عزمٍ حدُّهنّ رَهيف

يُمسّحن أركاني وهُنّ قوافلٌ ... صفًا صارداتُ النَّبل عنه مُصيف[2]

---

(١) في ط ، س : «تابج» ، ولعله محرف عما أثبتناه .

(٢) الصفا : الحجارة الملس . وصاردات النبل : السهام التي لم تنفذ . والمصيف : الذي صرف شره .

والقاضى أديب الملوك أبو إسماعيل يعقوب بن شرين الجَنَدىّ ، أفضل الفتيان فى عصره ، وأعقلهم وأذكاهم وأدهاهم ، وكان كاتب سلطان خُوارزم ، فاشتغل ، وهو يكتب باللسانين العربيـة والفارسية ويُحْسن ، وهو ممن رَبَّتْ وخَرَّجْت وبَلَّغْتُ تلك الذروة ، وهو أوثقُ سهم من كنانتى .

والحمد لله أولا وآخرا ، والصلاة على نبيه محمد وآله الطيبين .

***

استجازة الحافظ السلفى الزمخشرى مرة ثانية

ثم إن الشيخ السِّلَفىّ عاوده الاستجازة فى السنة الثانية من إسكندرية ، كأنه ما وصلته إجازته(١) ، فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم . المسئول من كرم الشيخ الأجل العلّامة ، أدام الله بهجتَه ، وحَرَس مُهجَته ، أن يجيز لأحمد بن مُحمَّد السِّلَفىّ الأصبهانى ، جميع مسموعاته ومجموعاته ، فى جميع الفنون ، ويُثْبِتَ بخطه أساميَها تحت هذا الخط ، ويضيف إلى ذلك ذكر شيوخه الأعلام ، الذين أخذ عنهم الحديث واللغـة ،
ويذكر جُمَلا مما سمعـه عليهم ، ويُتمّ تفضله بإثبات(٢) أحاديثَ قِصار ، من [٧٢٨]
رواياته عنهم ، وكَتْب شىء من شعر من رآه وأنشده من قِبَله ، بعد المبالغة فى التعريف به ، ولا يذكر من الأبيات إلا القصار ، التى تصلح لأصحاب الحديث ، ويُتصوّر إخراجها فى الأمالى وأواخر الفوائد ؛ ويذكرَ مُتفضِّلا مَوْلِدَه ، والسنة التى ولد فيها ، فالحاجة داعية إلى كل ذلك ، ويُبَيِّن ذكر المؤتلف والمختلف ، الذى ألّفه ، فى أىّ فن هو ، وعلى أى شىء يحوز ؟ أعَلى ذكر الفقهاء أو الأدباء

---

(١) صرح ابن خلكان فى ترجمة الزمخشرى بأنه أجاب الحافظ السلفى عما لا يشفى الغليل ، فكتب إليه فى العام الثانى مع الحجاج استجازة أخرى من الإسكندرية ، وكان الزمخشرىّ مجاورا فى مكة .

(٢) فى الأصول : « بأبيات » ، ولعلها محرفة عما أثبتناه .

أم أهل الحديث ؟ ولا يُحْوِج أدام الله توفيقه ، إلى المراجعة ، فالمسافة بعيدة ، وقد كاتبه فى السنة الماضية ، ولم يجبه بما يَشْفِى الغليل ، وله فى ذلك الثواب الجزيل ، إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

رد الزمخشرى على الحافظ السلفى بالإجازة الثانية

فأجاب فخر خُوارزم بما نصُّه :

بسم الله الرحمن الرحيم

ما مثلى مع أعلام العلماء ، إلا كمثل السُّهَا مع مصابيح السماء ، والجَهَام الصُّفْر والرِّهام[(١)] ، مع الغوادى الغامرة للقيعان والإكام ، والسُّكَيْت المخلَّف مع خيل السِّباق ، والبُغَاث مع الطير العتاق ، وما التلقيب بالعلَّامة ، إلا شبه الرقْم بالعَلَامة ، كما قال بعض العرب وقيل له لِمَ سُمِّيت ثمامة : الأسماء عَلَامَة ، وليست بكرامة ، ولو كانت كرامة لاشترك الناس فى اسم واحد . والعِلْم مَدينه ، أحد بابيها الرِّوايه ، والثانى الدِّرايه ، وأنا فى كلا البابين ذو بضاعة مُزْجاه ، ظِلّى فيه أقلصُ من ظلّ حصاه ؛ أما الرِّواية فحديثة الميلاد ، قريبة الإسناد ، لم تستند إلى علماء نحارير ، ولا إلى أعلامٍ مشاهير ؛ وأما الدِّراية فثَمَد لا يبلغ أفواها ، وبَرْضٌ لا يَبُلّ شِفاها ، ولا يغرَّنكم قول الوزير مُجير الدولة :

وجَوَّلْتُ فِكْرى فى البلاد فلم يَقَعْ على رَجُلٍ فى علمه غيرِ راجل [٧٢٩]
إلى أن جرَى الطيرُ السَّنيحُ فدلَّنى على فخرِ خَوارَزْمٍ[(٢)] ورأس الأفاضل

ولا قول للمنتخب محمد بن أرسلان :

وما ناصرُ الإسلام إلا ابنُ بَجْدَةٍ يحيط بعلمٍ لا يُحيط به الوَرَى

(١) كذا فى معجم الأدباء لياقوت . والذى فى الأصول : «والجهام الصفر من الرهام» .

(٢) قال ياقوت فى معجم البلدان : «خوارزم : أوله بين الضمة والفتحة ، والألف مسترقة مختلسة ، ليست بألف صحيحة ، هكذا يتلفظون به» .

أبو القاسم المحمودُ محمودُ الّذى به تفخر الدنيا وناهيكَ مَفْخَرا

ولا قول الشريف الأجل ذى المناقب ، أبى الحسن عُلَىّ بن حمزة بن وَهّاس الحسنىّ المدنىّ

— قال أحمد المقرىّ وفقه الله :

هو عُلَىّ « بضم أوله وفتح ثانيه » ابن عيسى ابن حمزة بن وَهّاس الحسنى العلوىّ ؛ وقيل إنّ الكشّاف برسمه صنعه الزمخشرىّ ، رحم الله الجميع — :

رجع الى قول[1] الزمخشرى :

وكَمْ للإمام الفَرْدِ عندىَ مِنْ يدٍ وهانيكَ مما قد أطابَ وأكثَرا

أخِى العَزْمة البَيْضاء والهِمّة التى أنافت به عَلّامةَ العصْر والوَرَى

جميعُ قُرَى الدُّنيا سِوَى القريةِ التى تَبوّأها دارا فِداه زَمَخْشَرا

وأحْرِ بأن تُزْهَى زَمَخْشَرُ بامرئٍ إذا عُدّ فى أُسْدِ الشَّرَى زَمَخَ الشَّرَى

فلولاه ما طَنّ البلادُ بذِكْرِها ولا طارَ فيها مُنْجِدًا ومُغَوِّرا

فليسَ ثَناها بالعِـــراق وأهلِه بأعرفَ منه فى الحجاز وأشهَرا

إمامٌ قَلِينا مَنْ قَلينا وكلَّما[2] طبعناهُ سَبْكًا كان أنْضَرَ جَوهرا

ومكّةُ راووق الرجالِ فهاكهُ مُصَفًّى وخُذْ مَنْ شئتَ منهم مكدّرا

رسا طودَ تقوَى فاضَ بحرَ فضائل فكَمْ أذلّ أطوادا[3] وغَيّضَ أبحُرا

وتحت عَلاق الصدق سرٌّ مطهر يُمِدّان دينا كالمجرّةِ نَيّرا

(١) فى س « كلام » . ويظهر أن الكلمة مقحمة من الناسخ ، فليست القصيدة الآتية من كلام الزمخشرى ، وإنما هى لابن وهاس كما قال الزمخشرى نفسه .

(٢) فى ط : « إمام قبلنا من قبلنا وكلما » . وفى س : « إمام قلبنا من قلبنا وكلما » . ولعله محرف عما أثبتناه .

(٣) فى ط : « ذل أطوادا » . وفى س : « ذل أطواد » ، ولعلهما محرفان عما أثبتناه .

فلولا سماء أشمستْ ثم أقمرتْ — كفَى بمعاليـــه شموسا وأقمُرا

ولا قوله رحمه الله :

لقد شجني في أم رأسيَ عزمُهُ — فأصبحتُ من عزم الإمام أميما
تمنّيتُ لو لم ألقَـــهُ وجَهِلْتُه — ولم يحش [قلبي] بالفراق كُلوما
فديت امرأً يحشو الفؤادَ فِراقُه — كُلُومًا ولُقياه حَشَـتْه علوما
وكائنْ رأينا من أولي العِلم والتُّقَى — رجالا أناخوا بالحجاز قُروما
فأحمد أُسْتاذُ الزمانِ ضياؤهم — وكان وكانوا شارقًا ونجوما [٧٣٠]

ولا قوله رحمه الله :

أبَى حَرَمَ اللهِ العظـــيم مُجاوِرا — فللّـهِ ما أدْنَتْ جِمالٌ وأيْنُقُ
فمِنْ حوضه عَبّتْ ظِماءُ ذوي النُّهى — فآبَتْ رِواءً وَهُوَ مَلْآنُ يَفْهَقُ

ولا قول الحميديّ رحمه الله :

ولو وازن الدنيا ترابُ زَمَخْشَر — لأنكَ منها زادهُ الله رُجْحانا

ولا قول بعض فتيانها المجيدين :

دعَوْكَ بجـــارِ اللهِ واللهُ عالم — بأنك جار الله حقًّا كما وَجَبْ
لَعَمْري لقد فاضتْ وأنت مُفيضها — على حَرَم الله الصنائع والقُرَب
رَقَبْتَ ذِمام الله في كل مُؤْمنٍ — وواسيْتهمْ بالعلم طُرًّا(١) وبالنَّشَب
وأنت الإمامُ الزاهدُ الوَرِعُ الذي — أبيتَ اغترارا باللُّجَيْن وبالذَّهَب
وإنك للعَــلّامة الجامع الذي — جمعْتَ أفانين العُلوم إلى الأدب
وما نَصرَ الإسلامَ غيرَكَ أهلُه — وإن طار في أعلى المنازل والرُّتَب
ومَنْ طَالَعَ التفسير أيقن أنّه — مِنَ الفَلَكِ الأعْلَى أتى ذلك اللَّقَب

---

(١) كذا في ص . وفي ط : « طورا » .

وإنك أستاذُ الزمان وكلُّهم ... تلامذةٌ جاثون صَفّا على الرُّكَب
وسَمَّتْك إذ فَرَّقْتَ فى كل بلدة ... جواهرَ علمٍ شيخَنا العُجْمُ والعَربْ
فما لِخُوارَزمَ التى أنت فخرها ... عَلَتْها الثُّريّا إنّ ذاكَ من العَجَب

ولا قول ابن القُرطبي :

قَسَمًا(١) بَلِّغْ تحيـــاتى إلى ... شيخنا العلّامةِ الحَبْر العَلَمْ
ليس قُسٌّ عنـده قُسًّا ولا ... سيبَوَيْهِ الشهمُ(٢) يدرى ما الكَلِم
أىُّ آدابٍ وعـــلمٍ وتُقَى ... منه فارقْتُ وحلمٍ وحِكَم
قُلْ إذا ما الدهر أمسى عابسا ... إنّ محمودا لك ابنٌ يَبْتَسِم
لو جعلتَ اليمَّ حِبْرًا والقَـلا ... مُهْرَقا كانت معاليه أَطَمّ
إن مِنْ جَرّاهُ لولا المصطفى ... كنتُ فضّلتُ على العُرب العَجَم
كل موجودٍ سواهُ حيثُ لم ... أرَ ذاكَ الفضلَ فى عَيْنِى عَدَم

ولا قول الخطيب الموفّق :

[٧٣١] لسانُك غوّاص ولفظك لؤلؤ ... وفكرك بحر للفضائل طامى
لسانٌ يَوَدُّ الحاسدون لو أنّهُ ... سِنانُ قناةٍ أو غِرارُ حُسَام

ولا قوله أيضا :

أَفَخْرَ خَوارِزْمَ مالِى عنك مُنْحَرَفُ ... ما دامَ يختلفُ الأنوارُ والسُّدَفُ
أَلَسْتَ أنتَ الذى خَوَّلْتَنِى نِعَمًا ... تُطْوَى وتُنْشَرُ فى تَعدادها الصُّحُف
ألست أنت الذى أوليتَنى رُتَبًا ... بفضل رِفعتها الإيوانُ يَعْترف
ألست أنت الذى مِن وَرْدِ نعمته ... ووِرْدِ حكمته أجْنِى وأَغترف
أعداؤك استَشْرَفونى من جَهالتهم ... فى وصفها وهى عندى فوقَ ما أصف

(١) كذا فى ط . وفى ص، م : «منعما» . (٢) كذا فى ص ، ط و فى م : «الشيخ»

ولا قول أديب الملوك يعقوب بن شرين الجنّدى :

فتى سار فى الآفاق رُكبانُ ذِكره مغرّبة طَوْرًا وَطَوْرًا مُشَرِّقَه
إذا حلّ فى أرض أتاه فُحُولها تُفيدُ علوما حوله متحلّقه
وإن خاض فى شرح العلوم رأيتها أفرّطِ احتشام من معاليه مُطرِقه
فليس له فى كل شرقٍ ومغربٍ نظيرٌ بنو الدنيا على ذاك مُطْبِقَهْ

ولا قول البديع الخوارزمى :

أمكةُ هل تدرينَ ماذا تضمنت بمقدم جارِ الله منكِ الأباطحُ
به وإليه المسلم يَنمى ويَنْتمى وفيه لأرباب العلوم المناجح
محطّ رِحال الناضلين فلم يزلْ يُحَطُّ إليه الرّحلَ غادٍ ورائحُ
إذا انتابه صقر الوِطاب رأيته تحوّلَ عنه وهو ملآنُ طافح
نمته الكرام الغرّ من خير أسرةٍ هُمُ قدوة الدنيا الكهول الجحاجح
أدِلّاء ضُلّالِ البرايا جِباهُهم مصابيح رُهْبانٍ فدتها المصابح

فإن ذلك اغترار منهم بالظاهر المموّه ، وجَهْل بالباطن المشوّه .

ولعلّ الذى غرّهم منى ما رأوْا من النُّصْح للمسلمين ، وبليغ الشفقة على المستفيدين ، وقَطْع المطامع عنهم ، وإفاضة المبارّ والصنائع عليهم (١) ، وعزة النفس ، والربء بها عن الإسفاف للدَّنيّات (٢) ، والإقبال على خُوَيْصّتى ، والإعراض عما لا يعنينى ، فجَلّلْتُ فى عيونهم ، وغَلِطوا فىّ ، ونسبونى إلى ما لستُ منه فى قَبيلٍ ولا دَبير . [٢٣٢]

---

(١) عبارة معجم الأدباء لياقوت : « وقطع المطامع ، وإفادة المبار والصنائع » .

(٢) عبارة ياقوت : « والربء بها عن السفاسف » . ولفظ « السفاسف » مما أنكره اللغويون .

وما أنا فيما أقول بهاضمٍ لنفسي ، كما قال الحسن رحمه الله فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقوله « وَلِيتُكُمْ ولَسْتُ بخيرِكُمْ » : إن المؤمن لَيَهْضِمُ نفسه ؛ وإنما صَدَقَتْ الفاحصَ عَنِّى ، وعن كُنْه رِوَايتى ودِرَايتى ، ومَنْ لَقِيتُ وأخذت عنه ، وما مَبلغ علمى وقُصارَى فضلى ، وأطلعته طِلْع أمرى ، وأفضيت إليه بخبيئة سرّى ، وألقيت إليه عُجَرِى وبُجَرِى ، وأعلمته نَجْمِى وَشَجَرِى .

وأما المولد فقريةٌ مجهولة من قرى خُوَارَزْم ، تسمَّى زَمَخْشَر ؛ وسمعت أبى رحمه الله يقول : اجتاز بها أعرابى ، فسأل عن اسمها واسم كبيرها ؛ فقيل له زمخشر والرَّدَّاد . فقال : لا خير فى شرّ وردّ ، ولم يُلْمِمْ بها .

ووقت الميلاد شهر الله الأصم فى عام سبع وستين وأربع مئة .

والحمد لله المحمود ، والمصلَّى عليه محمدٌ صلى الله عليه وسلم . انتهى .

***

تعليق المؤلف على كلام الزمخشرى

قلت : وإنما أوردت ذلك مع ما فى بعضه من الغُلُوّ ، وعدم التأدب مع الشرع فى بعض الألفاظ ، كى تعلم فضلَ أهل السُّنّة رضى الله عنهم ، حيث انتصروا على مَنْ هذه صفتُه على زَعْمِه ، بالحجج البالغة ، وكسَرُوا أمّ رأسِهِ ورأس شيعته بالحجارة الدامغة ؛ ولم يُغْنِ عنه شيء من اعتقاد هؤلاء الغلاة فيه ، ولم تنفعه ألسنتهم التى تأتى بالباطل فى صورة الحق ، وتستقصى معاذيرها وتستوفيه ، اللهم إلا أن يكونوا غيرَ عالمين باعتقاده ، فلهم عُذْر عند اعتراض المعارض وانتقاده ، وأيًّا ما كان فقد هَدم أهلُ السنة رضى الله عنهم له ولأحزابه أساسا ، وكلما حمى حَوْزَته البِدْعيّة كُلَيْب من شيعته قيَّض الله له جَسَّاسا ، فظهر الحقّ وأهله ، وارتفع غَيُّ المبتدِع وجهله .

***

من بديع نظم الزمخشري

ومن بديع نظم الزمخشريّ المذكور قولُه:

هو النَّفَسُ الصَّعّادُ عن كَبِدٍ حَرَّى ... إلى أن أرَى أمّ القُرَى مرةً أُخرَى [٢٣٣]

سَرَيْتُ بشخصى لا بنفسى وهِمَّتِى ... وهيهات ما الأخشَبَينِ والسُّرَى

مُقيمان عند البيت ما ذَرَّ شارقٌ ... مُنيخانِ بالبطحاء ما ذَكَتِ الشِّعْرَى

[وله من قصيدة:

مَليحٌ ولكنْ عندَهُ كُلُّ جفوةٍ ... ولم أرَ فى الدنيا صفاء بِلَا(١) كَدَرْ

ولم أنْسَ إذ غازلتُه قربَ روضةٍ ... إلى جنب حوضٍ فيه الماء مُنحدَرْ

فقلتُ له جئنى بِوَرد وإنما ... أرَدْتُ به ورد الخُدود وما شَعَرْ

فقال انتظِرْنى رجْعَ طرفٍ أجِئْ به ... فقلت له: هيهات، ما لىَ مُنْتَظَرْ!

فقال ولا وَرْدَ سِوَى الخَدِّ(٢) حاضرٌ ... فقلت له إنى قَنَعْتُ بما حَضَرْ]

وقوله:

إذا التصقتْ بالبحث فى العلم رُكبتى ... برُكبة نِحريرٍ على الجِدِّ دأَّبِ

فإن دام لى عونُ الإله على الذى ... أُعانيه من فضلٍ وَبِرٍّ وأداب

وإن نظرتْ عينى على الودّ والصفا ... مع البِرّ والتقْوَى نواظر أحباب

فقل لملوك الأرض يَلْهوا ويلعبوا ... فذلك أهْوَى ما حييتُ وتأعابى

وقوله أيضا:

أربعةٌ للدين أركانُ ... حُبُّهمُ يُمْنٌ وإيمانُ

أربعةٌ أوّلُ أسمائهم ... عَيْنٌ وهُمْ فى الناس أعيان

عتيقُ والفاروق والمُجْتَبَى ... منهم وذو النُّورَيْن عثمان

* * *

(١) كذا فى ابن خلكان؛ وفى م: «ولا» وهو تحريف. ولم ترد المقطوعة فى ط ولا س. (٢) كذا فى ابن خلكان؛ وفى م: «مر» وهو تحريف.

ما ذكره عنه السيوطى فى بغية الوعاة

قال السيوطى فى الطبقات الصغرى ما نصُّه :

محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الزمخشريّ ، أبو القاسم ، جارُ الله ؛ كان واسع العلم ، كثير الفضل ، غاية فى الذكاء وجودة القريحة ، متفننا فى كل علم ، معتزليًا ، قويا فى مذهبه ، مجاهرا به ، حَنَفِيًا .

ولد فى رجب سنة سبع وستين وأربع مئة ، وورد بغداد غير مرّة ، وأخذ الأدب عن أبى الحسن على بن المظفّر النَّيْسابورىّ ، وأبى مُضَر[1] الأصبهانى ، وسمع من أبى سعد الشّقّانى[2] ، وشيخ الإسلام أبى منصور الحارثى ، وجماعة ؛ وجاور بمكة ، وتلقّب بجار الله ، وفخر خوارزم أيضا . وكتب إليه الحافظ السِّلَفىّ يستجيزه . وأصابه خُرَاج فى رجله ، فقطعها ، وصنع عِوَضها رجْلا من خشب ، وكان إذا مَشى ألقى عليها ثيابه الطّوال ، فيظن من يراه أنه أعرج .

[٧٣٤] وله من التصانيف : الكشّاف فى التفسير ؛ الفَائق فى غريب الحديث ؛ المفصّل فى النحو ؛ المقامات ؛ المستقْصَى فى الأمثال ؛ ربيع الأبرار ؛ أطواق الذهب ؛ صميم العربية ؛ شرح أبيات الكتاب ؛ الأُنموذَج فى النحو ؛ الرائض فى الفرائض ؛ شرح بعض مُشكِلات المفصّل ؛ الكَلِم النوابغ ؛ القِسطاس فى العروض ؛ الأحاجىّ النحوية ؛ وغير ذلك .

مات يوم عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمس مئة .

أسندنا حديثه فى الطبقات الكُبْرَى ، وتكرر فى جمع الجوامع .

---

(١) كذا فى معجم الأدباء وهو الصحيح . أبو مضر ، محمود بن جرير الضبى الأصبهانى . وفى ابن خلكان : «أبو مضر منصور» . وفى الأصول : «أبى نصر» وكلاهما غلط .

(٢) كذا فى معجم الأدباء . والشقانى (بفتح أوله وتشديد القاف) : نسبة إلى قرية من قرى نيسابور . وفى الأصول : « الشقاق » . وفى بغية الوعاة : « الشفانى » وكلاهما تحريف .

وله :

إن التفاسيرَ فى الدنيا بلا عَدَدٍ وليس فيها لَعَمْرِى مثلُ كَشَّافِ
إن كنتَ تبغى الهُدَى فالزم قراءته فالجهل كالداء والكشَّافُ كالشافى

انتهى كلام السيوطى .

تعريف ابن خلكان به

وقال ابن خَلِّكان فيه ما نصُّه (١) :

محمود بن عمر بن محمد الخُوَارَزْمِىّ الزمخشرىّ ، أبو القاسم الإمام ، له الكتب فى التفسير ، والحديث ، والنحو ، واللغة ، وعلم البيان . إمام عصره غيرَ مُدافَعٍ ، تُشَدُّ إليه الرِّحال فى فُنونه ، وصنف التصانيف الشريفة ، منها الكشّاف ، لم يصنَّف قبلَه مثلُه ؛ والمفصّل فى النحو ، وغير ذلك . وسافر إلى مكة ، وأقام بها مُجاورا زمانا ، فصار يُقال له جارُ الله لذلك ، وكان هذا الاسم عَلَمًا عليه ؛ وكانت إحدى رجليه ساقطة ، وكان (٢) يمشى فى جاوِن خشب ؛ وسبب سقوطها أنه أصابه فى بعض أسفاره ببلاد خوارزم ثلج وبَرْد شديد ، فسقطت رجله ، وكان بيده مَحْضَر ، فيه شهادة خلق كثير ممّن اطّلعوا على حقيقة ذلك ؛ خوفا من أن يُظَنّ [به] أنها قُطِعت لريبة ؛ وقيل إنه سئل عن قطع [سبب] رجله ، فقال : دُعاء الوالدة ؛ وذلك أنى فى صباىَ أمسكت عُصفورا ، وربطت خيطا فى رجله ، فأفلَتَ من يدى ، فأدركته وقد دخل فى خَرْق ، فَجَذَبته ، فانقطعتْ رجله [فى الخيط ، فتألمتْ والدتى لذلك ، [٧٣٥]
وقالت قطع الله رجل الأبعد كما قطعت رجله] . فلما دخلت إلى بخارَى لطَلَب العلم ، سقطتُ عن الدابة ، وانكسرت الرِّجل ، وعَمِلَتْ علىّ عملا أوجب قطعها .

وكان الزمخشرىّ مُعْتَزِلىّ الاعتقاد ، متظاهرا به ، وكان إذا قصد صاحبا

(١) بين ما نقله المؤلف هنا وما فى نسخة ابن خلكان طبعة الميمنية بمصر سنة ١٣١٠ هـ خلاف فى بعض العبارات .

(٢) فى الأصول : «وإنه كان» ولفظة «إنه» زائدة هنا .

له ، واستأذن عليه فى الدخول ، يقول له : أبو القاسم المعتزلىّ بالباب .

وأولَ ما صنفَ الكشاف كتب استفتاح الخطبة : « الحمد لله الذى خَلَقَ القرآن » ، فقيل له : متى تركته على هذه الهيئة ، هجره الناس ، ولا يرغب أحد فيه ؛ فغيره وقال : « الحمد لله الذى جعل القرآن » ، وجعل عندهم : بمعنى خلق . ورُئى فى كثير من النسخ : « الحمد لله الذى أنزل القرآن » ، وهذا إصلاح الناس ، لا إصلاح المصنف .

ومن شعره يرثى شيخه أبا مُضَرَ محمودًا[1] :

وقائلةٍ ما هـــــذه الدُّرَرُ التى تَساقَطُ من عَيْنيك سِمْطَيْن سِمْطَيْنِ
فقلت لها الدّرُّ الذى كان قد حشا أبو مُضَرٍ أذْنى تساقطَ من عَيْنِي

وأنشد فى كتابه الكشاف لبعضهم[2] :

يا مَنْ يَرَى مَدَّ البعوضِ جَناحَها فى ظُلْمَةِ الليـل البهيم الألْيَلِ
ويَرَى عُروقَ نِياطها فى نَحْرِها والمخَّ فى تلك العِظام النُّحَّلِ
اِغْفِرْ لعبد تاب من فَرَطاته ما كان منه فى الزمان الأوّلِ

ويُرْوَى أن الزَّمَخْشرىَّ أوصى أن تُكْتَب هذه الأبيات على لوْحِ قبره .

وقال غيرُ ابن خَلّكان فى البيت الأخير :

اُمْنُنْ علىّ بتوبةٍ أمحو بها ما كان منى فى الزمان الأوّلِ

وهذا لا يناسب الكَتْب على لوْح القبر ، وإنما يناسبه ما رَوَى ابن خَلّكان ، فتأمله .

---

(١) كذا فى معجم الأدباء لياقوت ، وهو الصواب . وفى الأصول تبعا لابن خلكان : «منصورا» وهو غلط من ابن خلكان ، أو من النساخ . (انظر الحاشية رقم ١ صفحة ٢٩٥ من هذا الجزء) .

(٢) نسب ابن كثير فى البداية والنهاية هذه الأبيات لأبى العلاء المعرى .

ثم قال ابن خَلّكان: وحدَّث بعض الأصحاب أنه رأى بجزيرة سوا كِنَ تربةَ ملكها عزيز الدولة رَيْحان، وعلى قبره مكتوب:

يأيها الناس كان لي أملٌ قصَّرَ بي عنْ بلوغه الأجَلُ [٢٣٦]

فلْيتّقِ اللهَ رَبَّهُ رَجُلٌ أمكنه قبلَ موته العمل

ما أنا وَحْدِي نُقِلتُ حيث تَرَى كلٌّ إلى ما نُقِلْتُ ينتقل

تُوُفِّي الزَّمخشريّ ليلة عَرَفة سنة ثمانٍ وثلاثين وخمس مئة.

انتهى كلام ابن خَلّكان.

***

إلمامة به لابن غازي

وقد تقدَّم(١) في التأليف الذي نقلناه عن [الشيخ] ابن غازي رحمه الله، بعض إلمام بحال الزَّمخشريّ سامحه الله.

***

للزمخشري يمدح كتاب سيبويه

ومن نظم الزَّمخشريّ قوله يمدح كتاب سيبويه رحمه الله:

ألَا صلّى الإله صلاةَ حقٍّ(٢) على عمرو بن عُثمان بن قُنْبَرْ

فإنَّ كِتابه لم يَغْنَ عنه بنو قلَم ولا أبناء مِنْبَرْ

[بين الزَّمخشريّ وأهل السنة]

ما تشدده في الكشاف لبعض المعتزلة في ذم أهل السنة

وأنشد الزَّمخشريّ في كشّافه لبعض العَدْلية، يعرِّض بأهل السنة والجماعة المُفْلِحين، ويَنْصُر مذهبَه الفاسد:

لَجماعــةٌ سَمَّوا هَوَاهُمْ سُـنّةً وجَماعةٌ حُمُرٌ لَعَمْرِيَ مُوْكَفَهْ(٣)

---

(١) في صفحتي (٧٧، ٧٨) من هذا الجزء.

(٢) في بغية الوعاة للسيوطي: «صدق».

(٣) الإكاف والوكاف: برذعة الحمار، يقال آكف الحمار، فهو مؤكَف بالهمز، وأوكفه فهو موكَف، بالواو بدل الهمز.

قد شبَّهوه بخلقه وتخوَّفوا شُنَعَ الورى فتستَّروا بالبَلْكَفَة(١)

***

ما رد به عليه أهل السنة

وقد تصدَّى للردّ عليه من أهل السنة رضى الله عنهم جمٌّ وافر ، وأبْدَوْا ما يؤيد مَذهَبَهم الظافر ، وتركوا المبتدع يَحُكُّ رأسه بغير أظافر .

لابن المنير فى الرد على المعتزلة

ولنذكر الآن ما حضرنا من ذلك ؛ كقول صاحب « الانتصاف من الكشّاف » ، وهو ناصر الدين بن المنيِّر الإسكندرانى ، رحمه الله تعالى :

وجماعة كفروا برؤية ربِّهمْ هـذا ووعدُ الله ما أنْ يُخلِفَهْ

وتلقَّبوا عَدْلِيَّـة قلنا أجَلْ عَدَلوا بربِّهمُ فحَسْبُهُم سَفَهْ

وتلقَّبوا النـاجين كلَّا إنَّهُم إنْ لم يكونوا فى لَظَى فعلى شَفَهْ

وله أيضا فى ذلك

وكقوله أيضا ، أعنى صاحب الانتصاف :

عجبا لقـوم ظالمين تلقَّبوا بالعدل ما فيهمْ لعمرِىَ مَعْرِفَهْ

قد جاءهم من حيث لا يَدْرُونه تعطيلُ ذات الله مع نَفْىِ الصِّفَهْ

وللشيخ عمر السكونى فى ذلك الغرض

وكقول الشيخ الإمام أبى علىّ عمر بن محمد بن خليل السَّكونى الأصولىّ رحمه الله :

سَمَّيتَ جهلا صَدرَ أُمَّةِ أحمد وذَوِى البصائر بالحَمِير المُؤْكَفَهْ [٧٢٧]

ورميتَهُم عَنْ نَبْعَةٍ سَوَّيتَها رَمْىَ الوليد غدا يمزِّق مُصْحَفَهْ

وزَعَمْتَ أنْ قدْ شبهوهُ بخلقهِ وتخوّفوا فتستّروا بالبلكفه

نَطَقَ الكتاب وأنت تنطق بالهوى فهْو الهوى بك فى المَهَاوِى المُتْلِفَهْ

وجب الخَسَارُ عليك فانظر مُنْصِفا فى آية الأعراف فهْىَ المُنْصِفَهْ

---

(١) البلكفة بوزن الفلسفة : مصدر مولد منحوت من قول المتكلمين : « بلا كيف » ، لقول أهل السنة فى رؤية البارى تعالى : نجوز رؤيته بلا كيف ، أى لا تعلم حال تلك الرؤية ولا وسيلتها ، فرارا من القول بالتشبيه والتجسيم .

أترى الكليمَ أتى بجهلٍ ما أتى وأتى شيوخُك ما أتوا عن معرفه

والقاضى عمر ابن عبد الرفيع فى ذلك

وقول القاضى أبى على عمر بن عبد الرفيع :

جبْرِيّةٌ وتلقّبتْ عدْليّةً وعن الصواب عدولُها للسّفسفهْ

نفَوْا الصفاتِ وعطّلوا وتمجّسوا ويُكابِرون وشأنُهم جلبُ السّفه

هكذا وُجد بخط الإمام أبى عبد الله بن مرزوق ؛ ورأيته بخط بعض الأصحاب : « وشأنهم حال السفه » ، والأمر فى ذلك قريب .

والأجى فى ذلك الغرض

وقول الإمام القاضى أبى عبد الله محمد بن على الأجى التونسىّ ، قاضى الأنكحة ، رحمه الله تعالى :

لهواتِهِمْ هتفوا وظنّوا هتفَهُمْ عدْلا لقدْ بلغوا النهايةَ فى السّفَهْ

زعموا بأنّ الذاتَ قامَ بغيرِها صِفةٌ وفيها أوجبوا حكم الصّفه

خرقوا سياجا شاده سلفُ الهدى وتمذهبوا بمذاهبٍ مستنْكفه

وأتى الأخيرُ الغُمْر من أتباعهم يبْغى الحِجاجَ معرّضا بالبلكفه

أعنى الخُوارزْمىّ ذا الصّلَف الذى لم يَتّئدْ من جهْله بالمعرِفه

بل تاه فى بيْدا الجهالة معْرِضاً كحمار وحْشٍ فى مهامِهَ مُتلفه

وليحى بن منصور التونسى فى ذلك

وقول الفقيه أبى زكرياء يحيى بن منصور التونسىّ ، قال الشيخ ابن مرزوق رحمه الله : وفى جوابه تعريض بجواب الأجى فوقه :

عجبا لحَبْر فى البلاغة ذائقٍ عِلْمَ الفصاحة فرْدَهُ ومؤلّفه

جمعَ المعانِىَ والبيانَ مكشّفاً أسرارَ قرآنٍ بأكمل معرِفه

وأضلّه اللهُ العظيمُ فراغَ عنْ سَنَن الصّواب وحادَ عنْه وحرّفه

فأحقّ قدرةَ حادثٍ وأحال رؤ يةَ واجبٍ وأن تكون له صِفه

ما ذاكَ إلا فضلُ قهّار به قومٌ ذوو رَشَد وقومٌ فى سَفَه

واللهَ أسألُ رحمةً لجميعنا ... ودخولَنا فيمن حباه وشرّفه
متوسّلين بأحمدٍ خيرِ الورَى ... صلّى عليه الله ما نطقت شفه

وللبفرنى في ذلك

وقول الفقيه أبي محمد عبد الواحد اليفرني :

قل للذي جمع النّظامَ وخلفَهُ ... مِنْ بعدهِ لكَ موعدٌ لن تخلفه
أثبتَّ عدْلَ جماعةٍ فى جَوْرهِمْ ... والجَوْرَ أثبتهُ لهم نفيُ الصفه
ستكونُ من تلك الجماعة يومَ هم ... حُمُرٌ لفىّ أو لكىّ مُوقَفه

ولابن عرفة في ذلك

وقول شيخ الإسلام أبي عبد الله بن عرفة رحمه الله :

أجُثالةٌ سمّوا هواهم مَعْدَلا ... وحُثالة(١) حُمُرٌ لِكَىّ مُوقَفه
قد شَبّهوهُ بالمُحَالِ وعطّلوا ... وتَسَتّرُوا بالذّاتِ عن نفى الصّفه

قوله : «قد شبهوه بالمحال» أي لقولهم : «عالم لا بعلم» ، ونفى العلم يستلزم أن يكون محالا . هكذا أُلفى فى بعض المقيّدات ، والله أعلم .

ولابن مرزوق التلمساني في ذلك

وقول خطيب الخطباء الرئيس الحاجب ، الفقيه المحدّث الرّحّال ، سيدى أبي عبد الله بن مرزوق التلمسانيّ ، رحمه الله تعالى :

وجماعةٍ عُرِفَتْ لعمرىَ بالسَّفَهْ ... وتمسّكتْ بضلالِ أهلِ الفلسفه
عدلَتْ عن النهجِ القويمِ فلقّبتْ ... عدليّةً وعُدولها عن معرفه
ضلّتْ وقالت لن يُرى ربُّ الورَى ... يومَ الجزاءِ فألزمتْ نفى الصفه
هذا وكمْ من زلّةٍ زلّتْ وكم ... من مَذْهبٍ ذهبت به فى مَتْلفه
[وكذاك أنطقتِ الأمور لنفسها ... هيهاتَ تنقذ نفسها من مُتْلفهْ]
كيف السبيلُ لصرفها عن غَيِّها ... والعدلُ يَمنع صرْفها والمعرفهْ

وقال سعد الدين التفتازاني رحمه الله ، عند ذكر البيتين اللّذين أنشدهما

(١) كذا فى ط ، ص ، ولعله تحريف .

الزمخشرىّ [ما نصه] : ولقد عورض ما أنشده وأنشأه من الهذيان . قال الإمام

المحقّق محيي السنّة ، قامع البدعة ، كامل الدين المظفر ، ردًّا عليهم :

والكامل الدين المظفر فى ذلك

لجماعة كفروا برؤية ربهم ... وإلقائه حُمُرٌ لَعَمْرِىَ مُوكَفه

هم عطّلوه عن الصّفات وعطّلوا ... عنه الفِعال فيا لها من مُنْكَفه

هم نازعوه الخلقَ حتى أشركوا ... بالله زُمْرَةَ حاكةٍ وأساكفه [٧٣٩]

هم غلّقوا أبواب رحمته التى ... هى لا تزال على العصاة مُوَكّفه

ولهم قواعدُ فى العقائد رَذْلَةٌ ... ومذاهبٌ مجهولةٌ مُسْتَنْكَفه

يبكى كتابُ الله من تأويلهمْ ... بدموعه المنهلّة المُسْتَوْكَفه

وكذا أحاديث النبىّ دموعها ... منهم على الآثار غير مكفكفه

فالله أمطرَ فى سحاب عذابه ... وعقابه أبدا عليهم أوكفه

انتهى كلام السعد ، رحمه الله .

وقال الطّيبىّ رحمه الله : وأجابه بعض أهل السنة بقوله :

ابن المنير الاسكندرى من أهل السنة

عجبا لقوم ظالمين تستّروا ... بالعدل ما فيهم لعمرى معرفه

... البيتين ؛ وقد تقدم أنهما لصاحب الانتصاف ، حسبما صرح بذلك

الإمام ابن مرزوق ، فبان أنه المعنىّ بقول الطّيبىّ : أجابه بعض أهل السنة ، والله أعلم .

لابن الجبير اليحصبي فى ذلك

قلتُ : وقد رأيت بتِلِمْسَان بخط الفقيه أبى عبد الله محمد بن الحدّاد الوادى آشِى ثم الغَرْناطىّ ، نزيل تِلِمْسان رحمه الله ، جوابا بديعا جدًّا ، للشيخ الإمام ابن الجبير اليَحْصُبىّ ، أحد أعلام المتأخرين بالأندلس ، ونقلته من خطه الحسن ، وهو :

وجماعةٍ مَشْنوءةٍ بِدْعِيّة ... مصروفةٍ عن رشدها متعسّفه

جارُوا وسَمَّوْا قومَهم عَدْلية ... عَدَلوا ولكنْ عن طريق المَعْرِفه

قومٌ نفوا عن ربهم أحكامَه في خلقه لمَّا نفَوْا عنهُ الصِّفَه
غطَّوْا على التعطيل بالتنزيه إذْ ضلّوا ضلال الأسرة المتفلسِفَه
فطريقهم أسّ الضلال وقولهم عينُ المحالِ ورأيُهم مَحْضُ السَّفَه
الحقّ جبُّ سنامِ جُبَّائيِّهمْ وقناةُ نجلِ عُبَيْدِهم(١) متقصِّفه
وتناثرتْ خرزاتُ نظّام لهمْ والكَوْدَنُ العلّافُ(٢) بلْ المَعْلَفَه
والشيخُ محمودٌ هو الفيلُ الذي [كادوا به المبنى الذي فى البلْكَفه
ما منهم إلا حمار صوتت] فى فيه جَحْفَلَةٌ وتحسِبُها شَفَه

قال وكتب بخطه الرائق تحت قوله « إلا حمار » ما نصّه :

[٧٤٠] « البادى أظلم » . انتهى .

تعليق للمؤلف

ولا خفاء ببراعة هذا النظم وحسن مَساقه ، وتوطئته للتورية البديعة التى هى قوله : « والشيخ محمود » ... الخ ، فإن هذا تلميح لقصّة الفيل ، المذكورة فى القرآن ، فى قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ » ، وقد صرّح غيرُ واحد من أهل التفسير والسِّيَر ، أن اسم ذلك الفيل الذى جاء به أبرهةُ لهدم الكعبة « محمود » ، فجبر بذلك ابنُ الجبير ما ضاع من الاتفاق الغريب ، واللهُ تعالى يجازيه أفضلَ جزائه ، وجميعَ أهل السنة ، بما أتوْا به من الحُجَج ، التى جدعت أنف كلّ مستريب .

كلام بن الجبير من رواية الوادى آشى

وبعد أن كتبتُ ما ذكرتُه من حفظى راجعتُ مقيّداتى ، فألفيت بها مما نقلتُه من خطّ الوادى آشى المذكور ما نصّه :

أنشدنا شيخنا وبركتنا العالم الجليل ، الخطيب المِصْقَع ، البليغ المفيد ، إمام

(١) نجل عبيدهم : هو عمرو بن عبيد ، من رءوس المعتزلة .
(٢) الكودن : الفرس أو البغل أو البرذون . والعلاف : هو أبو الهذيل العلاف المعتزلى .

وقته في العلوم ، والتحصيل والفهوم ، قاضي الجماعة ، سيدنا أبو عبد الله ، محمد بن علي بن الأزرق ، رضي الله عنه ، وأمتع [ببقائه] وإفادته ، ووصل أسباب سعادته ، قال :

أنشدني شيخ الأدباء ، وحجة البلغاء ، الكاتب المجيد الأبرع ، أبو عبد الله محمد بن الجبير اليحصبي ، معارضا للبيتين الشهيرين ، اللذين أنشدهما الزمخشري ، فعارضهما ابن الجبير بقوله :

وجماعة مشهورة بذميمة مصروفة عن رشدها متعسفة

... الأبيات . قال شيخنا : فلما أنشدهُ الأبياتَ ناظمُها ، كتبها له بخطه الحسن ، وكتب تحت قوله « إلا حمار » : البادي أظلم . انتهى .

* * *

ومن نظم ابن الجبير

ثم قال الوادي آشي المذكور : ولسيدي ابن الجبير المذكور ، ومن خطه قيدت :

كلما رمتُ أن أُقدِّمَ خيرا لمعادي ورُمْتُ أنّي أؤوبُ

[٧٤١] صرفتني بواعث النفس قسْرًا فتقاعسْتُ والذُّنوب ذُنوب

ربِّ قلبْ قلبي لِعَزْمَة خيرٍ بمتابٍ ففي يديك القلوب

ومن نظم ابن الجبير أيضا مجيبا للشران

وله أيضا وقد أشار عليه الرئيس الكاتب أبو عبد الله الشرّان بإنشاء صدر لمكاتبات سلطانية :

ذرْعي وصدْري بالصّدورْ هذا يضيق وذا يدورْ

أنت المليء بكتْبها ما للصّدور سِوى الصّدور

بأجابه به الشران

فأجابه الشرّان بقوله :

تجْرُ اجتهادِكَ لن يبُورْ فدَعِ الكلام وكُنْ صَبُورْ

إن الصدورَ بكَ ازدهتْ   بالدرِّ تزدانُ الصُّــدورْ

نقلت هذا كلَّه من خط الفقيه أبي عبد الله محمد الوادي آشي المذكور آنفا رحمه الله تعالى .

***

ثم قال الوادي آشي المذكور :

المسلمون أعداء لأهل السنة

سمعت شيخنا الإمام سيدي محمد بن الأزرق الأصبحيَّ رحمه الله ، بمجلس تدريسه من الجامع الأعظم بغرناطةَ يقول : كان أبو محمد عوف بن يوسف الخُزاعي من أهل القَيْرَوَان يقول : الخلائق كلهم أعداء بني آدم ، وبنو آدم كلُّهم أعداء المسلمين ، وجميعهم أعداء أهل السنة . انتهى .

***

جند الله الغالبون هم أهل السنة

وذكر الرُّشاطي بسند مُتَّصل إلى أنَس بن مالك رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ، في قول الله تعالى : «وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ» ، قال : هم أهل السنة والجماعة .

انتهى ما قيَّدتهُ من خط الوادي آشي المذكور ، رحمه الله .

***

بعض أخبار الوادي آشي وشعره

وكان رحمه الله ممن حلَّ بتِلِمْسان بعد أخذ غَرْناطة ، أعادها الله ، وحصلتْ له بها مصاهرةٌ مع أعيانها بني مرزوق ، ثم آلتْ إلى مقاطعة ، حَسْبما ذَكَرَ ذلك [٧٤٢] في بعض ما له من النظم ، وكان له نظم لا بأس به ؛ فمن ذلك قولُه رحمه الله ، بعد بيت سقط من حفظي ، مُضَمَّنُه أنَّ الناسَ لاموه عندما طلَّق بنتَ ابنِ مرزوق ، وأظنه هكذا :

يَلومُنيَ الأقوامُ من بعد ما سَطَا   عليَّ ابنُ مرزوق ومَنَّ بإنفاقِ

فقلت لهم كُفُّوا المَلاَمَ فإنّنى ... تركت ابن مرزوق وأمَّمْتُ رزَّاقى (١)

* * *

رثاؤه أحمد بن يحيي الونشريسى

ومن ذلك قوله يرثى الشيخَ الإمام ، [الحافظ ، بل] حافظ الإسلام ، سيدى أحمد بن يحيي الونشريسىّ الأصل ، التلمسانىّ ، نزيل فاس ، صاحب المعيار وغيره :

لقد أظلمتْ فاسٌ بل الغَرْبُ كلُّه ... بموت الفقيه الونشريشىّ أحمدِ
رئيسِ ذوى الفَتْوى بغير منازعٍ ... وعارفِ أحكام النوازل الاوْحَد
له دُرْبَةٌ فيها ورأىٌ مُسَدَّد ... بإرشاده الأعلامُ فى ذاك تَهْتَدى (٢)
وتالله ما فى غربنا اليومَ مثلُه ... ولا مَن يدانيه بطول تردُّد
عليه من الرحمن أفضل رحمةٍ ... تروحُ على مَثواه فَيضا وتغْتدى

وله فى رثائه أيضا

وقوله فى رثائه أيضا :

أبعدَ ابنِ يحيي اليومَ فى الغَرب عالمٌ ... يطبِّقُ بالفُتيا المفاصلَ مثلُهُ
ويَعرِف من فقه النوازِل غايةً ... بُوقِّع منها ما به بانَ نُبْلُه
وإنْ جئتَ للإنصاف لم يبقَ مثلُه ... وهذا الجليلُ ليسَ يُنْكَرُ فَضْلُه
فإذْ (٣) كان جاء الموتُ فالصبر والرضا ... عَلَى ما قضى الخلَّاقُ فالحَوْل حَوْلُه

وله فيه أيضا

وقوله فى ذلك :

رأيت نجومَ الدين تبكى حزينةً ... عَلَى فَقْدِ حَبْرٍ كان قُطْب أولى العَلْيا
فقلت ومَنْ هذا ؟ فقالت مجيبةً ... عَلَى الوَنْشَرِيشىِّ رئيس ذَوِى الفُتْيا
فَصِحْنا وقلنا : وَيْلَنا ثم وَيْلَنا ... على فَقْدِه مُذْ غابَ أظلمت الدنيا

(١) كذا فى ط . وفى س : « وجئت لرزاقى » .
(٢) كذا فى ط وهامش س . وفى س : « أهتدى » . (٣) فى ط : « فإن » .

عليه من الرحمن أفضلُ رحمـــة   تعاهَدُ مثواه مع الجَوْدِ والسُّقْيا

وقوله وقد بدّل القافية :   وله فيه أيضا

رأيتُ نجوم الدين تبكي حزينةً   على فقد من قد كان قُطْبَ زمانِه
فقلتُ ومن هـــذا فقالت مجيبةً   عَلَى الونشريشيّ وَحيدِ أوانه
[٧٤٢] إليه انتهت فى الفقه كلُّ رياسةٍ   ومعـــرفة زينتْ بحسْنِ بيانه
ومنْذُ غابَ عنا أظلم الكونُ كلُّه   وصار الضُّحَى ليـــلًا لِفَقْدِ عِيَانه
وإنَّ عزائى فيـــه للخلق كلّهم   خصوصا ذَوِى فِقْهٍ لِعِزِّ مكانه

***

وفاة الشيخ الونشريشى

وكانت وفاةُ [الإمام] الونشريشيّ المذكور، يوم الثلاثاء مُوَفِّى عشرين من [صفر، من] عام أربعة عشر وتسع مئة، بمدينة فاس، رحمه الله، ونَجُبَ ولده شيخ شيخنا، القاضى سيدى عبد الواحد رحمه الله.

***

وللوادى آشى فى مدح الفقيه أحمد العبادى

ومن نظمه، أعنى الوادىَ آشىّ المذكور، رحمه الله، يمدح الفقيه أحْمَد العِبادى يقول :

ومَن مِثْلُه فى العلم يُبدِى فنونه   مع الدين والتقوى على صِغَر السِّنّ
فأثْبَتَـــه المَوْلى وأثبَتَ أمره   وزكّى علومًا حاز فى غير ما فَنّ

***

وله متبرما بسكنى تلمسان

ومن نظم الوادى آشىّ المذكور قوله :

تِلِمْسانُ أرضٌ لا تليق بحالنا   ولٰكنّ لطفَ اللهِ نسألُ فى القضا
وكيف يحب المرء أرضا يسومُها   يهودٌ وفُجّار ومن ليس يُرتضَى

***

وله أيضا في ذلك

وقوله رحمه الله :

غريبٌ في تلمســـــانَ وحيدٌ … من الأحباب ليس له مُشاكِلُ
وكم فيها من الأصحاب لكنْ … عَدِمتُ بها المُناسب والمُماثل

* * *

كان الوادي آشي مغرما بالنسخ والتقييد

وكان رحمه الله كثير النسخ والتقييد ، آيةَ الله في ذلك ، حتى إني رأيت في خزائن أهل تلمسان بخطه نحو الثلثمائة سفر ، ورأيت بفاس نحو الثمان مئة(١) وأخبرني مولانا شيخ الإسلام عمّنا مفتي تلمسان ، سيدي سعيد بن أحمد المقري رحمه الله ، أنه نسخ [بخطه] نحو العشرين نسخة من توضيح خليل ، وكان يحترف بالنسخ ، رحمه الله ، ونَظْمه نظم فقيه ، وربما يقع له النادر ، ولولا الإطالة لجلبت أشياء من ذلك ، زيادةً على ما سبق . [٢٤٤]

* * *

وبخطه شعر لسيدي محمد العربي

ورأيت بخطه رحمه الله ما نصّه :

ولسيدي محمد العربيّ أبقاه الله عند محاصرة النّصارى للحضرة :

بالطَّبْل في كل يوم … وبالنَّفِـــير نُراعُ
وليسَ منْ بَعْد هذا … وذاكَ إلّا القِراع
يا رَبِّ جَبْرَك يرجو … مَنْ هِيضَ منه الذِّراع
لا تسلبنِّيَ صَبْرًا … به لقلبي ادِّراع

* * *

ولسيدي العربي في رجل تنصر واختلط عقله

وله أيضا وقد ظَفِرَ ببعض المرتدِّين ، ممن صار ، والعياذ بالله ، غَبِيًّا ، يجرُّه الناس بالحضْرة حيًّا :

(١) كذا في ط . وفي س : « الثمانية » .

ألا رُبَّ مغرورٍ تنصَّر ضِــلَّةً لحاق به شُؤْمُ الضلالِ وشرُّهُ
فإن يرتفع عند النصارى بالاعتنا فكمْ عندنا من حَرْفِ حبلٍ يجرُّه

* * *

وله ملغزا لغزا فقهيا

وله أيضا :

صَوِّرِ أنْ كنتَ نبيلا صُورَةً دامَ في تصويرها البحثُ وطالا
زَوجةً إنْ دخلتْ بيتًا فقدْ حُرِّمَتْ من بعد ما كانت حلالا

[جوابه :

هي إنْ [لم] [(١)] تلتبسْ زوجَ امرئٍ بِئسَمَا بيتٍ قدَ اخزنَ الرجالا
حيثُ قد أَنْكَرْنَ طُرًّا عِصْمَةً منه قد ضُمِّن دعواها المقالا]

* * *

وله في الغرض نفسه

وله أيضا ملغزا :

ما رجلٌ يعجِبهُ من أمره مَنْ لم يُحقِّق نفسه أمْرَهْ
حلّتْ له وحُرِّمتْ زوجــةٌ في اليوم تُلْفَى عَشْرةً مَرَّهْ

انتهى .

* * *

بعض أخبار أبي عبدالله العربي

قلت : وهذا أبو عبد الله العربيّ المذكور ، هو صاحب الكتاب الذي بعث به سلطان الأندلس ، أبو عبد الله المخلوع آخر ملوك الأندلس ، إلى السلطان الشيخ الوطّاسيّ ، صاحب فاس ، وقد تقدم ذكره في أول هذا الموضوع [(٢)] ، فراجعه إن شئت .

وقد حلّاه الوادي آشي بقوله :

---

(١) ما بين القوسين زيادة يقتضيها المعنى والوزن . (٢) يريد الكتاب .

« بليغ العصر ، بل الدنيا ؛ ومالك زمامَى النظم والنثر ، بلا ثُنْيا ؛ سيدى محمّدٌ العربىّ ، أنسأ الله أجلَه ، وبلّغه أملَه » . انتهى .

* * *

بخط الوادى آشى من الوثائق المجموعة

ورأيت بخط الوادى آشى المذكور ما نصه : [٢٤٥]

من الوثائق المجموعة : إنْ ذَكر المُوصِى فى كتابه أن تنفذ وصيّتـه من سِكّةٍ كانت تجْرى [فى حين الوصية ، ثم تُوُفِّى المُوصِى وقد انقطعت تلك السكة] ، فإن وصيّته إنما تُنَفَّذُ من تلك السِّكّة ، التى كانت تجْرى يوم الوصية ، إلا أن يكون نَصَّ فى وصيّته أن تكون وصيتُه من النّقْد الجارى يومَ تُنفّذ الوصية ، فيكون ما عَهِد ، فإن وقعت وصيّتُه مُطْلَقة ، ولم يشترط صفة ، فإنما يكون ذلك مما يجرى يوم التنفيذ ، وذلك بخلاف الكَوالى(١) والدُّيون ، انتهى .

قال محمد الوادى آشى : قوله « إنما تخرج [مما يجرى] يوم التنفيذ إن لم يَشْتَرِط صِفَة » ، والذى فى الكافى لأبى عُمَر خلافُه ، وعلى ما فى الكافى فى ذلك العمل ، وبه شاهدت شيخنا المَوّاق يُفتى ، وشيخَنا قاضىَ الجماعة ابنَ منظور رحمه الله يحكم . انتهى .

* * *

ومن خطه نقلا عن القاضى أبى يحيى بن عاصم فى توثيق العقود

ورأيت بخطه رحمه الله ما نصه : وُجِدَ بخط الرئيس القاضى أبى يحيى بن عاصم رحمه الله تعالى :

الحمد لله .

إنما تَسْتَقِلّ العقود الصحيحة ، وتتم الموجبات الصريحة ، بثبوتها لَدى الحاكم ، المُنْعَقِدة ولايتُه عند تحصيل شروطها صحة وكمالا ، وذلك بأداء نِصاب

(١) الكوالىء : جمع الكالىء ، وهو المتأخر من الصداق .

شهادتها العادلة استتماما واستكمالا ، فإذا كان أحدُ شهدائها السلطان الأعظم ، أو من أقامه السلطان الأعظم مَقَامه ، وهو قَيُّوم الشريعة الذى ارتضاه الإمام لإنفاذِ أحكامها عِوَضا منه وأقامه ؛ فإنَّ العمل الجارى بهذه الحضرة عند أهل كَتْب الأحكام ، وهو اللازم اقتفاؤه ، إذا أريد ثبوتُ العقد الواقعة فيه هذه
[٧٤٦] الشهادة واكتفاؤه ؛ أن يُشْهِد القاضى الذى تم به نصاب هذه الشهادة عليها اثنين من شهداء العدالة أنها شهادته ، ثم يؤدّى عنده هذان العدلان ، ويخاطب هذا الرسم على ما مرت به شهادته ، ويُعْلِم للشهادة من شهد معه أداء وقبولا ، خطابا عند غيره من القضاة مقبولا ، فإذا كان الفقهُ هكذا مُقَرّرا ، والعملُ على هذه السنة مُحَرّرا ؛ فمن أشهدَه الآن قاضى الجماعة بحضرة غرناطة ، فلان بن فلان ، الأوّل من شهيدى الرسم فوْقه ، على أن الشهادة الموضوعة فيه أولا هى شهادته التى بها أشهد ، وأنها مكتوبةٌ بخط يده الذى منه تعوّد ، وأنه تحملها مسئولة منه تحقيقا ، ويؤدى عليها مطلقا إيجابا لها وتصديقا ، فى كذا .

***

ومما نقله الوادى آشى عن ابن عاصم فى الغرض نفسه

قال الوادى آشى ، ومن خطه أيضا :

الحمد لله .

القول الظاهر الأدله ، الدارج على ارتكاب القضاة الأجلّه ؛ الجارى لدينا به العمل فيما تُقْبل به العقود المستقله ، قبولُ خطاب الحَكَم العَدْل مطلقا ، وإنْ عُزِل أو تُوُفّى ، وخطُّ القاضى المعلوم العدالة إذا ثبَت أنه خطُّه يكفى . والقول الآخر هو الذى رجَّحه غيرُ واحد ، وأكْثَرُوا عَلَى صحّته من الحجج والشواهد . وللخروج من الخلاف ، وصون موعده من الاختلاف ؛ أشهَد الآن قاضى الجماعه ، وقيُّومُ أحكامها المُطاعَه ، فلان بن فلان ، وصل الله توفيقه ، وكافأ

تثبُّته في النظر وتحقيقه ؛ بثبوت الرسم فوقه لديه ؛ واستقلاله عند الاستقلال الكافي المعتمد عليه ، لثبوت الرسم فوقه ، لصحة الشهادة الأولى ، ولإعلامه المعرب عن صحة ثانية الشهادتين هنالك أداء وقبولا ، فما كان كذلك لمن يَرِد عليه من القضاة أن يقبله على ثاني القولين اتفاقا ، هو الذي أشهد به الآن برهانا [٢٤٧] لما ثبت لديه من ذلك ومصداقا ؛ تسجيلا بإشهاده لصحة عقده ، وذخيرة لليوم وما يأتي من بعده ، وعمدة في الحكم على أوّل الاحتمالين وأولاهما من إجازته أو رده ؛ شَهِد على قاضي الجماعة المُسَمَّى بما فيه عنه من ثبوت وتسجيل ، وقبول وتعديل ؛ وهو في مجلس أحكامه ، ومَظهَر نقضه وإبرامه ؛ في كذا . انتهى .

قال محمد الوادي آشي رحمه الله :

هذه المسألة فوق هذا نبيه ، قد صنف فيها الشيخ الفقيه القاضي الجليل سيدي الحاج أحمد بن عبد الجليل الغضي — ممن أدركناه بغرناطة مدرسا ونائبا عن قاضي الجماعة بها ، وأدّينا له مرارا شهادات ، وحضرنا جنازته رحمه الله — تصنيفا مفيدا ، لخّص فيه المسألة ، واستظهر بالنقول ، ولم يُبْق لأحد ما يقول .

***

حكم الشاهد الذي يصير قاضيا

وأما من كان شاهدا في رسم ثم صادف أن صار قاضيا ، وطولب بخطابه ، فقد نزلت بي هذه بالمكتب ، وأنا أنوب بها لضرورة بعض أيام ، لمغيب قاضيها إذ ذاك بالحضرة ، أواخر شعبان وأوائل رمضان عام سبعة وتسعين وثمان مئة ، فصنعت طريقة مختصرة ، كنتُ تلقيتُها من شيخنا ابن منظور ، وأخبرني أنها طريقةُ شيخه البدوي :

أشهدتُ عدلين على شهادتي ، وأدّيا لديّ بذلك ، فقبلتهما ، وشهدا[1] على خط

(١) في الأصول : « وشهد » .

الآخر لمغيبه بالحضرة ، وكتبت على القائب : عرّف بها عَدْلان لمغيبه ، وعلى شهادتي : أشهدت بها عدلين ، وأدّيا لديّ بذلك فقبِلتهما ، وكتبتُ أسفله :
[٧٤٨] ثبت بواجبه ، وأعلم بذلك فلان ، وفقه الله تعالى ، مسلما على من يقف عليه .

* * *

وبخطه دعاء لابن الجبير

ونقلت من خط الوادى آشي المذكور ما نصه :

وجدت بخط سيدى وشيخى الكاتب الإمام الأعرف ، سيدى محمد بن الجبير ، رحمه الله تعالى وعفا عنا وعنه ، ما نصه :

دعاء مبارك لتفريج الأزمات

اللهم إني تبرأتُ من حولي وقوّتي ، واستوثقتُ بحولك وقوّتك ، أرِني عجائبَ لُطفك ، وغرائب حكمتك وقدرتك ، وأْتِني بفرَجٍ من عندك ، كما فرّجت على يوسف الصدّيق نبيك ، يا أرحم الراحمين .

[هذا الدعاء] إن ذكره أسيرٌ أو مسجون أو مكروب ، تسعين ألف مرة ، يقول [آخر] كل ألف : يالطيف يا لطيف يا لطيف ، بعد البسملة ، عاجله الفرج في الحين ، ونفّس الله سبحانه عنه ، انتهى .

* * *

وبخطه من كلام بعض العلماء

ومن خطه أيضا رحمه الله ما نصّه : من كلام بعض العلماء ، ويُنْسَب إلى الأستاذ أبي سعيد بن لُبّ ، رحمه الله :

قد يأمر بما لا يُريد فلا يكون ، وقد يَنْهى عمّا أراد فيكون ، كَلّفَ العباد وأراد منهم ما علم أنهم به عاملون ، كلّف بما شَرَع ، وجعل له عاقبة ،

وأراد ما وقع ، وقطع الارتباط بين المشروع والواقع ، فلا يقتضى أحدهما الآخر . انتهى .

* * *

وبخطه نقلا عن شرح خليل لابن سراج

ومن خطه أيضا [ما نصه] : ومن شرح خليل لسيدى أبى القاسم بن سراج :

يُحتاج إذا بيع الفدانُ وفيه زرعٌ لم يَنْبُت ، أن يقول عاقدُ الوثيقة : « وفى الأرض زرع لم ينبت ، فهو للمشترى بالعَقْد على مقتضى الشرع » ، لأنه إن لم يذكر هذا [فقد] يتنازع المتبايعان بعد ذلك : هل كان الزرع قد نبت أو لم ينبت ، فيؤدى إلى اختلاف المتبايعين ، انتهى .

* * *

وبخطه للتفتازانى فى شرح عقيدة النسفى

ومن خطه أيضا : وفى شرح عقيدة النَّسفى للتفتازانى ما نصه :

وفى فتاوى [قاضى خان] : أجمعوا على أنه إذا ارتشى — يعنى القاضى — لا ينفُذ قضاؤه فيما ارتشى ، وأنه إذا أخذ القاضى القضاء بالرّشوة لا يصير [٢٤٩] قاضيا ، ولو قضَى لا ينفُذ قضاؤه ، انتهى .

* * *

ومن خطه ما كتب فى طلسم بغرناطة

ومن خطه أيضا رحمه الله : ولبعضهم ، وكان شيخُنا ابن منظور يستحسنُهما غاية ، هذان البيتان :

لما أسرّ الماء فى أذُن الحصى ... وقفَ النسيم ليسمع الأخبارا
فوشى به غَرِد تخاف فضيحة ... فبكى الغمامُ فأضحك الأنهارا

* * *

ومن خطه أيضا رحمه الله : حدثنى الفقيه العدل سيدى حسن بن القائد الزعيم الأفضل ، سيدى إبراهيم العرّاف ، أنه حضر مرة لإنزال الطّلّسم

[المعروف] بفروج الرواح ، من العلية بالقصبة القديمة من غرناطة ، بسبب البناء والإصلاح ؛ وأنه عاينه من سبعة معادن ، مكتوبا فيه :

إيوانُ غرناطةَ الغرّاء معتبرٌ ... طِلَّسْمُه بولاة الحال دوّارُ
وفارسٌ رُوحُه ريحٌ تدبّرُهُ ... مِنَ الجمادِ ولكنْ فيه أسرار
فسوفَ يبقى قليلاً ثم تطرُقُهُ ... دهياءُ يخرُبُ منها المُلْكُ والدار

* * *

ومن خطه أيضا رحمه الله : أنشدنا شيخنا القاضي ابنُ منظور بمجلس إقرائه قائلا : إن فقيها من رُنْدة كان كثيرا ما يتمثّل بهذين البيتين : ومن خطه لبعضهم في صنعة الكتبة

أرَى الكسادَ بدا في صَنْعَةِ الكَتَبَهْ ... ما إنْ يُباع بها شِقْصٌ ولا عَتَبَهْ
تبًّا لصَنْعةِ قومٍ رأسُ مالِهِمِ ... حِبْرٌ تبدّده في صفحةٍ قَصَبَهْ

* * *

ومن خطه أيضا رحمه الله مانصّه : ألفيتُ بخط شيخ شيوخنا قاضي الجماعة ، الحافظ أبي القاسم بن سِراج ، رحمه الله ، ما نصّه : ومن خطه بعض ما يشترط في البيوع

تقييد

جاءت الرواية في العُتْبيّة ، فيمن اشترى ثمرةً على ألّا يَقُوم بالجائحة : أن البيع صحيح ، والشّرطَ باطل . فلما نزل ما أراد الله به من مجيء النّصارى إلى فَحْص غَرْناطة ، وأفسدوا الزّرْع ، غَرِمَ المُكْتَرُون الكراء ، لأن الجيش ليس من الجوائح التي تحط من الكِراء ، فامتنع الناس بعد ذلك من اكتراء [٧٥٠]
الأرض ، خوفا من مجيء النصارى ، وأدى ذلك إلى خَسارة على الأحباس ، فرأيت أن تُكْرَى الأرض ، بشرط أنه إن جاء النّصارى وأفسدوا ، أن يُحَطَّ الكِراء . فاعتمدتُ في صحة العَقْد على قياس العَكْس ، وهو أنه لا تفسَخ

المعاملة بشرط القيام بالجائحة ، فيما لا يُشْرَع فيه القيام بالجائحة ، ويبقى النظر فى الوفاء بالشرط فى مسألة الكراء ، لما فى ذلك من عموم المصلحة . انتهى .

* * *

ومن خطه بعض مسائل فى الرهن

ومن خط الوادى آشى المذكور أيضا ما نصه : قال محمد بن الحدّاد الوادى آشى ، رحمه الله : وقعتْ مسألة ، وهى : رجلٌ رَهَن بيد آخر دارا له ، وحوّزه إياها ، وشرَط المرتهِن المنفعة لنفسه ، ثم إن الراهن دخل الدارَ وسكنها ، وعادت بيده ، واتصل الأمر كذلك إلى تمام الأمد ، وحلول الدين ، فطالب المرتهِن الراهنَ بكراء المثل ، فظهر لى بتصورى وتقصيرى ، وجهلى المركّب وعدم مقدورى ، أنه لا كراء له ، بدليل ظاهر الأقوال والروايات ؛ ومنها ما حكاه فى المقرّب عن ابن القاسم ، ونصه : ومن ارتهَن دارًا ثم أذِن للراهِن أن يسكنها ، أو يُكْرِيها ، فقد خرجت من الرهن ، وإن لم يَسْكُن ولم يُكْرِ . ومنها ما هو مقرر معلوم أن المرتهِن إذا ترك كِراء الدار ولها خَطْبٌ وقدر ، فمذهب ابن الماجشون أنه يضمن كِراء مثلها ، لأنه تعمّد إبطالها ، ما لم يكن الراهن عالما ، فإنه لا يضمن حينئذ ، لأن سكوت الراهِن عن ذلك رضا به .

وكان شيخنا وإمامنا قاضى الجماعة سيدى محمدُ بن الأزرق ، أبقى الله بركته ، وهو الذى وقعت النازلة بين يديه ؛ لا يوافق على ما ظهر لى ؛ وينازع فى ذلك ، ويرى إلزام الكراء ؛ ونسيتُ الآن ما كان يستدلُّ به ، ولست على تحقيق بما حكم به فيها آخرَ الأمر ، وذلك فى عام تسعين وثمان مئة ، بيد أنه تكلم فيها مع طلبته بمجلس درسه ، وحضرت لذلك وأنا أعطلهم وأقلهم علما ، وأسوأهم فهما ، وأقلهم تحصيلا ونبلا ، وهلمّ جرًا ؛ فأجبت بما قيّدْتُ [٧٥١]

هُنا ، مستدلا بما نقلته ، فلم يوافقني هو ولا غيره ، وفضلُ اللهِ يؤتيه من يشاء ، فقد قدّر الله أنّ بضاعتي في العلم مُزجاة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم .

انتهى ما حضرني الآن من كلام الوادي آشي ؛ ومُقيّداته وإفاداته وإنشاداته كثيرة جدا .

* * *

ترجمة ابن الأزرق

وشيخه ابن الأزرق ، المشار إليه في كلامه : هو الإمام العلامة الخطيب الحجّة ، الأعرف المؤرخ ، الناظم الناثر الراوية ، قاضي الجماعة بحضرة غرناطة ، أعادها الله دار إسلام ، سيدي أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد ، الشهير بابن الأزرق الغرناطيّ .

قال السّخاوي : لازم الأستاذَ إبراهيم بن أحمد بن فَتُّوح ، مفتيَ غرناطة ، في النحو والأصلين والمنطق ، بحيث إنّه كان جُلّ انتفاعه به ، وحضر مجالس أبي عبد الله محمد بن محمد السَّرَقُسْطي ، العالِم الزاهدِ مفتيها أيضا في الفقه ، ومجالس الخطيب أبي الفَرَج عبد الله بن أحمد البَقَّنِي ، والشهاب قاضي الجماعة أحمد بن أبي يحيى الشَّريف التِّلِمْسانيّ . انتهى .

تآليفه

وله تآليف عظيمة النفع ، وقفت عليها بتِلِمْسان ، منها شرحه الحافل على مختصر خليل ، وسماه شفاء الغليل ، وقد توارد مع ابن غازي على هذه التسمية ، فالله أعلم بالسابق منهما إليها .

[٧٥٢] على أني أعتقد أن كل واحد منهما لم يَسْمَع بتسمية الآخر . وقد كان مولانا العمّ ، سَقَى الله ثراه ، يقول : لعلّ تسمية ابن الأزرق شفاء الغليل « بالعين » .

قلت : ويُبعده أني رأيت الخطبة بخط تلميذه الوادي آشي ، السابق آنفا :

القليل « بالغين » ، ومثله بخط عم أبينا الفقيه العلامة ، آية الله فى معرفة الأحكام ، سيدى محمد المقرّىّ رحمه الله .

وهذا الشرح لم يؤلّف على مختصر خليل مثله : إقناعا ونقلا وفهما ، وقد رأيت منه نحو الثلاثة أسفار[1] ، ولا أدرى هل[1] أتمه أم لا ؟ وتمامه يكون فى نحو العشرين سِفرا ، وقد كتبت بتلمسان خطبته فى كراسة ، وقد أتى فيها بالعَجَب العُجاب ، وهى أدل دليل على غزارة علمه ، واتساعه فى الفروع والأصول ، رحمه الله تعالى .

ومن جملة تآليفه : روضة الإعلام ، بمنزلة العربية من علوم الإسلام ؛ غاية فى بابه ، سِفر ضخم ، فيه فوائد وحكايات . وكتاب بدائع السلك ، فى طبائع المُلْك ؛ كتاب بديع فى موضوعه ، لخّص فيه مقدمة تاريخ ابن خلدون ، المسمّى بكتاب العِبَر ، وزاد عليه زيادات كثيرة نافعة ، وهو فى سفر ضخم ، وقد نقل عنه صاحب المعيار ، أعنى عن ابن الأزرق ، وأظن أنه نقل عنه فى الجامع الذى ختم به المعيار .

وقد ارتحل رحمه الله إلى تِلِمْسان ، عند غَلَبة العدو الكافر على [هضم ما بقى بيد المسلمين من] بلاد الأندلس ، ثم ارتحل منها إلى المشرق ، ولم أقف على وقت وفاته ، إلّا أنه كان ارتحاله لتِلِمْسان بعد التسعين وثمان مئة بلا شك ، وغالب ظنى أن ذلك فى أواخر العشرة التى كملت بها تسع مئة سنة للهجرة النبوية ، والله أعلم . ولم أتحقق الآن هل[1] دخلها ، أعنى تِلِمْسان ، بعد أخذ [٧٥٣]
غرناطة أو قبله ، وقد قدّمنا أول هذا الموضوع وقت أخذها .

***

(١) كذا فى الأصول .

شعر له في الاعتداد بالصبر عند الشدائد

ومن شعره رحمه الله عند نزول طاغية النصارى دمرهم الله بمرج غرناطة، أعادها الله للإسلام، بجاه النبي عليه الصلاة والسلام:

مَشُوقٌ بخيمات الأحبة مُولَعُ ... تُذَكِّرُهُ نجدٌ وتُغْرِيه لَعْلَعُ
مواضعكم يا لائمين على الهوى ... فلم يَبْقَ للسلوان في القلب موضع
ومَنْ لي بقلب تلتظى فيه زفرةٌ ... ومَنْ لي بجفن تنهمي منه أدمع
رُوَيْدَكَ فارقُب للطائف موقعًا(١) ... وخلِّ الذي من شرِّه يُتوقَّع
وصبرًا فإن الصبر خيرُ تميمةٍ(٢) ... ويا فوزَ مَنْ قد كان للصبر يرجع
وبِتْ واثقًا باللطف من خير راحمٍ ... فألطافُه من لمحة العين أسرع
وإنْ جلَّ خطبٌ فانتظرْ فَرَجًا له ... فسوف تراه في غدٍ عنك يُرفع
وكن راجيًا لله في كل حالةٍ ... فليس لنا إلا إلى الله مَرْجع

* * *

وله عند وفاة والدته

ومنه قوله عند وفاة والدته رحمها الله تعالى:

تقول لي ودموع العين واكِفةٌ ... ما أفظع البَيْنَ والترحالَ يا ولدي
فقلت أينَ السُّرَى قالتْ لرحمةِ مَنْ ... قد عزَّ في الملكِ لم يُولَدْ ولم يَلِدِ

* * *

وله في المجبنات

ومن بارع نظمه، رحمه الله، قوله في المجبّنات:

ورُبَّ محبوبة تبدَّتْ ... كأنها الشمسُ في حِلاها
فاعجبْ لحال الأنام: مَنْ قَدْ ... أحبَّها منهمُ قلاها

* * *

وله في مدح شيخه أبي يحيى بن عاصم

ومن بديع نظمه رحمه الله قصيدةٌ مدح بها شيخه الإمام العلّامة الجليل

(١) كذا في ص . وفي ط ونفح الطيب: «موضعا» .
(٢) في ص: «غنيمة» .

أبا يحيي [ابن عاصم] ، وهي من غرر النظام ، وحرّ الكلام ، وأثبتها لقرابتها :

خَضَعَتْ لِمَعْطِفِهِ الغُصونُ المُيَّسُ ... ورنا فهام بمقلتيه النَّرْجِسُ
ذو مبسِم زَهَر الرُّبا فى كسبه ... متنافسٌ عن طيبه مُتَنَفِّس
ومُوَرَّدٍ من وَرْدِه أو نارِه ... يتنعمُ القلبُ العميدُ وييأس
فالورد فيه من دموعى يرتوى ... والنارُ فيه من ضلوعى تقبس
كَمُلَتْ محاسنه فقدٌّ ناضرٌ ... ولواحظ نُجْل وثغر ألعس [٧٥٤]
صعبُ التعطّف بالغرام حبيبُه ... فالحبّ يحيي والتعطّف يحبس
غرسَ التشوقَ ثم أغرى الوجدَ بى ... فالوجد يُغرى والتشوق يَغرس
ما كنت أشقى لو حللتُ بجنةٍ ... من وَصْلِه تحيا لديها الأنفس
ألحاظُه ورُضابُه وعِذارُه ... حُورٌ بها أو كوثرٌ أو سُنْدُس
وليالي أنسٍ قد أمنتُ بهنّ مِنْ ... واشٍ يَنِمُّ ومِنْ رقيب يَحْرُس
أطلعتُ شمسَ الراح فيها فاهتدى ... عاشٍ إلينا فى الدُّجَى ومُغَلِّس
صفراء كالعقيان فى الألوان للنُّدمان كالشهبان منها أكؤس
صُبَّتْ شقيقًا فاستحالت نرجسًا ... فى مزجها فمورَّدٌ ومُوَرَّس
وحَبَابُها يُقْنِى بأسنى جوهرٍ ... أنفى الغمّ المُدْمِنِينَ وأنفس
يَجْلِى بها للغمّ منها حِنْدِسا ... قرٌّ عليه من الذؤابة حِنْدِس
حتى إذا عَمِشت مِراةُ البَدْرِ مِن ... صبحٍ بدا تلقاءه يتنفّس
ناديته وسَنَى الصَّباح مُحَصْحِصٌ ... ينجاب عنه من الظلام مُعَسْعِس (١)
يا مُطْلِع الأنوار زَهرا يُجْتَنَى ... ومُشَعْشِعَ الصَّهباء نارًا تُلْمَس
بكَ مجلسُ الأُنسِ اطمأن وبابن عا ... صمٍ اطمأنّ من الرياسة مجلس

---

(١) محصحص : ظاهر . ومعسعس : مظلم .

بدرٌ بأنوار الهـــدى مُتطلّعٌ ... غيثٌ بأشتات النّدى مُتبجّسُ
حامَى فلم نَرتَعْ لخطب يَعْتَرى ... ووفَى فلم نَحْفِل بدهرٍ يَنْحُس
شِيَمٌ مهذّبةٌ وعلمٌ راسخٌ ... ومكارمٌ هُتْن ومجـد أقعس
لو كان شخصا ذكرُه لبدا على ... أعطافه من كلّ حمـد مَلْبَس
ذاكمْ أبو يحيى به تُحمَى العُلا ... وبه خِلال الفخر طُرًّا تُحرَس
بيتٌ على عَمَدِ الفخار مُطنَّبٌ ... مَجْد على متْن السِّماك مؤسَّس
خيَمٌ وعُرْسٌ فى حِماهُ فكمْ حَوى ... فيـــه المرادَ مُخيِّمٌ ومُعرِّس
إنا لَنَغْدو هُيَّمًا فَيُنيلُنا ... رِيًّا ويُوحشنا النّوى فيؤنِّس
حتى أقمْنا والأمانى مُنْهضَا ... تٌ وابتسمنا والزمانُ مُعبِّس
لم ندر قبْــل يراعه وبنانه ... أنّ الذوابل بالغمائم تُحبَس
هُنّ اليراعُ بها يؤمَّن خائفٌ ... ويُحاطُ مذعور ويَغْنَى مُفلِس
مهما انبرتْ فهى السّهام بُرَى لها ... وقْعٌ لأغراض البيان مُقَرطِس [٧٥٥]
تَشفِى بمأمَلِهِ التشكّى المعترِى ... تُحيى بمأمنـــه الحِمامَ المُؤيِس
فتقصُّ حين تُشقّ منها ألسن ... وتسير حين تُقَطّ منها أرؤس
من كل وَشّاءٍ بأسرار النُّهَى ... دَرِبٍ بإظهار السّرائر يهْجِس
قد جمّعَ الأضـــدادَ فى حركاته ... فلذا اطّراد فَخاره لا يُعْكس
عطشانُ ذو رِيٍّ يبيسٌ مُثمِرٌ ... غَضبانُ ذو صفحٍ فصيحٌ أخرس
لله من تلك اليراع جواذبٌ ... للسّحر منك كأنها المِغنيطَس
رُضْنا شِماس القول فى أوصافها ... فهى التى راضتْ لنا ما يَشْمُس
وإليكها خُلُقًا تناسبَ نَسْجُها ... مِثْلى يفصّلها ومثلُك يَلبَس
وافاكَ يجهرُ بالسُّرور ويهْجِس ... واهنأ بعيـــد باسمٍ متهلّلٍ

واحبس لواء الفخر موقوفا فإنّ الحمْدَ موقوفٌ عليك مُحَبَّس

* * *

تعليق للمؤلف

وبعد أن كتبتُ هذه القصيدة ، حدث لى شك : هل هى من نظم القاضى أبى عبد الله بن الأزرق [المذكور ، أو من نظم ابن الأزرق] الآخر ، الذى جرى ذكره فى روضة الأعلام ، وأنشد له مما يكتب فى سيف قوله :

إن غمّت الأفقَ من نقع الوغى سُحُبٌ فشِمْ بهـا بارقا من لَمْع إيماضِ
وإن نوت حركاتُ النصر أرضَ عِدًى فليس للفتح إلا فِعْـــــلِيَ الماضى

قلتُ : ولقد صدق رحمه الله فى كل ما وصف به قلم الرئيس أبى يحيى بن عاصم ، [الذى تحلتْ] بجواهره لدولة بنى نصر نحور ومعاصم ، فإنه كان آيةَ الله فى النظم والنثر ، وقد تقدم فى هذا الموضوع بعضُ كلامه ، وهو قُلٌّ من كُثْرٍ ؛ ولولا أنى أطلْت التُّجمة فى هذا الباب ، لأتيت بما حصل عندى من كلامه الذى يسحر الألباب ؛ وقد أخذ من الفقه ومعرفة الأحكام بحظٍّ بذّ فيه نظراءه ، وانفرد فى عصره بطريق الأدب ، فكان كلٌّ أنداده لا يدركه بل يسير وراءه ، حتى قال [٢٥٦]
الوادى آشى : إنّ ابنَ عاصمٍ أبا يحيى ، هو ابن الخطيب الثانى ، [على] أنّ الدولة النَّصْرية فى زمانه وَهَتْ منها المبانى ؛ ومع ذلك فكان رحمه الله يجبُرُ [صَدع] الواقع ، ثم اتسع بعــده الخَرْق على الراقع ؛ وقد ألممنا فيما سلف من هــذا الكتاب بالتعريف به ، وذكرنا جملة من كلامه ، فراجع ذلك فيما تقدم .

* * *

وله يخاطب شيخه ابن سراج

ومن بديع نظمه رحمه الله قوله قاصدا مخاطبة شيخه الحافظ ، قاضى الجماعة أبى القاسم بن سراج ، وقد طلب منه الاجتماع به زمان فتنة ، فظن أنه يستخبره عن سر من أسرار السلطان ، فباعَدَه معتذرا ، ولم يصدق الظن :

فديتك لا تسأل عن السرّ كاتبا　　　فتلقاه فى حال من الرشد عاطلِ
وتَضْطَرُّهُ إمّا لحالة خائن　　　أمانته أو خائض فى الأباطل
فلا فرق عندى بين قاض وكاتبٍ　　　وَشَى ذا بحقّ أو قضى ذا بباطل

＊＊＊

[عود إلى الرد على بيتى الزمخشرى]

ولنرجع إلى ما كنا فيه ، من ذكر الردّ على البيتين اللذين أنشد الزمخشرى ، فنقول :

ومن ذلك قول الإمام ابن عاصم ، حسْبما نقله عنه العبدرى رحمهما الله : لابن عاصم

قل للّذى سمى الهداة أولى النُّهى　　　حُمُرًا لِأَنْ سُلِبَ الهُدَى والمَعْرفهْ
فغدا يُرَجِّح الاعتزَالَ جهالةً　　　وبروقه زورٌ وَشَاهُ وَزَخْرَفَه
الحق أبلجُ وَاضحٌ لكنّه　　　يُعْشِي عُيون أُولى الضَّلالة والسفه
إخسأ فقولك طائحٌ كهَبَاءةٍ　　　طاحت بها هُوجُ الرّياح المُعْصِفَه
سَوَّغْتَ ذَمَّ جماعة سُنِّيَّةٍ　　　قد أحرزوا من كُلّ فضلٍ أشرَفَه
قَطَفُوا أزاهرَ كلّ علمٍ نافعٍ　　　وَأتَوا بكلّ بديعةٍ مُسْتَطْرَفه [٧٥٧]
قومٌ هُمُ قمعوا الضَّلال وحزبه　　　بمعاولٍ حكّت المواضى المُرْهَفه
هُمْ شيعة الحقّ الذى ما بعدَهُ　　　إلّا مهاوٍ فى الضَّلالة مُتْلِفه
آراؤهم يجلو البصائر نورُها　　　ويُميط أدواء القُلوب المُدْنفَه
أقْصِرْ فإن شقاقهم كُفْر فلا　　　تدَعِ الرشادَ لِمحْنَةٍ مُتَعَسِّفَه
مَنْ شَذّ عَنْ سَنَنِ الجماعة قد غوَى　　　جاءتْ بذا الكُتُبُ الصّحاح مُعرّفه

＊＊＊

ولأبى حفص ابن عمر

قال المهدوىّ وقد نظم فى مثل هذا القاضى أبو حفص بن عُمَر ، فقال :

أَجَمَاعَةٌ سَمَّيْتُمُ سَنَةً حُمُرًا مُوكَفَه هذا لأنكم أولو تلك الصّفه
أجهلتم صفة الإله وفعله ونسبتموه لغيره بالزّخرفه
وأردتم تنزيهه فوقعتم فى الشِّرْكِ والإلحاد والأمر السّفه
خالفتم سُنَنَ النبى وصحبه وتبعتم فى الزّيغ أهلَ الفلسفه

انتهى .

* * *

ولابراهيم بن هلال

وممن سلك هذا السبيل فى الرد على هذين البيتين المُتَقَلِّصِى الظلال ، الشيخ الإمام العالم النّظّار المتبحر ، سيدى إبراهيم بن هلال ، فقال :

عجبًا لقوم عادلين عن الهدى وَدَعَوْا أُولى الحقّ الحميرَ الموكفَهْ
وتلقّبوا عدليةً لما رأوا بمقالةٍ شنعاء رَأْىَ الفلسفه
ما ذاك إلّا من عمًى لبصيرةٍ وهوًى هَوَوْا من أجله فى متلفه
وأتوْا بما دان المجوسُ وإنهمْ حقًّا مجوسُ الأمة المتشرّفه
هذا وكم من بدعةٍ وضلالةٍ من ردّ حقٍّ بالمحال وبالسّفه
ردّوا القرآن وما تواتر نقله من رؤيةِ البارى وهم نفَوْا الصّفه
فالعدلُ معْ هذى المخازى مُنْتَفٍ والجوْرُ منها مُثْبَتٌ والسّفسفه.(١)

* * *

وقاضى الجماعة الفقيه العلامة المفسّر ، الدّرّاكة البيانى ، سيدى الرئيس

(١) إلى هنا ينتهى الموجود من هذه الروضة الثالثة فى نسخة ص ، وقد سقطت بقيتها وبعض من الروضة الرابعة ، وأول الموجود منها قوله :

« ومنه اللهم صل على سيدنا محمد ، وعلى آل سيدنا محمد ، صلاة تنجينا بها من جميع الأهوال والآفات ... » الخ .

[٧٥٨] أبى القاسم بن أبى النعيم قاضى حضرة فاس المحوطة بالله ، فى هـذا التاريخ ، أبقى الله جلاله :

فيه مجوسـية بشرك كفرت وصـلاح إيجاب ونفى للصفه
وبرؤية البارى تجلّى غيّهم فى نفيها وتستروا بالفلسفه

* * *

ولعلى بن أحمد الشامى

وأنشدنى الفقيه الأديب الحاج الرحال الحسيب الأصيل ، سيدى على بن أحمد الشامىّ الخزْرجىّ ، حفظه الله لنفسه ، سالكا سنَن هؤلاء الأعلام ، ومتشبثا بأذيال حزبهم ، ومتمسكا بوُثقى عُروتهم السُّنِّية وقُرْبهم ، وكتب لى ذلك بخطه أيضا ، حفظه الله تعالى آمين :

يا من أقام على الصلالة مَعْكفَه ولوَى عن الحقّ الجلى واستَنكفَه
لابُدّ من يومٍ به تنهلّ من ربّ العباد مَواهبٌ مُسْتوكفه
ويُرى به ربُّ العُلا رغْما على أنفِ العُداة العائبينَ البِلْكفَه
وتقول إذْ تُمْسِى طريدًا ليْتنى أمسيتُ فيه مع الحمير الموكَفه

* * *

وقد آن لنا أن نمسك عِنان القلم الذى جمح ، فقد طال بنا الكلام فى هذه الترجمة ، ومَنْ نظر ما أوردناه بين الرضا ولمح ، التمس لنا أحسن الأعذار وأغضى وسَمَح ؛ والحديث ذو شجون ، كما قيل فى الأمثال ، وربما تكثر المناسبات وتنثال ؛ ومقصودنا الفائده ، وهذه الأشياء المجلوبة بها غايه ؛ والله يوفقنا إلى عمل يُرْضَى به عنّا ، ويدفع كلَّ خَطْب أتعب وعسى يَقبلُ منا ، ويعاملُنا بمحضِ كرمه تطوُّلا ومنّا ؛ فليس لنا ربٌ سواه ، لا إله إلا هو .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليما كثيرا ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وهو حسبنا .

انتهى الجزء الثالث من كتاب أزهار الرياض فى أخبار عياض

ويتلوه الجزء الرابع ، وأوله :

روضة المنثور

فيما له من منظوم ومنثور

فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(غ)

(ف)

(ق)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

فهرس الشعراء

(أ)

(ب)

فهرس القبائل

فهرس الاماكن

فهرس الكتب

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(و)

فهرس القوافى

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

فهرس الموضوعات

صفحة

روضة الأقحوان ، فى ذكر حاله
فى المنشأ والعنفوان

صناعة التأليف بالمغرب

صفحة

ترجمة الفيروزابادى
عن الشقائق النعمانية

صفحة

ترجمة ثانية للفيروزابادى

عن الضوء اللامع للسخاوى

ترجمة ثالثة للفيروزابادى

عن إنباء الغمر

التجديد والمجددون

صفحة

روضة الأزهار

فى ذكر جملة من شيوخه الذين فضلهم أظهر من شمس النهار

شيوخ عياض

استطراد وتحقيق

تنبيهات

ترجمة ابن السيد البطليوسى

الخبر عن مقتل ابن الأبار

وسياقة أوليته

بين القاضى عياض والزمخشرى

بين الحافظ السلفى والزمخشرى

صفحة

بين الزمخشرى وأهل السنة

عود إلى الرد على بيتى الزمخشرى